

غريب في بلاد غريبة

© دارالشروق

القاهرة : ١٦ جواد حسنى ت ٥١٢١٤ برقيا : شروق القاهرة
بيروت : ص . ب ٨٠٦٤ ت ٢٢٣٨٣٨ برقيا : داشروق بيروت
جدة : ص . ب ٤٦٤١ ت ٢٦٦١٠ برقيا : مشكائنا جدة

أنيس فنسود

غريب في بلاد غريبة

[٤ كتب في مجلد واحد]

- ◇ بلاد الله طهر الله
- ◇ أطيب تحياتي من موسكو
- ◇ اليمن .. ذلك المجهول
- ◇ أيام في الجزائر البيضاء

دار الشروق 

الطبعة الثانية

سبتمبر ١٩٧٥

الحياة ككانت

في نهاية الليلة ٤٢٥ من ألف ليلة وليلة تتحدث شهر زاد الى الملك شهر يار عن رجل شغال اسمه السندباد الشغال . . وأنه كان فقيرا ولذلك قرر أن يحمل ملابسه وينتقل الى أى مكان . .

وانتقل من بيته الى بيت آخر لا يبعد كثيرا عنه . .

ووضع الشيلة الانى يحملها على كتفه فوق مصطبة . . ثم جلس . . وأحس أن نسيماء عليلا وشذى جميلا يخرج من فتحة الباب . .

فاتجه الى الباب بأنفه وشعر بالسعادة . .

وأدرك شهر زاد الصباح !

وشهر زاد لم تكمل القصة لأنها — كفادتها — تريد أن يظل شهر يار ملهوما على القصة الجديدة . . وبذلك يطيل عمرها ليلة بعد ليلة . .

ولو كنت من شهر يار لاكتفيت بهذا القدر . .

فهذا الرجل سندباد قد تحرك مسافة قصيرة فاستحق على هذه الحركة المتواضعة بعض النسيم والعطر . .

وهذا يكفى مكافأة على أنه انتقل من مكان الى مكان . .

أو فكر في أن يترك الأرض التى ضاق بها . . أو البيت الذى مل الإقامة فيه . .

اننى ارى ان هذه الليلة التى لم تكملها تشهر زاد قد كملت .. فالرجل انتقل .. وجلس وشم الهواء والرائحة .. وهذا يكفى .. وفى كل مرة ينتقل سندباد من مكان الى مكان يلقي المكافاة السخية على ذلك .. مهما كانت مخيفة او متعبة فهى لذيذة .. ويبدو أن سندباد لم يكن يتعذب كثيرا ، كأنه يعلم أنه ممثل فى قصة .. أو بطل مسرحية .. كل ما يعمل هو تمثيل فى تمثيل .. وهو من المؤكد محروم من الشعور الحقيقى بكل ما هو جديد .. محروم من الخوف الحقيقى .. والعذاب الحى .. وهو يرى أن كل جديد بلاء .. وأن كل مغامرة كارثة .. وعلى الرغم من أنه « ممثل » فى ألف ليلة وليلة ، فإنه يريد أن يفرغ منها .. تماما كما لو كان مغامرا حقيقيا تعذب كثيرا وينشد الراحة بعد ذلك !

اننى لا أحسد سندباد ..

فهو لم يستمتع بالتجربة الأولى .. والمفاجأة الأولى .. والفرع الذى لا قرار له .. والحيرة التى لا حدود لها .. ولا أحسده أيضا .. فقد تمنيت أن يطول كل شيء .. فلا شيء يخيف .. ولم يكن يعذبني فى رحلاتي الكثيرة الا التعب الذى جعلني عاجزا عن احتمال الخوف والصدمة والمفاجأة .. ولو كانت لي قوة سندباد وعضلاته وشهيته المفتوحة الى الطعام وقدرته الفذة على أن ينام فى أى مكان وفى أى وقت لشربت مياه المحيط .. لكى أعبره بعد ذلك ماشيا على قدمي .. ولنقلت الجبال وردمت بها الوديان لكى أتمشى على مهلى من دولة الى دولة ..

انه لم يتعذب .. ولم يسعد بالراحة بعد العذاب .. انه لم يعيش ، وانما كان يمثل دورا فى الحياة !

ولم يعجبني من كل مذكرات « ماركو بولو » التى أملاها فى سجنه فى مدينة جنوة فى نهاية القرن الثالث عشر الا هذه العبارة .. « وعندما عاد أبى وعمى من الصين .. كانت أمى قد ماتت .. وكنت وحيدى فى البيت وقد بلغت العشرين .. وسألني أبى : هل تجيء معنا .. وكنت أنتظر هذا السؤال .. وقد أعددت له اجابة مركزة : نعم — وأشار أبى وعمى الى أن أستعد .. وكنت قد أعددت كل شيء .. وفى اليوم التالى اتجهت الى الصين .. ولم أستطع أن أصارح أبى بأنى قد نسيت معظم ملابسى .. من ثبلة الفرحة .. فارتديت ملابس والدى وعمى .. وكنت قد ارتديت ملابسهما قبل ذلك بسنوات : فقد كنت أحلم بما يحلمان به وأروى لى نفسى مغامراتهما : لقد عشت حياتهما دون أن يعرفا ذلك .. فلم تبق الا ملابسهما أيضا .. وارتديتها .. »

وانت لن تعرف بسهولة تلك الجملة التى أعجبتني وأضحكتني وهزنتني والتصفتت فى نفسى وجعلتها برنامجا لكل رحلة : فالذى أعجبنى من كل

صفات ماركو بولو .. انه نسي ملبسه .. ولم يحمل معه شيئا منها ..
فهذا بالضبط ما فعله بحكم العادة ..

ولا أنسى يوم سافرت لأول مرة الى ايطاليا .. ووقفت في المطار أتحدث
الى أحد موظفى الجمرى وكان من تلامذتى فى الجامعة .. وطال الكلام
وطال .. وسألنى واحد منهم +

وأين حقائبك ؟

قلت : لماذا ؟

قال : لكى نبعث بها الى الطائرة ؟

قلت : هذه ؟

صرخ الرجل : معقول هذا ؟ !

قلت : فقط هذه الحقيقية ..

وقد ظل الرجل يحدثنى طويلا ظنا منه أن حقائبي لم تحضر بعد ..
ولم تكن غير حقيقية واحدة بها قميص وينطون وماكينة حلاقة وزجاجة كولونيا
وثلاثة كتب .. لكى أبقي شهرا فى ايطاليا !

ومرة أخرى لكى أؤكد لأصدقائى الذين أحسوا أننى سوف أسافر بعيدا ،
حملت حقيبتى الصغيرة معى .. وسألونى : اذن أنت مسافر الى
الاسكندرية ..

قلت : نعم ..

قالوا : هذا واضح ..

وهم يقصدون أن الحقيقية صغيرة + وأن الملابس التى بها قليلة ..
ولم أكن مسافرا الى الاسكندرية وإنما كنت مسافرا الى الهند ومنها الى
استراليا .. الى اليابان وأمريكا .. وأكثر من ٢٣٥ يوما متواصلة !

فأنا أضيق بأن يعرف أحد موعد سفرى فيضطر الى أن يرهق نفسه
بتوديعى .. كما أننى أضيق بالوداع .. وأضيق بالاستقبال أيضا ..
ولا أرى لذلك مبررا .. ولا أعرف ما الذى يقال أو ما الذى أقوله ذهابا
وابابا ..

أو كأننى لا أصدق أننى سوف أسافر .. فإذا لم أتمكن من السفر ،
فلا أحد قد عرف ذلك .. مع أنه لم يحدث مرة واحدة أن اعتزمت السفر
ولم أسافر .. ولكنه خوف قديم ثابت ليس له ما يبرره غير أن له تاريخا فى

ظننتنى .. ولم أفصح فى التخلص من بقايا أوجاع هذه الطفولة بعد ..
ولا أظننى قادرا على ذلك !

ومرة ضاعت حقيقتى فى مطار فرنكفورت ..

ولا أعرف كيف ضاعت .. وأعتقد أننى نسيتها فى الطائرة .. فقد كانت
حقيقية يد صغيرة .. وكان لا بد أن أتخلف ليلة فى ألمانيا قبل سفرى الى
السويد .. وفى هذه الحقيقية كل ملابسى الضرورية .. وهى قليلة جدا ..
وذهبت الى مكتب شركة الطيران .. ووعدنى الموظفون بالعثور على
الشنطة فى أسرع وقت .. وأرسلوا برقيات وانتظروا ..

وسألوا عن احتياجاتى الضرورية .. وعن محتويات الشنطة بالضبط ..
وقلت — وأنا كاذب مع الأسف — : بيجاما صوف وملابس داخلية ..
ومناديل وجوارب وفوط وصابون وأمواس حلقة وعطر ومعجون أسنان ..
وبسرعة فوجئت بكل هذه الأشياء فى غرفتى فى الفندق ومعها باقة ورد
واعذار رقيق من شركة الطيران وتجديد للوعد بالعثور على شنطتى
الضائعة ..

وشعرت بالخجل مرة أخرى لأننى تصورت ما الذى سوف يحدث عندما
يجدون شنطتى الصغيرة وليس بها سوى بيجاما واحدة .. وقطعة واحدة
من كل شيء ، وتمنيت ألا يعثروا عليها أبدا ..

وسافرت وعدت .. وكانت الكارثة المروعة :

لقد وجدت الشنطة الملعونة فى انتظارى .. وأنا عندما كذبت كنت
أتستر على فضيحة أخرى هى أن ملابسى قليلة لا تذكر ! ..

هكذا .. أنا اذا سافرت لا أحتاج الى أى وقت .. ولا لأى استعداد
نفسى .. فى أية لحظة أستطيع أن أزرر الجاكيت .. وأقفل باب المكتب
وانطلق الى المطار .. أما الملابس فيمكن الحصول عليها من الخارج ..
أو يمكن غسلها فى الفندق .. وكل شيء بعد ذلك يهون .. فالمهم — دائما —
هو السفر .. هو الخروج ..

وليس السفر تغييرا لمكان المشى أو النوم أو الأكل .. وإنما هو تغيير
الموقف .. تغيير للسمع .. جلاء للبصر .. تجديد للرؤية ..

وعندما سافرت الى أوروبا لأول مرة لم يتسع وقتى لكى أخبر أحدا من
الناس .. فقد علمت بالسفر فى الصباح .. وفى المساء كنت فى المطار ..

في الجو .. فوق البحر الأبيض المتوسط . ومن الطائرة رايت مدينة
الاسكندرية لأول مرة .. فلم أكن قد رايتها هكذا كاملة جميلة من قبل ..

وعندما سافرت الى الكونغو قيل لي في الهاتفون : تسافر ؟

قلت : طبعاً ..

— ودون أن تعرف الى أين ؟

— لا يهم ..

— اذن الى الكونغو ..

— حالا ..

— اتجه الى المطار ..

واتجهت الى المطار وفي يدي صحيفة ((الأخبار)) وقد لففت بها قميصاً
وجوريا ومنديلا وكتاباً .. !

وليس يحدث هذا فقط اذا ما سافرت الى الخارج وانما اذا سافرت
الى الاسكندرية .. كل ما أذكره هو هذه السرعة في السفر .. في
الانطلاق .. الضيق الوحيد الذي أشعر به هو ملابسى التي لا يمكن أن
تفارقنى .. ثم هذه السيارة أو الطائرة التي ليست لها سرعة الضوء في
الانتقال من شاطئ النيل الى شاطئ البحر !

وفي احدى المرات دخلت الفندق وحجزت غرفة .. ولما سألتى موظف
الاستعلامات عن الشئط .. أدركت أنني نسيت الشئط في القاهرة ..
أو نسيت أن أعدها .. فقلت له : حالا ..

ونزلت الى الشارع وبحثت عن شئط وضعت فيها ملابس أشتريتها
وعدت الى الفندق ..

ولم أكد أنهى دهشة موظف الاستعلامات حتى جاء شاب يقول لي
أمامه : حضرتك نسيت بقية العشرة جنيهه ! ..

وعرف موظف الاستعلامات أنني اشتريت الشئط وما بها .. ومنذ
لحظات .. ولعله لم يفهم المعنى الحقيقي وراء هذا التصرف .. ولكن
المعنى الحقيقي هو أنني اذا قررت السفر فمعنى ذلك أن تسافر نفسى ..
روحى .. عقلى .. أما هذه الأشياء الأخرى فتجىء في الدرجة الثانية ، وفي
معظم الأحيان لا تجىء !

وأجمل وأصدق وصف لي هو ما قاله الأب الفيلسوف تايلار دى ساردان
الذى كان أستاذاً للعلوم في القاهرة في كتابه الذى سجل به رحلاته الى
بلاد الصين : أنني أولاد في هذه الرحلات .. أنني أنظر وأنظر في جشع

وشراسة .. هذا هو طعامى .. ثم أننى اذا شربت وارثويت وسكرت
فليس من الناس وتاريخهم ولا من النباتات والحيوانات .. ولكن من الضياء
التي تتدفق الى أعماقى ؟ ..

ويقول الأب دى شاردان : « انها هذه النفس الغامضة .. انها ((أنا)) ..
هذه ((الأنا)) الغامرة .. الباحثة .. الأنا التي تريد أن تذهب الى أبعد
مكان فى الدنيا .. الى أطراف كل شيء .. وكل انسان .. وكل فكرة ..
انها هذه الأنا التي تريد أن ترى أبعد .. وتسمع أعمق .. اننى أريد أن
أعرف بصراحة وبإيجاز ما الذى يكمن فى أعماق هذا الأنا الانسانى » ..

ولما سئل هذا الفيلسوف العظيم عن سر سعادته قال : ان الأرض
كروية !

فهى تدور ونحن ندور ..

لا هى تهرب من تحت أقدامنا .. ولا نحن نهرب من فوقها .. وحتى
عندما ننطلق بعيدا عنها فسنظل مشدودين اليها .. وعلى موعد معها ..
لكى نسافر من جديد .. نسافر فى البر أو فى البحر أو فى الهواء ..
بلا حقائق .. فالحقائق لا تهتم .. فنحن نحمل بين ضلوعنا شبيها أهم من
الحقائب .. نحمل الشوق الذى لا يخدم الى كل ما هو جديد : فى الأرض ..
وفى الناس .. وفيما بين الناس .. فى كل أرض .. وبين أى ناس ..
فالأرض لله .. والناس أيضا .. ولا فرق بين الناس هنا والناس فى أى
مكان .. فكل الناس يشدون راحة البال ويطلبون من الله أن يعطيهم المعدة
ليعضوا الطعام .. ويعطيهم الطعام لتعضمه المعدة .. ويعطيهم الحرية
ليفعلوا بما لديهم ما يريدون .. وأن يعطى الجميع سلاما فى النفس وفى
الحب وسلاما بين النفوس والعقول ..

فكل أرض لله .. وكل ناس مخلوقات الله ..

وكل رحلة هى فى بلاد الله وبين خلق الله !

أنيس منصور

بِسْمِ اللَّهِ.. غُلَقًا

آكونفخو.. بالالومومبا

...وقفرت إلى السرير!

اصطدمت بأحد الناس في مطار القاهرة .. وتلھفت على الاعتذار له
فاصطدمت بواحد آخر .. وعندما صدمنى شخص ثالث وجدت أن الفرض
الذى يريح الانسان هو أن يقول لنفسه أن كل الناس بهائم ..

ولم يكن هذا الفرض ظالما فمطار القاهرة مظلم والناس أشباح ..
ونصف هذه الأشباح جنود .. ونصف الكلام باللغة الانجليزية ذات الخنافة
المعروفة .. ولكن ليس هذا وقت ضبط الأنوف أو الألسنة وما أعرف كم من
هذه الكلمات التى أسمعها : انجليزى وكم أمريكانى ..

فالمهم هو أن أجد لى مكانا فى الطائرة التى هناك .. والتى لا أراها
بوضوح ولا أعرف أحدا من ركبها .. ولا أعرف ان كانت على استعداد
لأن تقبل مسافرا مثلى .. أو شحنة بشرية متجهة الى الكونغو .
وحاولت أن أتجه الى مصدر الضوء فى المطار .. وحاولت أن أختار
شخصا اصطدم به لعلى أرغمه على أن يقبل اعتذارى .. ومع هذا الاعتذار
أسأله : الى أين نحن مسافرين ؟ وفى أية طائرة ..

وفجأة أضىء جانب من المطار ..

وظهرت الطائرات ضخمة .. لونها أسمر .. كأنها اشتعلت فى
السماء .. وانقذت فى آخر لحظة .. أو كأنها عندما احترقت سقطت عليها
الأمطار بمعجزة .. ولذلك تحتفظ هذه الطائرات بلون السحاب ولون
الدخان .. وعلامات بيضاء هى امضاء البرق على هذه اللوحة القاتمة ..
ولاحظت أيضا أن كل الذين التفتوا حول هذه الطائرة من الجنود المصريين
الشبان المسافرين الى الكونغو .. وهم جنود المظلات .. ولاحظت أيضا أن
هناك سيارات اتجهت الى هذه الطائرة .. ثم الى داخل الطائرة .. وكانت

هذه أول مرة أشاهد فيها عملية ابتلاع الطائرات الحربية للذخيرة والجنود والقنابل والديناميت وسيارات الجيب .

ولا بد أن تكون هناك طائرات أخرى للمدنيين ..

فالمدنيون — مثلى — لا تقوى أجسادهم التي اعتادت على المقاعد الجلدية والقطنية ، أن يتمددوا على الحديد .. والا ان يتراجعوا بمقاعدهم الى الوراء ويناموا فى هدوء .. او يصطنعوا النوم .. حتى تجيء المضيضة وتقول لهم : أصبحوا على خير .. واذا كنتم فى حاجة الى أى شىء فلا تترددوا ! ..

ومن المؤلف أن يتردد الانسان فى طلب معظم الأشياء .. لأن من حق المضيضة أن تنام هى الأخرى فى مثل هذه الساعة من الليل ..

وفى هذا الظلام لمست يدي يد أخرى .. واستسلمت يدي والتفت بسرعة حول الذراع الناعمة واتجهت انا الى صاحبة الذراع وقلت :
— أين طائرتى يا مدموازيل !

فقالت المضيضة الانجليزية : أنت مطلوب فى الاستعلامات ..

قلت : أنا بالذات .. ؟

قالت : نعم ..

ولم أناقش طويلا ونحن واقفان فى الظلام .. اتما اختصرت الطريق وادخرت الكلام لكى أراها فى النور اوضح وعلى مهل ..

وفى النور قابلنى أحد رجال الجيش وسألنى ان كنت أحد الصحفيين المسافرين الى الكونغو .. وسألنى عن بقية الزملاء .. وبسرعة ظهر الزملاء .. وبسرعة سألنى أيضا : اين الحكمدار ..

وكانت هذه أول مرة أسمع فيها كلمة « حكمدار » وأرى أن الموقف يقتضى أن أكون هذا الحكمدار . ووجدت الإجماع قد اختارنى حكمدارا . وكلمة حكمدار عند العسكريين معناها : الشخص الذى يتلقى الأوامر ويبلغها الى زملائه ويتولى تنفيذها . وعلى الرغم من أن عددنا أربعة . فأننا من الناحية العسكرية يجب أن يكون لنا حكمدار . وانتهزت فرصة تعيينى حكمدارا واعتذرت . وغضب الضابط لهذه الفوضى ورفض أن يبلغنا الأوامر التى لديه ..

ولم نعرف حتى الآن ما هذه الأوامر .. ومستحيل أن نعرفها ما دمت قد رفضت هذه الوظيفة ..

وفى آخر لحظة التقى أحد الزملاء بالضابط وقال له : انه فى استطاعته أن يكون حكمدارا . وفرح الضابط لهذا الضبط والربط .. وجاءت التعليمات صريحة تقول : ان أحدا ليس مسئولا عن سفرنا الى الكونغو .. وانه مهما حدث لنا فنحن وحدنا المسئولون !

وكان هذا القزار مثل سبتين قله قناوى قد انكسرت وراعنا قبل أن تتحرك الطائرة .. أو بعبارة أخرى : فى سبتين داهية .. وألف نهار أبيض أن البلد قد تخلص منا جميعا !!

وابتلعت هذه الامنية الغالية ونظرت الى الطائرة وهى تقذف اللهب .. وتعلقت عيني بالمواد المتفجرة التى امتلأت بها الطائرة . ووجدت أن هذه الطائرة هى « الداهية » التى سوف نذهب بها ونذهب اليها .. وأنه من الممكن أن يكون النهار أبيض ألف مرة فى لحظات اذا ما انفجرت هذه الطائرة فى المطار واستراحت البلاد منا .

وفى هذه اللحظة لم أكن أتصور أننى عبء على البلد لهذه الدرجة .. ولم أكن أتصور أن الخلاص منى يحتاج الى ثورة فى الكونغو .. والى ارسال قوة من المظلات المصرية وقوات جزائرية وسودانية الى الكونغو والى طائرة ضخمة تسافر فى ساعة متأخرة من الليل .. ولكن يظهر أن الانسان يعيش ويموت دون أن يعرف قيمته الحقيقية عند غيره من الناس !

ونظرت الى الطائرة المليئة بالمتفجرات وعرفت قيمتى الحقيقية . وعرفت هذا القبر الطائر .. هذا الجحيم المنطلق ..

وبسرعة تخلصت من أهميتى وقيمتى التى احتفظت بهما منذ تركت مكتبى فى « أخبار اليوم » حتى جئت الى المطار .. وأحسست بشيء من الخفة .. وشيء من الحرية .. فالمطار أصبح بالنسبة لى منطقة انعدام الوزن والقيمة والأهمية .. وفى الظلام وبين الجنود وبين الاشباح اتجهت الى إحدى الطائرات .. ووجدت الجنود قد حجزوا أماكنهم .. ملابستهم صفراء .. شبان سمر .. على وجوههم الارهاق .. وقد وضع كل واحد منهم بطانية عند قدميه .. وبروح شابة حلوة اتجهت البعوض ناحيتى فيها اشفاق وفيها زمالة .. وأفسح بعضهم مكانا على أرض الطائرة .. نعم على أرض الطائرة .. فالطائرة لها أرض .. بل كل جدرانها أرض .. انها عارية تماما . جلد على عظم .. لا توجد بها قطعة خشب واحدة .. انها طائرة بلا موبيليا .. أنها تذكرنا بأول طائرة ركبتها فى حياتى سنة ١٩٤٩ عندما سافرت الى أوروبا فقد كانت مثل اللوريات ينقلون فيها الحيوانات من شرق أفريقيا الى غربها .. وكنا نجلس على أرضها .. ونمسك فى حبل يمتد من مقدمتها الى ذيلها .. وعندما كانت تهتز .. نهتز أيضا كما يهتز حبل الغسيل فوق السطوح .. ويتساقط منا العرق أيضا .. وعندما حاول بعضنا أن يعترض على هذه الطائرة قيل لنا ما معناه : على قدر فلوسكم !

وعندما حاول بعضنا فى ذلك الوقت أن يكون ظريفا مع قائد الطائرة قائلًا له : اسمع يا أسطى .. هذا الأتوبيس نمره كام ..

كان رد الكابتن : الاتوبيس ليست له نمره ، ولكن الركاب لهم نمر على قفاهم !

أما هذه الطائرة الحربية فهى مختلفة تماما .. فلا توجد بها حبال ..

ولا أخشاب ولا أحد يعرف لها أسطى .. ولا كمسارى .. ولا رقم ..
ولا اتجاه ..

ولكن أحد الضباط أشار الى أن أركب السيارة الجيب الموجودة في داخل
الطائرة ، ففي هذه السيارة مقعد من الجلد .. تصور !

مقعد من الجلد في داخل سيارة في داخل طائرة .. انه يشبه كرسيًا
نزع من صالون حلاقة ووضع على الرصيف . فهو الكرسي الوحيد .. وهو
مطمع كل الجنود الذين تهالكوا على جدران الطائرة .

وباحساسى بأن هذا المقعد نعمة من عند الله .. اتجهت اليه بشيء من
الامتنان .. وهذا الامتنان جعل الصدمة التي هزت رأسى بعنف وأنا أدخل
السيارة ، نوعاً من اللمس الرقيق .. أو كانت هذه الصدمة بسبب الحسد
.. ثم حمدت الله عليها .. فهي أهون بكثير جداً من الامتيازات الرسمية التي
تلقيتها في المطار .. فالمطلوب أن أروح على مسئوليتى والا أجيء على
مسئوليتى .. وأن أموت على مسئوليتى .. فأنا القاتل والقتيل .. وأنا
كالنار يأكل بعضى بعضى !

ولمست بسرعة باب السيارة .. انه حديد جليد .. ولمست الدريكسيون
أنه شديد البرودة .. وكذلك كل أجهزة السيارة .. ثلج في ثلج ..

أما ملابسى فهي نصف ملابسى .. جاكته من تحتها قميص .. وتحت
القميص شبه قميص .. والقميص مفتوح فأنا أضيق بالكرافطة .. وأضيق
بالحزام .. وأضيق برباط الجزمة وجلدة الساعة .. ولو كان الأمر بيدى
لنزعمت الزراير .. وتحولت ملابسى كملابس الاحرام .. ولكن في تلك
اللحظة تمنيت أن أجد مع الجنود أبرة وفتلة لأسد كل هذه الفتحات ..
فقد لاحظت أن هواء باردا يهب من تحت المقعد .. وتلمست بنطلونى فوجدته
سليماً .. ونسبب لا أعرفه أحسست أن الهواء البارد قد أخذ يدور حول
جسمى .. ويتجه بأحكام شديد الى أنفى .. وعطست .. وهذا طبيعى ..
فأنا يكفينى جداً أن المس شيئاً بارداً لأصاب بالزكام .. فأنا مزكوم دائماً
ولكنى أبحث عن فرصة .. وجاءت الفرصة الحديدية .. وعطست ..
وانزكمت .. وانسد أنفى .. وانسدت منافذ الطائرة .. وأقفل أحد
الأشباح بطن الطائرة .. ودارت المحركات .. واستسلم كل الحاضرين ..
فلا شيء يملكه الانسان في طائرة الا أن ينظر الى السقف ..

ونظرنا الى السقف وتفادينا النظر بعضنا الى بعض .. فليس هناك
ما تراه في وجوه الآخرين .. انها صورة لا نحبها من القلق والخوف وشيء
من الذل .. ومقاومة خفيفة يمكن أن نسميها : الأمل أو التوكل على الله ..
مع شيء تافه اسمه : الثقة بالنفس ..

وبسبب هذا الافلاس المعنوى لا ينظر أحد الى أحد .. ونرى في السقف
متسعا للجميع ..

ولا أعرف ان كانت محركات الطائرة التى لم أرها قوية جبارة .. أو أن محركاتها عادية جدا ولكن صوتها يدوى لعدم وجود أية طبقة عازلة من الخشب أو من الزجاج أو الفبر .. أن صوت الطائرة رهيب .. أنها تأكل نفسها .. أنها تزمجر .. أنها تريد أن تتحرر من شيء .. من جاذبية الأرض .. من الليل .. من الظلام .. أن المحركات نفسها تريد أن تنفلت من الطائرة .. ليبتها تفعل ذلك .. فرغبتى فى اكمال الرحلة التى لم تبدأ قد ضعفت .. وأية محاولة منى للخروج من الطائرة الآن مستحيلة .. ولا يوجد أى عذر .. فلا أستطيع أن أظهار بأننى نسيت شئ أو جواز سفرى .. أو أن شخصية هامة كانت تنتظرنى ونسيت أن أودعها .. كل هذه الأعذار والأوهام قد تجمدت فى رأسى بسبب البرد .. وكلها قد طحنتها المحركات وتحولت الى تراب تطاير والتصق هو أيضا بالسقف ..

وتحركت الطائرة كما يتحرك لورى فى طريق زراعى غير مرصوف .. يبدأ من القاهرة وينتهى فى الكونغو فى قلب أفريقيا ..

ومن الغريب أن الوقت لم يتسع لأعرف الى أين أنا ذاهب .. ولا كم طول المسافة .. ولا كم ساعة نقطعها .. ولا ما هو أول مطار .. ولا كم يوما سنبقى هناك .. لا شيء .. لا معلومات .. لا فلوس .. لا ملابس .. وكل ما عندى من معلومات هو هذا الحوار القصير الذى أعتر به وأردده كلحن جميل .. أما هذا الكنز المعنوى فهو :

— هل تسافر الى الكونغو ؟

— نعم !

— الآن ..

— فوراً .. !

— أنا كنت متأكد من ذلك !

— شكراً !

انتهى الحوار .. ولكنه لم ينته فى أذنى .. أنه يتردد مدوياً كالأجماع فى جلسة برلمانية .. لا أقابله الا بالسعادة لهذه الثقة الغالية ..

ولكن هذه الثقة الغالية مثل بلوفر أضعه على قلبى .. تحت جلدى .. آه لو كان يلتف حول جنبى من ناحية اليمين .. ناحية المصراع الأمامى .. فقد اكتشفت فى هذه اللحظة أن فى الجانب الايمن من بطنى يوجد كتكوت ينقر .. كأنه فى بيضة .. ومن الغريب أن الكتاكيت لا تخرج من البيض الا فى الدفء .. ولكن هذا الكتكوت لا يخرج الا عندما يكون هناك برد شديد كالذى أقرص فيه الآن ..

وارتفعت الطائرة .. وانخفضت زمجرة المحركات قليلاً .. ولكن الطائرة ضخمة .. راسية فى الجو .. لا تهتز .. هكذا قلت لنفسى مطمئناً .. ومهدئاً ..

وكلما ارتفعت في الجو .. ارتفعت درجة الحرارة .. وارتفعت كأننا كنا تحت خط الاستواء .. ثم اقتربنا .. وكأن خط الاستواء فوق في السماء .
.. ثم تحولت الحرارة الشديدة الى هواء ساخن .. هواء من نار ..
لقد تحول خط الاستواء الى خط نار .. ولاحظت أن الجنود الذين حولي ..
بدأوا يفكون زراير قمصانهم .. وشمرت بالارتياح .. فان هذا الهواء الساخن قد أنقذني من زمهرير السيارة ..

ولكن رأسي اصطدم بالسيارة عندما خطرت لي فكرة أن هذه الحرارة من الممكن أن تؤدي الى انفجار الديناميت والبارود والقنابل التي امتلأت بها الصناديق التي أمامي وورائي .. ثم ابتلعت ريقى وسكت .. وكأن رأسي عندما اصطدم في السيارة قد سحق هذه الفكرة السخيفة التي أفزعتنى ..
ولاحظت أن الطائرة تهتز .. وأنها تهبط .. أو هكذا توهمت ..
والتفت حولي لأتأكد من شعوري .. ووجدت الوجوه كلها تؤكد أن الذي أحسست به صحيح .. فالطائرة اتجهت الى الهبوط .. مع أننا لم نترك مطار القاهرة الا مدة عشر دقائق ..

وقيل في المطار أن أجهزة التكيف في الطائرة قد فسدت .. ولا بد من اصلاحها .

وجاء هبوط الطائرة يؤكد لنا أن هناك حرصا من جانب أحد من الناس على أن نعيش أو على أن نعيش هو .. فقائد الطائرة الذي لم أره لا يريد أن يموت لا هو ولا غيره .. ومن أجل ذلك عاد الى الأرض ليصلح الجهاز الذي اختل ثم يستأنف رحلته الى أواسط أفريقيا ..

وارتفعت الطائرة .. وكلما ارتفعت ازدادت درجة الحرارة انخفاضا ..
.. شيء عجيب .. كأن خط الاستواء المرسوم فوق مصر قد تحول سرا الى منطقة قطبية جليدية .. وبدأت أنطوى على نفسي .. أو على الأصح التوى على نفسي .. وأضع يدي على بطني .. وعلى جنبي الأيمن ..
وأتفادى أن يصطدم رأسي بدريكسيون السيارة التي اتخذت وضعا مخالفا للطائرة .. فالطائرة تتجه بمقدمتها الى الجنوب .. الى الكونغو والسيارة تتجه بمقدمتها الى الشمال الى القاهرة .. فأننا أركب سيارة لا تتحرك ومع ذلك تطير بسرعة ٥٠٠ كيلو في الساعة .. وفي درجة حرارة قريبة من الصفر ! ..

وكانت سعادتي لا حد لها عندما شعرنا جميعا بنفس الاهتزاز والدوران .. وهبطت الطائرة الى أرض المطار .. مرة أخرى .. لكي يتم اصلاح أجهزة التكيف .. وهبطت الطائرة .. وهبطت أنا في مقعدي .. وهبط قلبي في قدمي .. وأصبحت حياتي شيئا عند قدمي لا يساوي أن أحرص عليه .. فقد وجدت الى جوارى شبانا مواطنين شجعانا ذاهبين الى أرض مجهولة .. يدافعون عن قضية الحرية .. وقضية الشعوب التي لا يعرفونها

والتي لم يروها ولم يعرفوا لغتها .. وأحسست أن مشاعري هذه نوع من
الترف .. وأن سلامتي نوع من التعالي .. وأن مخاوفي طفولية .. ولم
أبرز مكانى ..

وبعد نصف ساعة استغرقتها في معاناة نفسي وعقابها ، قامت الطائرة
.. وقد تغير كل شيء فيها .. صوتها .. هواؤها .. جوها .. طعمها ..
فقد اكتشفت فجأة أن في فمي لبانة .. وأن هذه اللبانة قد التصقت في جدار
فمي .. كأنها هي أيضا خائفة .. ومع حركة المضغ ارتفعت معنوياتي
.. وتغير طعم الدنيا على لساني .. والآن أخذ يتغير لونها أيضا .. فالآن
أرى بوضوح كل هؤلاء الجنود بملابسهم الصفراء .. وقد تجاوزوا ومال
بعضهم على بعض .. وناموا .. أسلحتهم في أيديهم .. وذخيرتهم تحت
أقدامهم ..

وخرجت من سيارتي ، كما يفعل رواد الفضاء ..
وأقتربت من أحد الجنود وسألته إن كانت معه كوتشينينة فقال وكأنني
أنقذته من بحر من الملل العميق : معنى .. تلعب كونكان !
وبسرعة رددته الى حالة الملل : لا أعرف غير لعبة الكومي !

ورجعت الى مكانى من السيارة .. لا أنا أريد أن أعرض عليه أن يعلمنى
الكونكان .. ولا هو يريد أن يلعب الكومي .. ولا حتى في الامكان أن نشترك
جميعا في لعبة الشايب .. !

ونظرت الى ناحية أخرى .. كما تنظر سمكة الى سنارة مع فارق واحد
أننى أبحث عن الذى ينقذنى أيضا من ماء له رائحة كريهة .. ووجدت شابا
على وجهه ابتسامة مرجبة .. وخرجت من السيارة وتساندت عليها وعلى
جدار الطائرة وقلت له : يبدو أنك عاجز عن النوم !

وبسرعة عدت الى مكانى فقد كان نائما وهو مفتوح العين !
اذن فالطائرة سجن حقيقى .. المسافات كلها قريبة .. لا ضوء ..
لا حركة .. لا حرية .. لا كلام .. مع كل هذا العدد من الناس شعرت
بوحدة فظيعة .. ومع كل هذه المواد الملهبة أشعر ببرودة فظيعة .. ومع
كل هذا الارتفاع أشعر كأن الطائرة تزحف تحت الأرض .. والليل طويل ..
ويبدو أنه ليل دائم .. فالطائرة بلا نوافذ .. أو على الأصح لم أجد لها
نافذة .. وحتى اذا وجدتها فلا معنى لها .. وأغلب الظن أننى نمت ..

وفتحت عيني على ضوء قريب الشبه من ضوء النهار .. أو هو ضوء
النهار .. وسمعت عبارات قريبة جدا من : صباح الخير .. صباح
النور ..

طلع النهار .. والشمس بدأت أشعتها تصبغ الطائرة بلون النار وقالوا
أننا أمضينا في الجو ثلاث ساعات .. وقالوا خمس ساعات .. فلا معنى
للزمن .. ولا معنى لما نقول .. فنحن شحنة في لورى جوى .. والسائق

هو وحده الذى يعرف مصير هذه الشحنة .. وان كنا نحتفظ ببعض المعلومات الاولى .. ومن بين هذه المعلومات أننا فى الطريق الى الكونغو احصى المستعمرات البلجيكية والتي تبلغ مساحتها حجم بلجيكا ٨٠ مرة .. والتي عدد سكانها ١٣ مليوناً .. والكونغو فى حجم الهند التى يبلغ عدد سكانها ٥٥٠ مليوناً .. ولذلك يمكن أن يقال أن الكونغو « دولة » خالية من الناس . ولذلك سوف تكون مفاجأة كبرى أن نجد أحداً فى أى مكان .. فالرجل الانجليزى الذى اكتشف الكونغو فى سنة ١٨٧٥ اندهش جداً عندما صادف فى غابة شاسعة أربعة أشخاص . فقد أعلن أنه قابل مظاهرات من المواطنين! والكونغو هى أكبر « عزبة » عرفها الإنسان ..

فقد كانت الكونغو من الممتلكات الشخصية لملك بلجيكا .. ومساحة العزبة حوالى مليون ميل ، أى نصف مساحة القمر .. ومن الغريب أن الذى اكتشف الكونغو ليس بلجيكيًا .. والذى يملك الكونغو أيضاً ليس بلجيكيًا .. فالذى اكتشفها صحفى بريطانى اسمه جورتون ستانلى .. وملك بلجيكا المانى لم ير هذه البلاد .. ولم يفكر فى أن يزورها .. وإنما كان مشغولاً بامتصاص أموالها . وكان هذا الملك نموذجاً لدناءة الإنسان ووحشية الرجل الأبيض .. فقد ارتكبت فى الكونغو مذابح ليس لها نظير فى التاريخ .. فقد كان من حق الرجل الأبيض أن يقطع ذراع وساق أى رجل من الكونغو لأى سبب .. وكثيراً ما كدس الرجل الأبيض عدداً كبيراً من أطراف المواطنين للارهاب .. وظل هذا الارهاب الوحشى زمناً طويلاً لا يدرك به أحد .. ولكن عندما بلغت القارة الاوربية والعالم المتحضر أبناء الملك المتوحش ، فزع الضمير العالمى .. ولم يكن هذا الفزع معناه : الدعوة الى تحرير افريقيا من الاستعمار .. وإنما كان معناه فقط أن يكف الملك ورجاله عن هذه القسوة ولكن أن يبقوا فى مكانهم .. فبلجيكا كغيرها من الدول الاستعمارية تملك مساحات شاسعة .. وفرنسا تملك أرضاً فى حجم فرنسا نفسها ٢٣ مرة وبريطانيا تملك أرضاً فى حجم بريطانيا ٣٠ مرة .. والبرتغال تملك أرضاً فى حجم البرتغال ٢٠ مرة .. فالمطلوب هو أن يغسل البيض أيديهم من دماء السود فقط ..

ولكن أن تظل أقدامهم فى كل مكان .. يستنزفون دماء القارة السوداء التى تتفجر بالنور والنار أيضاً ، فافريقيا تنتج ٩٨٪ من الماس العالمى و ٢٢٪ من النحاس واليورانيوم و ٦٠٪ من الكاكاو و ٦٠٪ من زيت النخيل .. وعدد سكان افريقيا حوالى ٢٥٠ مليون نسمة وبها ٧٠٪ لغة وفيها ٩٠ مليون مسلم و ٢٢ مليون مسيحى والبقية من الوثنيين .. وكانت افريقيا المركز الوحيد لتجارة الرقيق التى ابتدأت فى سنة ١٥٢٠ تعبر المحيط الى أمريكا ..

والغيت دولياً فى سنة ١٨٠٠ .. ولذلك فحوالى ٢٤٪ من الشعب الأمريكى من الزنوج .. والزنوج قد اختلطوا بالبيض فى أمريكا اللاتينية ..

وقد أرغم الملك ليوبولد على أن ينزل عن عربة المليون ميل الى الشعب البلجيكي في سنة ١٩٠٨ ومات الملك بعد ذلك بعام واحد .. أما مكتشف الكونغو فقد مات قبل ذلك بأربع سنوات .

وما تزال الطائفة معلقة في الهواء .. ومن الطبيعي أن تبقى كذلك فلا علاقة بين رغبتى في أن أصل الى الكونغو وبين الطائفة فهى في الطريق الى المكان الذى لا أعرفه .. وأنا أحاول أن أتسلى بشيء .. ولم أجِد ما أتسلى به .. لا أحد أتحدث اليه .. ولا كتاب ولا ورق .. ولا قلم .. ولا خريطة .. ولا رغبة في أن أفكر في أى شيء .. فأفكرى أكثر انكماشاً من جسمى .. وعقلى مشغول بمصرانى الاعور الذى تحول الى وخز أبرة .. ثم وخز مسمار بارد .. ثم مسمار محترق .. ونظرت الى أحذية الجنود الضخمة .. ووجدت أن هذا الحذاء هو أعظم مخبأ للأصابع والقدمين من البرودة الموحجة .. أما حذائى فأقرب الى شبشب الحمام .. وأما جواربى فهى أقرب الى الجوانتيات .. وأما أنا فأقرب الى الحفاة العراة .. ولا بد اننى سأكون أكثر الجميع خفة عندما نصل الى الكونغو الحارة .. ولكن متى نصل؟ ..

وكأن الطائفة استمعت الى ما يدور في رأسى .. فأتجهت الى الأرض .. تحاول الهبوط .. وهبطت على أرض الخرطوم .. وفي ساعة مبكرة دافئة .. وفي مطار الخرطوم كانت الوجوه مستريحة مرحبة .. انهم ناموا وقاموا وشربوا الشاي الذى أحلم به .. وكانت سيقانهم ممدودة طول الليل .. وأذرعهم مسترخية .. وأشعلوا أعواد الكبريت بلا خوف .. وأطفأوها تحت أقدامهم بلا خوف .. وأعدوا لنا هذه الابتسامة السخية اللامعة .. وهذه الابتسامة هى ثمرة للنوم والراحة والماء البارد والافطار وعدة أكواب من الشاي والسجائر والمشاركة العاطفية الوطنية لثورة الشعب فى الكونغو ضد الاستعمار البلجيكي .. ضد الاستعمار .. وكأنهم يكلفوننا فى أول لحظة التقينا بهم فى مطار الخرطوم أن نحمل تحياتهم الى لومومبا الذى يجاهد هو وعدد قليل من المواطنين ضد تشومبى وغيره من العملاء .. وأنصار لومومبا فى بلاده قليلون ولكنهم فى العالم كله الوف الملايين .

ولا أزعج اننى تلقيت هذه المهمة بارتياح .. فقد كنت مهموماً بساقى وبطنى .. ومتطلعا الى الدخان الذى يخرج من كوب شاي .. ولكن عندما دخلت الى المطار وجدت عشرات الأكواب .. وكأن معدتى قفزت بين أصابعى فمددت يدي الى كوب من الشاي دون أن أستاذن من أحد .. وفوجئت بأن أحد القوانين المعروفة كان ضمن الذين نهضوا فى الصباح المبكر .. فالقانون اسمه : تقسيم العمل .. فأنا عندما مددت يدي .. امتدت يد أحد الجرسونات تمنعنى من تقديم فنجان شاي الى نفسى .. فهذه مهمته هو .. أنا أطلب وهو يقدم .. فإذا قدمت لنفسى فنجاناً من الشاي فقد الغيت وظيفته واعتدلت على قانون تقسيم العمل .. واحترمت نفسى والقانون .. وجاءنى الشاي البارد وابتلغته وأنا أغلى من الفيظ ! ..

وأحسست أن هذا الفئجان مكافأة هزيلة لا تتناسب مع العذاب الذى
لحقته من القاهرة إلى الخرطوم .. وقررت أن أتبنى هذه القضية التى فرضت
نفسها فرضا : هل من حقى أن أطلب فئجانا آخر من الشاى الساخن جدا
حتى اذا كان ذلك اعتداء على قانون الذوق العام وقانون تقسيم العمل
وقانون البيع والشراء مع ملاحظة اننى لا أملك مليما واحدا ، ثم أن هذه
التحية التى ترجمتها على أنها تحية إلى لومومبا من شعب السودان الا استحق
على حملها فئجانا من الشاى الساخن .. ما أعظم الرسالة وما أئفه الأجر؟!
ونهضت كأى محام فى محكمة النقض وجعلت ذراعى اليسرى ملتصقة
بجسمى كأنها تقبض على ملف القضية وذهبت الى الجرسون وقلت : بل أريد
الشاى ساخنا .. أريده يغلى كالثورة فى الكونغو .. وفى كل أفريقيا .
(كأى) محام لا يتكلم فى الموضوع لم يستمع منى الجرسون .. وتركنى
استمر فى الكلام عن نفسى وعن غيرى ، وجاء الشاى الساخن .. واختفيت
به فى مكان من مطعم المطار .. وصيبتة فى أعماقى .. فى أمعائى .. وسكت
الكتكوت فى مصراتى الأعور .. وسجلت فى تاريخ حياتى : أن هذا هو أجمل
وأمتع فئجان شاى شربته فى حياتى ..

وبعد هذا الدفاء فى جسمى .. وفى الجو .. وبعد أن امتلأت الدنيا
بالشمس .. اكتشفت أن فى داخل الطائرة عددا كبيرا من النوافذ .. ومن
هذه النوافذ رأيت أفريقيا ذات الغابات الكثيفة .. الشاسعة .. وبدأت أرى
بوضوح نهر النيل وفروعه .. ومسطحات مائية واسعة .. وبعض أصحاب
العيون القوية بدأوا يتبارون فى معرفة بعض الحيوانات المتوحشة على
الأرض .. وتحولت الرحلة الى مباريات فى دقة النظر .. ومدى القرب
أو البعد من الأرض .. وما الذى يحدث لو سقطت بنا الطائرة .. وأصبحنا
ضحية لذباب تسمى تسمى .. — والحقيقة أن هذا الذباب ليس فى السودان ..
ولكنه فى تنزانيا وأنه المسئول عن هلاك ملايين من قطعان الماشية ومئات
الألوف من الناس .. فهذه الذبابة تنقل النوم الى الجسم الذى تلسعه ..
فينام حتى الموت .

وعلى الرغم من تشابه الأرض الخضراء تحتنا فان أحدا لم يمل النظر
إليها ..

ولم أتمكن من رؤية منابع النيل . فقد كان لا بد أن أكون على الجانب
الآخر من الطائرة . ولم أستطع أن أتحرك ولا أن أراحم الجنود .. ولا بد
أننى سوف أراها عند العودة . وتمنيت أن تكون عودتنا نهارا !! .

وبعد أن اطمأنت نفسى الى أن الطائرة بخير .. وإلى أننا قريبون من
الكونغو .. أسندت رأسى الى يدي .. واستعرت إحدى البطانيات وتغطيت
ونمت فى حراسة ضوء النهار ومرح هؤلاء الجنود .

وصحوت ، والصقت بخدى بالنافذة .. فالطائرة تهبط .. وتقترب من
الأرض الخضراء الواسعة الشاسعة .. ولا شئ يدل على أن هناك أحدا من

الناس .. لا بيوت .. لا طرقات .. بل المطار نفسه لا ندري أين هو ..
لا مظر .. وهبطت الطائرة على أرض مستوية .. أرض مغطاة بالعشب
الأخضر ..

هذه أذن هي الكونغو .. هذا الأخضر الواسع .. هذه الغابات العالية
الكثيفة المظلمة الصامتة .. والتي تخفى عددا من العيون السوداء التي
لا نراها .. والتي تتستر على عدد من الاقزام وعلى عدد لا نعرف مداه
من أكلة لحوم الانسان .. وغير ذلك من الأوهام التي تشيعها الغابة في كل
من ينظر اليها ..

وأذكر أنني عندما دخلت مطار الخرطوم لقيت احد كبار الضباط ..
وقد صافحني بحرارة من يعرفه .. والحقيقة أن أحدنا لا يعرف الآخر ..
ولكن المعنى العام معروف لدى كل منا .. فنحن ضمن القوات المصرية
المسافرة الى الكونغو .. وهذا يكفي .. وانتهزت هذه الابتسامة لأفتح معه
حوارا : كانت الرحلة صعبة .

ولم يرد وإنما ازداد عدد الأسنان البيضاء اللامعة في فمه ..
وعدت أقول له : ولكن ربنا كبير .. فقد عدنا الى القاهرة مرتين .. في
المرّة الأولى ..

فقال : بلغنى ذلك .. والحمد لله على السلامة ..

وقلت متشجعا وأنا أريد أن أعرف : كم عدد الساعات التي بقيت حتى
نصل الى الكونغو ؟

وضحك بالفعل : لا أحد يعرف .. فالكونغو واسعة جدا .. ووجهة هذه
الطائرة سر عسكري .. وإذا هبطت الطائرة في إحدى الغابات ووجدت
الذين يتفرجون عليكم من الاقزام فمعنى ذلك أنكم في شمال الكونغو .. أما
إذا كانوا عاديين فأنتم في أى مكان آخر .

ومعنى ذلك أنني يجب أن انتظر أبناء الغابة ليخرجوا .. وأحسب
أطوالهم لأعرف أين نحن من هذه البلاد الهائلة .. ولم يظهر أحد .. لا أحد ..
لا ناس .. لا بيوت .. لا حيوانات .. لا حشرات .. لا فراشات ..
فأضمت دافئ .. والرطوبة كثيفة .. وكل شيء ماض في حياته .. ونحن
فقط دخلاء على ملايين الملايين من الأعشاب والأشجار ..

ولم يكن عند الجنود وقت للتأمل .. فعندهم مهمة عاجلة .. ولذلك
تطايرت البطاطين والصناديق .. وأديرى محركات السيارات الجيب
وهبطت من الطائرة .. والتف حولها الجنود .. وركبوا السيارات ..
واستعدوا واحطفوا .. وصدرت اليهم أوامر وتحركوا واختفوا .

وفي مقدمة الطائرة رأيت قائدها الأمريكى .. وفلتت منى هذه العبارة :
يا ابن الابه ؟ ..

فقد كان يمسك سندوتشا ضخما فخما وسيجارا كوبيا محترما وزجاجة
بيرة .. وكأنه أحد المسافرين بالدرجة الأولى في طائرة مدنية .. فلا أثر للتعب ..

أو الأرق على وجهه .. ولم تطاوعنى نفسى أن أسأله عن موعد العودة ..
فقد أحسست أنه استغفلنا : ركب هو فى الجانب المدنى وتركنا نحن فى
الجانب العسكرى من الطائرة .. بلا كوب ماء .. ولا كوب شاي ..
ولا كلمة .. وظل يفعل بنا ما يشاء ..

وجاء أحد ضباط الامم المتحدة وطلب الينا أن نركب طائرة عسكرية
صغيرة تنقلنا الى مدينة كوكياتفيل .. وهذه هى أول مدينة فى الكونغو
نذهب اليها .. أما هذه الأرض التى هبطنا اليها فليس لها اسم .. وإنما لها
رقم فقط ..

وكانت الطائرة الصغيرة مريحة ..

وكان قائدها بلجيكي .. وهذا مجرد استنتاج .. لأنه لا مبرر للفضب
الشديد على وجهه . ولا مبرر للفيظ الذى ينظر به اليها .. ولا لتجاهله
الأسئلة الكثيرة التى نوجهها اليه الا أن يكون بلجيكيا !

وكأنه اختصر المسافة المطلوبة فأنزلنا بسرعة فى أرض ملساء خضراء ..
وتركنا نلقى بأنفسنا من الطائرة . وظل هو فى مكانه من الطائرة . ولا كلمة ..
ولا إشارة . ولا نظرة . ونزلنا فى أرض لا نعرف فيها أحدا .. ولا يعرفنا
فيها أحد ..

وركبنا سيارة من سيارات الامم المتحدة ومعنا أحد الضباط المصريين
الذى سبقنا الى هذه المنطقة .. ووجدنا أمامنا مطعماً .. فدخلنا .. ومقاعد
فجلسنا . وعلبا محفوزة فامتدت أيدينا . وفتحنا العلب .. وبدأنا نأكل ..
والمطعم مهجور .. ليس به موظفون . ويبدو أنه كان مملوكاً لأحد
البلجيكين الذين هاجروا .. وواضح جداً أن المكان مهجور . وكل ضابط
أو جندي يمسح بمناديله مقعده . ويمد يده الى أكداش العلب ويأخذ ما يريد
ويلقى بالعلب الفارغة فى أى مكان .. ولذلك فالمطعم ملئ بالفارغ والمليان ..
وكانت العلبة الأولى : تونة .. وكانت العلبة الثانية : فاصوليا ..
والعلبة الثالثة : فاصوليا .. والعلبة الرابعة : أناناس .. والعلبة الخامسة :
خبزا .. ولا توجد أطباق أو شوك أو سكاكين أو أكواب .. وامتدت أيدينا
الى كل شئ .. وأكلنا كل شئ .. ولا طعم لأى شئ .. فليس هذا
وقت تذوق الطعام ، وإنما هو وقت ملء المعدة بالطعام .. وبعد لحظات
اكتشفت أن أصعب شئ فى هذه البلاد التى لا تتوقف فيها الأمطار هو الحصول
على كوب ماء .

ووجدت أن المواطنين يتكلمون الفرنسية التى تبعث على الضحك ..
فهم يغيرون بعض الحروف أثناء النطق .. فحرف « جيم » يصبح حرف ذال
.. وحرف الالف يختفى .. أو يصبح حرف باء .. وحرقت الميم يصبح
حرف نون .. وكل هذه التغييرات مقبولة على العين والرأس بشرط أن
تؤدى فى النهاية الى كوب ماء . ولم تؤد الى كوب ماء .. وإنما أسفرت
عن وعد بتحقيق هذه الامنية فى أقرب فرصة !

والذى نتوقعه عادة من هذه اللخبطة فى تناول هذه الأطعمة المحفوظة الباردة قد حدث . . فهذا الذى أشعر به هو من المؤكد نوع من المفص الشديد . . والبحث عن المسكنات أصعب من البحث عن الماء . . والبحث عن طبيب أصعب من البحث عن رجل بلجيكى فى الكونغو !

وحول المطعم ظهر عدد كبير من رجال الأمم المتحدة . . وكلهم من الجزائريين الذين وضعوا علامات الأمم المتحدة . . واقتربت وسلمت . . وطلبت الماء . وجاء الماء . وطلبت الدواء ووجدت الطبيب والدواء . وكان الطبيب دنمركيا . وعرفته بنفسى وبزملائى .

وضحك الطبيب وقال : احترسوا من الأمراض الخبيثة ! ولم يضحك عندما قالها . وإنما كان جادا . ولذلك استوضحته . وكان رده : انه توجد أمراض جلدية مستحيلة العلاج !

وعرفت فيما بعد أن عبارته هذه أخبرت من الأمراض الخبيثة ! فقد كان يريد منا ألا نصافح أبناء الكونغو أينما وجدناهم . . المواطنين العاديين والموظفين . . فمن عادة أهل الكونغو أن يمدوا أيديهم بالسلام . . فقد كان من المحرم عليهم أن يصافحوا البلجيكى الأبيض . . ثم أن هذا البلجيكى قد عاش عشرات السنين وهو يقطع أيدى أبناء الكونغو لاتفه الأسباب . . فإذا نحن ترفعنا عن مصافحتهم ، ونحن أفريقيون مثلهم ، كنا أسوأ من البلجيكين المستعمرين !

ولذلك لم أكد أرى واحدا من أبناء الكونغو حتى تقدمت إليه . . دون أن أرى الرمح الطويل الذى ألصقه بجسمه ودون أن ألاحظ أنه عريان تماما ، ومددت يدى وقلت له ما معناه : ازيك يا أخ . .

ولا أعرف أن كانت هذه العبارة التى قد صدرت منه معناها : العبيط أهوه . . أو كان معناها : لقد مضى وقت طويل لم يصافحنى رجل أبيض ! . . وإن كنت أشك فى أن لونه كان أبيض فى ذلك اليوم . . فالسهر الطويل . . والارهاق الشديد . . والجوع والاضطراب النفسى والمفص قد جعلنى أصفر اللون . . ولا بد أن أعصابى كانت مشدودة لدرجة أنها سحبت عينى من وجهى فادخلتهما بضعة مليمترات الى وراء . .

ولا بد أن شعرى قد ازداد كرمشة . . وأصبح أقرب الى شعر الزنوج . . على كل حال هذه صورتى كما أراها أنا . أما صورتى كما يراها هذا الأخ الزنجى فلا أحد يعرف مداها . . ولكن مهما كانت صورتى فى عينيه ، فإنها لم تمنعه من أن يمد يده . . ويضغط على أصابعى بقوة . . كأنه يؤكد لنفسه أن الذى يمسكه لحم آدمى أبيض حقيقى . . وأنه ليس حالمًا . . وإن كنت أنا على يقين من أنه حالم فعيناه لهما بريق غير محدد ، وحدقتا العينين جامدتان . أنه يشبهنى عندما ذهبت للقاء ملكة الفجر فى شمال إيطاليا وكنت من المعجبين بها . . وادخلتنى حاشيتها فى غرفة من داخل غرفة . . لأجدها أمامى عارية تماما . . وفى دورة المياه !

ويبدو أن مصافحتي لهذا الزنجرى قد شجعت زوجته أو ابنته على أن تمد يدها .. ومن وراء الأشجار ظهر كثيرون .. وامتدت أيديهم بالسلام والتحية ..

وعندما عدت الى السيارة قال لى الطبيب الدنمركى : انك شخصية محبوبة هنا .. وعثرت فى أعماقى على ابتسامة قديمة فأطلقتها . ثم عاد يقول لى : وأنت محظوظ أيضا .

وعرفت أننى محظوظ حقيقة .. فلو نزلت طائرتنا فى منطقة أخرى الى الشمال قليلا .. لكنت بطلا لمأساة حقيقية . فمن عادة القبائل هنا أنهم اذا اطمأنوا الى شخص أحبوه . واذا أحبوه بصقوا على وجهه .. فالحمد لله ..

ولا أذكر من الذى سألنى ما هى أحسن أغانى أم كلثوم لديك فقلت : النوم . فقد كنت أحلم بالنوم .. اذ أحسست أن جسمى أعلن العصيان .. لا شيء يطاوعنى .. أحاول فتح عيني فلا أقوى .. أحاول مد ساقى فلا أستطيع .. أحاول أن أقعد فأتوجع .. أحاول أن أقف فأدوخ .. أحاول أن أفتح فمى فيخرج الكلام طليقا غير معقول — ومعنى كلمة « معقول » هو بالضبط المعنى العربى القديم الذى قصده رجال البادية : عقل البعير ، أى ربطه بحبل .. والكلام غير المعقول أى غير المربوط بحبل من المنطق والفهوم ! ..

ودخلت بنا السيارة الجيب فى أحد القصور .. القصر له حديقة .. والقصر له دور واحد .. وعرفنا بعد لحظات أن المكان مهجور .. والتراب الكثيف على المقاعد والمناضد والنوافذ يؤكد ذلك .. وأوراق الأشجار التى غطت الطرقات لم تمسها يد ولا قدم منذ سنوات طويلة .. ولا أعرف أن كانت هذه الطيور القائمة التى تتكاثر فوق رؤوسنا طيورا حقيقية أو هى أوهاى .. أو هى الطيور التى رآها فرعون مصر وهو يروى أحلامه للنبي يوسف عليه السلام .. هل هى غربان أو صقور .. أو عصافير أو فراشات .. أو هى نقط حائرة فوق حروف الكلمات التى لا تقوى على الخروج من فمى .. أو التى خرجت بالفعل من أفواه الزملاء ولا أجد لها معنى ولا طعما ! ..

ليس هذا قصرا مهجورا .. انه أحد الأديرة .. وقد تركه الرهبان .. ووجدت فجأة أننى أستطيع أن أفتح عيني وأن أتحكم فى قدرتى على الفهم والتركيز عندما سمعت من أحد جنود الأمم المتحدة أن فى الدير مكتبة جيدة .. وأنه فى إمكانى أن أراها لو أردت .. والحقيقة أننى أريد ولكننى لا أستطيع .. واذا لم أستطع اليوم ، فسوف أستطيع ذلك غدا . وعلى مهل .. وتخيلت نفسى بسرعة أننى أحمل معى الى القاهرة عشرات من هذه الكتب .. ولم أستطع أن أتخيل أننى أحمل المئات .. فقد كان خيالى عاجزا عن حمل المئات فاكتفى بالعشرات ..

وكان لا بد أن ننتظر بعض الوقت حتى يعثروا لنا على غرفة نظيفة ..
أو على غرفة يمكن تنظيفها بسهولة .. وحتى يجدوا الشخص الذى يتطوع
لتنظيفها .. لأن أحدا لا يمكن أن ينظفها بالأمر .. فلا أحد هنا يأمر ولا أحد
هنا يطيع .. لا حكومة .. لا دولة .. لا قانون .. فالحكومة منقسمة
قسمين .. والقسمان منقسمان قسمين .. ولا أحد يقوى على تنفيذ
الأوامر المتضاربة التى يصدرها الرئيس كازافوبو .. والرئيس لومومبا ..
والرئيس تشومبى .. (وأرجو أن تعفينى من ذكر أسماء شيوخ القبائل التى
يصل عددها الى ألف قبيلة !) ..

وأخيرا قيل لنا أن هناك غرفة .
وعلىنا أن نصبر ساعة أخرى ..
وعلىنا أن نشغل أنفسنا بأى شئ ..
وفجأة قال لنا واحد منا : لو انفتحت لك طاقة القدر فما الذى تطلبه ..
فأجاب أحدنا : كوب ماء !
وقال آخر : دش بارد ! ..
وقال الثالث : سندوتش فول .
وقلت أنا : اطلب إليها أن تظل مفتوحة نصف ساعة .. لأن الذى
أحتاجه كثير جدا ..

وكان طاقة القدر كانت مفتوحة فعلا فوجدنا الغرفة .. وفى الغرفة
سرير .. وفيها مصباح ..

وكان طاقة القدر انقفلت : فقد كان من الضرورى أن ننام جميعا فى
هذه الغرفة .. نحن الأربعة ننام على السرير .. اثنان ينامان على السرير ..
واثنان ينامان على الأرض ..

وفى هذه اللحظة اعترضت على أن تكون أغنية النوم هى أحسن
الأغاني .. وانما أغنية : يا ليل نجومك شهود على لوعتى يا ليل ..

وكان التعب أقوى من خيالى ومن بقايا الكبرياء .. وارتيمت على
الأرض .. ولم يكن يفصل بينى وبين الأرض غير الصحف الصباحية التى
جئت بها من القاهرة .. وتمددت .. وتشجع زميل آخر فنام الى جوارى ..
أما الزميلان الآخران فقد ناما على السرير .. ولم يقو أحد منا على أن
يطفىء النور .. أما من التعب .. وأما من الخوف .. وأما من الحرص على
اصطياد الحشرات والهوام التى تتساقط من السقف علينا .. أو التى تكون
فى طريقها من الأرض الى السقف فتفضل أن تخترق أجسامنا .. أو تفضل
أن تبث فى ملابسنا على أن تبث فى العراء .. أو لعلها قد اشتاقت الى
اللحم الأبيض ..

وأعتقد أننى نمت بعض الوقت .. كأئنى قطعة من الحديد الملتهب
أسقطت فى ماء بارد .. فبعد لحظات من النوم المفاجئ العميق صحت ..

لأجد نوعا جديدا من النار .. فقد تكاثرت الحشرات على عنقي وساقى .. وعرفت أهمية المصباح المضيء .. وفتحت عيني — استطيع أن أقول أنني أنا الذى فتحت عيني .. وهذا اكتشاف عظيم لأنه يدل على أنني قادر على التحكم فى أعضائى — ووجدت محاولة قتل هذه الحشرات عبثا .. فلا يمكن حصر هذه الحشرات .. انها جيوش .. ولا أعرف بالضبط ما اسمها .. انها ليست كالنمل ولا كالقمل ولا كالبق .. ولا كالصراصير .. انها مستديرة وزرقاء وحمراء ولامعة .. وتمشى فى جميع الاتجاهات .. وتوهمت — من شدة الخوف — أن أحداها هى ذبابة تسمى تسي . وأظن أنني قد رأيت صورة هذه الذبابة فى بعض الكتب ومعنى ذلك أن « النوم » ليست أغنيتى المفضلة .. ولكنه نهايتى المحتومة ..

ووجدت زملائي جميعا نائمين .. ومنعنى الحياء أن أوقظ أحدا منهم .. ومنعنى اليأس من أن نشترك جميعا فى مكافحة جيوش الحشرات الاستوائية .. ولو أيقظتهم فأين نذهب .. ان الليل طويل .. والصمت رهيب .. والاصوات التى تجيء من بعيد لا أول لها ولا آخر .. وربما كان الصوت الوحيد الذى استطعت أن أميزه هو صوت التماسيح .. انها تبكى كالأطفال .. ونحن على مسافة أمتار من نهر الكونغو الهائل .. الواسع العميق اللأثر . وهو ملىء بالتماسيح — أما الصرخات والهمهمات والهمسات .. والصفير والشخير .. والمواء والعواء .. فلا أعرف لها مصدرا ..

اذن لا بد أن أسكت ..

ولكن لم أستطع .. فأنا ما أزال مرهقا .. والراحة التى حصلت عليها تكفى لأن أفتح عيني .. وتكفى لأن أشعر بهذه الحشرات المروعة .. وناديت زميلا نائما على السرير وقلت له : اصح .. اصح .. قال : ماذا حدث ؟

قلت : لم يحدث شيء ..

قال : يا أخى أسكت .. أنا تعبنا ..

قلت : أنا تعبنا أكثر منك .. ولكن أريد أن أسألك ..

قال : تسألنى الآن ؟ ..

قلت : ضرورى .. المسألة فى غاية الخطورة ..

قال : هل أنت جاد .. ؟

قلت : جدا ..

واعتدل فى جلسته ليسمع منى هذه القصة التى لا أساس لها من الصحة .. قلت : ان الطعام الذى تناولناه من ساعتين كان عبارة عن لحم قرد .. وأنا أعرف هذا اللحم . فلقد أكلت لحم القرد أكثر من مرة .. وأعرف النتيجة .. أعرفها .. بل أشعر بها .. لقد سبق لى أن شعرت بذلك .. ولولا أن طبيبا أنقذنى لكنت الآن فى حديقة الحيوان بهونج كونج ..

ولاحظت أنه فتح عينيه .. وأخذته الدهشة .. وسحبته الدهشة من قلب السرير حتى طرفه .. وسحبت قدميه إلى الأرض .. وسألني : لا أفهم ماذا حدث بالضبط ؟

أذن هو يريد أن يسمعني من جديد .. أذن هو قد صحا تماما .. وهو خائف جدا . قلت له : لقد أكلت لحم القرد في هونج كونج .. ومن خصائص هذا اللحم أن الذى يأكله تظهر عليه أعراض القرد .. فيهرش وتتغير نبرات صوته ..

وراح ينظر إلى يدي وهما تهرشان جنبى ، تماما كما يفعل القرد .. وبدأ الخوف على وجهه عندما وجدنى جلست مقرفصا .. أعلو وأهبط ..

وسألني : والحل ؟

قلت : لا أعرف ..

قال : ألا يوجد دكتور هنا .. طبعا هنا يعرفون هذه المكارثة التى تصيب الأجانب .. ولا بد أن لديهم مناعة ضد لحم القرد ..

ولم أزد على قولى وأنا أهرش بشدة عبارة : لا أعرف .. لا أعرف ! ..

أما الاحمرار الذى كان فى عيني ، وأما البريق الذى صاحب هذا الاحمرار فهو بسبب براعتى فى التمثيل .. واحساسى باقتراب النهاية ..

وجاءت النهاية : لقد قفز من السرير .. خائفا وانطلق إلى خارج الغرفة ..

وقفزت فوق السرير بكل قوتى ..

وسقط السرير ..

ولم تنم فرحتى ! ..

أَيُّ غُرْمَةٍ يَأْذِلُكَ !

والآن فقط عرفت ما معنى كلمة : المستحيل ..

والجواب المستحيل هو كل شيء .. وأى شيء .. فلا أمل عندى فى كوب ماء .. أو لقمة عيش .. أو صابونة أغسل بها وجهى .. مع أن الماء هنا تحت كل ملليمتر من الأرض أو من قشر الشجر .. والفاكهة هنا فى الغابة فى عدد أوراق الشجر .. ولكنها ممنوعة .. ويقال مسمومة .. ولكن أهل الكونغو عندهم مناعة ضد السموم وضد الحشرات والزواحف وضد كل عوامل المرض والفناء .. أما لأنهم مرضى بالفعل .. أو موتى حقيقة .. وأما لأن هذه الحشرات قد ملئت دماءهم وتتطلع الى دماء جديدة .. مع أن تركيب الدم واحد عند كل الناس .. وربما كان الخلاف بين الدم والدم هو فى الغطاء الخارجى .. أى فى البشرة فقط ..

ووجدت مواطننا فى الطريق المرصوف . وكل الطرق هنا مرصوفة وناعمة .. ألوف الكيلومترات . وقد حرص البلجيكيون على الطرق الكثيرة والمطارات المتعددة .. فالبلاذ واسعة — وسألته : ألا توجد هنا دار للسينما ..

وقال الرجل : كانت عندنا أكثر من دار ولكنها الآن مقفلة .

قلت : السينما فقط . ؟

قال : لم أفهم ..

قلت : أقصد صالة العرض هى المقفلة أما المطعم فلا بد أنه مفتوح ..

قال : كل شيء مغلق ..

قلت (ضاحكا ومحاوِلا أن أكون ظريفا) : أذن بلادكم الواسعة تضيق
ببِالأصدقاء ..

قال : لماذا ؟

قلت : لأننى لا أجد كوب ماء .. ولا أقول فنجان قهوة ..

قال : بل هنا مطعم قريب ..

قلت : مطعم ؟ قريب ؟

لم أسمع كلمة مطعم بوضوح رغم أنه قالها .. وأنا رددتها .. وكدت
أسحب ذراعاه .. وأسحب يده .. وأصبعاه من يده وأشير الى مكان
المطعم .. وأشار هو برأسه فى اتجاه المطعم .. ولم أجد وقتا لأشكره .
وذهبت وورائى الزملاء ..

انه مطعم جيد .. نظيف .. وعلى شاطئ نهر الكونغو .. ولا أعرف
اسمه . والاسم — كما يقول شيكسبير — لا يهم ..

والمطعم له كل ملامح المطاعم الأوربية الجيدة .. وبه مناضد وترابيزات ..
وبه أهم من المناضد أناس .. وأهم من هؤلاء الناس : نساء .. نساء
جلسن وحدهن .. وأمامهن زجاجات البيرة الصغيرة والكبيرة .. ومن بين
الزجاجات يتعالى دخان السجائر .. أما أصواتهن فأعلى من هذا الدخان ..

دعنى أحدثك عن هذا المظهر المفاجئ للحياة ..

النساء قد ارتدين ملابس بيضاء .. الجيب بيضاء والبلوزة ملونة ..
وكل واحدة لا تقل سنها عن ثلاثين عاما ولا يقل وزنها عن ٨٠ كيلو جرام ..
ولا يزيد طولها على ١٦٠ سنتيمترا .. أما خط الصدر فمثل خط الأرداف
أكثر من ١٢٠ سنتيمتر .. وأما خط الخصر فنصف ذلك ..

وهن يتكلمن الفرنسية بصوت مرتفع .. وإذا صح فهمى لحركات
السيدات فان هذه الارتعاشة فى العين هى غمزة فى اتجاهنا .. وعلى
سبيل اللعب والشقاوة حاولت أن أعرف من هو المقصود بهذه الغمزة
فأخفيت وجهى وتشاغللت بالكلام .. وأستمريت عملية الغمز بالعين اليمنى
مرة واليسرى مرة أخرى .. أذن فليست أنا المقصود .. وإنما المقصود
هو كل من يجلس معى .. أو نحن جميعا .. فهى غمزة عامة !

وبعضنا قال : ما رأيكم ؟

وبعضنا الآخر قال : هل تظن أن الفتيات سوف يدعوننا الى الغداء ..

قلت : أما الغداء فلا أريده .. إنما أريد فنجان قهوة .. ومتنازل عن

الغداء والعشاء ..

وغيرت مقعدى .. وأدرت ظهرى للفتيات .. ولكن أذنى كانت تلتقط

كل ما يصدر عنهن من كلمات .. وكان الحوار بين الثلاث فتيات تقريبا
هكذا :

— أظنهم جماعة من اليونانيين جاعوا يفتحون دكانا هنا ..

— معك حق .. فالإيونانيون موجودون في كل مكان .. ولو غرقت الدنيا
أظهر رجل يوناني يبيع أطواق النجاة ..

— ولكن يظهر أنهم جميعا ليسوا تجارا .. فأغلب الظن أن أحدهم طبيب ..
فأصابه رقيقة .. وحركانه بحساب ..

— أيهم ؟ .. ؟

— ذلك الذى أعطانا ظهره .. وهو أكثرهم حركة وأكثرهم قلقا .

— طبيب ؟ انه أقرب الى المرضى منه الى الأطباء ..

— لعله عاشق ..

— وجاء يتوب في الكنفو ..

— طبعا على يدك ..

وهنا تقدم جرسون وعلى يديه صينية بها أربعة فناجين قهوة .
وقبل أن أسأله كيف عرف أنني أكاد أموت شوقا وعطشا ومزاجا الى
فنجان واحد أشار بيده الى حيث جلست الفتيات الثلاث ..

وكان من الذوق أن أستدير لأشكر .. وبعد أن أشكر أتساءل كيف
عرفن ذلك ..

واستدريت لأشكر .. وانفردت صاحبة الغمزات واللمزات بالشكر ..
وبحركة من يدها رفضت الشكر . تماما كأن الشكر كرة تنس ويدها مضرب
.. وأصابنى الشكر في دماغى .. فقررت أن أذهب اليها وأشكرها .. وأعرف
منها كيف عرفت .. وهل يمكن أن يذهب بها الكرم لدرجة أن تأمر لنا
بفنجان آخر ..

ومددت يدي شاكرا لها .. وشاكرا للآخرى .. وللثالثة .. وسحبت
مقعدا وجلست وقدمت نفسى .. وقدمت كل واحدة نفسها : جورجيت ..
سوزى .. نادية ..

قلت : نادية .. اسم عربى .. ويمكن عالمى ! ..

قالت : أنا عربية .. وعندى كمية كبيرة من البن اليمنى ..

قلت : رينا يديم العروبة .. والاخوة .. والقهوة .. ويعوضك .

قالت : يعوضنى عن ماذا ؟

قلت : عن كل ما عندك من بن !

قالت : كل البن ؟ بعضه فقط !

قلت : وحضرتك ماذا تصنعين هنا ؟ ..

قلت : عاطلة .. وزميلتى عاطلة جدا .. والزميلة الثالثة ضائعة ..

قلت : الحال من بعضه .. ونحن أيضا نريد أن نعمل ولكننا لا نستطيع ..
.. لا لأنه لا يوجد عمل ولكن لأنه لا يوجد وقود .. لا ماء ولا طعام
ولا مأوى ..

ولم تتحمس الفتيات لهذا الموقف الذى يبدو أنه موقف تسول .. مع
أن هذه هى الحقيقة ..

وعندما مددت يدي اعتذر وكرر الشكر .. بدا الضيق على وجوه الثلاث
فتيات .. أما السبب فهو أننى تظاهرت بأننى أفهم بوضوح ما يقلنه ..
ولم أفهم معنى أن الثلاث يسكن فى فيلا مهجورة فى آخر المدينة .. وأنهن
يفضلن ضوء الشموع على المصباح الكهربائى .. وأنهن يفضلن الطعام
الساخن جدا مع المشروبات المثلجة جدا .. وأنهن يتفاعلن برقم سبعة :
هن ثلاث ونحن أربعة .. وأن اليوم هو يوم ٧ من الشهر السابع .. مجرد
صدفة ذكية ! ..

ولم أفهم معنى هذه الاقتراحات الوجيهة ..

واعتقد أن كلمة : « دوشة » وهى كلمة بدائية كونغولية معناها :
غبى ..

لقد تكررت هذه الكلمة عشر مرات على الأقل فى كل مرة أعترف فيها :
أننى لا أفهم ...

وأنا أقطع بأن هذا معناها .. لأننى لاحظت أن هذه الكلمة تخرج من
الفم مع مط الشفتين الغليظتين وحركة بالقدم على الأرض .. تماما كما
يبصق انسان على الأرض ثم يخفى معالم هذه الجريمة الصحية بحذائه !
وافقت من هذه المناقشة على سؤال رن فى أذنى : معقول نصل الى
الكونغو ولا نرى لومومبا ؟ ..

صحيح هل هذا معقول .. ؟ !

وكان الجواب أن هذا معقول جدا . فنحن لا نعرف أين هو الآن ..
ولا أحد يعرف .. فهو قد أخفى مكانه عن رجال القبائل وعن خصومه ..
وحتى لو عرف الناس مكانه فأنهم لا يستطيعون الوصول اليه .. فلا توجد
مواصلات .. التليفون وحده لا يكفى .. لأن التليفون يصل بين بعض المدن
فقط ..

وخرجنا من المطعم وعلى وجوهنا ابتسامات مغتصبة للفتيات الثلاث .. ؟

وعندما خرجنا من المطعم قابلنا الطبيب الدنمركى وسألته : هل هناك
أمل فى رؤية لومومبا ؟

فأجاب : لا أمل .

قلت : المواصلات .. ؟

قال : أنا أعرف مكانه .. ولكنه هو

قلت : ماله ؟

قال : انه في حالة نفسية سيئة جدا .. لا يكف عن الصراخ والشراب في وقت واحد .. وكثيرا ما خرج الصراخ شرابا ، وكثيرا ما تحول الشراب الى صراخ .. الى مفص واغماء ..

قلت : اذن ما الذى نفعله ؟

قال (ضاحكا) : حاولوا اقناعه بأن يكف ..

قلت : أسهل أن أكف أنا عن طلب أى شيء منك ..

قال : هل غضبت ؟

قلت : لا جدوى من الغضب فليس أمامنا أحد سواك .. نسأله فلا

يجيب ..

ولكن كان من الصعب أن اقتنع باستحالة لقاء لومومبا .. واتفقنا على أن نبحث عن طريقة لرؤيته .. ولكن اتفقنا لا يهم ولا قيمة له .. ما دمنه عاجزين عن تنفيذ هذا الاتفاق .. أو عن الانتقال من مجرد الكلام الى العمل ..

وعندما عدنا الى المطار الصغير حيث توجد بعض قوات الامم المتحدة سألت أحد الضباط السويديين : ألا توجد طريقة لرؤية لومومبا ..

وكان جوابه : لقد اختفى اليوم ..

وعرفت أنه اختفى في مكان .. في أى مكان .. فليس من الضروري أن أعرف أين .. لأنه من السهل على هذا الضابط السويدي أن يشير بيده المربوطة بالشاش الابيض الى الغابة .. أو الى نهر الكونغو .. لأفهم أن لومومبا قد اختفى في هذه الأماكن ..

وسألته أن كانت هناك أية صحف .. أية خرائط .. أى جهاز راديو لنسمع أى شيء .. لنعرف أى شيء .. رفع كتفيه الى أعلا كأنه يلقي بالمسئولية من فوقهما .. وحمدت الله أن المسئولية قد سقطت على الأرض .. ككل شيء هنا : على الأرض وفي الأرض .. فلا أحد مسئول عن أى شيء .. ولا حتى قوات الطوارئ الدولية .. انها قد ارتدت الملابس الأنيقة .. وكديست وراءها العلب الملونة لأنواع الطعام المختلفة .. وملأت جيوبها بالسجائر والسيجار .. ووجوهها بالابتسامة وبالضحك .. أما مرتباتهم فتحولت من تلقاء نفسها الى البنوك ..

أما الناس الذين جاعوا لحمايتهم فلا يعرفون عنهم شيئا : لا حكومة ولا شعبا .. ولا لومومبا !

وتساءلت فجأة : ما الذى يمنع أن تكون هذه البلاد أى بلاد أخرى ..
فلا يوجد أى دليل على أننا فى الكونغو .. فان أحدا من الناس الذين قابلتهم
قد ذكر لى اسم هذه البلاد .. بل أننى فى مطار القاهرة قد سمعت اسم
الكونغو من أحد رجال المطار .. ولكنه حتى عندما ذكر اسم الكونغو لم
يكن يقصد الطائرة التى سوف أسافر بها .. وإنما ذكر كلمة الكونغو مرادفا
لكلمة هيصة .. وأتذكر أنه قال بالحرف الواحد : أصلها هيصة .. كونغو !

ولا توجد هنا لافتة واحدة ..

ودفعنى هذا الشك الى أن أقف هذا الموقف المضحك .. فالتفت الى
موظف ارتدى القميص والبنطلون وقد ظهر جادا مهموما .. أو هكذا حاول
أن يبدو أمامى .. ربما لأنه وجدنى مهموما .. أو ربما وجدنى خاليا عاطلا ،
فانتهاز هذه الفرصة ليبدو أكثر أهمية .. وأكثر فائدة لبلاده .. اقتربت
منه وأطلقت ابتسامة عريضة فى وجهه .. كأنها يد ممدودة لتحيته .. وقلت :
قل لى .. أى بلد هذا ؟

فأجاب : أنه بلد ..

قلت وأنا أحاول أن أعرف حقيقة : الذى يراه لأول مرة يتصور أنه
الكونغو ..

فضحك قائلا : هل تعرف ما الذى قاله فيكتور هيجو عندما كان مريضا
.. ونظر الى نفسه فى المرآة .. قال : الذى لا يعرفنى يخيل اليه أننى
رجل حاقد على فيكتور هيجو ! ..

ولما لاحظت أن الموقف لا يحتمل مثل هذا الضحك سألته : هل هذه
هى الكونغو حقيقة ؟ ..

فأجاب : لا أفهم ماذا تقصد .. كيف كنت تتصورها .. تماسيح واكله
لحوم البشر .. أننا يا سيدى لم نأخذ فرصتنا فقط .. وأنت تعرف مثل
هذا المعنى .. أما أنكم فى الشمال قد نسيتم الاستعمار وماذا يعمل فى
الشعوب ..

لم أنس طبعاً .. ولا يمكن أن أنسى ..

وأهم من هذا كله أن هذه هى الكونغو ..

ولا أعرف ما الذى استفدته بعد أن تأكدت من أن هذه هى الكونغو ..
لم أستفد شيئا .. ولا أعرف كيف أضيف الى معلوماتى شيئا جديدا ..
ولو عدت الى القاهرة وسألنى الناس أين كنت فلا يوجد أى دليل مادى على
أنى برحت أرض القاهرة .. فلا أنا رأيت الخرطوم ولا أنا رأيت شيئا فى
الكونغو ..

وكأن أحد الزملاء سمعنى وأنا مشغول بالحديث مع نفسى .. وكأنه رانى
أضرب فكرة بفكرة .. تماما كما أضرب كفا بكف .. وكأننى كنت مسموعا
فقال : عندك مانع تقوم بمغامرة ..

قلت : اليسيت هذه مغامرة أيضا ..

قال : مغامرة أخرى محددة .

قلت : مثلا .. تقترح ماذا ؟

قال : نركب هذه السيارة ونخرج بها من المطار .. وهى سيارة للامم
المتحدة .. ومفروض أننا جئنا مع قوات الأمم المتحدة .. ونعمل فى خدمتها
.. ما رأيك بسرعة .. لا تفكر !

ولم يكن عندى مانع .. المهم أن أخرج من هذا الفراغ الذى فى نفسى
والذى حولى .. وأن المس شيئا أو أحدا .. وأن أسأل وأن أعرف ..
وأن أقول وأن يقال لى شيء ..

واتجهنا الى السيارة ..

وفى هذه اللحظة وجدنا أربعة من الجنود اتجهوا اليها أيضا .. ولأن
أحدا منهم لم يتصور أننا نفكر فى مغامرة : ركبوها دون أن يسألونا شيئا
.. لقد كانوا أسبق منا الى تحقيق رغباتهم ..

والذى صنعوه هو رغبة وليس مغامرة ..

واقترحت على زميل لى : ألا توجد عندك رغبة فى ارتكاب جريمة لن
يعاقبك عليها القانون .. لأن القانون اختفى هو الآخر فى الغابة أو فى
النهر ..

قال : أريد أن أقتل فعلا ..

قلت : الجوع .. والعطش .. والأرق ..

قال : وهذا الرجل !

وأشار الى أحد الموظفين من أبناء الكونغو .. فقد ذهب اليه يسأله
عن مكان يغسل فيه يديه ..

ولكن الموظف لم يرد عليه .. فظن أنه لم يفهم لغته الفرنسية فتحدث
اليه بالانجليزية .. ولكن الرجل لم يرد ..

وقررت أن أذهب اليه .. لا بد أن هناك شيئا .. أن هناك قصة ..
موضوعا .. كلاما .. شيئا مثيرا يهزنى من داخلى .. فأنا نائم فى جلدى ..
أو ميت فى جلدى منذ أكثر من ٢٤ ساعة ..

وعندما اتجهت الى الرجل الكونغولى ، لاحظت أن كلمة « تواليت »
معلقة على باب مكتبه .. ومعنى ذلك أن هذا المكتب كان قبل ذلك « دورة

مياه « ثم تحول بسبب زحف قوات الامم المتحدة الى مكتب مليء بالنشاط والحياة .. الى « دورة حياة » .. ولا بد أن هذا المواطن الكونغولي قد توهم أن زميلى انما أراد أن يسخر منه .. وجاء يطلب منه أن يخلى له المكتب بعض الوقت فيتمكن من أن يفعل شيئاً ما فى ركن من أركان الغرفة! وعذرت صديقى فقد كان مرهقا ، وعذرت الرجل الكونغولى فلم يكن يدري أن المكتب رغم ما به من أوراق ، ما يزال يحتفظ برائحته القديمة الأصلية !

وعلى الرغم من أن البقعة التى نتحرك فيها ضيقة .. فانها تدل على كل شىء فى هذه البلاد ..

فالشوارع مرصوفة ناعمة وكثيرة .. والمطارات متناثرة فى كل مكان .. والمطار عبارة عن قطعة أرض مغطاة بالأعشاب وموجودة فى قلب غابة .. أو على أطرافها .. والسكك الحديدية أيضا تربط البلاد من كل جوانبها .. والسيارات التى تراها من حين الى حين لا بأس بها .. والبلجيكيون قد أعدوا لأنفسهم كل وسائل الراحة .. والمواصلات كانت أهم المشاكل فى الكونغو الواسعة .. فأصبحت مريحة جدا ..

كما أنهم تركوا شيئاً من التزمّت فى البلاد أيضا . فقد لاحظت ونحن نركب سيارة الامم المتحدة أن بعض المشاة قد احتجوا علينا .. وظننا أنهم يحيوننا فى حماس غاضب .. أو فى غضب من نوع خاص .. ولكن لاحظنا أن الاحتجاج تكرر مرة وراء أخرى .. وكان السبب واضحا : اننا نمشى على الجانب الأيسر من الطريق وأننا لا نستخدم الكلاكس .. أو اننا نسرف فى استخدامه !

وفجأة — كأنه هبط من السماء — رأيت أحد رجال الدين .. وهو كل رجال الدين عنده الكثير من الهدوء والاطمئنان كأنه يحمل فى جيبه بوليصة تأمين على هذه الحياة وعلى ما بعد الحياة .. ولأنه رجل من رجال الدين فهو يمشى فى كل طريق وفى كل وقت آمنا مطمئنا .. وقبل أن أتجه اليه ، كان هو قد اتجه الى .. أنه طويل القامة .. أبيض اللون .. لامع الجبهة والمنظار ، والاسنان .. والأصابع بها خواتم ذهبية وفضية .. ومددت يدي وهو أيضا .. وكأنه توقع أن أقبلها .. ولم أفعل فليس عندى سبب يدعونى الى ذلك .. وقال بحكم العادة : ماذا ورايك يا ولدى !

وهزنتى هذه العبارة العادية بصورة غير عادية . فلم أسمع من أحد منذ عشرين عاما يقول لى : يا ولدى .. فقد مات أبى ولم أعد أجد معنى لهذه الكلمة بعده أو قبله .. ومن الغريب أنه تصادف أن يكون ذلك اليوم هو يوم مولد والدى .. صدفة .. وفى هذه اللحظة استعرت جو الكونغو .. فالتهب مشاعرى وتساقت منى الدموع ..

وأقرب منى القس .. ولكنه لم يعرف لماذا حدث ما حدث .. فقلت :
عندى همومى الخاصة ..

فأجاب بحكم العادة : أعانك الله عليها وعلى نفسك يا ولدى ..

واستجمعت رجولتى وحاولت أن أكون أكبر من الموقف .. وسألت
القس ان كانت هناك أية وسيلة أخرى للحركة ولقاء الناس .. فنحن أقرب
ما نكون الى أسرى الحرب .. أو كجماعة يلعبون لعبة « المساقة » ..
فقد سافرنا من القاهرة ولمسنا جدران الكونغو وسوف نعود غدا أو بعد
غد ..

وهز رأسه يؤكد لنا أنها بالفعل لعبة المساقة .. ولعبة الاستغماية ..
واننى لو أقمت فى الكونغو سنة أخرى فلن تتغير اللعبة أيضا ..

وحاولت أن أجعل للكلام معنى فسألته عن المكتبة التى يقال أنها موجودة
فى أحد الدير .

فأجاب بأنها نقلت من الدير القريب الى دير آخر يبعد سبعين كيلو مترا ..
وهذه المسافة تعتبر فرقة كعب فى بلاد واسعة شاسعة مثل الكونغو ..

وسألنى عن أى نوع من الكتب فقلت : أى نوع ..

وضحك وهو يقول : أعرف هذا النوع من القراء ..

وسكت .. وهز رأسه فى أسف تقليدى : كنت مثلك !

أى أنه كان مثلى يقرأ أى شئ ثم تاب الله عليه ليقرا شيئا محددا ..
أو ليتوقف عن القراءة !

وقاومت رغبتى فى أن أقول له انى فى حاجة الى فنجان قهوة ..

.. وأن زملائى المساكين فى حاجة الى رغيف عيش .. واننا جميعا —
مثله — على باب الله ! .

وكأنه على موعد مع أناس آخرين قال : هل تريد منى خدمة يا ولدى !
وفقدت شهيتى الى سماع كلمة يا ولدى .. وشكرته .. وفى اللحظة
التي تلقى منى فيها الشكر ، رفضه بهزة من يده ورأسه .. واستدار
بسرعة .. واختفى فى سيارته .. واختفت سيارته الصغيرة فى الطريق
الطويل ..

أهلاً... أمين باشا !

أما الورقة التي في جيبى والتي تسلمتها عند نزولنا الى مطار مدينة كوكياتفيل فهي تذكرنا بأنه من الضروري أن نلتقى جميعا في المطار في مكتب ضابط جزائرى .. وفي الموعد المحدد ذهبنا ..

المكتب نظيف .. الأرض كملايس الضابط نظيفة ولامعة . وكأنها هي أيضا « مكوية » .. والأبواب مثل الزراير نصفها معدنى والنصف الآخر خشبى ..

ولم يقدم لنا فنجانا من القهوة . أو الشاي أو يسألنا أن كانت عندنا أية رغبة في تناول شيء .. لقد نسي الرجل أنه عربى ، ولم يعد يذكر إلا ملايسه . والإشارة المعلقة على كتفه وعلى قبعته .. والا العلم الذى يرغرف أزرق فى أبيض على المبنى .. وكانت محاولة خبيثة من جانبى أن أتحدث اليه باللغة العربية .. وكانت محاولة يائسة منه أن يتكلم بالفرنسية .. هو يذكرنى بأنه أمم متحدة ، وأنا أؤكد له أنه عربى .. أو أنه من الواجب أن يكون عنده شيء من كرم العربى .. وانتهت المباراة الى نجاح الأمم المتحدة !

وتنفيذا لقرار الامم المتحدة يجب أن نعود الى القاهرة بعد ساعات .. لأن الطائرة التي حملتنا هي الطائرة الوحيدة التي يمكنها أن تعود بنا واذا لم ندرك هذه الطائرة فسوف يفوتنا كل شيء ..

وأول ما يخطر على البال طبعا أن يتلمس كل منا جواز السفر الذى فى جيبه ويسأل عن ادارة الجوازات وعن تأشيرة الدخول والخروج ..

وقد اكتشفت أنني خرجت من القاهرة بلا تأشيرة خروج .. فلم يسألنى أحد عن جواز السفر .. لا فى مطار القاهرة ولا فى مطار الكونغو .. ومعنى ذلك أننا — رسميا — لم نخرج من مصر ولم ندخل الكونغو ..

ولكن ما الذى يمكن أن يحدث لو — بمحض الصدفة — ضبطتنا إحدى الهيئات الطبية فى مطار القاهرة وليس معنا شهادة تطعيم ضد الكوليرا مثلا والحمى الصفراء وغيرهما من الأمراض المتوطنة والوبائية ؟

وسألنا رجال الأمم المتحدة .. واقترحوا أن نأخذ سيارة ونذهب بها الى إحدى المدن المجاورة .. ولم نعرف اسم المدينة .. وانما قيل لنا أن السائق يعرف وهذا يكفى .. وهناك سوف نجد طبيبا وعنده تعليمات لاجراء اللازم ! ..

أى أننا موضع اهتمام وتعليمات واجراءات وأنها ستنفذ جميعا .. وفى السيارة لم يتكلم السائق سوى كلمة واحدة .. لا بالعربية ولا بالفرنسية .. وهو ابتلع لسانه ونحن أيضا ..

وحتى عندما نظرت الى مؤشر السرعة فوجدت أنه تجاوز المائة والعشرين كيلو أدديت اعجابى بالسيارة وبنعومة الشارع المرصوف .. وكانت هذه حقيقة لا مجاملة فيها ، فلم يرد بكلمة واحدة .. وكأنه توقع منى أن أستمع فى الثناء عليه .. فاقترب منى قليلا لعلنى أرفع صوتى على صوت الموتور ، ولكنى لم أفعل .. وتركته يتوقع وانشغلت بالنظر الى الحقول .. والى الغابات .. وتوهمت أشكالا لحيوانات غريبة ..

وعرفت فيما بعد أن هذه الحيوانات التى رأيتها كانت بالفعل حيوانات متوحشة ولكن الأوصاف التى أذكرها ليست صحيحة فهى مختلفة تماما عما رأيتها .. واندعشت قائلا : وهل أنا مسطول ؟

فأجاب الطبيب الكونغولى : نعم ..

سألته : ماذا تقصد ؟

قال : من هذه البقع الصفراء على قميصك ..

قلت : وما هذه البقع ؟

قال : انها فاكهة نأكلها باحتراس شديد وليس فى هذا الوقت من العام .. لأنها لم تنضج بعد .. ولا بد أن أحدا قد داعبكم بهذه الفاكهة ..

وضحك .. ولم أضحك .. وشعرت بدوخة مفاجئة .. أما بسبب الحقنة التى غرسها فى جلدى .. أو بسبب المشرط الذى أسال دمنى ..

وتذكرت أن فتيات الكونغو قد ملأن جيوبنا ببعض هذه الثمار .. وظننا — بحسن نية وغرور أكيد — أنه الإعجاب .. أو الحب من أول نظرة .. ولم تكن هذه الثمار فى طبق أو فى ثلاجة .. وانما كانت تتدلى من شجرة

أدخلت فروعها إلى داخل المطعم .. ومن الغريب أن هذه الفاكهة الصفراء
لذيذة .. وان كانت لاسعة الطعم .. كأنها نوع من الجوافة المطعمة
بالمانجو والمرشوش عليها القليل من المستردة والشطة .. لذیذة ..
وهي تصيب من يأكل الكثير منها بشيء من الهلوسة ..

وبدأنا تراجع تصرفاتنا .. وأخذنا نضحك .. ولم يتسع وقتنا لنسأل
أن كان هذا الضحك الشديد الذى أسال عيوننا هو من آثار هذه الفاكهة
.. أو أنه شيء طبيعي ..

وحاول بعضنا أن يعثر على هذه الشجرة أو أية شجرة مماثلة لها ..
ولكنه لم يجد ..

ولم يكن من الصعب علينا تغيير تواريخ الشهادة الدولية التي صرفها
لنا الطبيب الكونغولي .. والا حجزونا في الحجر الصحي في مطار القاهرة
أسبوعين آخرين .. وقد حدث بالفعل لبعض الزملاء .. والحقيقة أنني
لم أكن في حاجة إلى هذه الشهادة الدولية فعندى شهادة صالحة للخمس
السنوات القادمة .. ولكن لم يتسع وقتي لأحضرها معي ..

وبسرعة عدنا .. وبسرعة نزلنا من السيارة .. ووجدنا الطائرة في
انتظارنا ..

ولاول مرة أرى الطائرة بوضوح .. انها جراج واسع .. أرضها
معدنية وجدرانها كذلك .. وقد أصبحت نظيفة وشديدة البرودة .. وأحسست
كأننى عريان ملط .. وأن ملابسى لا تحمىنى من أى شيء .. المقاعد المعدنية
تلسعنى كالجلوس على البلاط .. جدار الطائرة كالمقاعد باردة .. ومن
قلب الطائرة يرتفع سلم إلى كابينة القائد .. ومن كابينة القائد أرى بعض
الوجوه .. أنهم أكثر من طيار .. وفي الكابينة حركة غير عادية .. لقد
تحركت مراوح الطائرة .. واحدة بعد واحدة .. وزمجت الطائرة وبدون
أية تعليمات تحركت الطائرة الكبيرة جدا .. ومشيت على الأرض الخضراء
.. وارتفعت في الهواء .. إلى أين ؟ لا أحد يعرف بالضبط .. لم يدر بيننا
أى كلام ..

ولا تزال الحركة غير عادية في كابينة القائد ..

والآن يمكننى أن أصف هذه الحركة .. أنهم يتناولون طعام الإفطار ..
يفتحون علبا كبيرة .. العلب من الصفيح .. ويبدو أنها مثلجة وفي أيديهم
سندوتشات كبيرة مملوءة باللحوم الباردة .. ومعهم شطائر من التفاح ..
وكل شيء عادى جدا .. فهذه الطائرة بيئهم المتحرك .. ولا علاقة لهم
بالركاب سواء كانوا مدنيين أو عسكريين .. أنهم جماعة من الأمريكان في
مهمة دولية ..

وربما كان الشعور بالجوع والعطش هو الذى جعلنا نشعر بالبرودة

أكثر . . . وحاولنا أن نغطي هذا الموقف بالكلام . . . ولكن من الذي يسمع منا . . . أن أضوت الطائرة صارخ . . . ثم ما هذا الكلام الذي يمكن أن يدور بيننا . . . فكنا نضحك بلا سبب . . . أو كنا نضحك للسبب الذي عرفناه أخيراً .

ونَهَضت وتسللت إلى الكابينة : صباح الخير . . . ورد الكابتن : صباح الخير . . . بيرة . . .

قلت : شاى . . .

قال : حالا . . .

قلت : شكرا . . . ولزملائي أيضا . . .

قال : حالا . . .

وفعلاً جاء الشاى الساخن . . . وبهذه السهولة . . .

اذن من أين جاءت هذه الصعوبة التى نتعذب بها . . . الشاى سهل . . . والشراب سهل . . . والطعام سهل . . .

ولكن أحداً منا لم يحاول ولم يطلب . . . أن كل شيء موجود وراء هذه الأبواب وهذه الستائر . . . وفوق هذه السلالم . . . ووراء هذه الوجوه . . . ولكننا لم نحاول أن ندق باباً وأن نصعد سلماً وأن نقول صباح الخير وأن ننتظر الرد . . .

وقال : سندوتش . . .

قلت : أن كان ممكناً . . .

قال : ممكن . . .

قلت : ولزملائي أيضاً . . .

قال : ولصديقاتكم . . . أن كانت لكم . . .

وضحكت . . . وشجعنى الشاى والسندوتش والدفع الموجود فى الكابينة والألفة الانسانية التى تتم بسرعة بين الناس دون أن أعرف من هو . . . ولا هو يعرف من أنا . . . أنا فى مهمة وهو فى مهمة . . . ونحن الاثنين فى طائرة واحدة فوق الكونغو . . . ونتفاهم بلغة دولية . . . لغة الذوق والمجاملة . . . لغة مفرداتها الابتسامة والكلام والشاى والخبز . . . وتطرقت فى الكلام ورويت له قصة فاكهة الهلوسة . . . وضحك . . . وتمنى لو أنه ذاقها . . . وأخرج ورقة وقلما يكتب اسم الفاكهة . . . ثم أعاد القلم والورقة الى مكانهما عندما عرف أنني لا أعرف . . . ولكن الأسف كان واضحاً على وجهه . . . ولكن لحسن الحظ لم يصل الى درجة أن يسحب منى الشاى والسندوتش . . .

وأشار من نافذة الطائرة الى الأرض . . . وقال : هذه بحيرة فكتوريا . . . طبعاً !

من هنا ينبع نهر النيل العظيم . . .

ليس شكل البحيرة واضحا .. ولكن الماء لونه أزرق تركوازي .. وتوجد زوارق صغيرة .. أو حيوانات كثيرة بالقرب من الشاطئ .. هذه الحيوانات هي وحيد القرن .. السيد قشطة .. عددها كثير .. وان كانت تنقرض هذه الأيام .. وكذلك التماسيح .. فالمفروض أن يضع التمساح بيضه على الشاطئ وقتا طويلا .. ولكن كثرة الحركة السياحية في جانب من هذه البحيرة يجعل التمساح يهرب الى الماء ويترك البيض فتجىء بعض الطيور أو الحيوانات المفترسة وتأكل البيض ..

وسألني كابتن الطائرة أن كانت القعدة مريحة .. وأشار الى حيث كنا نجلس فقلت : عذاب في الذهاب وعذاب في الاياب !

ولم يهتم .. فهو كرجل عسكري .. قد اعتاد على هذه المقاعد الموجعة لكل خلية في الجسم .. وأشار الى زميل عجوز وقال : أدوارد ..

وجاء العجوز ادوارد أنه يشبه العمدة في أفلام رعاة البقر .. طويل القوام .. مقطب الوجه .. اذا تكلم اهتز .. وتمايل .. ولكن يده دائما قريبة من مسدسه .. ولم تكن على صدره النجمة المعروفة .. وجاء ادوارد ونظر الينا .. كأنه يرانا لأول مرة ..

وسأله : التكيف متعطل .. ؟

ورد عليه ادوارد ببرود أشد من أرضية وسقف الطائرة : انه لا يعمل ..

وهنا اعتذر الكابتن وأصلح هو جهاز التكيف ؟

وفي لحظة تحولت الطائرة الى غرفة دافئة مريحة للاعصاب .. وأصبح الهواء كأنه نعومة الحرير والمخدات والألحفة .. ونامت كل خلية حية في جسمي .. وهتفنا جميعا لادوارد : الله يخرب بيت أبوك يا عمدة .

وسألني : ماذا تقولون ..

فقلت : النشيد القومي ..

فقد كان في استطاعة ادوارد هذا أن يشغل التكيف منذ ساعات ويرحمنا من البرد الشديد الذي دغدغ عيوننا ودشدهش بقية الأعضاء ..

أما أنا فعندى بقياس للبرد لا يخطيء : اننى اشعر به في الجانب الايمن من بطني ..

واختفى احساسى بالجانب الايمن من بطني .. واحساسى ببطني .. اذن فالجو دافئ والسماء صحو .. والشمس مشرقة .. وما تزال بحيرة فكتوريا تحتنا .. وما تزال في المناطق الشمالية من الكونغو .. والطائرة متجهة الى السودان ..

ولكن الحالة المعنوية أحسن ..

والكلام الذى دار بيننا هو من وحى الدفء .. ومن وحى الشىء
والسندوتش .. ودفء العلاقات الانسانية التى تولدت بسرعة .. حتى
ادوارد العجوز ما يزال جالسا عند أعلى السلم وقد وضع ساقا على ساق
واستعاد ذكريات حزينة .. واضح انها حزينة .. وراح يغرقها فى أكواب
البيرة الباردة .. ويرفع صوته بالغناء .. انه مبسوط ..

وعندما اهتزت الطائرة فجأة .. هز رأسه وأشار بيده .. إشارة لم
تفهمها .. وبدأت الطائرة تهبط .. ومن النافذة بدأت الأرض الخضراء
تقترب .. والغابات الكثيفة فى كل مكان .. وهبطت الطائرة .. ولكن
المطار مختلف .. فله ممرات وهناك برج .. ووقفت الطائرة ، وانفتح الباب
الخلفى .. ونزلنا من نفس المكان الذى نزلت منه عربات الجيش والذخيرة
المصرية .. وأشار إلينا ادوارد أن نازل .. وقال لنا : الا اذا كان أحد
منكم يريد أن يبيت هنا .

ولم يكن عندنا كلام نقوله ..

ولكن غلبت علينا الرغبة فى أن نعرف أين نحن .. وأن نتفرج واذا لم
تجد مكانا عدنا الى الطائرة .. أما هو فبحكم العادة أخرج بطانية .. أو مرتبة
.. ودخل فيها .. وشد السوستة .. ونام فى جانب من الطائرة .. ويبدو أنه
نام بالفعل .. وفى دقائق .. ونزلنا من الطائرة .. ووجدنا البوفيه .. البوفيه
نظيف .. والجو نفسه منعش .. والمكان مرتفع .. والجرسونات يمشون
حفاة ولكنهم يلبسون طربوشا فاقع الاحمرار .. والزر الى الامام .. والضحك
على وجوههم جاهز .. وأية إشارة اليهم تجعلهم يضحكون أكثر .. انهم
كأبناء الفلبين وأندونيسيا يضحكون على الفاضى وعلى المليان .. وليسوا
كأبناء اليابان الذين يضحكون بحساب : فهم يضحكون ليعطوا لأنفسهم
ولغيرهم فرصة للتفكير فيما بعد ذلك .. أى فيما بعد الضحك ..

فالضحك فى اليابان مثل هذه المسافة البيضاء التى جاءت فى هذا السطر
.. انها مسافة وبعدها يجىء الكلام ..

وهذا البوفيه مشجع .. والضحك مشجع أكثر .. والحالة المعنوية
عالية .. ولا أوجاع فى البطن ولا فى الرأس .. وقلت لواحد منهم — هل
نحن فى كينيا ؟

والآن أريد أن أصور ما الذى حدث فى البوفيه .. أريدك أن تتصور أن
قنبلة من قنابل الغاز التى تبعث على الضحك وتسيل الدموع قد انفجرت
فى كل واحد من الجرسونات السبعة الموجودين فى البوفيه .. وأن هذه

القنبلة متعددة المراحل .. وأن مرحلتها الأولى قد انفجرت في العيينين ..
والثانية في الفم .. والثالثة في البطن .. والرابعة قد انفجرت في البنطلون ..
وأن هذه القنبلة اسمها : هل نحن في كينيا ؟ ..

لقد تعالت أصوات الجرسونات بالضحك والدموع .. والتساقط على
الأرض ..

وبدا الزملاء يسألوننى عن النكته التى قلتها .. وكررت ما قلت ..
واندهشوا هم أيضا .. وبعد أن زال أثر القنابل المضحكة اقترب واحد منهم
وقد عاوده العبوس الذى يعقب الانفعال الشديد وقال : نحن في أوغنده !
ولم أشرح له اختلاط أوغنده وكينيا في رأسى .. فلا أحد قال لنا أين هبطنا
.. وحدود أوغنده وكينيا متجاورة .. ولا أعرف أن وصف أوغنده بأنها كينيا
يبعث على الضحك .. ولكن ما داموا قد ضحكوا ، فلا بد أن هذا مضحك ..
تماما كما تذهب الى سوهاج وتقول لهم : مش دى أسيوط !

ولا بد أن أهل أوغنده وجدوا في جهلى فرصة سعيدة لشعورهم بالتعالى
على رجل أبيض جاهل .. ومن المؤكد أننى أسعدتهم ورددت لهم اعتبارهم ،
ولو كنت أعرف أشياء أخرى تسعدهم لفعلت ، فان الشاى الذى قدموه قد
انعثنى وأسعدنى .. وشربت كوبا وراء كوب .. وفى كل مرة امتدح
الشاى الأنجليزى .. بل أننى تطوعت ودخلت البوفيه وصنعت الشاى
على الطريقة التى تعلمتها في جزيرة سيلان .. ومن خبراء الشاى ..
وما زلت حتى اليوم أسير هذه العادة ..

ولما سألونى كيف تعلمت صنع الشاى ..

وجدت الفرصة التى أحولهم فيها الى تلامذة .. واسترد فيها مكانتى
كواحد لديه الكثير من المعرفة في هذه الصناعة التى يأكلون منها العيش ..
ولكى أؤكد لهم أن الخلط بين كينيا وأوغنده من الجو ممكن جدا .. وكثيرا
ما أسقطت الطائرات في الحرب قنابل على أهداف خاطئة .. قلت تعلمتها في
شركات الشاى في مدينة كولبو بسيلان .. وفي مقاطعة دار جيلنج في الهند ..

ورويت لهم كيف أن إحدى شركات الشاى في سيلان قد طلبت منى
أن أعطيها عنوان عشرة من أصدقائى في جميع أنحاء العالم لكى يبعثوا لهم
بهدايا من الشاى الفاخر الذى لا يباع في الأسواق .. واننى أعطيتهم عناوين
عشرة من الأصدقاء .. واننى عندما عدت الى القاهرة وجدت الشركات قد
أرسلت لكل واحد منهم كيلوجرامين من الشاى الطويل المعطر .. وقيل لى أنه
شراب الملكة اليزابيث المفضل .. وكم كان حزنى عميقا .. وكم كانت فرحة
أبناء أوغنده هائلة .. عندما قلت لهم أننى نسيت أن أعطى للشركة عنوانى ! ..

ولكن هذه الشركة عندما علمت بهذا المقلب الذى أوقعت نفسها فيه أرسلت
لى كمية أخرى من الشاي المعطر ..

ولا أعرف ما الذى منع هؤلاء الأوغنديين أن يطلبوا منى أن أعمل معهم
فى البوفيه .. ولا داعى للعودة الى القاهرة ..

وسألت جادا : أين نحن ؟

قالوا : أنت فى أوغنده .. وهذه مدينة عنتيب ..

لا أعرف الكثير عن هذه المدينة .. ولو تركنى وحدى هذا الجرسون
الذى أعجب ببراعته فى صناعة الشاي لعصرت ذاكرتى بحثا عن دلالة
هذه المدينة .. الآن فقط أستطيع أن أجد عندى بعض المعلومات .. فهذه
المدينة كانت تابعة لمصر يوما ما .. فقد كانت العاصمة القديمة لأوغنده ..
أما العاصمة الآن فهى كمبالا التى يعرفها عشاق كرة القدم .. فقد أجريت
فيها مباريات كبرى بين مصر ودول الدورة الافريقية .. والجيوش المصرية
أيام الخديو اسماعيل قد رفعت العلم المصرى على هذه المدينة وعلى غيرها ..
ويوجد أثر للمصريين فى أماكن مختلفة من البلاد ..

ويمكننى أن أفسر سبب الضحك الغريب الذى كان تعليقا على اسمى
عندما سألتنى أحد الجرسونات عن اسمى ، ونحن منهمكون فى صناعة الشاي ،
فقال : آه .. أمين باشا ؟ !

وسألته كم عمرك ..

قال : سبعون عاما ..

وكان يبدو فى الأربعين .. وسيظل يبدو كذلك ما دام يضحك طوال الوقت
ويغسل همومه أولا بأول ..

وأمين باشا هذا الذى أضحكه .. هو أمين باشا محمد .. وهو الطبيب
الألماني الذى عينه غوردن باشا حاكما على المحافظة الاستوائية بأمر الخديو
اسماعيل يوم كان العلم المصرى يرغرف على هذه البلاد .. وأمين باشا هذا
كان طبيبا ممتازا .. وكان يتقن عشر لغات وعشرات من اللهجات الافريقية ..
وقد اشتغل فترة طويلة فى قصر السلطان بتركيا .. ولذلك اتخذ لنفسه هذا
الاسم التركى .. وأن كان لم يعتنق الاسلام ، واسمه الحقيقى هو ادوارد
اشنتسلر وقد أوعدته الحكومة الألمانية ليوسع حدودها الى ما وراء تنجانيقا
التي كانت مستعمرة ألمانية .. وحاول كثيرا .. ولكنه سقط فى أيدي تجار
الرقيق فقتلوه سنة ١٨٩٢ ، وكان فى الثانية والخمسين من عمره .
ولم يترك كتباً عن مغامراته ، وإن كانت بعض المجلات قد نشرت مقالات كثيرة
يتحدث فيها عن هيامه بجمع النباتات النادرة والحيوانات الغريبة .. ويقال
أنه تزوج فتاة من مدينة عنتيب ..

وسألت الجرسون الذى أضحكه اسمى : هل تعرف أمين باشا جيدا ؟ ..
أعدت عليه السؤال عندما لم لاحظ ما يدل على معرفته لهذا الرجل
نفتال : أعرفه .. أنا اسمى أمين باشا محمد ..

قلت : مسلم ؟ ..
قال : أولادى فقط ..
قلت : وانت ؟ ..
قال : مسيحى ..
قلت : وزوجتك ..
قال : مسيحية ..
قلت : وكيف حدث ذلك ؟ ..
قال : يحدث هذا كثيرا ..

ولم أجد عنده تفسيراً .. ولكن يبدو أن هذا يحدث كثيرا .. أن يكون
الأب مسيحياً وأولاده مسلمين ، ويحدث كثيرا أن يحتاج الإنسان الى من
يشرح له ، ثم لا يجده .. ويسكت دون أن يفهم ! ..

الحمد لله .. شربت وأكلت .. وضحكت وأضحكت .. وجاء الليل بسرعة
اليصنع لنا مشكلة جديدة .. أين ننام ! ..

وقبل أن نفكر فى النوم يجب أن ندفع ثمن الشاى .. وثمان السندوتشى
والحلوى التى جاءت فى حماية الشاى وبسببه ..

وتكرر الضحك بنفس القوة عندما أخرجت من جيبي بعض الفرنكات
الكونغولية .. وحاولت أن أدفع .. وعرفت بسرعة أن هذه الفرنكات
تشبه « بونات » بونيه محطة مصر .. وأنا أشبه من يأخذ هذه البونات
ويعطيها لجرسون فى محطة روما .. مضحكة .. وأنا مضحك ! ..

وكانت فرصة لأمين باشا أن يصر على أن يكون الحساب عليه هو ..
وشكرنا أمين باشا وتمنينا له طول العمر والصحة وأن يظل بيته عامراً ..
وقبل أن نفكر فى أين نذهب .. هل نتفرج على المدينة .. أو هل ننام
مبكراً فى الطائرة .. وما دامت الفلوس الكونغولية لا تنفع فما الذى نفعله ..
ظهر لنا رجل انجليزى .. يبدو أنه من رجال المطار ..

وسألنا : من مصر ..
قلت : نعم ؟
قال : كم يوماً تبقىون هنا ..
قلنا : حتى الصباح ..
قال : ما مشروعاتكم ؟ ..

قلنا : أولا نبحث عن مكان ننام فيه ..
قال : وثانيا ؟ ..
قلنا : نتفرج على المدينة ..
قال هو في رقة جادة : اذن نبدأ بثانيا ؟ ..

ومشيينا معا ووراءه دون أن نسأله من هو وما شأنه .. ولكن لم يكن
من الصعب أن نعرف أنه أحد رجال السلطة جاء لمراقبتنا بصورة رقيقة ،
وأخذنا في سيارته ، وذهبنا جميعا الى أحد محلات البقالة .. المحل هندي ..
والهنود كثيرون هنا وفي كل المستعمرات البريطانية الأخرى .. وشربنا شايًا
.. وفي المحل قابلنا عددا من المواطنين وسألونا عن بلدنا .. وماذا نصنع ..
ومن الغريب أنهم سألونا عن بعض الصحف المصرية .. وبعض الكتاب
المصريين .. وعن موضوعات محددة نشرتها الصحف المصرية .. فهم من طلبة
الجامعة الأزهرية ! ..

وانصرفنا .. في سيارة الضابط الانجليزي .. واتجه بنا الى أحد
الفنادق .. وأوصلنا الى باب الفندق .. وتأكد من دخولنا ومن وقوفنا أمام
صاحبة الفندق .. ومن أننا كتبنا استمارات الإقامة وسجلنا أسماعنا وأرقام
جوازات السفر .. ودعنا الرجل وشكرناه .. ووعدنا بالعودة في الصباح
ليرافقنا الى الطائرة ..

والفندق من طابقين .. وكل الفنادق الاستوائية .. مليء بالأشجار ..
وعلى النوافذ ستائر من السلك ضد الحشرات والبعوض بصفة خاصة ..
وفي كل غرفة جهاز تكييف .. وفي الطريق الى غرفتنا مررنا بالمطعم .. ثم
حبسنا أصواتنا وأنفاسنا عندما وجدنا المطعم مليئا بالنفاس ولكن أحدا
لا يسمع لهم صوتا .. وهم جميعا بالملابس الكاملة .. الرجال بالبدل
والكرافتة .. والسيدات بالسواريه .. ونحن قد ارتدينا ما يشبه « العفريته »
.. والهدوء والدفء والأنوار الناعسة والأطعمة الشهية والأكوام الزجاجية
الطويلة .. والأوان على الجدران والمقاعد والستائر والفساتين والليل
والجوع والحرمان يحرك المعدة والقلب ويجعل النوم حراما على كل من
عنده احساس أو ذكريات ..

ولكن لا وقت للذكريات ..

ويظهر أنه لا مفر من الذكريات المؤلمة على الأقل .. فعندما تأملت وجه
السيدة صاحبة الفندق .. كان الوجه مألوما .. لا أعرفها .. ولكن أعرف
مثل هذه الملامح .. وسألتها : من أين ؟

قالت : من القدس ..

قلت : العربية ؟

قالت : لا ..

قلت : وتكلمين العربية طبعاً ؟ ..

قالت : طبعاً ..

قلت : بايخة ! ..

ولم أقلها بصوت مرتفع .. فقد علق بعض الزملاء على ملامحها وعرفوها .. وعلى أنفها وعلى شعرها المنكوش وعلى التكشيرة التي تزداد لحظة بعد لحظة .. وعلى أنها نبهت الى ضرورة الدزام الهدوء .. الذى التزمناه بالفعل ! ..

وفى الغرفة وجد كل منا ما يحتاج اليه ..

وجدنا سلالا من الفاكهة .. فاكهة نعرفها وفاكهة لا نعرفها .. وأهم من هذا كله وجدنا الدش .. وأهم من الدش وجدنا السرير .. وأهم من السرير وجدنا النوم ..

وكان الصباح جميلاً ..

كل شىء هادىء .. الغرفة نظيفة .. الألوان بيضاء .. السرير والغطاء .. والجدران .. والأكواب كلها خضراء ووردية .. ومن النافذة بدت الحديقة فاتنة .. الأشجار مليئة غنية بالأوراق والثمار .. والطيور ثرثرة ولكنها متنوعة .. والفندق يشرف على المدينة .. ويتوارى خلف الأشجار حتى لا يبدو مشرفاً بالفعل ! ..

ودق جرس التليفون فى الغرفة .. ولم تمتد اليه يد .. فنحن لا نتوقع شيئاً ولا أحداً .. ونحن نعرف مقدماً ما سوف يحدث .. وان كنا نتمنى أن يحدث شىء يجعلنا نبقى هنا يوماً أو يومين ..

وفى التليفون سمعت أن الضابط الانجليزى فى انتظارنا .. انه ضابط أمن نشيط .. انه يريد أن يطمئن على أننا سوف نسافر اليوم ، ولم يقل فى التليفون انه يتعجل أحداً .. وانما فقط يريد أن يقول لنا انه موجود ..

وكان فى نية أحد الحاضرين أن يسأل عن فول مدمس .. ولكنه تراجع عندما تذكر هذه السيدة صاحبة الفندق .. واكتفى بالشاى والبيض والزبدة واللبن ..

وفى هذا الجو الاستوائى قررت أن أتناول أفطاراً من نوع خاص .. يذكرنى بأيام الهند وسيلان وأندونيسيا .. فطلبت بيضا بالطماطم والفلفل الأخضر والأحمر .. وطلبت كوباً من عصير الطماطم بالشطة .. ثم طلبت شرائح من الاناناس .. وشرائح من البابايا .. وبعض البندق الهندى .. وكوبين من الشاى الانجليزى « المعبر » ولا بد من اضافة هذه الصفة لأن لونه أحمر ذهبى ورائحته كرائحة العنبر الوردى .

ووجدت فى هذا الإفطار تعويضاً سخياً عن كل ما حدث فى الأربع والعشرين ساعة الماضية .. ورضيت عن التعويض ، واسترحت نفساً ،

وجسما .. وكان هذا واضحا تماما في مصافحتى للضابط الانجليزى الذى بدأ أكثر انتعاشا منا جميعا .. وكان من الواجب أن أسأله كيف نام وأين وماذا أفطر صباحا لعلنا نعرف سر هذه الحيوية والشباب واليقظة .. ولم أجد مبررا لذلك فالذى أشعر به أرضائى وأشبعنى وأمدنى بقدرة على احتمال الطائرة حتى نعود الى القاهرة ..

ونقلتنا السيارة الى المطار .. والسيارة هى التى نقلتنا وليس الضابط .. فلم نشعر به .. لانه لم ينطق بكلمة واحدة .. كأنه يتوقع أن نقول شيئا .. أو كأنه يدخر قواه لينفقها فى عمله .. أما نحن ففى الطريق الى عمله .. وعندما دخلت السيارة أرض المطار رأينا الطائرة .. وقد وقف عند بابها الخلفى ذلك العجوز ادوارد ، وواضح أنه ينتظرنا .. تماما كما يفتح بقال ريفى دكانه وينتظر الزبائن الذين لا يفتحون النفس الى العمل كأن يشتروا بقرش شاي وبقرشين سكر .. وأشياء تافهة أخرى ..

وصافحنى الضابط الانجليزى وشكرناه وتقبل منا الشكر الذى يتوقعه ويستحقه .. أيا كان السبب .. ودخلنا الطائرة .. وأقفل الباب .. ودارت المحركات .. وأسندنا الظهر الدافئة الى الجدران الدافئة .. ومددنا أقدامنا .. وتعالى أصواتنا بالضحك وبالكلام .. ولم نلتفت الى الكابتن أو العجوز ادوارد .. ولا نعرف كيف أن المسافة بين عنتيب والقاهرة كانت قصيرة الى هذه الدرجة رغم أنها استغرقت سبع ساعات ..

ومن النافذة رأينا القاهرة .. وهبطت الطائرة .. وصافحنا الكابتن وزميله والعجوز ادوارد .. ونزلنا فى مكان بعيد من المطار .. ولم تكن هناك أية سيارة تنقلنا من مكان الطائرة الى المطار .. وكانت المسافة طويلة .. وفى وضوح النهار ظهر الاعياء علينا .. وعلى ملابسنا المتكسرة المليئة بالبقع .. وعلى أحذيتنا التى تلطخت بالطين .. ودخلنا المطار وسألونا : من أين ؟

قلت : من الكونغو ..

أما كيف خرجنا .. وكيف نزلنا وكيف صعدنا وكيف عدنا .. فالجواب : أن كل شيء تم بالليل وبسرعة .. بالليل هنا .. وبسرعة هناك .. حيث لا حكومة .. لا جيش ولا بوليس .. وحيث البلاد مفتوحة كالسما .. لا أحد يعرف انداخل ولا الخارج ولا أحد يهمه أحد ..

أما شهادة التطعيم والحقن فهى التى فتحت الباب الخارجى الى البيت .. بينما ظل بعض الزملاء فى المحجر الصحى أسبوعين آخرين .. فلم يتمكنوا من الحصول على شهادات دولية .. أى أنهم سافروا الى الكونغو وعادوا فى ثلاثة أيام .. ولكنهم لن يسافروا من مطار القاهرة الى القاهرة نفسها الا بعد ١٤ يوما !

وفي الطريق الى القاهرة سألتني أحد الزملاء : نفيسك في أية دلوقت ؟ ..
قلت : بصراحة وإخلاص .. نفسي أسافر الى الكونغو ..
وكمن سمع — نكتة — بايخة قال الزميل : أنا حرمت أسافر معاك ..
انت رحلاتك انتحارية ! ..

ليست انتحارية .. ولكن أريد أن أعرف .. أن أفهم .. ولم يتسع
وقتي لكي أفكر وأدبر .. وأتدبر .. فكأننا ذهبنا الى زيارة أناس قد دخلوا
الفراش وشربوا عشرات من الحبوب المنومة بينما شربت عشرات من فناجين
القهوة السادة استعدادا لهذا اللقاء والحوار .. وكل الذي دار بيننا هو أننا
تجاذبنا الغطاء .. أنا أسحبه عنهم وهم يشدونه .. وغلبنى التعب وغل بهم
النوم .. ثم غلبنا جميعا ! ..

* * *

صنع في ألمانيا..

أكبر غلطة لغوية !

كان ذلك في الحفلة التي أقامها مصدرو الأرز في مدينة همبورج .. جاء دورى في الكلام . فقلت : اننى قد رأيت ألمانيا ١٥ مرة .. وفى كل مرة أجد تغيرا عجيبا .. الشوارع النهارية المظلمة تحولت الى فترينات باهرة .. والعمارات كأنها اختفت تحت الأرض بسبب المغارات الجوية .. ثم أعيدت الى وجه الأرض .. ان الألمان يطبقون شعار دافنشى الذى قال : اننى لا أصنع التماثيل .. اننى أكشف عنها الحجر فقط .. انها معجزة ؟ .. وواضح من الذى قلته اننى معجب بالعبقريّة الصناعيّة ، والمعماريّة الألمانية ..

ولكن الألمان لم يفهموا هذا المعنى الذى قصدته .. فقد نهض واحد منهم غاضبا ساخطا ليقول : انها ليست معجزة يا سيدى .. ان المنديل الذى كنت أمسح به عينى كنت أمسح به أنفى أيضا .. اننى حملت ابنى وزوجتى على ظهري من برلين حتى وصلت الى هذه المدينة ..

وجلس .. ولم أفهم شيئا ..

وانتهت الحفلة .. ولم أتمكن من أن أستوضحه .. ولا أعرف أين المكان الذى أوجعته من جسمه أو من نفسه .. اننى لم أتعرض الى قفاه أو ظهره .. ولم أقل انه كالحصان يستطيع أن يجر عربة .. وأن يحمل زوجته وابنته على قفاه .. ولم أقل انه من الواجب أن يفعل الانسان ذلك .

وسألت عن سبب غضب هذا الرجل من اعجابى بالشعب الألماني ونشاطه الغريب . وكان الاعتراض على استخدامى لكلمة « معجزة » . أنا استخدمت الكلمة بحسن نية .. وهو قد فهم شيئا آخر .. أما المعنى الذى أقصده

نعمان الذى حدث فى ألمانيا شىء لا يصدقه العقل .. أى شىء فوق العقل العادى .. أى شىء يمجز عنه أى انسان عادى .. أو أى شعب عادى ! أما الذى فهمه هو — وهو أحد أحفاد الفلاسفة الألمان كانت وهيكل ونييتشه — فهو أن المعجزة معناها أن السماء هى التى تدخلت فى كل شىء .. وأن الشعب الألمانى لم يفعل أى شىء .. وقد يكون من المعانى التى خطرت على باله أن الأمريكان — أى قوة خارجية بفلوسهم وصناعاتهم — هم الذين أنقذوا الشعب الألمانى ..

والمعنى الأول لم يخطر لى ببال .. بينما المعنى الثانى وهو ممكن ، فلم يخطر لى أيضا على بال .. وانما الذى أحسنت به هو هذا الفارق بين ألمانيا بخرائبها فى سنة ١٩٤٩ وألمانيا التى رأيتها بعد ذلك فى سنة ١٩٦٧ . وهذا الموقف يضعنى فى المكان المناسب لفهم أوضح وأسلم للألمان .. فهم جادون .. مكثبون .. أو لكى أكون عادلا : أقول أن طريقتهم فى الكلام والفكر والحياة مختلفة عنا . وليس من الضرورى أن يتفق العالم كله من أوله لآخره معنا لكى نفهمه — أو لكى أفهمه — على النحو الذى يريحنى ! ..

وهذا يجعل المسافر الى ألمانيا أو الذى يعيش فيها يسأل نفسه من هم هؤلاء الناس ؟ ما هو تعريف المواطن الألمانى . ربما كان معناه : النظام والطاعة والهمجية والقسوة والطاقة على العمل والصبر والغلظة وحب الموسيقى وحب الحيوانات والاندفاع والغموض ..

وإذا قارنت الألمانى بالفرنسى وجدت هذا الاختلاف الهائل بين شعبين تجاوزا مئات السنين .. ولكن ما تزال المسافة بينهما أبعد بزمان جادا مما بين باريس وبون .. فالرجل الفرنسى — من وجهة نظر الألمان — مبهدل فى مظهره ولكنه ذكى .. لا صبر له على العمل ولكن إذا عمل كان فى غاية الكفاءة .. ولديه قدرة عقلية فذة .. وصحيح أن الفرنسى ليس عاطفيا كالألمانى ، ولكنه عاشق من الدرجة الأولى !

أما رأى الفرنسى فى نفسه فهو أنه أسمى وأكثر إنسانية ، ولكنه ينظر بحسرة الى الانجازات العظيمة التى حققها الألمان فى كل العصور !

تصادف أن ذهبت الى مدينة ميونخ من عشرين عاما ، وكانت هذه أول زيارة لألمانيا .. وكانت المدينة ما تزال محطمة .. ولكن ظهرت العمارات الجديدة والشوارع المضيئة .. ثم كانت هناك محطة السكك الحديدية الفخمة .. ووجدت غرفة فى بنسيون اسمه : بنسيون « الشاعر جيته » .. وأعجبني الاسم .. ولم تكن هناك أية صلة بين اسم الشاعر والبنسيون .. تماما كما لا توجد أية صلة بين لوكاندة البرلمان عندنا والبرلمان . والبنسيون متواضع . ولكن من المؤكد أنه نظيف ..

وعرفت في أول ساعة من دخولي البنسيون أنه لا توجد حنفيات للماء ..
فالعبارات منهارة .. ولم يتم بعد اصلاح وأبور الماء .. اذن لا بد أن
أغسل وجهي في الطشت .. فهناك طشت وأبريق .. وصاحبة البنسيون
في انتظار اشارة مني .. وجاءت وغسلت وجهي وغسلت قدمي ..
وشكرتها .. ولم تعتذر عن الطشت والأبريق .. فمروض أن عندى نظرا ..
فالبذ مهدمة .. وهذا هو أحسن ما تستطيع ..

وكان يسكن في غرفة مجاورة شاب فرنسى .. وأثناء الافطار تعارفنا
وتحدثنا .. وصارحتى بالسبب الحقيقى الذى جعله يرفض استخدام
الطشت والأبريق .. فقال : اننا تجاوزنا هذه المرحلة من مئات السنين ..
ولم أفهم . وسألته : ماذا تقصد ؟

فقال : ان منظر الطشت يجعلنى أعود الى أيام الامبراطور نابليون.
الثالث .. وتلك أيام لا أحبها !

بعبارة أخرى : لا يعجبه الطشت والأبريق ..

وأنا لا يعجبني ولكن ما الذى يمكن أن أصنعه .. ان البنسيون على قدر
فلوسى وفلوسه أيضا . ثم أن الناس هنا معذورون في ذلك الوقت .. ثم
أنهم لا يقلون حضارة عن الفرنسيين .. ولكنه فرنسى يعيش في ألمانيا !

ولا هو أحب البنسيون ولا صاحبة البنسيون أحب هذا الشاب ..
ولا كل الفرنسيين ! ..

وعندما سقطت ألمانيا سنة ١٩٤٥ فوجيء الماريشال الألمانى كايثل أثناء
توقيع التسليم بلا قيد ولا شرط بأن مندوبا لفرنسا جاء يوقع على التسليم ..
فقال الماريشال :

— وفرنسا أيضا ؟

يقصد وفرنسا التى هزمها الألمان سنة ١٩٤٠ فانتهت كدولة كبرى ..
ان هذا الموقف المهين لألمانيا ، لم ينسه الألمان .. ولم ينسه الفرنسيون أيضا !
ولم تستطع السيدة صاحبة البنسيون أن تخفى شعورها .. فأشارت
الى ذلك ..

وكان ذلك منذ وقت طويل .. ولكن الألمان الآن قد نسوا .. أو حاولوا
نسيان ذلك ..

فألمانيا تغيرت معالمها ..

نهضت المدن والمصانع والشوارع .. وامتألت المحلات التجارية وانتقل
العمال الى ألمانيا من كل الدول الأوروبية .. فالألمان عندهم كثير من الرؤوس
وعندهم قليل من الأيدي .. فعندهم المهندسون والأسطوات والعمال المهرة
ولكن ينقصهم العمال فقط .. الأيدي فقط ..

ويظهر أن الألمان أحسوا بأن جيل ما بعد الحرب ليس صلبا ولا متماسكا
كما يجب ولذلك أضافوا الى كل مصنع « مدرسة للتأهيل المهني » ..
واستخدموا فيها أساليب التدريب العنيف .. وبعض المدارس لجأت الى
الضرب ..

أذكر أنى حضرت احدى ولائم الغداء فى مصنع شركة « ديماج » وقد
حضر عدد كبير من الخبراء والاداريين .. وعدد من الشبان المصريين ؟
يتدربون على العمل هناك . سألت جارى : وكيف حال الشبان المصريين ؟
فأشار الى مهندس المانى آخر وطلب اليه أن يجيب .. وهذه الحركة
مألوفة فى ألمانيا .. فكل واحد يتحدث فى اختصاصه .. مهما كان هذا
الاختصاص تافها .. ونهض المهندس المشار اليه وقال : بصراحة أنا لا أحب
هذا النوع من الشبان ..

يقصد الشبان المصريين .. وقال : انهم أكثر اهتماما بالفتيات الألمان ..
اننا نشكر لهم هذا الاهتمام ولكن بشرط أن يكون فى أوقات فراغهم .. أنا
لا أفهم ما معنى أن يحمل كل واحد منهم صورتها فى جيبه أو يضعها أمامه
فى الورشة .. !

وأحمرت وجوه الألمان .. وأحسست أن شيئا غريبا قد حدث أو سوف
يحدث .. وأن هذا المهندس الألماني قد أخرجهم .. وأنه ليس من اللائق أن
يصارحنى حتى بكل الحقيقة ..

ودار همس وتجاوزت الرؤوس .. وسمعت المهندس الكبير يقول :
اننى صريح .. أنا رجل عسكرى .. ولا حب الميوعة فى الشبان .. من
أى بلد ! ..

وسمعت أن هذا الرجل قد وجد شابا يمضغ اللبان فاخرجها من فمه
بالقوة وعاقبه ..

ولا بد أن مثل هذه التربية الشديدة هى التى أقامت ألمانيا على قدميها .
عملاقا صناعيا غنيا من جديد وطفلا ذليلا فى وزارة الخارجية الأمريكية ..
ولا بد أن هذه الذلة هى التى جعلت ألمانيا تقف الى جوار اسرائيل .. فى
تسليحها وتمويلها .. وفقدت بذلك أرضا وملايين العرب من الذين كانوا
يعجبون بالصناعة الألمانية قبل الحرب العالمية الثانية .. وكان يكفى أن
يجد المواطن العربى عبارة : صنع فى ألمانيا .. ليشتري ودون تفكير ..

وعلى الرغم من أن المصانع الألمانية الكبرى قد فككت بعد الحرب وأرسلت
الى دول الاحتلال الأربع .. ومسحت الأرض قبل ذلك بالقنابل ، وقتل
عشرة ملايين شاب المانى ، فإن هذه المصانع أعيدت من جديد .. وحولها
البيوت .. والمعاهد والمدارس والمتاجر .. وأصبح الألمان مثل أغنياء
الحرب .. فهم يقضون الصيف فى إيطاليا وفى أسبانيا وفى اليونان .. ثم
هم بعد ذلك يستثمرون أموالهم فى كل مكان فى العالم .. بل أنهم اقترضوا
أمريكا وبريطانيا ملايين الجنيهات الذهبية !

وهذا الوضع يضاعف من تعقيد الشخصية الألمانية ومن تناقضها .
بل أن هناك أكثر من ألمانيا ..

فهناك ألمانيا الشرق .. وألمانيا الغرب ..

وهناك النمسا التى تتحدث الألمانية ..

وسويسرا التى تتحدث الألمانية ..

وكانت هناك دائما أقليات ألمانية فى معظم الدول الأوروبية .. فى
تشيكوسلوفاكيا .. والمجر وبولندا .. وكانت هناك مدينة دانزج الحرة ..

وألمانيا نفسها دولة مفتوحة الحدود .. انتصرت وانهزمت .. واحتلت
بلادا واحتلتها بلاد .. وحطمت وتحطمت .. فى كل الحروب الأوروبية ..
فهى مصدر كل هذه القلاقل ..

ولذلك فالألمان هم الشعب الملعون فى كل أوروبا ..

والناس ينظرون الى الألمان فى البلاد المجاورة على أنهم أناس متوحشون .

أذكر أننى كنت فى أحد المحلات التجارية فى مدينة أنسبروك بالنمسا .
ولاحظت أن البائعات يتغامزن . وعندما نظرت أستوضح اقتربت منى بائعة
وقالت : أنهم المان !

قالتها بشيء من الضيق ..

ولكن الألمان هم نصف تاريخ الموسيقى فى العالم كله .. فهم أحفاد
هاجنر وباخ وبيتهوفن وشوبرت وشومان وأشتراوس ..

ولكن الألمان لم يتفوقوا فى الغناء والأوبرات ..

ولم يتفوقوا فى الرسم ولا النحت ..

وهناك مثل يقول أن الانسان يتعثر فى الفلاسفة والموسيقيين فى الغابات
والوديان الألمانية ..

والفلاسفة الألمان من كل الأنواع : مثاليون جدا مثل : هيجل وفخته ..
ماديون جدا مثل : ماركس وانجلز .. وأنصار حياة مثل : نيتشه ..
وأنصار موت مثل : هيدجر ..

بل أننى وجدت فى مدينة تينجن بيتا صغيرا متواضعا جدا على نهر يتمسح
فى الأحجار .. فى هذا البيت أقام ثلاثة من عباقرة ألمانيا هم : هيجل وفويرباخ
والشاعر هيلدرن .. وكان الثلاثة فقراء .. وكانوا يقتسمون هذه الغرفة
الصغيرة التى تحولت الى متحف ..

وفى هذه الغرفة عاش الشاعر الألماني هيلدرن أربعين سنة .. وبعدها
انتقل الى مستشفى الأمراض العقلية ليعيش أربعين سنة أخرى ..

والثلاثة مختلفون في تفكيرهم .. هيجل رجل مثالى يؤمن بالروح المطلقة
وبالأمبراطور والدولة .. وكل ما هو مجرد .. وفويرباخ رجل ملحد مادي
عملي .. لا يطبق هذه التجريدات الفارغة .. أما هيلدرن فهو عميد الشعراء
الألمان ونبههم أيضا .

وهذا الشاعر عاش محروما من كل أوليات الحياة المادية والاجتماعية
.. ولم يكن يستطيع أن يلمس أصابع فتاة الا بصعوبة .. فقد كان عليه
أن يعطى دروسا لاحدى الفتيات لكي يلمس يديها فقط .. ولما أحس أن
الفتاة تنظر اليه بشيء من الاشفاق — هى غنية وهو مدرس فقير .. ولم
يكن أحد يعرف أنه سوف يصبح عبقرىا مجنوننا بعد ذلك — قرر أن يأوى
الى فراشه وأن يكتفى بهذا الشعور من جانب الفتاة .. هى حسنة النية
وهو لا يطيق أن يكون مثيرا للشفقة ! ..

وعندما ذهبت الى بيت الشاعر هيلدرن كان الباب مغلقا .. خبطت
على الباب .. فتحت سيدة تسألنى ما الذى أريده .. وواضح من شكلى
أننى لا أريد شيئا منها .. وانما أريد أن أرى فقط أين كان ينام ويحاول
الانتحار هذا المسكين العظيم .. وهو مسكين مرة أخرى لأن هذه السيدة
قد اشترت البيت الذى كان يسكنه الشاعر .. وفتحت السيدة الباب
وأقفلته ورائى .. ولم تقل لى كلمة واحدة .. وانما أشارت بيدها الى الغرفة
الصغيرة النظيفة : وهى غرفة طالب بها سرير ومكتب . ولا يوجد بها
كتاب واحد .

وهذه الغرفة لا يمكن مقارنتها بالبيت الذى كان يسكنه الشاعر جيته فى
مدينة فرانكفورت . فهو بيت أمير الشعراء الألمان ووزير المعارف فى
حكومة فيمار .. وهو حكيم الشعراء وفيلسوفهم ..

وهذا البيت لا يشبه أيضا بيت الموسيقار بيتهوفن فى مدينة بون ..
فالبيت كله من أوله الآخره قد خصص للموسيقار .. وكان الموسيقار يقيم
فى بعض الغرف الضيقة فى الطابق الثانى .. فما تزال هناك بعض الحل
والأواني .. وخصلة من شعره .. ومخطوطات بقلمه .. وتوجد هناك
« السماعات » النحاسية التى كان يضعها على أذنه عندما أصيب فى أذنه
.. وهذه السماعات تسجل تطور الإصابة عنده .. فما زالت هذه السماعات
تكبر وتكبر حتى أصبحت فى حجم بوق الفونوغراف القديم .. أو حجم قمع
الجاز الذى يستخدم فى دكاكين البقالة فى الريف ..

وبيت بيتهوفن أحسن حالا من بيت الموسيقار موتسارت فى مدينة
سالزبورج بالنمسا . فهذا البيت قائم فى السوق .. والسلم ضيق ..
والغرف مظلمة وضيقة أيضا .. وكل شيء فى البيت صغير .. أى على
مقاس موتسارت .. فقد ظهرت عبقريته وهو طفل .. وكل شيء فى البيت
يؤكد هذا المعنى : الطفولة العبقريّة ..

صنعت في أمريكا: الجليطة!

ومن التغيرات التي لم تعجبني في ألمانيا — هذا مجرد رأى سائح يريد أن يرى ما يعجبه .. وطبعاً ليس لدى ألمانيا أى استعداد أن تفعل ما يعجبني. ومن أجل عشرين أو ثلاثين جنيهاً أنفقها في ألمانيا كل سنة — لقد تحولت مطاعمها وحاناتها ذات الطابع الألماني القديم الى قاعات أمريكانية ..

وأنا أذكر أنني عندما ذهبت الى حانة « ميونخ » الشهيرة بأن هتلر كان يعقد اجتماعات النازي فيها ، كانت المناضد طويلة كبيرة .. وكنا نحن الزبائن نجلس متجاورين .. متشابكين أيضاً رغم أننا لا يعرف بعضنا البعض. فإذا جاءت الجرسونة الضخمة وألقت بالأكواب والأطباق واللحوم على الموائد الطويلة امتدت الأيدي وتشاركت وتشابكت .. واهتز الناس يمينا وشمالا .. ومع الاهتزاز تلتقى الأجسام والخدود والشفاه .. شفاه غريبة .. ولكنها تتعارف بلغة عالمية .. وتختفى الوجوه في عناق كله ابتسامة وسعادة .. والموسيقى تعزف الحانا لا يعرفها السائح الغريب .. وكما يفعل الألمان كنا نفعل .. يقفون .. على المناضد .. نقف .. يغنون .. نغنى .. يرقصون .. نرقص .. الأذرع ممدودة والشفاه جاهزة .. والابتسامات حاضرة والضحك أعلى من الموسيقى .. ولا أحد يعرف أحداً ..

وعندما جاء قائد الأوركسترا واختارني من بين كل الواقفين على المنضدة. صفق لى كل من في قاعة ميونخ .. وسرت وراء المايسترو الى المنصة .. والموسيقى كلها تتقدمنى .. ثم أعطانى عصا القيادة .. وصفق الحاضرون .. وانحنى المايسترو بعد أن ترك لى زمام الموسيقى .. وعلى الرغم من أنها نكتة .. لكن احساسى بأننى عينت مايسترو وبلا مؤهلات ولا مقدمات. وفي بلد الموسيقى .. وكأني بطة القيت في الماء بدأت ألبط بيدي .. والفرقة الموسيقية تعزف الحانا جميلة .. وراحت العصا في يدي تعلو وتهبط .. وأنا في دهشة كيف أن العصا تعرف كل هذه الألحان التي لا أعرفها .. وانتهت الفرقة الموسيقية من العزف .. وتقدم المايسترو

وأعطيته العصا .. وشكرته .. وذهبت الى مكانى فوق المنضدة الطويلة .. ولم ألتفت كثيرا الى التصفيق على الجانبين فلا بد أنه كان للعصا .. أو للشجاعة الغريبة التى اكتشفتها فى نفسى .. ولاحظت أن الجهلاء أشجع من العلماء ..

وعندما نزلت من مكانى فوق المنضدة ووجدت المايسترو وقد خلع قبعته وانحنى ولاحظت أن الجميع يلقون بالفلوس فيها .. هه .. فهمت .. ومددت يدى فى جيبى وأخرجت ما به ووضعت فى القبة .. لا أعرف بالضبط كم دفعت ..

ولكن قبل أن أترك حانة ميونخ هذه تبينت بوضوح جدا أننى يجب أن أذهب الى السجن وأسلم نفسى فقد أعطيت المايسترو كل ما معى من فلوس .. وليس عندى ما أدفعه للتاكسى أو الفندق .. وأهون على نفسى أن ادخل السجن من أن أذهب الى المايسترو ..

وقبل أن أكمل هذه الجملة سألتنى غتاة — الله يخليها ويطول عمرها — أن كنت أريد أن أسترده بعض أموالى من المايسترو .. فهزئت كل جسمى واهتز رأسى ضمنا بما معناه : نعم .. الله يسترك ! ..

وذهبتنا معا الى المايسترو .. وابتسم وكأنه اعتاد هذا الموقف وأعطانى العشرين جنيها .. وتركت له جنيها وشكرته .. وشكرنى أكثر !

ولما رأيت هذه الحانة بعد ذلك وجدتها تغيرت .. تبدلت .. فسدت .. أصبحت كأيّة قاعة فى فندق كبير .. المناضد صفت منعزلة .. والناس قد ارتدوا الملابس السوداء المنشأة — يخص ! والسقف قد امتلأ بالنجف — يخص .. والفرقة الموسيقية التى قدتها يوما ما قد وقفت هناك بعيدا وفى غاية الاناقة والشيابة .. والفرق واضح الآن بين الحانة زمان والحانة الآن .. انه كالفرق بين بيت العيلة والشقق الصغيرة فى العمارات الجديدة .. بيت العيلة هيصة وكل الناس يعرفون كل الناس .. أو من السهل أن يتعارفوا .. أما هذه الشقق الصغيرة فكل واحد قافل بابه على نفسه .. ولا شأن له بغيره .. المناضد الصغيرة هى جزر معزولة فى بار من النظافة والبرودة .. واختفى الفالس وظهر الروك أند رول والتويست والجرك .. يخص ..

ولم تعجبني أيضا من الألمان هذه الوقاحة الأمريكية .. فأنت تجد الرجل طويلا عريضا يمشى اللبانة وينقلها من اليمين الى اليسار .. انه حتى لا يفعل ما يفعله أبناء اليمن عندما يمشون القات ويمتصونه ويتركونه متكوما فى جانب الفم ولا يحركونه يمينا وشمالا بشكل يفزعك فتظن أن الحركة القادمة سوف تصيبك فى وجهك ..

وعندما ذهبت الى صديق صحفى استقبلنى بحرارة .. وأجلسنى بالضبط فى مواجهة حذائه الذى وضع على المكتب .. وكان اذا أراد أن يتأكد من

شيء قاله أو قلته إنما يفتح ما بين قدميه وينظر الى من هذا الاطار الجلدى . . .
وكنيت أعرف صورتى فى عينيه لأنى أرى صورته بين الجزمتين . . . أنها
تتسع وتضيق . . . وكان فى نيتى أن أسأله ان كان فى الاستطاعة أن أضع
رجلى على المكتب مثله تماما . . . ولو وافق لترددت لأنى أريد أن أعرف
ما الذى ينصحنى به فى حكاية الامبراطورة ثريا . . . فقد كان يضع فى فمه
سيجارا ضخما . . . والآن تستطيع أن تتصور الصعوبة التى أعانيها لكى
أفهم منه أى شيء . . . صوته هامس . . . والسيجار يمتص بعض الحروف
. . . وما تبقى من حروف يتساقط فى المرحلة الأولى بين السيجار وانفتاح
الجزمتين . . . ثم بين الجزمتين . . . ثم فى المرحلة الأخيرة عند أذننى التى
لظئها الهواء البارد فوضعت فيها قطعة من القطن . . .

وكان المفروض أن أشهد طلاق الامبراطورة ثريا . . . فقد تقرر أن يعلن
طلاقها من الامبراطور فى وقت واحد فى طهران وفى كولونيا حيث السفارة
الايرائية . . . وكان من رأيه أن أذهب الى السفارة وليكن ما يكون . . . وذهبت
الى السفارة وانطلقت خراطيم المياه ومن ورائها الكلاب وتعلق الصحفيون
بالسيارات وبفروع الشجر . . . ورأيت ثريا بفستانها الأسود . . . ويبدو
أن ثريا قد اختارت لون النهار والنليل أيضا . . . فقد كان النهار أسود والنليل
كذلك . . . فلم أفلح أن أراها عن قرب أو أتحدث اليها . . .

ونصحنى الصديق صاحب الجزمة اياها أن أذهب معه الى صديقة له
تعمل فى الصالون الذى تتردد عليه ثريا . . . وذهبت . . . وتهامسا وتلامسا .
وتعانقا . . . ولم أكن فى حاجة الى أن أسأل عما اتفقا عليه . . . وفى اليوم
التالى كان معى نسخة مكتوبة من الحديث التليفونى بين ثريا والامبراطور .
وعلى جانبى الخط كلمات : يا روجى . . . يا حبيب قلبى . . . يا حبيبة قلبى —
الله أمال اتطلقوا ليه ؟ ! .

هذه العبارة الأخيرة لم يقلها أحد . أنا الذى قلتها . . . وأظن أن الحق
معى . وتم الطلاق الامبراطورى .

وبدأت أطارد الامبراطورة . . . هى فى سيارتها وأنا فى الاطار وكانت
مطاردة مضحكة . . . تماما كما أطارد شعبانا فى أواسط أفريقيا وأنا ما أزال
فى القاهرة . . . كل ما أعمله هو أن أتجه فقط . . . الى مكان الشعبان . . .
ولكن من المستحيل أن أصل اليه . . .

ودعانى الصديق الصحفى أن أمر عليه فى البيت . . . وذهبت ووجدته
يتناول غداءه . . . ولم يقل لى تفضل . . . لأقول له : شكرا . . . سبقتك . . .
مع أننى لم أكن قد ذقت أى طعام . . . ولكن أمام نذالته لابد أن أتخذ مثل
هذا الرفض . . . ولم يعجبنى هذا الموقف لأنه لم يمكننى أن أرفضه . . .

ومثل هذه التصرفات الصغيرة كثيرة وكلها تدل على أن الألمان قد تعبوا

من النظام الدقيق فى كل شىء .. وبدأوا يخففون القيود .. أى بدأوا يهونون الأمر على أنفسهم ..

وإذا كان فى ألمانيا شىء من الانحلال ، فهذه علامات العصر الحديث ، فى أوربا كلها .. ولم يخل عصر من العصور ولا دولة من وجود انحلال .. أو ضعف جسمى أو نفسى .. فالضعف صفة من صفات الكائنات الحية .. والدول كائنات حية .. أو تتكون من ملايين الكائنات الحية التى جعلتها الحرب الأخيرة تكفر بالقيم والمبادئ .. لأنها ضحايا المبادئ العتيقة .. ولا بد أن تستسلم لحالة تستريح فيها من المبادئ .. أى تكون فى حالة أجازة طويلة من المبادئ الأخلاقية والاجتماعية .. فى حالة تمرد على الأوضاع .. على المجتمع .. على النفس .. ولكنها بعد ذلك تعاود الوقوف فى الطابور .. والمشى على الخط .. والاتجاه الى المصانع والمكاتب والالات والمراسم والمعابد .. ولا يمكن أن يكون هذا التطور الهائل فى كل ميدان من ميادين الفكر والعمل فى ألمانيا مجرد صدفة .. أو مجرد أنهم كنسوا الشوارع من انقاض الحرب فأنكشفت هذه المصانع والمعاهد والحدائق والكباريهات .. وانها « المعجزة » — أى حتى لا أخطئ مرة أخرى — أنه المجهود العبقري الذى قام به الانسان فى مواجهة الدمار والخراب والهوان والاحتلال .. والقدرة الابداعية فى العلوم ..

والألمان يعرفون هذا التفوق فى أنفسهم .. يعتزون بذلك .. ففى المعرض الدولى الذى أقيم فى بروكسل سنة ١٩٥٧ أقامت ألمانيا جناحا .. وأهم معالم الجناح لوحة وضعت الى جوار المدخل ، دون أن يلفتوا اليها العين .. كأنها شىء عادى .. أو كأنها مجرد لوحة عليها أسماء .. هذه اللوحة عليها أسماء الألمان الذين فازوا بجائزة نوبل .. وعدد الفائزين : ٣ فى السلام و٧ فى الأدب و١٠ فى الطب و١٥ فى الطبيعة و٢٢ فى الكيمياء ! .

(عدد الفائزين بهذه الجائزة فى القارات : آسيا وأفريقيا وأستراليا : رجلان أدبيان .. أحدهما هندى هو طاغور .. والثانى يابانى اسمه كاوايا وليس هذا كثيرا على الألمان .. ولكنه قليل جدا علينا .. أى على حوالى ألفى مليون نسمة) ! ..

ويبدو أن الألمان أيضا يذهبون الى المعامل والمصانع بنفس الحماس الذى يذهبون به الى الشكنات .. ربما كانت الشكنات هى التى دفعت الألمان الى المصانع وإلى إثارة الحروب تماما كإثارة النظريات الجديدة فى كل العلوم ..

فالألماني يحب النظام والطابور وعنده صبر عظيم .. وهذه المزايا تجعله عالما .. وتجعله جنديا .. وتجعله بارزا فى العلوم وصارما فى القتال .. وألمانيا الآن محتلة فى الشرق وفى الغرب حتى لا ينهض لها جيش وحتى لا تكتوى أوربا مرة أخرى باندفاعاتها المجنونة .. ولذلك تسربت قواها الشبابية وقدراتها الهائلة الى الانتاج .. الى البناء ..

ويتولى « ترويض » الشعب الألماني : الأمريكان ... ويتولى ترويض الأمريكان على ترويض الألمان أغنياء اليهود ..

فليس أسهل من أن تلاحظ أن اليهود عادوا الى ألمانيا بكل قوة وكل مرارة . وأنهم بدأوا يضغطون على الألمان ليكفروا عن خطيئة طرد هتلر لهم من كل مكان .. وتعذيبهم واحراقهم بالألوف .

ففى الكتب المدرسية نجد الحياة فى اسرائيل مقررة على الطلبة .. ونجد الحياة فى المستعمرات اليهودية من ضمن موضوعات الانشاء .. كما أن دور النشر اليهودية أعادت كتابة التاريخ وأظهرت الألمان أمام أنفسهم وحوشا وسفاحين .. ان خطيئة هتلر يجب أن تظل خطيئة الى الأبد .. وأن الألمان يجب أن يعوضوا كل يهودى عن كل ما فقدده .. فهم يطلبون تعويضات عن الأب والابن والبيت والسيارة والكلب والمصنع والمعبد والمكتبة .. وكل هذه الأموال ذهبت وتذهب الى اقامة اسرائيل .

كنت فى ألمانيا سنة ١٩٥٧ عندما تشاجر أحد المدرسين الألمان مع رجل يهودى فى حانة وقال له : ان غلطة هتلر الوحيدة أنه لم يقتل من اليهود عددا كافيا .. !

وقامت الصحف وقعدت .. وأثيرت هذه القضية فى البرلمان . ولعبت أجهزة الاعلام بأعصاب هذا الرجل وأعصاب الألمان . وادعت الصحف أن هذا المدرس قد تلقى وعدا خاصا من جمال عبد الناصر بأن يعينه مدرسا للغة الألمانية فى مصر — يعنى هذا الرجل على اتصال بأعداء اسرائيل ، أى بمصر .. ومعنى ذلك أنه اضطر الى هذا الموقف .. أى أن الألمان لا يفعلون ذلك عادة ، الا بتحريض أجنبى ..

وحوكم المدرس وسجن .. !

وأرشيف وزارة الخارجية الألمانية يفتح وينتقل حسب الطلب ، واليهود مسيطرون على وزارة الخارجية وعلى السياسة الخارجية لألمانيا الغربية لأنها دولة محتلة من الأمريكان .. وبين الحين والحين تظهر علامات النازية على الجدران والمعابد .. والحزب النازى الجديد عندما انتصر فى بعض الولايات الألمانية انزعج الألمان . والصحف الأمريكية . وراوا فى ذلك بعثا وانتعاشا للعداء ضد السامية — أى ضد اليهود ..

واليهود — كما هى العادة — يتولون مهمة افساد الشباب فى العالم . وفى ألمانيا يديرون بيوت الدعارة والكباريهات ونشر الاباحية الجنسية والمخدرات . ومعظم الكباريهات فى ألمانيا يديرها يهود . وفى برلين وحدها يملك شاب يهودى أربعة كباريهات .. منها « عدن » .. و « جنة عدن » . وهى أماكن لتجارة النساء من كل لون .. !

أما معسكرات الاعتقال فقد رأيت منها معسكر داخاو .. المعسكر واسع محاط بالأسلاك العالية .. وحول المعسكر توجد قنوات المياه التي تفصل الأسلاك العالية عن داخل المعسكر .. وفي داخله غرف الغاز التي كان يوضع فيها اليهود وغيرهم من أعداء النازية من الألمان المسيحيين .. ويوجد معرض للصور .. صور المعتقلين وهم متجهون الى المحارق .. وصور الخطابات والمنشورات وأوامر الاعتقال .. والزوار قد مدوا أيديهم ليفقأوا كل صور لهتلر ..

وتوجد مقابر لرماد الضحايا ..

والأرض في المعسكر مفروشة بالفحم الأسود .. ليشعر الزائر أن كل شيء نار ورماد .. وهنا معبد يهودي .. ويقابله كنيسة ..

وكل يوم يضاف الى هذا المعسكر جناح جديد .. وصور وملفات ودوسيهات من كل معسكرات الاعتقال الأخرى .. والمعسكر واسع شاسع ومفتوح لكل الزوار من كل مكان .. وزيارته واجبة على كل طلبة المدارس ورياض الأطفال .. حتى يشعر كل ألماني أن أجداده مجرمون .. وحتى يشعر كل سائح أنه يزور بلادا من السفاحين ..

وإذا حاولت أن تستوضح أحدا من الألمان قال لك : نحن بلاد ممزقة ومحتلة .. والأمر ليس بيدنا ولكنه بيد غيرنا .. وغيرهم هم الأمريكان .. واليهود ! ..

ولكنها بلاد رائعة يسكنها شعب مروع ! ..

* * *

إيطاليا لحرقة العشرين!

صوفيا وأفواتها !

من عشرين عاما نشرت الصحف أننى مسافر على « ظهر » الباخرة
أسبيريا الى أوربا ..

ولم يضحك أحد لنشر هذا الخبر .. فهو خبرى عادى .. فمن الممكن
أن أسافر أنا أو غيرى الى أوربا وعلى ظهور البواخر أو الطائرات .
ولكنى ضحكت لأننى سافرت على ظهر الباخرة فعلا وليس مجازا ..
وتحولت الباخرة الى حصان أو حمارة أو عربة كارو تحمل جوانات من
الشعير وأنا أركب فوقها . فلم يكن سفرى بالباخرة على أية درجة : لا أولى
ولا ثانية ولا ثالثة .. وإنما على ظهرها .. فمنذ صعدت الى الباخرة من
ميناء الاسكندرية وأنا على ظهر الباخرة .. ولم يكن الليل قد جاء لأفكر فى
مسألة النوم وكيف وأين .. ولكن انحصر تفكيرى فى أين أضع حقيبتي دون
أن أفقدها .. وعندما فحصت وجوه الناس لم أجد أحدا أعرفه .. ولا حتى
كان المسافرون كلهم من المصريين .. ولا حتى الذين سيشاركوننى ظهر
الباخرة من المصريين .. ووجدت الكثير من الحقائق والصناديق والناس
قد تكدسوا فى كل مكان .

وسمعت من يقول أن البحارة يؤجرون غرفتهم أثناء الطريق .. فكرة
وسمعت من يقول أن البحارة يؤجرون المقاعد .. وأنهم ينصبون خيمة فى
مهب الريح .. وأنه من الممكن أن ننام تحت هذه الخيمة .. ومعنى ذلك
أن النوم ممكن .. ليلة وراء ليلة ..

أما الشنطة ففى استطاعتى أن أربطها فى رجلى .. أو أضعها تحت
رأسى .. هكذا قيل لى .. ولكن عندما أعدت النظرة الى الشنطة ندمت
على أننى أتيت بها .. فلا هى مليئة بالملابس .. ولا أنا سوف أملؤها
بالملابس .. ولا ضرورة لها .. وكان فى إمكانى أن أشتري كيسا من الورق
أضع فيه بعض ملابسى .. وإذا اتسخت أو تمزقت ألقها فى البحر ..

فالشنطة خشبية .. وجوانبها محددة .. ولم يصنعها أحد لأن ينام فوقها صاحبها وكأنه نائم على حد السيف .. وتصورت نفسي وقد ربطت هذه الحقيبة في رجلى .. ولسبب من الأسباب نهضت من نومي والحقيبة في رجلى . وتخلت الجنود الانجليز أثناء الحرب العالمية الثانية .. عندما كان ماسحو الأحذية يربطون أحذيتهم في صندوق البوية ، فإذا حاول الجندي أن يطارده ماسح الأحذية ، فإنه يتعثر ويتشقلب .. وتتاح فرصة لماسح الأحذية أن يهرب ..

وقد حاولت في إحدى المرات أن أهرب من مثل هذا الموقف فلم أفلح .. فقد حدث أننى داعبت أحد البحارة مداعبة عنيفة عندما كانت الباخرة تمر في مضيق مسينا بين ايطاليا وصقلية .. وكان الليل دافئا .. وكنت متعبا فقررت أن أنام في ساعة مبكرة .. وتمددت على ظهر السفينة تحت خيمة منصوبة .. واحتضنت حقيبتى .. وفعلت ما فعله كل عقلاء السفينة : ربطت الحقيبة في يدي .. وفي ساقى .. وفجأة أحسست بمطر ساخن .. يغلى .. غريبة .. فالخيمة يتساقط منها المطر الساخن .. وحاولت أن أبتعد عن مكان المطر العجيب .. وقد حاصرني المطر من اليمين والشمال .. وعند ساقى وعند رأسى .. وقفزت والحقيبة قد ارتطمت بى .. وتشنكلت فيها .. ولم تكن هذه أمطارا ساخنة وإنما كان أحد البحارة يلقي بالماء الساخن من ثقوب الخيمة !

ولم يعجبى هذا الهزار الملهب فلم أنم تحت الخيمة .. وقررت أن أظل طول الليل أفرج في الدرجة الأولى على الراحة التى ينعم بها بعض الناس ، أو بعض الحيوانات .. فلم تبعد عيني كثيرا عن كلب بنى اللون صغير قد نام على كرسى في الدرجة الأولى .. وهو مثل سيده قد أدار هذا الكرسى وأدار ظهره للناس وللبحر .. أما سيده فهو الأمير يوسف كمال الذى كان مسافرا معنا الى أوروبا .. ولكنه سافر لآخر مرة ولم يعد !

وفي العام التالى سافرت الى ايطاليا في جوف طائرة كانت مخصصة لنقل الماشية من الحبشة الى السودان .. ولكن الطائرة جيدة .. ولم تترك هذه الحيوانات أى أثر في داخل الطائرة .. ولا حتى أية رائحة .. وإنما ما تزال فيها بعض الحبال .. التى تطورت في الطائرات الأخرى الى الأحزمة المعروفة والتى يربطها المسافر عادة عندما ترتفع وعندما تهبط به الطائرة .. ولأن الحيوانات كانت تقف بالعرض في الطائرة ، فلم تكن هناك مقاعد .. لأن هذه المقاعد تشغل حيزا ، والمهم هو الحيوانات وليس الناس الذين جاءوا لحماية وخدمة هذه الحيوانات .. ولذلك عندما قررت شركة هذه الطائرات أن تجعلها طائرة ركاب ونقل الادميين جعلت المقاعد بالطول .. فكنا نجلس متجاورين ، كما يجلس الناس في زورق أو سفينة شراعية .. وكانت الحبال مشدودة على بطوننا ، وكنا نمسكها ونتأرجح معها كلما حدث أى اهتزاز ، وكان عددنا كبيرا ، وقيل في ذلك الوقت أن عددنا هو بالضبط

العدد الذى يناسب الغرض المطلوب .. خصوصا اذا كان هذا الغرض هو الفرق فى البحر .. فاذا أضفنا الى عددنا الكبير حقائبنا الثقيلة ، اندهشنا للخفة والرشاقة التى تحركت بها الطائرة من الأرض الى الجو ومن الجو الى طبقات عليا أخرى من الجو .. أما كيف وصلت بنا الطائرة بعد ذلك فيقال أنه بفضل دعاء الوالدين .. ولأن عدد اليتامى بين المسافرين كان أغلبية ساحقة .. !

وكنيت أحدث اليتامى ، فقد توفى والدى منذ عام ونصف عام .. ! ولم يكن غريبا أن تضيق بهذه « الدكك » الملتصقة بجدران الطائرة .. ونجلس على أرضية الطائرة .. وبسرعة ظهرت أوراق اللعب والطاولة والشطرنج .. ولست متأكدا من أن أرضية الطائرة قد تغطت بقشر الموز والبرتقال أو البيض .. ولكن من الواضح أنها تغطت بورق الصحف .. وعلب السجائر ..

وبسرعة غريبة تحولت الصفوف الطولية الى خطوط دائرية .. ثم الى دائرة واحدة .. واهتزت الطائرة بالتصفيق .. فقد تحزمت المضييفة الأمريكية وراحت ترقص على وحدة ونص .. ويشاركها ويعلمها ويسدد خطاها عدد من الشبان الأشقياء .. وكانت المضييفة تضحك وتترنح من الرقص والانبساط .. ولا يمكن أن يتصور أحد أننا فى طائرة على ارتفاع عشرة آلاف قدم وتتجه الى اليونان بسرعة ٤٠٠ كيلو متر فى الساعة .

وفجأة ظهر كابتن الطائرة وثار وشخط ونظر ووزع اللعنات على الجميع بالعدل ، أما المضييفة فانه سحبها من ذراعها وشد الستارة على كابينة القيادة .. وبعد لحظات ظهر مساعده يطلب منا أن نجلس فى أماكننا وأن نربط الحزام — الحبل — والا نتحرك حتى تهبط الطائرة فى مطار أثينا ..

وبدأت الطائرة تعلو وتهبط .. وتميل يمينا وشمالا وتنكفىء على وجهها .. وتقف على ذيلها .. ونحن نهتز وترتجف ونتساقط تماما كأننا غسيل منشور فوق سطوح فى يوم شديد الريح . وكانت النتيجة الطبيعية هى أن يصاب بعضينا بحالة من الدوخة والقيء والاعماء ..

وطالت الدوخة .. ومضت الطائرة فى حالة من « المرمطة » .. الهواء أو الضغط هو الذى مرمطها ومسح بها السماء ثم غسلها بعد ذلك بالمطر .. وعندما هبطت الطائرة فى مطار أثينا .. ومشيت على الأرض .. واقترب منها السلام .. وانفتح الباب لم ينزل منا أحد .. فقد كنا جميعا فى حالة من الدوخة المؤلمة ..

ومن وجوه الكابتن ومساعدته والمضييفة التى تغيرت ملامحها تماما ، تساءلنا عن سبب غضب الكابتن .. وعرفنا أن السبب كان أبعد مما تصورنا .. أو مما تصورت أنا .. لقد كان السبب مخجلا حقيقة .. يبدو أن أحدا من

المسافرين قد أعطاها شيئا مخدرا في سيجارة أو في كوب شاي .. أو
بجلا سيجارة أو شاي .. قد جعلها لا تستجيب لإشارات الكابتن ومساعديه ..
وهذا ولا شك نوع من التخريب » ..

* * *

وتعددت وسائل الانتقال بين شواطئ البحر الأبيض المتوسط ذهابا
وابايابا .. وعلى الرغم من أنه لا توجد الا طريقتان هما ، بالبحر وبالهواء ..
فان اختلاف السفن والطائرات يكاد يجعل السفر مختلفا تماما .. فالسفر
على ظهر السفينة غير السفر في الدرجة الأولى .. والسفر في الدرجة
السياحية في الطائرة غير السفر معززا مكرما في الدرجة الأولى ومجانا مثلا! ..
ولكثرة السفر .. عشرات المرات ، لم أعد أهتم كثيرا بالدرجة ولا بالوسيلة
ولا بالطعام ولا بالشراب ولا أين أضع رأسي ولا أين أضع رجلي .. ولو
وضعت رأسي ورجلي في مكان واحد — كالجنيين مثلا — فاننى لا أتردد في السفر
.. فهو المتعة الكبرى التى تساوى كل ما يبذله الرأس والقدمان من تعب! ..

* * *

ولا أعرف أين ومتى وكيف التقيت بأول وجه ايطالى .. فى مصر أو
خارجها .. فالإيطاليون موجودون فى كل مكان .. أو أستطيع أن أقول بشكل
آخر : انه من الصعب ألا تسمع أذننى كلمة واحدة ايطالية كل يوم ..
ففى المنصورة منذ أن كنت طفلا وأنا أسمع على الأقل كلمة واحدة
ايطالية يوميا .. فقد كان فى بيتنا أسرة ايطالية .. وفى نهاية الشارع يقال
ايطالى .. وفى الطريق الى المدرسة كنت أخوض طريقى بين عدد من التلامذة
يتكلمون الايطالية ..

وفى سن مبكرة جدا اعتدت على اللغة الايطالية .. وعلى لهجتها وعلى
طريقة النطق بها .. ولا أعرف لماذا اكتسبت لهجة ايطالية يصفها الايطاليون
بأنها لهجة جنوبية .. ولم يحدث أن تحدثت الى أحد الايطاليين حتى أبدى
دهشته من لهجتى الجنوبية .. لهجة نابلى وصقلية .. مع أننى لم أكن رأيت
لا نابلى ولا صقلية .. وهى لهجة أقرب ما تكون الى اللهجة الصعيدية
عندنا .. وعلى الرغم من أننى وجدت فى هذا الرأى حفلة تكريم لمجهودى
الخاص فى تكوين لهجة صحيحة ، فاننى أحسست بشيء من الضيق .. وهذا
الضيق قد اضطررنى فى كثير من الأحيان الى أن أجعل صوتى رفيعا وأتلاعب به
موسيقيا .. ولكن كان رأى الايطاليين أننى لم أغير لهجتى وانما غيرت فقط
من حجم الصوت .. برضه صعيدى ايطالى! ..

وأنا لا أحب الذى يتكلم فيحرك يديه وملامح وجهه ، وان كنت قد وقعت
ضحية لهذا التعبير بكل ملامح ومعالم الوجه والجسم ، ولكن الايطاليين ،
وكل سكان البحر الأبيض لا يتكلمون وانما يرقصون ..
والايطاليون يتكلمون بصوت مرتفع .. ويخيل اليك اذا لم تكن تعرف

اللغة الإيطالية أنهم يتشاجرون .. وأذكر انى كنت مسافرا من روما الى فيينا فى القطار .. ولم أجد مكانا .. فظلت واقفا فى الممر .. وأخيرا عندما وصل بنا القطار الى ممر برنر وجدت مكانا .. ودخلت وهزرت رأسى تحية للجالسين .. وتلمست طريقى بين السيقان الممدودة .. وفى الركن جلست .. وارتفع صوت غليظ واعتدلت لأعرف ما هى الحكاية .. ومضى الرجل يتكلم على الصوت ولكن أحدا من النائمين لم يتحرك .. لا صحا ولا استنكر .. وجاء صوت ناعم يرد .. كانت زوجته .. ومضى الرجل بصوت مرتفع .. أما هو فكان كالذى يجلس على كرسى فى صالون حلاق .. يلف ويدور ويتقدم ويتراجع وأحيانا ينهض كأن الشعر قد تسلل من قفاه الى ظهره .. الذى يسمعه يوقن تماما أنها خناقة .. مع انه كان يروى قصة كيف سافر من القرية الى مدينة روما وهو صغير .. وعلى قدر فهمى فأننى أعتقد أن هذا الرجل فشار — وكل الإيطاليين كذلك — لأنه ينسب لنفسه مغامرات غير معقولة ..

وفجأة تعالت أصوات النائمين بالضحك .. وكانت أصواتهم أعلى من صوته .. انهم جماعة من الصعايدة الإيطاليين .. ولكن حتى الذين ليسوا من صعيد إيطاليا فانهم لا يختلفون عن هؤلاء الا فى درجة ارتفاع الصوت .. ولكن الطريقة واحدة ..

فالإيطاليون فيهم حيوية وشباب وطفولة أيضا .. وهم يؤمنون بتشغيل كل الحواس .. انهم أبناء هذه الدنيا .. هذه الأرض .. وهم يضحكون .. كأنهم مكلفون بالضحك بالنيابة عن كل شعوب الشمال فى أوربا ، فهم ينظرون الى كل شىء ويجدون شيئا يجعلهم يضحكون .. أى شىء .. ومن النادر الا يجد الإيطالى نكتة أو قفشة فى أى شىء ينظر اليه أو يجعله يتذكره أو يعلق عليه .. على عكس سكان أوروبا الشمالية .. ويبدو أن الإيطاليين قد اقتسموا الدنيا مع الأوربيين الآخرين : هم يضحكون وغيرهم يفكرون ويحزنون ! ..

ولا يوجد ايطالى واحد لا يغنى .. ولا يرتفع صوته فى أى وقت وفى أى مكان بعبارة من عبارات الاوبرات المعروفة .. فعمال البناء يرددون عبارات وجملا موسيقية من اوبرات : توسكا .. والشهامة الريفية .. ولاترفياتا .. وعابدة .. وفرانشيسكا ريميني .. وفى الليل وأنت نائم تجد صوتا يجلجل فى الشارع : انه أحد المارة يغنى .. انه ليس مخمورا .. ولكن المخمور هو وحده الذى يرفض أن يغنى لأنه يخشى أن يطلب اليه أحد أن يسكت لا لأنه مخمور فلا عقوبة على الخمر ، ولكن بتهمة أن صوته قبيح .. وهذه تهمة كبيرة .. كما نتهم أى مصرى بأنه لا يفهم النكتة .. أو دمه ثقيل .. أولا يحب الفول بالزيت أو الملوخية بالأرانب ! ..

والإيطاليون خبراء فى الأكل وفى الحب .. فهم يأكلون كميات كبيرة من الطعام .. لا بد من المكرونة والجبنه والنبيد والفاكهة .. والفقير جدا هو

الذى لا يجد النبيذ .. والنبيذ كثير ورخيص .. والرجل الايطالى لا يشرب النبيذ لأنه « شريب » ولكن لأنه يريد أن يفرفش .. ويضحك أكثر .. وعلى الرغم من الكميات الكبيرة من المكرونة التى يلتهمها الايطالى فان الأجسام الايطالية ممتلئة قليلا .. وقد وجد الايطاليون فى ذلك مبررا لسلوك آخر .. فالايطالى يطارد الفتيات فى الشوارع .. يطاردهن بلا تعب من شارع الى أتوبيس الى شارع الى أتوبيس .. فاذا لم يفز بشيء فى النهاية عاد يفنى .. ثم يستمر فى المطاردة .. واذا سألته عن السبب قال لك : لا بد أن أمشى .. انها المكرونة .. فأنا لا أريد أن أكون بدينا .. ثم كيف لا أغنى ! .. أى أنه يطارد الفتيات لأنه يريد أن يمشى .. وهو يريد أن يمشى لأنه يريد أن يفشل فى المطاردة ليفنى على خيبته بعد ذلك ! ..

والحقيقة أن معاكسة الفتيات عادة لا يضيق بها الرجال .. ولا تضيق بها الفتيات .. فقد اعتادت المرأة على المعاكسة واعتاد الرجل .. وفى ايطاليا يطلقون على هذا النوع من الرجال أنه ببغفان — بباجالو — لأنه يفنى وراء الفتيات .. وان كان صوت البغفان قبيحا .. فالبغفان شتيمة فظيعة لأى رجل ايطالى ! ..

ولكن الايطالى يتمتع بحياته .. وبعواطفه أيضا .. والمرأة الايطالية تشجع على ذلك .. فهى واضحة المعالم .. وبارزة الأنوثة .. الصدر بارز .. والأرداف ممتلئة .. والخصر هزيل .. والعينان واسعتان .. والشفتان ممتلئتان .. الى آخر هذه الملامح الرومانسية التى أضافت لها الحرية العاطفية أن تستمع الى معان أخرى كثيرة مشجعة للايطاليين ولغيرهم على أن يمدوا أيديهم وشفاههم ويتذوقوا معانى الحياة .. كما يفعلون على شواطئ الأنهار والبحيرات وبالقرب من البراكين وعلى أطراف الغابات .. فالمرأة حملت على صدرها براكين فيزوف واسترومبلى .. وفى عينيها صفاء البحيرات وعلى رأسها أوراق وظلام الغابات .. وسيقانها وذراعها وبشرتها .. مستعارة من نعومة الفواكه والحرير والبلاستيك والطرق المرصوفة ، والأغنية الايطالية تقول : المسينى بيدك .. قطعينى بفمك .. واخنقينى بشعرك .. وأدفينينى فى صدرك .. واتركينى أتمدد الى الأبد ..

وهذه الأغنية ينفذها الايطاليون منذ وقت طويل .. والأفلام الايطالية تلتفت الى هذه المعانى التى تهم المتفرج .. فمنذ ظهر فيلم « مرارة الأرز » بطولة سيلفانا مانجانو .. وأصبح التفرج على الشاشة شعارا للواقعية الجديدة .. ففى هذا الفيلم سقطت سيلفانا فى الوحل .. وارتفعت من الوحل لتسقط فى كل مكان آخر .. والعيون تأكلها .. والفتيان يقلدونها والفتيات أيضا .. ونسى المتفرج أن الفيلم يصور مأساة عمال التراحيل فى ايطاليا .. ولكن المهم هو أن يرى اللحم الانسانى عاريا ليلتهمه ساخنا .. ولينسى المشكلة الأساسية بعد ذلك .. لأن المشكلة الأساسية هى أن يحب ويأكل من يحب ..

وقد انطلقت كل الأفلام الأمريكية والفرنسية تعرى الفتيات وتغطينهن بالوحل .. ليجىء رجل يتظاهر بالشهامة ليغسل الوحل بالحب .. لأن هذه هى القضية ! ..

وفى فيلم اسمه « الخائنة » بطولة جينا لولو بريجيда أعلنت البطلة فى أول الفيلم : أن الجسم كنز الرجل الايطالى ومملكة المرأة الايطالية .. والحياة عبارة عن معادلة بين الكنز والمملكة ! .. وهذه عبارة صحيحة ..

والأفلام الايطالية — أو على الأصح الجمال الايطالى — هو الذى أطلق صدر جينا لولو بريجيда وقوام صوفيا لورين وكلوديا كاردينالى .. وساقى سيلفانا مانجانو .. وشفتى اليانورة روسى دراجو .. والصوت المبحوح النائم اسيلفانا ميمانينى .. وأصابع قدمى سكافينو .. وغيرهن من صواريح الشاشة الايطالية .. وليس النساء فقط .. وانما الرجال أيضا .. فالرجل الايطالى فيه رجولة ويكفى أن نذكر فيتوريو جاسمان .. وماستوريانى .. وغيرهما كثيرون ..

انه الجسم .. وسحر الجسم .. ذلك الكنز والمملكة الذى حول الشاشة من تصوير الأعماق .. الى تصوير الغلاف الخارجى الجميل والاتجاه الى الأعماق .. فكل الأعماق تبدأ من قشرة التفاحة وبشرة المرأة ..

واذا كانت المرأة الايطالية فى الشمال شقراء ناعمة ، فان المرأة فى الجنوب سمراء وأكثر نعومة .. واذا كانت المرأة الايطالية فى الشمال أوروبية ايطالية ، فانها فى الجنوب ايطالية فقط .. غنائية أنثى .. محافظة .. والرجل هو السيد .. هو السيد للرجل وللمرأة أيضا .. ومن المناظر القريبة أن نجد الصغير يقبل يدي الكبير .. أو نجد الجندى يقبل يدي الضابط .. أو يدي العمدة .. كما يحدث فى الريف عندنا وفى أسبانيا ..

ولكن الشعر الغنائى والرقصة كلها فى الجنوب فأجمل الأصوات وأحسن مؤلفى الأغانى يعيشون فى الجنوب .. ففى نابلى توجد أرق الأغانى الايطالية وأكثرها أسى وعذوبة .. وفى صقلية توجد أروع أغانى الفلكلور .. وأعمق قصص الحب كلها فى الجنوب .. بل وأعظم أدباء ايطاليا من الجنوب .. من مثل : الأديب بيراندللو من صقلية .. والفيلسوف كروتشه من نابلى — صوفيا لورين أيضا — وكذلك فيرجا وبورجيزه وفورتيناو وسالفا ميني وبرنكاتى .. وغيرهم كثيرون ..

والفارق كبير بين أهل الشمال وأهل الجنوب ..

ومن العجيب أن إحدى الصحف قد نشرت مرة هذا الاعلان : لا شيء يضيع عندنا .. فاذا انكسرت العلب بعثنا بها الى الجنوب .. واذا تحطمت الزجاجات صدرناها الى الجنوب .. واذا اختلف موظف مع رئيسه نقله الى فرع الشركة فى الجنوب .. اننا نجد لكل سلعة من يشتريها فى الشمال ، فاذا رفضها الشمال اتجهنا بها الى الجنوب ! ..

فايطاليا دولتان وشعبان : أناس في الشمال .. وفقراء في الجنوب! ..
ولكنهم فقراء ظرفاء .. وأجمل ما في هؤلاء الفقراء نساؤهم وحناجرهم!
أذكر أنني أقمت في مدينة بالرمو بجزيرة صقلية بعض الوقت .. وفي
أحد الأيام ذهبت الى مطعم صغير يشرف على ميناء بالرمو .. وخطر لي أن
أرتدى الملابس الوطنية .. البنطلون الضيق .. المفتوح تحت الركبة ..
والقميص المفتوح عند الصدر .. والبرنيطة الكبيرة المصنوعة من سعف
النخل .. وعالقت سلسلة في عنقي .. والسلسلة مكتوب عليها اسم
فتاة .. لا أعرف من هي الفتاة .. ولكن السلاسل تباع في الشارع جاهزة :
باسم الفتاة وعنوان وهمي واسم أغنية معروفة في ذلك الوقت .. ومررت
أمام الفندق واشتريت سلة التفاح الجميل .. ورأيت سيدة عجوزا تبيع
النبذ .. ومددت يدي واشتريت وصادفني طفل غلبان يبيع الكعك والجبنه ..
فاشتريت .. وقابلتني سيدة فيها شبه كبير جدا منى اذا بلغت الثمانين
فيها عدا أن لها شاربيا خفيفا وكانت تبيع الورود .. ومددت وأخذت ..
وشكرتها .. وشكرتني ..

والصورة التي أمامك الآن : هي صورة لسائح يشبه السياح الخواجات
الذين يجيئون الى مصر ويرتدون الطربوش ويجعلون الزر الى الامام ..
ويمسكون الطبله ويشتررون الشباشب الزنوبة ويعلقونها في رقابهم .. ثم
يلفون منديلا حول العنق وشالا حول الخصر .. ويستعدون لأي نقر على
أية طبله ليرقصوا ويهزوا بطونهم .. ثم يضعوا في جيوبهم سندوتشات
الفول .. أى أنهم يحاولون أن يكونوا قريبي الشبه جدا لهؤلاء المصريين
الذين صورتهم الكتب السياحية في أوروبا وأمريكا .. ودخلت أحد المطاعم
ونفض صاحب المطعم وقال : بون جورنو .. ورددت عليه .. وقال لي
اتفضل .. وساعدني على نقل ما معي ووضعته على كرسي آخر .. وساعدني
على وضع الورد في أناء جميل .. ووضع الورد أمامي .. وجاءت زوجته
بمفرش رائع ووضعته على المنضدة .. وجاءت ابنته .. وأخذت النبذ
والكعك .. وجاءت ابنته الصغيرة وراحت تمشط شعري .. وتختار لي وردة
وتضعها حول أذني .. وجاء شاب ظريف وسيم .. ومد يده الى السلسلة
التي في عنقي .. ورأى اسم الأغنية .. وقال سعيدا : ان ذوقنا واحد ..
ومن المؤكد أنني كنت سعيدا .. ولكن لا أعرف مناسبة لذلك كله ..
لقد كنت سعيدا والسلام .. والسبب والمناسبة ولماذا كل هذا — لا يهم أبدا ..
وأعتقد ان هذا الموقف السعيد قد أثر في نفسي زمنا طويلا .. فقد قررت
بلا وعي منى أن أكون سعيدا والسلام .. وأجمل ما في هذا القرار أنه
قرار جسمي .. أى أن جسمي هو الذي اتخذه مستقلا عن عقلي .. وهذه
نعمة من نعم الله .. أن يكون للجسم قرار وأحكام لا يستأنفها العقل ! ..
والتف هؤلاء الناس حولى .. وجاءوا بمقاعدهم .. وكل واحد جاء
ببطعامه وشرابه .. وجعلنا نأكل ونضحك .. ويتبادل الرجل وأولاده الرقص

.. والغناء .. ونشترك معا في هذه الهيصة .. ومن حين الى آخر انظر الى الوجوه ابحث عن مجنون .. لا بد ان يكون هناك واحد مجنون — يغنى ويرقص ويضحك ويأكل ويشرب دون سبب واضح .. لم اجد احدا مجنونا .. فالضحك صادق . والسعادة مؤكدة ..

ولا بد ان يسألنى أحد : ماذا حدث بعد ذلك ؟

لم يحدث أى شىء بعد ذلك ..

فقد كنت أول زائر لهذا المطعم في أحد الأعياد المقدسة .. وقد تفاعل الناس بزيارتي .. وغمرونى بالرقعة والكرم والقبلات على الوجه وعلى الاكتاف .. وعلى اليدين .. والشىء الذى ضايقنى عندما عدت الى الفندق هو كيف اننى لم أرد على هذه القبلات بأحسن منها .. وكيف اننى كنت متفرجا ولم أكن ممثلا مندمجا في الدور .. أو حتى متفرجا متحمسا .. والمصيبة اننى لم أكن أعرف المناسبة .. وانما هى مجرد الصدفة .. فقد تصادف اننى قررت ان أكون ايطاليا في نفس اليوم الذى تحتفل فيه الجزيرة بعيد أحد القديسين .. وما أكثر القديسين في ايطاليا !

ومثل هذا المشهد في الجنوب لا يمكن ان نجده في الشمال بهذه البساطة والنقاء والحرارة ..

ولا يمكن ان يحس الانسان الا نادرا في حياته أنه يخفى تحت جلده أجمل ما في الدنيا : رائحة الزهور وحرارة الشمس ونشوة السعادة وبراعة الطفل وأبدية اللحظة التى يعيشها !

والرجل الايطالى الذى يرقص ويغنى هو نفسه الذى يقتل ويسرق وينهب .. وهو أيضا الذى يذهب الى الكنيسة ويصلى .. بنفس الحماس والحرارة والصدق ! ..

وايطاليا هى بلد : ماركونى مخترع الراديو .. وبلد آل كابونى المجرم الأنيق .. وبلد كازانوفا العاشق الولهان .. وبلد الفاتيكان .. ومهرجانات السينما ومهرجانات الأغاني .. وسباق السيارات .. ومعرض « البينالى » فى البندقية ..

وايطاليا تشعل من الشموع فى كنائسها أضعاف ما تفعله أية دولة أوربية .. لكثرة الكنائس والقديسين .. ولكثرة المترددين على بيوت العبادة !

ومن الحوادث المشهورة أنه فى سنة ١٩٥٣ هزم حزب ديجاسبرى فى الانتخابات . وبعد الهزيمة سالت الدموع من أحد التماثيل فى مدينة سيراكوزة فى صقلية .. واتجهت الطائرات والسيارات والقطارات والسفن الى حيث يبكى القديس — ملايين الناس وملايين الصور .. وأقيمت المطاعم والفنادق .. وطبعت ملايين الصور والتماثيل وطوابع البريد من أجل دموع القديس .. وبعد ذلك بشهور سالت دموع أخرى لقديسين آخرين فى مدن

مختلفة .. وتحولت السيارات والطائرات والبركات الى حيث الدموع
الطاهرة اللامعة في ضوء ما لا نهاية له من الشموع ! ..

وعلى الرغم من هذا التدين الشديد فان الايطاليين أيضا ليسوا
متمسكين بالدين .. ففي ايطاليا اتجاهات دينية قوية : فيها الفاتيكان ..
وفيهما اتجاهات متحررة عامة : فيها أكبر حزب شيوعي في أوروبا .. وفيها
جمعيات أدبية متحررة .. وفيها هيئات فوضوية ..

وفي ايطاليا أدباء يهاجمون الكاثوليكية بعنف وسخرية ..

وقد ضحكت ايطاليا كلها مع فيلم « دون كاميلو » الذي قام ببطولته
الممثل الفرنسي فرناندل .. والفيلم من تأليف الكاتب الايطالي جوارسكى الذي
دخل السجن بسبب بعض العبارات النابية وبسبب هجومه على الكنيسة ..
ولكن ايطاليا لم تمنع هذا الفيلم الذي يسخر من نصف المتفرجين عليه ..
أى من القساوسة ! .

ولم يكتف المؤلف جوارسكى بهذا الفيلم فقد ظهر له فيلم آخر اسمه
« عودة دون كاميلو » .

وظهر فيلم ثالث اسمه « بينو وغيوليتا » .. أما بينو فهو اسم طفل
من مخلفات الحرب العالمية الثانية .. وغيوليتا فهي اسم « الحمامة » التي
أشترتها القرية لهذا الطفل .. وقصة الفيلم الذى شاهدناه هنا في القاهرة
أن الحمامة مريضة .. والطفل يريد أن يدخل بها الكنيسة لتزور معه قبر
المقدس فرانشيسكو .. وهو الرجل الذى أحب الطيور والحيوانات وكان
يمشى حافى القدمين .. هو الذى تنسب اليه جماعة الفرانشيسكان الذين
يخلقون شعورهم ويمشون حفاة .. أو يرتدون الصنادل التى تعرى القدمين
كما كان يفعل القديس فرانشيسكو . ورغب الطفل أن يدخل الكنيسة
بحمارته . وأمام رغبة الطفل رفض قساوسة القرية مع أن كنيسة القديس
فرانشيسكو قد رسمت عليها صور للطيور والحيوانات .. ويلجأ الطفل الى
البابا .. ويناقش البابا والكرادلة في هذا الطلب الغريب للطفل .. ويرون
أنه لا مانع من دخوله هو وحمارته الى الكنيسة . ويدخل الطفل مع
حمارته .. وتتعرض قدم الحمامة في كنز داخل الكنيسة .. وهذه النهاية للفيلم
هى التى تجعل المعنى الاخلاقى واضحا وهو أن الكنوز تفتتح للمتواضعين
والمؤمنين البسطاء .. ايمان الأطفال ! ..

ثم هجوم سينمائى على هذا الفيلم .. ومناقشة فيها كثير من الاستخفاف
للقصص الدينية ..

وكل هذه المتناقضات الحيوية الحارة موجودة في ايطاليا وفي الشعب
الايطالى ..

طليان من الصعيادة

والايطاليون أولاد شوارع .. بكل معنى الكلمة في كل اللغات .. فبلادهم الحارة الممتدة من الجنوب الدافئ الى الشمال الجليدى .. جعلتهم يعيشون بالساعات في القطارات والسيارات .. وفي الشوارع المرصوفة الناعمة .. وجعلتهم أصحاب أكبر عدد من المقاهى والمطاعم الصغيرة والمتوسطة والكبيرة وال ضخمة في أوربا كلها ..

وكلمة « شارع » تتردد كثيرا في أسماء القصص والافلام لأن الشارع ملتقى حيوى لكل الناس ..

والشارع تتغير معالمه في كل ساعات الليل والنهار .

ففى الصباح المبكر تجد الشارع عبارة عن ميدان لاطلاق النار والدخان .. فالسيارات كثيرة وسريعة ومدوية .. وكذلك الفسبا الصاخبة .

وبعد ساعة تمتلئ الأرصفة بالمشاة المسرعين .. كل واحدة وواحد الى عمله ويقفون بالعشرات أمام محطات الاتوبيس ..

وبعد ساعة أخرى يجيء دور الأرصفة .. وعلى الأرصفة تجتمع المقاعد الملونة والمفارش النظيفة .. وأكواب الماء .. والشاي والقهوة .. ويجلس الناس على المقاهى ويخلقون بعضهم لبعض ..

وعند الظهر تتحول الشوارع الى سوق ومهرجان وترسانة للسيارات والاتوبيسات والناس والسياح والضوضاء .. والصراخ والاصطدام والمعاكسات ..

أما عند الغروب فالشارع والأرصفة مهرجان .. وعرض للآزياء والجمال
الايطالى .. لا أول له ولا آخر .. ودوخة مؤكدة اذا قررت — بسبب قلة
العقل والجشع — أن تتابع كل الفساتين وكل الأحذية وكل الأذرع والسيقان
والصدور والشفاه وتحاول أن تترك أثرا أو تتلقى أثرا .. أو تطلق إشارة
أو تتوقع إشارة .. وأحسن نصيحة لك هي أن تفعل بالضبط ما يفعله رواد
الفضاء أن تستلقى على ظهرك وتترك نفسك في حالة انعدام الوزن ..
وتعود الى الفندق بعد ذلك تبتلع ما تستطيع من الحبوب المنومة .. وإذا
كنت سعيدا رأيت شيئا ما في أحلامك يعوضك عن الحرمان بكل ألوانه
الطبيعية !

وفي ساعة متأخرة من الليل .. يصبح الشارع أسود لامعا مغسولا
باردا .. ويقذف اليك الهواء بالموسيقى والروائح الغريبة من كل جانب ..
وينتهى بك الشارع عادة الى نافورة .. لا يوجد شارع لا يصل الى نافورة
.. وهذه النافورة هي دثن رقيق جميل لتخفيف حرارة الجو .. أو حرارة
الجوف .. وأنت حر بعد ذلك أن تدير ظهرك للنافورة وتتفرج على جمال
الليل .. الذى يلقي ضياءه الحالم الرقيقة على الوجوه الجميلة .. أو على
حركة الجمال الرقيق في الشارع من رصيف الى رصيف .. أو من الرصيف
فجأة الى سيارة ذات فرامل صارخة — وما أكثر السيارات التى تتوقف فجأة
وتلتقط بنات الشوارع .. وبعد لحظات تفتح السيارة وتلقى بنات الشوارع
الى الشوارع ..

وأنت ما تزال حرا فى أن تجعل ماء النافورة ينزل على وجهك وتتركه
يتسلل الى ملابسك .. فلاماء فى هذه الساعات من الليل فعل السحر عندما
يصيبك اليأس ..

وهذا الليل فى ايطاليا هو أبو المساكين والمحرومين والمفكرين .. ولأنه
أب للجميع فهو قادر على أن يجمع بينهم على رصيف واحد وعند تقاطع
شارعين .. وفى الميادين وعلى المقاهى .. وفى الأركان المظلمة وفى مداخل
البيوت .. وفى المصاعد التى تقف فى الظلام عند الطابق الأخير وتفتح
الأبواب دقائق .. ثم يعود الهاربون فيها الى الشارع مرة أخرى ..

وبعد منتصف الليل .. تتعالى أصوات العائدين الى بيوتهم — ويدور
بينهم وبين رجال البوليس أحاديث وابتهامات وغمزات ولمزات .. يقول
عسكري البوليس :

— الى أين ؟

— وأنت الى أين ؟

— عندي موعد غرامى .

— يا بختك ..

— سمعت هذه العبارة من أمى ومن أحد اللصوص ..

— لقد كانت أمك على حق ..

— وأنت ما الذى تعرفه عن أمى ؟

— ان واحدة تأتى الى الدنيا برجل ظريف مثلك تستحق التكريم ..
 — أشكرك ..
 — ولكن الام التى تأتى بواحد مثلك يجب أن تندم مدى حياتها الثانية
 بعد الموت !
 — وكيف ذلك ؟ .
 — أنت تجمع بين ما تقوله أمك وبين ما يقوله لص .. دون أن تفرق
 بين المجرم وبين التى أكرمت أنت فى حقها ..
 — ومن الذى قال أننى أتحدث عن اللصوص ..
 — أنت الآن ..
 — آه .. أنت فهمت أن هذه الكلمة معناها لص .. ان معناها السيدة
 المحترمة .. فهذه الكلمة عامية عندنا فى الجنوب .. فكيف لا تعرف ذلك
 وأنت من الجنوب أيضا ! ..
 وكنت قد نسيت أننى من الجنوب .. ففى الليل يصبح أهل الجنوب مثل
 أهل الشمال .. مجرد أشباح جائعة تروح وتجىء .. أذكر أننى عندما
 قرأت قصة « فتاة روما » لصديقى الأديب الايطالى البرتو مورافيا ..
 هزتنى هذه القصة .. وطلبت منه أن يرينى هذه الفتاة التى استوحى منها
 القصة .. أو أية فتاة شبيهة بها ..
 وضحك الأديب الايطالى ..
 وضحكت أنا أيضا لسذاجتى المفاجئة .. فأنا أيضا أكتب مثله ..
 وأتخيل . وليس من الضرورى أن تكون للصور التى أرسمها أى وجود
 فى الواقع .. بل أن الأدب الواقعى ليس هو الأدب الذى ينقل الواقع نقل
 مسطرة .. ولكنه الأدب الذى ينقل الواقع كما نراه نحن وكما نتخيله نحن
 .. ونحذف منه ونضيف اليه ما يعجبنا ..
 ولكن على الرغم من ذلك كنت أقف فى ميدان ايسديرا القريب من محطة
 روما .. وأقول كانت المسكينة ادريانا بطلة قصة « فتاة روما » تقف هنا ..
 وعند كشك بيع الصحف .. وكانت تتوارى من البوليس .. مسكينة كانت
 جميلة .. رقيقة فقيرة . ولم يكن عندها ما تبيعه غير هذا الجسم ..
 وعندما قررت أن تعطى جسمها للشخص الذى تحبه كانت النهاية ..
 نهايتها ونهايته ..
 وقبل الفجر بساعة يجمع الليل بقاياهم من كل شيء .. الناس يختفون
 فى بيوتهم .. وتختفى النساء تماما .. ويتأهب رجال البوليس الى العودة
 الى بيوتهم .. وتظهر عربات اللبن وعربات الخبز واللحوم والفاكهة . ويظهر
 الكناسون بالمئات .. ويدفعون أمامهم أكداسا من مخلفات معركة الأمس ..
 وهى معركة كل يوم . اللعب والزجاجات الفارغة وأوراق الصحف
 والفواكه ويفسلون الأرض .. أو يفسلون الأرض التى تلمع كأنها

سقف أو كأنها جدران .. أو كأنها أطباق تأكل عليها مدينة روما .. تأكل أهلها من الرجال والنساء .. كل يوم تأكلهم وتمضغهم وتسحقهم وتهضمهم ثم تلدهم من جديد .. ويذوب الناس .. وتبقى الشوارع حية حارة .. شديدة النهم .. تأكل ولا تشبع ، تشرب ولا ترتوى .. تفصح وتستتر .. ولكنها تتستر أكثر وأكثر ..

ولكن هناك دائما مجتمع متجدد كل شيء فيه موجود .. جاهز .. الحب جاهز .. العثيق جاهز .. والشجار جاهز .. الموسيقى هي الهواء والغناء هو الماء .. والرقص هو المد والجزر .. والمرأة هي القمر الذي يرفع الماء ويتركه يهبط من التعب .. كل ليلة .. على كل شارع .. على كل رصيف .. في كل ساعة ..

في أحد الأيام كنت في مدينة بيروجه .. واخترت مقهى في ميدان الكاتدرائية .. المقهى واسع عريض .. أنيق جميل .. فخم .. وأخذت مكانا قريبا من نهاية المقهى .. قريبا من السور الحديدي الذي يضعونه حتى لا يهرب الزبائن .. أو حتى لا يهرب الى الزبائن أناس من الشارع .. واخترت هذا المكان لكي تكون الموسيقى بعيدة بعض الشيء .. فأسمعها اذا أردت واتجاهلها اذا أردت .. على عكس الذين يجلسون الى الداخل فيشعرون أن الموسيقى مقررة عليهم .. وأنهم كأفراد الاوركسترا .. ولكني قررت أن أكون متفرجا ومستمعا .. واخترت المكان بالقرب من الباب أيضا ..

ولما سألتني الجرسون : سيدي ؟

قلت : آيس كريم بالصودا وبعض البسكوت .

قال : حالا ..

ولما لاحظت أنه يسألني ويرد على بصورة آلية .. تضايقت .. فهو لا يعرف أن المال الذي معي قليل .. وأنني قررت أن أجلس هنا وأن أستمع لأقصى درجة .. ومهما كان المبلغ الذي أدفعه تأفها ، والبقيشيش الذي سيتقاضاه أتفه ، فإن هذا المبلغ كبير بالنسبة لأموالي .. وأنه ليس من حقه أبدا أن يقف الى جوارى ولا يرانى .. وأن يستمع الى دون أن يتفضل مشكورا فينظر الى ذقنى الذي خلقتة بعناية .. وملابسى النظيفة الأنيقة والتي تدل على أنني أجنبى على درجة من الثراء .. أى أنني قادر على أن أعطيه بقشيشا أكبر .. ولكن ما هو هذا البقيشيش الذي سوف أدفعه .. أنه لا يزيد على عشرة قروش .. ولتكن عشرة قروش فما الذي أريده أن يفعل بهذه العشرة أو هذه العشرين ؟ أريد أن يعبرنى ، أن يحترمنى .. فقلت له : لا أريد شيكولاته ..

— حاضر ..

— وأن تكون الصودا من ماركة سان بلجرينو ..

— هي الوحيدة التى عندنا ..

— أما البسكويت فهو الذى أريده بالشيكولاته ..

— هو الوحيد الذى عندنا ..
 — وهل من الممكن أن أدعو هذه الفتاة لتجلس معى هنا ..
 — ممنوع ..
 — انها طفلة صغيرة متسولة ..
 — لأنها كذلك يا سيدى ..
 — فإذا أصررت ..
 — أنا متأسف .. ممنوع ..
 — ولكنى مصر على أنى أدعو الى مائدتى المتواضعة مواطنة ايطالية ..
 — مواطنة ايطالية ؟ !
 وتركنى . واتجه الى داخل المقهى ..
 ولا أعرف لماذا خطرت لى فكرة استدعاء هذه الفتاة الصغيرة التى
 وقفت أمامى ومدت يدها عبر السور تباع الصور الدينية وتمائيل لطبور
 وحيرانات .. وربما كان السبب الحقيقى هو أننى لا أريد أن أكون مجرد
 « كتلة » تشغل أحد المقاعد .. فالجرسون لا يرى الا كتلة من اللحم والشحم
 على أى مقعد .. ثم يسألها دون أن ينظر اليها .. ثم يختفى ويعود بالطلبات
 .. فهو عمل آلى .. وهو آلة .. والزبون شىء .. أى شىء ..
 وتضايقت من أن أظل « شيئاً » مدة طويلة ..
 فأنا شىء فى كل مكان اذهب اليه .. لا الفت النظر ولا الأذن ..
 ولا العقل .. يرانى صاحب البنسيون فيخفى رأسه فى الورق يبحث لى
 عن جواب أو عن رسالة أو يعطينى مفتاح الغرفة .. وبحركة آلية يقول :
 صباح الخير .. أو أصبح على خير .. أو يقول تعليقاً مضحكاً .. وعندما
 يطلبنى التليفون فإنه لا ينطق اسمى وإنما يقول : نمرة ٢٠ هنا .. أو ليس
 هنا .. أو يقول : آه الفيلسوف هنا .. آه لقد خرج فى الصباح فيلسوفنا
 ولا أعرف كيف عاد الآن .. لعله شاعر الآن .. أو يقول : آه .. كتب
 أخرى .. لا أعرف هل ما يزال صاحبنا يأكل الكتب .. أو يبيعها .. آه ..
 من نمرة عشرين آه ..
 ولذلك قررت ألا أكون شيئاً فى هذا المقهى .. وأن يدور بينى وبين
 الجرسون كلام .. وأن أثير قضية .. وأن تكون هذه القضية مخجلة لأحد
 منا نحن الاثنين .. فلا يزال الخجل أحد ينابيع الوجود الاخلاقى ..
 والاجتماعى .. وهذا الموقف اجتماعى وأخلاقى ..
 وعاد الجرسون ومعه مدير المحل .. وفى عيني المدير رجاء بالاً أفعل
 ذلك .. وأنه مستعد أن يقدم لهذه الفتاة أى طعام على حساب المحل ..
 ولم أكن أريد أن أدخل فى مناقشة .. وإنما فقط أن ينظر لى أحد فى
 عيني .. وأن ينتظر ما أقول .. ولذلك لم أتمسك بموقفى ..
 ومددت يدي خلال السور الحديدى أعطيتها شيئاً ..

وقبل أن تمتد يد الفتاة قال لى مدير المحل : اشتر منها أى شىء ..
فهى بائعة صغيرة جميلة .. ويجب أن تكون بائعة .. وإذا تعلمت وكبرت
فأنا أعدها بأن أجعلها تباع الزهور هنا فى داخل المطعم ..
ولم تصدق الفتاة ما سمعت ..

وامتدت يدى تشتري وتدفع أكثر .. وامتدت يد المدير .. وشكرنى
المدير .. واعتذر الجرسون .. واستعجلت الآيس كريم فأننى استحق
التكريم .. وكرمت نفسى وانتقمت من الايطاليين الذين جعلونى « شيئا »
سياحيا متواضعا ! ..

ولكنى قبلت أن أكون شيئا وأقل من شىء عندما ذهبت الى جزيرة
كابرى وفانتتنى الباخرة العائدة من كابرى الى نابلى .. ولم يكن معى جواز
السفر .. فقد تركته فى الفندق فى نابلى .. ومعنى ذلك أننى لا أستطيع أن
أبيت فى أى فندق .. ولا فى أى بنسيون .. ولا أستطيع أن أتمشى فى
الشوارع حتى الصباح .. فكابرى ليست بها شوارع .. فالشوارع قصيرة
جدا .. أو هى طرق تعلو وتهبط بعنف .. ولا أستطيع أن أركب حنطورا يطلع
وينزل طول الليل .. ربما كان هذا ممكنا فى فرنسا .. أو فى اليابان أو فى
هونج كونج .. ولكنه ليس ممكنا فى كابرى .. ولم أعرف كيف أتصرف
بسرعة .. ولكنى قررت أن أتخلص من الموقف الصعب .. فعند الثانية
عشرة مساء بدأت المطاعم تقفل أبوابها .. ولكن الكباريهات ما تزال مفتوحة
.. وبعد الكباريه ما الذى أستطيع أن أفعله حتى الصباح .. أو حتى
الحادية عشرة عندما تعود أول باخرة الى نابلى .. انها ساعات طويلة
جدا على الذى أم ينم منذ يومين ..

وبعد سهرة سخيفة جدا فى كباريه من الدرجة الثالثة خرجت الى
الشارع .. الجو بارد .. الريح شديدة .. الموج مرتفع .. وليس فى الامكان
أن أتحدث الى أى أحد .. وأحاول أن أكون ظريفا .. وقد أنجح فى المحاولة ..
ولكن لا يمكن أن يكون أى أحد ظريفا معى ومتسامحا لدرجة أن يقول : ياه ..
بس كده .. يا راجل اعتبر البيت بيتك .. أنا سأترك لك سريرى وأنام فى
المطبخ .. خد راحتك ! ..

أو يقول : آه .. طيب ممكن تنام فى الصالون ..

أو يقول : أعطيك مقعدا وتجلس عليه أمام الدكان .. وقبل أن تشرق
الشمس يكون الشاى والسندوتش تحت قدميك !

أو يقول : ألا تزعم أنك فرات كثيرا فى كتب الشطرنج .. ما رأيك فى أن
نلعب دورا حتى الصباح !

أو يقول : ضع يدك فى جيبي وأنا أصرخ .. وأقول : حرامى .. وإذا

لم أجد أحدا يمسكك .. فأنا أمسكك وأتركك في القسم حتى الصباح .. وفي الصباح اعتذر لك عما حدث وأقول أنني كنت مخمورا ! ..

وطردت هذه الأوهام .. وبشعور غريب دفعت الباب .. وانفتح الباب .. ولم أر أحدا .. وفتحت عيني جيدا .. ولم أر أحدا .. وقلت للظلام الذي انفجر في وجهي من داخل الباب الصغير : مساء الخير .

وسمعت صوتا يرد التحية .. وفاض النور .. وظهرت مقشنة كهربية . وعلى المقشنة سيدة عجوز ..

— هه .. وانت كمان عاوز ايه ؟ !

— نسيت جواز السفر .. وأريد ..

— ادخل .. وأقفل الباب وراءك ..

ودخلت وأقفلت الباب ورأى .. وأغرقني النور .. أكثر .. وانفتح باب .. ووراء الباب وجدت شابا أعتقد أنه هندي .. قد نام على الأرض بعد أن خلع معظم ملابسه ..

وقالت العجوز : تنام هنا ؟

قلت : لا .. أساعدك ..

وضحكت وهي سعيدة : أنت ولد طيب !

وكانت هي أطيّب مني عندما قدمت لى كوبا من القهوة السادة .. ثم كوبا آخر .. وأثناء وقوفي في المطبخ وراء طاבור طويل من الاطباق وأكوام من السكاكين والملاعق والشوك .. وحنفيات الماء تغلى من ورأى .. وبعد ساعة جاءت العجوز تقول : نصيحة يا ولدى ! ..

وتوقفت لأسمع شيئا جادا ..

فقلت : اذا قلت لسيدة شيئا فلا تتراجع عنه .. وكل كلمة تقولها للمرأة هي حق مكتسب لها .. فالمرأة قد سمعت كلاما كثيرا ولم تجد الا أفعالا قليلة جدا .. لذلك فهي لا تكاد تسمع الكلمة حتى تتعلق بها كأنها آخر طوق نجاة في الدنيا ..

ومسحت عيني انتظارا للتوضيح أكثر ..

فقلت وهي ضاحكة : أنت الآن طبعاً نادم على أنك أعلنت عن رغبتك في مساعدتي هنا .. اذهب الى هذه الغرفة وحاول أن تنام ثلاث ساعات .. سأوقظك في السابعة ..

وتركتنى نائما حتى التاسعة ..

وعندما صحت من نومى لم أجد أحدا فى البيت ولا حتى الشاب الهندى .
وبحثت عن بعض ملابسى فوجدت العجوز قد غسلتها وعلقتها على حبل
أمام البيت .. منادىلى وجواربى وقميصى ..

ما اسمها ؟ من هى ؟ أين هى ؟ لا أعرف الآن .. ولم أعرف حتى فى ذلك
الوقت .. انها ايطالية طيبة .. انها أم طيبة .. بل انها الطيبة كلها !
وكان لا بد أن أنتظرها حتى تعود .. لكى أشكرها بكل ما تجدد فى جسمى
ونفسى من حيوية ! .

وجاءت السيدة وكأنها لا تريد أن تعلق على ما حدث أو على وجودى .
وانما قالت كأننى أحد نزلاء بيتها ومطعمها الصغير : نمت جيدا ؟

قلت : شكرا لك !

وضحكت : سوف تنسى ..

وقلت : أنا سوف أنسى .. وأنت ليس عندك ما تذكرينه ؟

قالت : هذا ..

أى هذا الذى صنعته لى .. أو هذا الشخص الذى هو أنا ..

وعادت تقول : انك لم تكلفنى شيئا .. أنا أعيش وحدى .. والبيت
خال .. والسرير خال .. ومنذ مات ابنى فى حرب الحبشة وأنا أتخذت
هذا القرار .. وهو ألا أقفل بابى فى وجه أحد .. وهذا هو السبب فى
أننى جعلت اسم المحل : الباب مفتوح دائما .. والناس هنا يضحكون
ويقولون : ان الباب مفتوح دائما .. وأنا غير موجودة دائما .. لأننى
أذهب الى السوق واشترى كل شئ لنفسى .. ولذلك أترك المحل معظم
الوقت .. ولم يخفف من بيتى عود كبريت واحد .. منذ عشرين عاما !

واتجهت العجوز الى صندوق فى الحائط وفتحته وأعطتنى طاقة من
الحرير وقالت لى : على بركة الله يا ابنى .. ضعها على رأسك .. الله
يحميك .. ويرحم روحه فى السماء ! ..

ولا أعرف كم من المرات ذهبت فيها الى ايطاليا .. ربما عشرين ..
ربما ثلاثين مرة .. فهى فى طريق الذهاب الى دول الشمال .. وفى طريق
العودة أيضا ..

ولكن هذه الزيارات المتكررة لم تجعل طعم ايطاليا كالخبز .. ولا مذاقها

كالماء .. انها دائما جديدة .. انها بلاد سياحية .. اعتادت أن تكون عروسا لكل سائح .. سواء أقام ليلة .. فهي عروس ليلة .. أو أقام شهرا .. فهي عروس شهر .. والدولة الايطالية تعلم أنها تكسب الملايين من حفلات الزفاف الدائمة لكل سائح أوروبى أو أمريكى أو أفريقى أو أسيوى .. ولذلك فهذه العروس قد اتخذت أسلوب شهر زاد فهي تحكى كل ليلة قصة .. ملايين القصص لمليون شهريار ..

وأفلحت شهر زاد الايطالية أن تؤكد لشهريار الأجنبى أنه الوحيد الذى فى قلبها وعلى ذراعها وعلى صدرها .. وأنه فتى أحلامها وكنز مستقبلها .. وأنه أيضا فريسة شباكها وضحية غرامها .. وأنه تفاحة وأنه بذرة فى تفاحة وأنه قشرة تفاحة .. وأنه فى صناديق الزبالة بعد ذلك .. وكلما اغتسلت صناديق الزبالة .. وامتألت الصناديق بالتفاح .. ووقفت السفن والطائرات تلقى ما فى بطونها من السياح .. أقيمت الشوارع .. نصبت كأنها مسارح فخمة .. وانتظرت الوافدين الجدد .. بالقصص الجديدة .. بمليون .. بعشرين مليون شهر زاد .. هن أخوات وبنات خالات : صوفيا لورين وكلوديا كاردينالى ..

* * *

الخمسة.. الموصي ناعمة والناس أيضا!

في الغابة حتى الصباح

معلومات عامة : أنت تعرف الكثير عن النمسا ولكنك لا تدري . فأنت تأكل البطيخ النمساوى . . أو البطيخ النمسي . . وهذا البطيخ يسمونه النمسي لأنه في شكل النمسي ، وهو الحيوان المعروف الذي يعيش في الريف وله جسم مستطيل . . أو — إذا أردت أن تكون مثقفا ثقافة عالية — فالبطيخ في شكل النمسا نفسها ، وهي دولة مستطيلة الحدود . . وقد قامت بدور النمسي المتربص الخبيث مئات السنين في تاريخ أوروبا . . والجنيه المصري به مائة قرش . . والقرش كلمة نمساوية أيضا . .

وعندما ذهبنا الى اليمن وجدناهم يستخدمون الريال . . وعلى الريال صورة للامبراطورة ماريا تريزا — وهي امبراطورة نمساوية . . ومن الغريب أنهم في بلاد النمسا لا يستخدمون هذا الريال — والريال اليمنى به نسبة عالية من الفضة تصل الى ٢٨ قمحة . . وبعد الثورة غيروا هذه النسبة العالية ووضعوا بدلا منها نسبة من النحاس أكبر ومن الفضة أقل . . ولا أعرف ان كانوا في اليمن قد استخدموا العملات الورقية ! . .

والذين يعرفون اسم محمد نسيم باشا ، أحد رؤساء الوزارات المصرية يعرفون صلته بالنمسا ، فهو أول مسئول مصري يتزوج فتاة من النمسا . . والفتاة كانت جميلة جدا . . وأبوها صاحب فندق مشهور في العاصمة النمساوية اسمه « ساخر » . . وهذا الأب قد صنع نوعا من الحلويات على اسمه . . وهذه الحلوى مشهورة باسم « تورته سخر » . . وإذا ذهبت الى النمسا ففي استطاعتك أن تجلس في فندق سخر . . وأن تضع ساقا على ساق وتطلب ما تريد وأنت مطمئن . . ولكن لا داعي لأن تذكر أو تتذكر هذه المسألة العائلية ، فهم ليسوا سعداء بسيرة نسيم باشا هذا — ولا نحن أيضا ! . .

وأجدادنا يعرفون أن أحسن أنواع الطرابيش هي التي كانت تصنع في النمسا وتباع في تركيا ، ومنها تشحن الى مصر . . وفي مصر توضع الطرابيش النمساوية على رؤوس الاغنياء والكبراء فقط . . لأنها غالية الثمن . .

والنمسا هي التي نكبتنا بالزعيم الصهيوني هرتسل . . والنمسا أيضا هي التي نكبت اليهود بالزعيم الدكتاتور هتلر . . فهو الذي قضى على ملايين اليهود ، ولئيه عاش أطول ليقتضى على البقية الباقية منهم . .

وكلنا يعرف أغنية : ليالى الانس في فيينا . . التي تغنيها المطربة اسمهان . . وقد ارتبط في أذهاننا الانس مع فيينا عاصمة النمسا . . وإذا ذهبنا الى فيينا فسنجد أنها كانت وما تزال مدينة الانس والجنس أيضا . . ولكن على طريقتها هي ، وهي طريقة مختلفة عن طريقة ايطاليا والمانيا ، وهما الدولتان المجاورتان لها . .

وعندما قتل ولي عهد النمسا في يوغوسلافيا ، اشتعلت الحرب العالمية الأولى !

معلومات خاصة : كان ذلك في مدينة بولدانو في شمال ايطاليا . . هذه المدينة أكثر أهلها يتكلمون اللغة الألمانية لأنهم جميعا من أصل نمساوي . . وكانت هذه المنطقة جزءا من النمسا . . ولكن بعد الحرب العالمية الأولى ضموها لاطاليا . . وبعد دخول هتلر وبعد انشاء محور روما برلين أضافها هتلر الى النمسا أو الى ألمانيا . . وبعد سقوط هتلر وموسوليني أعيدت هذه المنطقة الى النمسا . . وما يزال أهلها يتكلمون الألمانية ويرتدون ملابس أهل الجبال النمساوية . . البديل الرمادية أو الزرقاء ويضعون البرانيط الجبلية التي عليها ريشة . . وأسماء الشوارع والمحطات كلها بالألمانية والاطالية . . وعندما حاول شعب هذه المنطقة — وهي جنوب التيرول — اجراء استفتاء حر ليحققوا عودتهم الى النمسا . . رفضت الحكومة الايطالية . . وطالبت بالالتجاء الى محكمة العدل الدولية . . وحتى لا يغضب الايطاليون . . وحتى لا يتمسك النمساويون والألمان وكل العناصر الجرمانية التي هي الدم والبارود في كل حروب أوربية ، تركوا هذه المنطقة جزءا من ايطاليا .

استمعت الى هذه المعلومات على مقهى في محطة بولدانو — وهم يسمونها بالألمانية بوزن — وكانت الجالسة الى جوارى نمساوية الملامح . . شبيهة تماما بزوجة نسيم باشا . . وعندها فكرة عن قصة نسيم باشا . . وإذا صحت ترجمتها بعباراتها ونظراتها ، أقول أنها تريد أن تقنعني بتكرار قصة نسيم باشا وعروسه . . واصطدمننا بصعوبة وحيدة . . وهي كيف أكون رئيسا للوزارة . . وأمام هذه الصعوبة عدلنا عن أية مشروعات

عائلية .. واكتفيت بأن أخذت منها عنوان احدى قريباتها في مدينة أنسبروك النمساوية .. خالتها : هيلجا !

وكانت معلوماتي عن أنسبروك أكثر من معلوماتي عن خالتها « هيلجا » .. وهيلجا هذه تعمل في محل جزارة .. ولا داعي لأن تفزع من هذه المهنة ومن صورة خالتها الجزارة ، ومن الإقامة عندها في بيتها .. الحقيقة أنني انزعجت بعض الشيء .. ولكن بعد ذلك ترددت كثيرا على بيت خالتها .. وكنت أقوم بدور العطر القديم الذي هو من طرف الحبايب .. فهذه الفتاة قد توفيت .. وكنت أنا الذي أحيى ذكراها في كل مرة ذهبت فيها الى مدينة أنسبروك .. وقد جئت أو حججت اليها كثيرا ..

وبعد أن عبر القطار تلك الانفاق الطويلة بين ايطاليا والنمسا ، وكان يصرخ ويلهث ، وتقطير النار من عجلاته ، ويخرج من الانفاق ليتعرض للمطر .. ونخرج نحن رؤوسنا من النوافذ من أجل البرودة المنعشة ، وقف أمام محطة أنسبروك .. رأيت اللافتة على المحطة .. وجدت المحطة صغيرة في مثل محطة بنها .. ولكن طبعاً لا وجه للشبه بين النظافة هناك وهنا .. ولا وجه للشبه بين الناس الحلوين الواقفين ، الذين لا يضحكون هناك ، والناس الذين ليسوا حلوين بالمرّة ولا حتى ضحكاتهم حلوة في محطة بنها ، وفي أيديهم أو وراءهم كيزان العسل — وهو نوع من الخضروات اللذيذة في مصر ، وعيبها انها ليست موجودة في النمسا .. ووسط هؤلاء الناس حملت حقيبتى .. وتوقفت لأخرج عنوان طانط هيلجا من جيبي .. وأمام باب المحطة سألت سائق التاكسي : طانط هيلجا ؟

وهز رأسه بما معناه : ياه .. أعرفها وأعرفها ..

وعندما جلست في التاكسي استبعدت أن تكون هيلجا هذه رئيسة عصابة .. فهم هنا لا يعرفون هذا النوع من العصابات .. ولا يمكن أن يكون هيلجا هذا هو اسم احدى المؤسسات .. ولكن مدينة النمسا صغيرة .. ومن السهل أن يهتدى الناس بعضهم الى بعض .. التاكسي قديم .. ولكنه نظيف .. وهو قديم لأن أول زيارة لهذه البلاد كانت من عشرين سنة .. وكانت النمسا كلها محتلة بدول الحلفاء الأربع .. وهذه المنطقة بالذات كانت تحتلها القوات الفرنسية .. والشعب مطحون .. ولم يبق الا بعض الكبرياء .. والا العطف عليه من كل الدول الأوروبية والأمريكية .. فألمانيا قد ابتلعت النمسا في لحظات .. أو على الاصح لم تجد النمسا أمامها الا حلاً واحداً : أن تستسلم لألمانيا بلا مقاومة .. لأنه لا داعي لأن يقاوم العصفور الصغير ذلك النسر الوحشى ..

وقلت للسائق : طيبة جداً طانط هيلجا ؟ !

وقال السائق : يا .. يا ..

ومعناها بالعربية : صحيح .. صحيح ..

والألمان والنمساويون ينطقون كلمة « يا .. يا » بألف معنى .. فتارة

يكون معناها : صحيح ! .. وتارة يكون معناها : صحيح ؟ ومعظم الأحيان يكون معناها : صحيح ؟ !

وعليك أن تختار المعنى الذى يريحك .. ومن الضروري أن تستريح .. لأنه لا معنى مطلقا لأن توجع قلبك فى البحث عن حقيقة طانط هيلجا .. وأمام باب بيت بالقرب من الجبل المشهور باسم « جبل الجياع » وقفت السيارة .. ونزل السائق .. وفتح الباب وسحب حقيبتى .. ووضعها أمام باب البيت .. ودق الجرس .. ووقف ينتظر أن أدفع الحساب .. ودفعت أول مبلغ بالعملة النمساوية ومعه البقشيش وتلقيت كلمات : ألف شكر .. شكرا ..

وعرفت فيما بعد أن « الألف شكر وشكرا » وهذه لا تدل على أن المبلغ الذى تقاضاه كان كبيرا .. وإنما هى عادة النمساويين .. وهم أناس مهذبون جدا .. ولا فرق بين الألمان والنمساويين كالفرق بين الأمريكان والانجليز .. والانجليز مهذبون .. وقد نبهتني الى هذا المعنى طانطا هيلجا فى أول لقاء لنا فى بيتها .. وتضايقت من هذه التفرقة عندما جاءت بعد أن قال لى ابنها مدرس الجغرافيا فى الجامعة بأننى أتكلم الانجليزية بلهجة أمريكية !

وجاءت عبارة ابنها هذه بعد أن وقعت عينا طنط هيلجا على سيجارة قد وقعت من يدى على الأرض دون أن أتنبه لذلك !

ولكن أعجبتنى طانط هيلجا .. ملامحها حلوة .. الوجه مستدير جرمانى .. والعينان زرقاوان .. وقد ضبطت فى عينيها شقاوة .. ولكن الشخوخة هى التى اعتقلت هذه الشقاوة وراء أسلاك رموشها الذهبية ، وتحت شعرها الجليدى الأبيض الأزرق .. ولكن شفتيها ايطاليتان .. وعندما قلت لها ذلك غضبت أول الأمر .. ثم ضربتها وحسبتها فى دماغها ، فوجدت أن فى هذه الملحوظة بعض التحية .. وردت لى التحية بأحسن منها عندما سألتنى : وأين تعلمت كل هذه اللغات .. فقلت : فى القاهرة .. وكانت تحيتها موجهة لكل الشعب المصرى من أوله لآخره .. ثم قالت لى : أن أصابعك أجمل من أصابعى .. يداك كيدى فتاة .. أما يداى فهما لرجل يعمل فى قطع الصخور ! ..

ونظرت الى يديها باحترام .. فهى سيدة تدير محلا للجزارة .. ومنظرها فى الصباح المبكر متعة .. فقد طلبت اليها أن توقظنى معها كل يوم لأننى أريد أن أرى النمسا وهى تصحو .. وهى تعمل .. وهى تبيع وتشترى وتأكل ..

وترددت هى أول الأمر .. ولكن أمام رغبتى القوية قالت : أنا يعجبني الذى يريد أن يعرف ..

وفى الصباح دقت باب غرفتى .. ونهضت بسرعة .. ولم يكن نومى مريحاً .. فالسرير صغير .. واللحاف من ريش الاوز الصغير أيضا ..

وبسرعة نزعَت البيجامة ودخلت في البنطلون والبلوفر .. وتسَلَّلت قدمائى
فى الحذاء .. وأمام المرأة غسَلت وجهى وأسنانى .. ولم أكن فى حاجة
الى مشط .. فشعرى فى أحسن حالاته منكوش .. وقد بالغت فى تركه
منكوشا .. وخصوصا بعد أن امتدت الى شعرى يد النمساوية الرقيقة
لتتأكد ان كان شعرى منكوشا من عند الله أو من عند الحلاق .. وهم
يحبون الشعر المنكوش لأن شعورهم هنا حرير ناعم سايب .. الحمد لله
لقد أعطانى شيئا نادرا فى هذا البيت أو هذا الشارع !

وكان الجو باردا .. ووجدت طعام الافطار .. الشاى .. ومعه كوب
من الروم .. والروم يضعونه فى الشاى لكى يشعر الانسان بالدفء ..
والخبز .. والزبدة والمربى .. وصحف الصباح .. وهى صحف لا تغرى
بالقراءة .. فهم أناس حياتهم هادئة .. وأعمالهم منظمة جدا .. وهادئة
جدا .. وأعمالهم تستفرقهم جدا .. وهذا يفيظ الفتاة النمساوية ..
فالشباب النمساوى يعيش ويموت فى عمله .. أما الفتاة فتريد أن تتفصح
وترقص وتلعب .. وهذه مهمة يقوم بها السياح من كل أنحاء العالم ..

وبسرعة خرجت من البيت .. وركبت السيارة الى جوارها .. وفتحت
النافذة .. وراح الهواء يصفعنى بأصابعه الباردة .. الهواء هابط من
قمم الجبال حالا .. وصحوت على صفعاته ولمساته .. وتمنيت لو كان
الهواء مخدة أو خذا ونمت عليه .. الى نهاية عمرى .. وضحكت طائظ
هيلجا كأنما عرفت ما يدور فى رأسى وقالت : وكيف حالها ؟ قلت : جميلة
.. وسألتنى : وماذا تعمل الآن ؟ ..

قلت : من ؟ ..

قالت : أنت سرحت .. أنا أسألك عن الزه ..

قلت : آه .. ظننتك تسأليننى عن النمسا .. ان الزه فى صحة جيدة
.. وقد قابلتها منذ أيام وهى تعمل فى أحد المكاتب السياحية وينتظر أن
تتزوج بعد أيام ..

— شابا ايطاليا ..

— بل شابا نمساويا .. ومن هنا ..

— هى التى قالت لك ذلك ..

وأدركت أننى دخلت أو أدخلت فى مشكلة عائلية أو قومية فقلت : هذا
ما فهمته منها .. وربما كنت خاطئا ..

فضحكت طائظ هيلجا وفالت : فى يوم أدعوك أنت وابنى الى الغداء
هنا .. فوق ..

وأشارت الى قمة « جبل الجياع » ..

ثم ضحكت .. ورأيت أنشباب والشقاوة فى عينيها .. وقالت : هذا
إذا لم تتول هذه المهمة سيده أصفر سنا !

وضحكت وأنا لا أدرك بوضوح المعنى الذى تقصده .. وكان الطريق

ضيقة . ولكن الاشجار رأسية تتنفس هواء أبيض .. والسيارات تروح وتجيء في هدوء وفي صمت .. لا أحد ينظر لأحد .. لا أحد يدري بأحد .. كل واحد في طريقه .. الوجوه حمراء .. العيون لامعة .. كل شيء منتعش .. صبحي ..

وأمام محلها وقفنا .. لقد سبقنا الى المحل عمال وعاملات .. وعربات .. اذن هذا هو محل الجزارة .. والى جواره محل فاكهاني .. والى جواره حلواني .. وفي المحل تحولت طانط هيلجا الى المعلمة هيلجا .. وبسرعة مذهلة .. اندمجت .. دخلت بين اللحوم .. وارتدت المريلة البيضاء .. وظهرت على وجهها ملامح حادة .. قاسية .. وبسرعة أصبحت صقرا يمسك القلم والورق .. وينتقل بين لحوم الابقار والخنازير واللحوم الملفوفة واللحوم الكروية والاسطوانية .. وأصبحت هي نوعا من اللحم يقلب في اللحم .. وانشغلت عنى تماما .. وتسلفت من محل الجزارة النظيف جدا .. وتستطيع أن تضع ألف « جدا » إذا كنت تريد أن تتحدث عن أرض المحل وجدرانه وسقفه وسكاكينه .. وموازينه .. ولم أر زبونا واحدا .. فالمحلات تبعث بالبضاعة الى محلات أخرى عن طريق السيارات والدراجات الواقفة أمام المحل .. وكل شيء يتم بهدوء وبلا كلام ..

ولما زرت طانط هيلجا بعد ذلك بعشر سنوات لم أجد سوى تغيير واحد هو أن السيارات قد تغيرت ماركاتها ، وزاد عددها .. ولكن النظام هو هو .. وطانط هيلجا ازدادت وقارا واحتفظت بحيويتها وزاد يقيني من الرغبة في الابتعاد عن هذا المحل والانشغال بالمحلات المجاورة ، ولأسباب كثيرة .. ليس من الضروري أن تعرفها طانط هيلجا .. خصوصا أنها ليست طانط بحق وحقيق .. وإنما طانط مجاملة للصديقة الزه التي تزوجت الآن داج وعندها ثلاثة من الخنازير — أقصد من الأطفال السمان والذين يفضبون كلما قلت لهم : انهم ايطاليون وليسوا نمساويين ! ..

وفي يوم سألتني طانط هيلجا : ان كنت قد مللت .. فقلت : ليس بعد .. وسألتها : وكيف لاحظت ذلك ؟ قالت : أنت غيرت ملابسك في اليوم الواحد مرتين .. وهذه علامة سيئة .. فأنت غير اقتصادي .. وغير عملي .. ومن رأيك أن التغيير الذي يريده الانسان هو في ملابسه .. في حين أنك تجد في هذه البلاد أناسا يرتدون البنطلون والجاكيتة طول العمر .. ولكنهم يعودون الى بيوتهم كل يوم من طريق مختلف !

وقلت : ابتداء من الغد سوف أكون نمسويا ! ..

وفي الصباح اشتريت البنطلون من جلد الغزال .. والجاكيتة من جلد البقر .. ولم أستطع أن أضع البرنيطة أم ريشة على رأسي .. لا داعي ولا معنى .. وحملت معي سلة من الفاكهة وبعض السندوتشات .. وقررت أن أتناول غذائي فوق .. جبل الجياح .. وصعدت الجبل .. وشددت حيلتي .. وتحت شجرة جلست .. وأسندت ظهري .. ونمت من التعب

ومن الهواء المنعش .. وصحوت على هيصة الى جوارى .. وضحك ..
وتلفت أرى ما حولى .. لم أجد أحدا .. ولكن الضحك واللعب يملآن كل
مكان .. فالحجو هادىء .. والأصوات تجيء من كل مكان .. وأى صوت
مهما كان ضعيفا أو بعيدا فانه لا يجد أدنى مقاومة فى الغابة .. وحملت
سلتى واتجهت الى مصدر الصوت .. ووجدت نفسى أمام عشرة من الشبان
.. وقالوا : من أين ؟ قلت : من مصر .. قالوا : ونحن من النمسا وإيطاليا
وألمانيا .. وسألونى : طالب ؟ قلت : مدرس .. وصرخوا : أعوذ بالله ..
وسألونى : ما الذى تدرسه ؟ قلت : أدرس الفلسفة فى الجامعة ..
وكان من بينهم واحد يدرس الفلسفة فى المدارس الثانوية .. وقام
وصافحنى .. وانتقلنا معا كأننا أصدقاء الى مكان آخر ..
وكانت أجمل ليلة فى العمر كله ..

لقد جلسنا جميعا نتحدث .. وجاء الليل .. وكل واحد يمد يده الى
طعامه ويأكل .. وكان تفاحا ونبيذاً وسندوتشات .. وموسيقى .. وكان
رقص .. وعلى ضوء النجوم وعلى صدى أمواج نهر صغير له دوى بين
الصخور .. أما النصيحة الغالية : لا تتحرك .. فنحن لا نعرف بالضبط أين
هذا النهر .. ان صوته يملأ الغابة كلها .. ولذلك يجب أن نبقى حتى
الصباح ! ..

وفى هذه المنطقة التى نمت فيها كانت احدى المعارك بين النمساويين
ونابليون .. وقد انتصر فيها النمساويون .. وتمثيل النصر بارزة على
جوانب الجبل ..

وبالقرب من هذا التمثال كان الشاعر الألمانى جيته يجىء الى هذه المنطقة
ويستريح ويتأمل .. وفى الشارع المواجه لهذا المكان فى نفس المدينة توجد
حانة صغيرة اسمها « حانة جيته » كان يتردد عليها .. وقد قال فيها عبارة
مشهورة .. والعبارة محفورة على مدخل المحل .. وهى التى تجذب
السياح .. وتحت هذه العبارة يتصور كل انسان انه هو الشاعر العظيم ،
أو يشم نفس الهواء ويشرب فى نفس الكأس ، وان كان لا يدفع نفس
الحساب .. فمن المؤكد أن الشاعر لم يكن يدفع قرشا واحدا .. أنه أمير
الشعراء وزيارته شرف رفيع ! ..

وعندما لاحظت طانط هيلجا أننى أصافحها بحرارة وأقبلها من هنا ومن
هنا أدركت أننى قررت السفر .. وسألتنى : الى أين ؟
قلت : الى سالزبورج !

قالت : ليس عندي وقت لأشاهد ولو حفلة واحدة من المهرجان العظيم ! ..
وفعلا ليس عندها وقت .. فهذه أول سنة يقام فيها المهرجان الموسيقى..
للموسيقار العبقري النمساوى موتسارت ، بعد الحرب العالمية .. لقد
تعطلت هذه المهرجانات ، وأفسدت المجال للطائرات والدبابات ..

كل الحروف الرجائية ! موت سارت !

واذا كان النمساويون يتحدثون عن الموسيقى دائما ، والألمان أيضا ،
فإنهم يتحدثون عن موسيقار واحد هو ابنهم العبقري : موتسارت . . الذى
ولد فى مدينة سالزبورج . . وبيته موجود فى سوق الخضار . . البيت
مدخله ضيق . . وسلاله عالية رأسية . . وغرف البيت خائقة . . ولأن
موتسارت كان قصير القامة وكان أبوه كذلك ، فإنك ستوف تحس بذلك فى
أول وهلة . . عندما تحاول أن تصلب عودك فلا تستطيع لأن السقف
قريب وأنت تتفرج على خصلة الشعر الموجودة فى بيته . . أو على الحل
والطشوت النحاسية التى كانت تستخدمها أسرة الموسيقار . .

الشوارع على اسم موتسارت . . والمتاحف . . والصالونات والمقاهى
. . تماما كما نجد فى مدينة طنطا اسم : السيد . . والعربى . . والبدوى . .
فى صالون الحلاقة قالت لى الأسطى وهى تمر باصابعها حول أذنى :
أول مرة . .

قلت : نعم . .

قالت : طبعا عندك فكرة عن أوبرات . . موتسارت كلها . . أو بعضها :
. . الليلة أوبرا « المناى السحرى » . .

قلت : أعرف ذلك . .

قالت : انها آخر أوبرا ألفها . . لقد استمع اليها وهو يموت . . ولم
يستطع أن يحضرها . . ولذلك كانت الساعة فى يده . . وكان يقول : الآن
يرتفع الستار . . الآن تدخل الموسيقى . . الان . . الناس سعداء . . وأنا
أيضا . . ومات !

وفي أحد المطاعم قال لى الجرسون : عندك كم سنة ؟ ..
قلت : ٣٦ سنة !

فانزعج .. وعرفت لماذا انزعج عندما وقف الماء في حلقى .. ففى هذه
السن مات موتسارت .. ويقال مات مسموما .. والذي وضع له السم
موسيقار آخر اسمه ساليرى .. وساليرى عندما مات موتسارت قال :
لقد مات عبقرى .. فلنفرح لذلك .. ولنشرب في صحته .. وغدا لن يدفع
لنا أحد قرشا واحدا ثمنا لموسيقانا ! ..

والشاعر الروسى بوشكين قد ألف مسرحية عن الموسيقار الذى وضع
السم لموسيقار آخر .. وجاء الموسيقار الروسى رمسكى كورساكوف وحولها
الى أوبرا موسيقية ..

وفي مطعم بسوق الخضار في مدينة سالزبورج جلست في مواجهة صورة
مضحكة .. الصورة للأسرة المالكة النمساوية .. وفي مقدمة الصورة طفل
صغير قد ترحلق على الأرض .. وينظر للواقفين ولكن أحدا لا يهتم به ..
وكنت في حاجة الى تفسير .. وجاءت صاحبة المطعم .. وعرفت أن هذا
الطفل هو موتسارت .. فقد ترحلق في قصر « شيبرون » بعد أن قام
بالعزف على البيانو وهو في الخامسة من عمره فأذهل الحاضرين ..
وهنا تقدمت منه الأميرة ماري انطوانيت .. وأنهضته .. فقبلها الطفل
العبقرى وقال لها : سوف أتزوجك عندما اكبر ! ..

ليته فعل ذلك .. فماري انطوانيت هذه هي التي تزوجت الملك لويس
السادس عشر .. وقد أعدمتها الثورة الفرنسية معا ! ..

وكان من عادة الموسيقار العظيم ، وهو طفل ، أن يقبل النساء .. انها
الغريزة .. فبعد أن عزف على البيانو وصفق له القصر الإمبراطورى تقدم
من الإمبراطورة ماريا تريزا ولف ذراعيه حولها وقبلها .. هنا .. وهنا ..
و « هنا » الثالثة أى في شفيتها ! ..

وعندما ذهب الى باريس وحاول أن يقبل مدام دى بومبادور رفضت ..
فقال لها الطفل الصغير : ولماذا ترفضين ان الإمبراطورة ماريا تريزا قد
جعلتني أقبلها ..

وانسحبت مدام دى بومبادور .. وتضايق الطفل .. وقال بصوت
مرتفع وأبوه يسحبه الى خارج القاعة :. وأنا لا أحب أن أقبل سيدة رائحة
عرقها تدوخ ألف طفل ! ..

لا بد أن طفولة موتسارت المؤلمة هي التي جعلت النساء تستشعر الألم
والندم أمام كل طفل .. فكل أب يحلم بأن يكون ابنه مثل موتسارت ..
وما المانع ؟ .. لا مانع — بشرط ألا يتعذب مثله !

ففى المعرض الدولى الذى أقيم في مدينة بروكسل عرضت كل دولة أروع
ماعندها .. عرضت روسيا القمر الصناعى الذى أطلقته لأول مرة في

التاريخ .. وعرضت أمريكا : الانسان الآلى .. وعرضت السينما
المجسمة .. وعرضت مصر نموذجا للمرور فى قناة السويس .. وعرضت
اسرائيل لفائف البحر الميت التى سرقوها من التاجر الاردنى والتى عثروا
عليها فى شمال البحر الميت أثناء حرب ١٩٤٨ .. وعرضت انجلترا أجهزة
تحويل ماء البحر الى طاقة .. وعرضت ألمانيا لوحة شرف للذين فازوا
من أبنائها بجائزة نوبل فى العلوم والآداب وعرضت بلجيكا جناحا لمستعمرتها :
الكونغو التى تحررت ! ..

أما النمسا فقد عرضت نموذجا لمدارس الأطفال .. كيف يتعلم الطفل
.. وكيف يلعب .. وكيف ينام .. أى أنها عرضت أروع ما عندها :
أطفالها .. وقد رأينا مدرسة جدرانها من الزجاج .. والأطفال يتعلمون
كما لم يتعلم موتسارت : بهدوء وراحة وسعادة ..

ويلعبون فى نفس السن التى كان فيها موتسارت يعزف .. فهو قد
يتعلم الموسيقى فى الرابعة .. وبدأ يعزف فى الخامسة .. وبدأ يؤلف فى
السادسة .. وعندما بلغ السادسة عشرة كان قد ألف أكثر من عشر
سيمفونيات وست أوبرات .. وكان الناس لا يصدقون ذلك .. وكانوا
يتصورون أن والده هو الذى يؤلف له .. ولذلك كانوا يحبسونه فى غرفة
.. ويتركونه وحده .. ثم يفتحون عليه الباب فجأة ليروا العفاريث ..
وكان الطفل ينزعج .. وفى إحدى المرات اجتمع رجال الدين فى مدينة نابلى
بايطاليا .. وطلبوا الى الطفل الصغير أن ينزع الخاتم السحري من يده ..
وأن يكتب موسيقاه أمامهم .. وكتب وأذهلهم ! ..

ان النمسا تريد أن تكفر عن العذاب والهوان الذى لقيه الطفل الصغير
وهو يتنقل بين العواصم مع والده وأخته الصغيرة .. لقد أدهش العالم
كله .. وأدهشنا أيضا لأنه لم يكسب الا القليل .. وعندما مات موتسارت
لم يمش فى جنازته أحد .. فقد كان الجو باردا عاصفا .. حتى زوجته لم
تمش فى جنازته .. ودفن موتسارت فى مقابر الفقراء فى فيينا .. ولا يعرف
أحد حتى الآن أين دفن ! ..

والمثل الشعبى المصرى يقول : عندما مات كلب المدير ، سار الناس فى
جنازته ، عندما مات المدير لم يمش كلب فى جنازته ! ..

فى مدينة سالزبورج ، وفى مقهى « فنكلر » العالمى الشهير ، ترى المدينة
.. وتشم هواء العبقرية .. وتسمع كل مؤلفات موتسارت فى كل مكان ..
فالناس لا حديث لهم الا عن موسيقاه .. كل الناس .. وكلهم يقارنون بين
قيادة المايسترو فورتفنجلر والمايسترو كراوس والمايسترو فون كرايان ..
الناس جميعا .. ويتفقون ويختلفون .. وهى فرصة سعيدة جدا لأن تشعر
أنك أطرش فى زفة ! ..

والمايسترو فور تفنجلر جاء الى مصر . . وفوجيء بأن المصريين يصفقون بين الحركة والحركة في السيمفونية . . وهذا لا يحدث في أى مكان في العالم كله ! . . واستنكر ذلك . وأنزعج ولم يكن مجاملا . .

أما المايسترو كراوس فقد جاء أيضا الى مصر . . ونبهوه الى أن المصريين — وهذه تقليعة جاهلة — يصفقون بين الحركات . . أى عندما تهدأ الموسيقى ويسود صمت لبضع لحظات وبعدها ينتقل السياق الموسيقى الى معنى آخر . . ولكن كراوس كان مجاملا . . فكان يلتفت الى الجمهور في ضيق مهذب ويستمر في قيادته للفرقة الموسيقية . .

والناس يحدثونك متى انكسرت العصا في يدى فون كرايان . . وكم فتاة أغنى عليها من شدة التأثر ! . .

واذا كانت النمسا بها ثمانية ملايين نسمة فمن المؤكد أن الثمانية يستمعون الى الموسيقى الكلاسيكية . . ومن المؤكد أنهم جميعا يحفظون موسيقى موتسارت ! . .

ومن أجل موتسارت يحتمل الناس أى شيء . . فالسائح لا يكون عادة موسيقارا ، ولا من أسرة موسيقية ، ولا هو مضطر الى أن يبلع ويشرب ويتمدد على أنغام موتسارت . . ولكن ليس أمامك أى مجال للاختيار . . ان الموسيقى هى الماء والهواء هنا . . ولا تستطيع أن تحمل معك أكياسا من الأوكسجين وأن تضع على أنفك وأذنك كمادة رواد الفضاء . . وبذلك تنعزل تماما عن هذه البيئة الموسيقية الفاسدة . . مستحيل ! انها فرصة لكى تذوب . . فرصة لكى تحس أنك مثل « قطر الندى » التى كانت تجلس على سرير من ذهب فى بحيرة من الزئبق . . ثم تعود الى غرفتك . . وتحس أنها مصنوعة من طوب نادر :: طوبة فضة وطوبة ذهب ! . .

وقد حاولت فى أول ليلة أن أكون « قطر الندى » هذه ولكن لم استطع . . وانما كنت مثل شجرة الدر فى آخر أيامها . . فقد ضربوها بنفس القباقيب التى قتلت بها زوجها ! فقد ذهبت الى مكتب السياحة وسألت عن غرفة متواضعة . . ولم أكن أتصور أن التواضع باللغة الألمانية معناه حرفى الى هذه الدرجة . . فقد أعطونى عنوانا . . وذهبت الى العنوان . . فوجدت البيت على يمينه بيت متهدم . . وعلى يساره بيت متهدم . . وأمامه بقايا كنيسة . . ووراءه بقايا كل شيء : بيوت وعربات وأشجار ودكاكين . . العنوان الذى فى يدى يقول : السيدة ماريا اشبرانجر . . دور ثان . . شقة ٦ . . ولكن البيت الذى أقف أمامه ليس الا طابقا واحدا . . اذن ، هذا عنوان قديم . . أيام كان البيت من طابقين . . ووضعت يدى على الجرس . . وانفتح الباب بسرعة كأنهم كانوا يتوقعون سائحا . . الله . . كانت طفلة صغيرة جميلة . . وتعجبت الطفلة وقالت :: أونكل . . واحتضنتنى . . وانحنيت أقبّلها . . وسبقتنى الى ذلك وقبلتنى . . وأخذت حقيبتى . . وبسرعة اتجهت الى الداخل . . الله . . وجاءت فتاة أخرى . . واقتربت .

منى برفق .. وأعطتني خدها .. وقبلتها .. وجاء طفل صغير .. واقترب
منى .. واعتاد أن يحمله كل من يراه .. ورفعته وقبلته .. وسألني الطفل
.. أنت أونكل مانفريد .. قلت : لا .. وسألني : أنت مين .. قلت :
أنا أخو أونكل مانفريد ..

اذن كانوا يتوقعون سائحا آخر ..

وجاءت سيدة تضع المريلة البيضاء .. وقلت لها على الطريقة
النمساوية : التحيات لله .. فقالت : التحيات لله .. ! .. وأعطيتها الورقة
التي تسلمتها من مكتب السياحة .. وفي حياء شديد طلبت منى أن أدخل
.. وسألتنى أن كان معى حقائب .. وقال لها الأطفال الصغار ماذا حدث
لحقيبتى .. وضحكت الأم .. وضحكت .. وقالت أن هذه الغرفة مؤقتة ..
وأنها سوف تنقلنى الى غرفة أخرى بعد ثلاثة أيام ..

وكان فى نيتى أن أبقى يومين فقط .. ولكن أمام هؤلاء الأطفال
الصغار قررت أن أبقى ثلاثة أيام أخرى .. ان هزم السيدة قد مات زوجها
فى الحرب .. وتزوجت رجلا آخر .. توفى منذ شهور .. وهى قد حولت
بيتها الى بنسيون من ست غرف .. وهى وحدها التى تتولى تنظيفه
وترتيبه .. وهى التى تطبخ وهى التى تغسل ..

وكانت غرفتى مطلة على بيت قديم متهدم .. ولكن البيت قد نبت عليه
العشب .. وأظن قد سمعت مواء قطرة .. لا بد أنها تطارد فأرا .. وكانت
غرفتى صغيرة جدا .. وكان السرير مزنوقا فى أحد الأركان .. وبها منضدة
.. ومقعد .. وبها كوب .. وطفاية سجائر .. ونسخة من الكتاب المقدس
.. ولوحة للموسيقار موتسارت .. وسجادة عجمى على الحائط .. وستارة
على النافذة .. أما حقيبتى فهى تحت السرير .. وهو المكان الوحيد الذى
يمكن أن توضع فيه .. هذه الغرفة يمكن وضعها فى حقيبة — اذا قرر أحد
الصوص سرقتها .. أو قررت صاحبة البيت أن تنتقل الى أى مكان آخر ..
وكنيت متعبا جدا .. ونمذدت على السرير .. وتركت النافذة مفتوحة
.. وجاء الهواء البارد منعشا .. وأحسست بشيء من الاكلان فى وجهى
.. وقلت : ربما بداية حساسية ..

وحاولت أن أتذكر الأطعمة التى أكلتها .. لا شيء منها يؤدي الى التهاب
البشرة أو الى الهرش .. فقد أكلت اللحم المشوى .. وبعض السلطة
التي يصبون عليها السكر .. وكوبا من اللبن .. وفنجانا من القهوة ..
وهى أجمل ما يقدمون للسياح .. ولا يمكن — طبعاً — أن تكون الموسيقى
هى التى أحدثت هذا الهرش المستمر .. فأنا الآن أهرش فى وجهى وفى
عنقى .. وفى كل جسمى ..

وقفزت من السرير .. وعلى ضوء المصباح أستطيع أن أؤكد أن الغرفة
تسكنها البراغيث .. يا خبر : براغيث فى سالزبورج .. براغيث تقفز على
انعام الموسيقى .. وليس من المعقول طبعاً أن أقضى عليها كلها .. فمن

الذى يستطيع أن يمسك برغوثة واحدا .. فما بالك بالعشرات أو المئات
.. ونظرت الى السجادة العجمية الموجودة على الحائط .. فوجدت بيتا
من الشعر لمعر الخيام يقول :

فما أطال النوم عمرا
ولا قصر فى الأعمار طول السهر

معك حق .. فلا النوم يطيل العمر ، ولا السهر يقصف العمر .. يعنى
مطلوب منى أن أحرس هذه الغرفة كل ليلة .. ولا داعى للنوم ! ..

ان الذى يرى هؤلاء الأطفال الصغار الذين يرحبون بك كأب أو كعم ..
والذين حرموا من الأب ، لا يشعر بالبراغيث .. وحتى لو أحس بهذه
البراغيث فان هذه البراغيث هى سلالة البراغيث التى شربت من دم
الموسيقار موتسارت .. اننى سعيد بها .. فالموسيقى أصبحت تجرى فى
دمى ! ..

جميلة: وأى شيء آخر؟!

كان لى صديق نمساوى يدرس اللغة الألمانية فى جامعة عين شمس . وهو أول من قال لى : ان المصريين هم الوحيدون الذين يمسكون سلسلة مفاتيح فى أيديهم ويطوحونها يميناً وشمالاً .. لا أفهم لماذا ؟ !

وأنا لم أفهم لماذا .. ربما كان نوعاً من التعبير عن الحيرة والدوخة .. دون أن يفكر الواحد منا فى طريقة للخروج من هذا المأزق .. ربما ..

ولم أكد أنزل فى محطة فيينا حتى نظرت الى الطفلة الصغيرة التى الى جوارى وأيقظتها وقلت لها : اصحى يا ماما .. هنا فيينا ! ..

الطفلة كانت « عهدة » لقد سلمتها لنا أمها فى روما .. وقالت : انها هادئة .. مطيعة .. ومعها طعامها وملابسها .. فأرجو مراعاة ساعات تناول الأدوية ! ..

وكنيت سعيداً بها .. وتناوبنا السهر عليها وعلى راحتها .. ولم تطلب منا شيئاً صعباً .. تناولت طعامها .. ومسحت شفتيها .. وأصرت بعض السيدات على أن تأخذها الى دورة المياه لتغسل أسنانيها .. ثم جاءت ونامت .. وراعينا ألا نوقظها . فكنا نتحدث بعيداً عنها .. وكان القطار عندما يقف فى المحطات نسارع لنؤكد لها أن محطة فيينا ما تزال بعيدة .. ولكن الطفلة كانت مشغولة ببعض اللعب والحديث اليها .. وفى غاية الاطمئنان .. وأمام محطة فيينا .. جاءت سيدة معها باقة ورد صغيرة وصندوق شيكولاته .. ومعها لافتة مكتوب عليها : الأنسة الصغيرة باولينا فرانشييسكو .. وكان هذا هو اسم هذه الطفلة الإيطالية .. ورافقناها الى السيدة التى تنتظرها .. وعانقتها .. وطلبت الى الطفلة ان تشكر كل الذين ساعدوها من روما الى فيينا .. وتوجهت اليها .. وشكرناها نحن على أنها أسعدتنا طول هذه الرحلة .. وأعجبنا بشجاعتها وتحسرننا فى صمت

على أمهاتنا اللاتي لا يستطعن أن يتركننا نسافر من القاهرة الى الاسكندرية دون أن نرى الدموع في العيون .. ودون أن نسمع : ربنا يكرمك في غربتك ! .
والغربة هي أن يكون الانسان من القاهرة ويعيش في الاسكندرية أو
أسوان !!

وفي محطة فيينا .. وفي هذا الوداع الرقيق الصافي الحار ، لحث من بعيد شابا يلعب بالسلسلة في يده .. وأيقنت أنه مصري . ملامحه .. حركاته .. ثم حركة السلسلة في يده .. واتجهت اليه : حضرتك مصري ؟
قال : نعم ..

وخرجنا من المحطة معا .. واتجهنا الى فندق في شارع « هيرنا لسرجرتل » .. الاسم سخيف .. والفندق أسخف .. وقد عرفت ذلك بعد يومين .. عندما وجدت لافتة على أول الشارع مكتوبا عليها : خارج الحدود .. وهذه اللافتة قد عرفناها في القاهرة أيام الحرب العالمية الثانية .. كان الانجليز يضعونها لجنودهم .. ويطلبون اليهم ألا يدخلوها لأسباب كثيرة . من بينها أنهم لا يستطيعون أن يدافعوا عنهم فيها .. فهي مناطق غير مأمونة لهم .. ولكن ليس معنى ذلك أنها غير مأمونة لغيرهم .. ولم أفهم لماذا هي « خارج الحدود » .. ربما لأنها متواضعة جدا .. وربما لأنها مخصصة للأجانب .. وانه لا داعي لأن ترتكب قوات الاحتلال أية حماقات .. والحلفاء قد احتلوا النمسا سنة ١٩٤٥ .. وقسموها الى أربع مناطق : روسية وأمريكية وبريطانية وفرنسية .. وقسموا فيينا أيضا الى أربع مناطق .. أما المنطقة الخامسة فهي دولية .. وانسحبوا منها سنة ١٩٥٥ . ومنذ ذلك الحين والنمسا دولة محايدة تماما كسويسرا التي سبقتها الى الحياد منذ سنة ١٨١٥ .. وقد احترمت الدول الكبرى حياد النمسا .. حتى أن الأمريكان أثناء أزمة لبنان في يوليو سنة ١٩٥٨ قد اعتذروا للحكومة النمساوية عندما انطلقت الطائرات الامريكية في الأجواء النمساوية دون إذن سابق ! .

وبسرعة سألت المواطن المصري عن الأماكن الرخيصة .. وعرفتها .. وعرفت أماكن أحسن منها عندما زرت النمسا بعد ذلك كثيرا .. ولكن في مدينة فيينا توجد أحسن مقاهي الدنيا .. انها تختلف عن مقاهي باريس .. مقاهي باريس وسط بين البارات والمطاعم .. ولكن مقاهي فيينا وسط بين النوادي والمقاهي .. وهم يقدمون هنا قهوه فيينا المشهوره .. وأجمل ما في هذه المقاهي : الهدوء والقهوة والفتيات الجميلات .. وأجمل ما في الفتيات هذه الالتفاتات غير المقصودة .. ممثلا : تقدم لنا الفتاة فنجان القهوة .. وتتمنى لك الصحة والعافية .. وتشكرها .. وتذهب لتتمنى نفس الشيء لزبون آخر .. وفي اللحظة التي تضبطك فيها وأنت تنظر اليها من بعيد .. تكافئك على ذلك بابتسامة .. هذه الابتسامة تكشفك أول

الأمر ، ولكنها تشجعك وتجرجرك وراء هذه الفتاة من زبون الى زبون ..
ومن المقهى الى الترام الى الحديقة .. والى مقهى آخر تتناول معها العشاء
دون أن تنظر الى فتاة أخرى ! ..

وفي الليل التقيت مع المواطن المصرى .. وكنا أربعة .. تعشنا ..
وتحدثنا عن ماضى النمسا وماضى مصر .. وعن مستقبل مصر ومستقبل
الفتاة النمساوية الجميلة التى قررت أن تجيء الى مصر لتفتتح أحد المقاهى
هناك .. أى مادام المصريون معجبين بهذه المقاهى الى هذه الدرجة ، فسوف
يكون هناك كثيرون يعجبون بها .. أى أنها فكرة ناجحة .. وأمام الدخول
فى هذه المشروعات العملية .. استأذن المواطن المصرى ليذهب الى دورة
المياه .. ودفعت أنا الحساب ، ولم يعد المواطن المصرى من دورة المياه ..
حتى الآن ! ..

فعلا .. المصريون هم الوحيدون الذين يلعبون بالسلاسل فى أيديهم ،
ومن الواجب أن يشنقوا بها بعد ذلك ! ..

هذه اذن مدينة فيينا .. التى كانت عاصمة الدنيا أربعة قرون على
الأقل .. عاصمة أقوى الامبراطوريات .. هنا يسكن ربع الشعب النمساوى
.. فالعاصمة أضخم من النمسا .. انها رأس كبير لجسم نحيل .. وهى
أيضا العاصمة اليهودية العتيبة .. فقد كانت فيها جالية يهودية قوية ..
وفيهما كان يعيش عدد من المفكرين والأدباء والعلماء اليهود : فرويد وأدلر
.. والأدباء : كافكا وقرفل وتسفاج ومولنار والموسيقار شينبرج ..

وهنا كان هتلر يحرم على اليهود أن يسكنوا فى شقق تطل على الشارع
العمومى .. وكان يتقاضى منهم ضرائب على كل من يولد ومن يموت ومن
يتزوج .. وكان يتقاضى ضرائب على الشموع التى يستخدمونها فى أعيادهم .
وهنا كانت أول صدمة لقيها هتلر عندما ذهبت أخته وأشتغلت طاهية
فى أحد المطاعم اليهودية .. وهنا أصدر قرارا على كل طفل يهودى يولد :
إذا كان ذكرا يجب أن يكون اسمه : اسرائيل ، وإذا كانت أنثى أن يكون
اسمها سارة .. وبذلك يميز اليهود عن غيرهم من المواطنين .. وقد هرب
٩٠٪ من اليهود الى خارج النمسا ..

ولكن ما تزال فيينا هى العاصمة بكل معانى الكلمة .. فهنا دار الأوبرا
العريقة .. ميزانيتها مليون ونصف مليون جنيه فى السنة .. ولا يعيب هذه
الأوبرا الا الترام الذى يدور حولها .. والى جوارها قهوة موتسارت التى
يجلس عليها معظم المصريين .. وهنا أيضا الحانات الصغيرة الجميلة ..
وخارج فيينا عشرات من الحانات الشهيرة .. وبמידا عنها يوجد نهر الدانوب
.. وهو ليس أزرق كما تقول الموسيقى اشتراوس .. وإنما لون ماء الدانوب
بنى اللون .. وهو لا يكون أزرق الا عندما ينظر اليه المحبون .. ولذلك
فمن المؤلف أن يذهب الشبان الى نهر الدانوب : ولا يزال الشباب يقبل
فتاته ويعانقها حتى يصبح الدانوب أزرق فى عيونهما ..

وكلما سألتها : ألم يصبح الماء أزرق بعد !

فتقول له : ليس بعد !

وليس من الصعب عليه أن يدرك أنها في حاجة الى مزيد من القبلات ..
ومن عجائب علم الكيمياء في هذه البلاد : انك اذا قبلت فتاة الف مرة يتحول
ماء النهر البنى اللون الى أزرق فاتح .. كم من القبلات تحتاجها مصر لكي
يتغير لون نهر النيل !

وفي الفندق يسألنى البواب بخبث : هل رأيت الدانوب ؟

فأقول له : نعم ..

وواضح أن البواب يريد أن يدخل في حديث طويل : هو .. وكيف وجدته ! ..
فأقول : وجدته أزرق اللون !

ويكون رد الرجل معناه : هل وجدت نهر الدانوب أزرق .. !

وأهز رأسى بما يؤيد وجهة نظره ..

ويعود هو يقول : تحب أقول لك على مكان آخر لون الماء فيه أسود ! ..
وقبل أن أسأل عن هذا المكان يقدم لى زجاجة حبر .. ومعها خطاب :
لقد جاءت الى هنا وتركت لك هذه الهدية ! ..

آه .. لقد جئت الى فيينا ونسيت زجاجة الحبر .. وطلبت الى احدى
الجرسونات أن تبحث لى عن حبر قائم .. أشكرها .. وحتى لا يسألنى
البواب عن هذه الفتاة وصلتها بى .. افتعلت الاهتمام ورحت أقرأ الخطاب
.. ثم سألته عن مكان ورد اسمه فى الخطاب .. وهنا ضحك الرجل وأشار
بيده عبر الشارع وقال : هناك .. ألف شقراء مثل التى أتت لك بهذا
الحبر ! ..

هنا مدينة الوزير مترنيخ أول من استخدم النساء فى التجسس . فقد
كان عدد بنات الليل فى أوائل القرن التاسع ، عشرة آلاف فتاة .. وكان
الوزير مترنيخ ينصب الشـقراوات عيوناً على كل الأجانب والخصوم
السياسيين .. وكان هو يؤمن بأن النساء أداة للحكم والتحكم .. وكان
يمضى ليله كله يركع عند الجميلات .. وكان مترنيخ هذا أصغر من نابليون
بأربع سنوات .. وكان عشيقاً لأخت نابليون : كارولين .. وعندما كان
سفيراً للنمسا فى باريس كان عشيقاً لـزوجة الجنرال التى كانت زوجته
عشيقة لنابليون أيضاً .. وكان عشيقاً أيضاً للأميرة اليهودية ليفين زوجة
السفير الروسى .. وهى التى كانت تأتي له بكل أخبار السفارة البريطانية
.. وقد نقلت اليه الكثير من المعلومات والوثائق .. وفى سنة ١٩٣٦ نشرت
الرسائل المتبادلة بينها وبين الوزير مترنيخ .

ومنذ القرن التاسع عشر ، تتولى مدينة فيينا تصدير الشقراوات الى كل مكان في أوربا .. وهى تجارة رابحة .. وربما كانت فيينا هى العاصمة الوحيدة التى تجد فيها هذا العدد الكبير من الفتيات اللاتى يمشين فى الشارع بهدوء وبكثير من الاحتشام .. ويصعب على الأجنبى أن يعرف ان كن سيدات محترمات أو فتيات يعملن .. وقد أدركت الفتاة النمساوية ذلك ، وحتى لا يحتار السائح كثيرا فانها هى التى تتقدم له .. وتذيب الجليد والحديد أيضا !

فى احدى المرات كنت أزور بيت الموسيقىار بيتهوفن .. البيت ريفى صغير .. ولكن من هذا البيت الصغير خرجت أروع الأنغام .. وخرجت روح أتعس الناس .. ذلك الموسيقىار العظيم الذى كان يمزق حياته ويلعنها .. فهو يبصق على الأرض دائما وأمام أى أحد .. وهو لا يغسل ملابسه .. وعلى سريرته تلتقى الجزمة والملمعة والنوتة الموسيقية .. وقد حاول بعض الفنانين أن يقفل أبواب ونوافذ هذا البيت لكى تكون له رائحة كريهة تذكرنا برائحة البيت أيام كان يعيش فيه بيتهوفن .. ولم تعجبني الفكرة . وقلت : اذن أحسن مكان لاقامة متحف بيتهوفن هو قبر بيتهوفن .. فهو خانق كرية ومخيف ! ..

وانضمت الى رأى سيدة تعرف عدة لغات .. وفى يدها بعض الكتب .. وقال صديق : أنت سعيد لأنها من رأيك .. أو لأنك من رأيها ! .. ولم أفهم .. ولكن عندها غمز بعينه .. ثم غمز للجهة الأخرى .. عدت انظر الى السيدة من جديد .. لا شئ فيها يعييبها أو يعيبنى اذا كانت هناك أية صلة ..

وذهبنا معا الى القصر الامبراطورى « شينبرون » .. ونافوراته الجميلة .. وطرقاته الواسعة .. ولوحاته اللذيذة للأسرة الامبراطورية كلها .. ولنايليون والموسيقار موتسارت ..

واختلفنا أمام هذه الامبراطورة التى أنجبت عشرين طفلا .. ولا تزال ملامحها حلوة .. وقوامها مشدودا .. وقالت السيدة : منتهى الكذب .. اذ كيف تحمل وتلد سيدة أيا كانت ويكون لها هذا الخصر الدقيق .. ان هذا ضد الطبيعة ! ..

وهو فعلا ضد الطبيعة .. واكن الفنان هو الذى شد جلدها على لحمها وصلب عودها .. وأعطاهها من الجمال والحيوية ما يجعل شبابها دائما ! .. وقال صديقى : لا تزال من رأيها ؟ ..

قلت : ولكنه منطقى .. أو كلامها هى منطقى ! .. ولا يهم من التى تقول ! ..

واقتربت منه لأسأله : لا أفهم . . ماذا تريد أن تقول . .

وقال : أنت لا تعرف من هي ؟ . .

— لا أعرف . .

— حاول أن تتذكر !

— حاولت . . ولكن لم أعرف ! . .

انها صاحبة مطعم وبار وامبراطورة على مئات الفتيات الشقراوات
في شوارع فيينا . . واياه يعنى ؟ . . ولكنها رغم ذلك مثقفة . . ولا بد أنها
ترى أيضا أن عملها هذا تجارة . . والتاجر والفاجر أولاد عم . . ان لم يكن
التاجر هو الفاجر أيضا . . وهذه السيدة هي الصورة الحية لمدينة فيينا . .
الجميلة الرقيقة الممزقة . . وأى شيء آخر بعد ذلك ! . .

من الطاف به إلى الأُناس وبالعكس

كشفت الملك.. رانجا !

كان الليل من نوع غريب .. باردا جدا ولكن ليس مظلما تماما ..
ولا هواء ولا مطر .. ولكن برودة من طين .. أو طين بارد .. والناس
أشباح .. أجسام سوداء ضخمة تروح وتجيء بسرعة ودون أن تصطدم
بأحد .. وطبعاً دون أن يتساند أحد على أحد .. أو يسقط أحد على
الأرض كما حدث لى مرتين وأنا أتجه من لوكاندة أوكرانيا الى الميدان الأحمر
الشهير .. ومن المؤكد أنني فى هذه الساعة من الليل وفى هذه الدورة
والظلام والسرعة ، لن أرى الميدان الأحمر .. ولن أرى الميدان .. ولكنها
فكرة خطرت لى قبل أن أتأكد من غرفتى أن أذهب الى الميدان الأحمر ..
لأشاهد الكرملين الذى رأيت صورته وقرأت عنه .. ولم أره ليلاً ولن أراه
نهاراً .. فهنا أحداث التاريخ الحديث كلها .. فمن هنا خرجت أكبر ثورة عرفها
الانسان فى القرن العشرين ..

الفندق دافىء .. والناس كثيرون ومن هيئات مختلفة أو من كل الهيئات ..
والمشرفات على الفندق سيدات كبيرات فى السن .. وشيء من الصمت يربط
الناس ببعضهم البعض .. ربما كان سبب الصمت أن أحدا لا يعرف لغة
أحد .. أو لا داعى للكلام .. كان الناس قالوا كل ما عندهم وجاءوا هنا
ليبتلعوا السنتهم أو ليفسلوها أو ليقطعوها أو يستبدلوها .. صمت ..
حاولت أنا شخصياً أن أقول .. ولكن لم أجد ما أقوله .. ما الذى أريده ؟
لا شيء .. ما الذى أحتاجه ؟ لا شيء .. ولمن أقول ؟ لا أحد .. إذن فالصمت
سلوك طبيعى ..

الباب ضخم .. المدخل ضخم .. كل شيء كبير وغليظ وعريض وطويل ..
واتجهت الى اليسار .. الى يسار الفندق .. وليس كل شيء هنا يتجه
الى اليسار فقط .. طبعاً لا .. فهنا يمين ويسار والناس لهم أيضاً يمين
ويسار .. ولكن اليسار فى الفكر ..

والناس يروحون بخفة .. غريبة .. واتزان غريب .. وقد ارتدوا شيئاً من الفراء على الرأس .. وأحذية غليظة وتغطوا ببالطو .. احتاطوا تماماً للشتاء .. ولكنه ليس شتاء عندهم .. أنه يوم من أيام السنة الدائمة الشتاء .. والأرض من الطين .. ولا بد أن الضحكات التي تتعالى ورائي وأمامي بسبب أناس سقطوا على الأرض .. مثلي .. أنهم لم يعتادوا على المشي في شوارع موسكو المطينة .. لا هم اعتادوا .. ولا حتى هذه الأحذية التي يلبسونها أحذية .. انها مثل الجوارب .. رقيقة .. ولا تمنع تسرب الماء .. أما البرودة فقد تسللت واستقرت في العظام .. وأفقدتني الاحساس بالبرد .. ولو أمسك انسان سكيناً وقطع أنفي فلن أشعر .. ولو قطع أذني فلن أشعر .. ولكن من المؤكد أنه لو قطع لساني فسوف أصرخ .. لأن لساني في فمي .. وفمي دافئ .. أى أن أعصابي متنبهة ..

ولا أعرف ان كان الروس يضحكون لهذه الألعاب البلهوانية التي نقوم بها في الشوارع .. أو أنهم اعتادوا عليها .. أو أنهم مجاملون يضحكون في سرهم .. أو أنهم بدأوا يضيقون بها ويفضلون عليها الشقيلة المدروسة .. ووصلت الى الميدان الأحمر .. من المؤكد أنه ميدان ضخم واسع .. ولكنه ليس أحمر .. وهناك غوق مبنى الكرملين الضخم الذي يبدو مثل شبح هائل توجد نجمة حمراء .. واقتربنا من الميدان .. ومشينا في الميدان .. وأشاروا لنا بأن هذا المبنى هو الكرملين .. وهذا المبنى الى اليسار هو محل « الدوم » أكبر المحلات الاستهلاكية في موسكو يبيع كل ما يحتاجه المواطن .. وأن هنا قبر لينين .. وأنه لا بد أن نجىء في ساعة مبكرة من الصباح لنقف في الطابور ساعة أو ساعتين لنلقى نظرة على صانع الثورة السوفيتية لينين الذي ولد من مائة عام .. والذي عندما بلغه أن أخاه قد أعدم لأنه تأمر على القيصر أقسم أن ينتقم .. وقد انتقم وانتقم من هذا القيصر ومن عشرات الألوف من القياصرة والحاشية في روسيا وفي كل العالم ! .. بعد ذلك كان لا بد أن أعود الى الفندق .. لأنه لا شيء يمكن عمله عند منتصف الليل في موسكو .. لا شيء .. لا المشي في الشوارع نزهة .. ولا الذهاب الى المسارح ممكن .. ولا دار الأوبرا .. فهذه أماكن مكدسة ومحجوزة فترات طويلة مقدما .. ولا بد من تدبير وترتيب .. ولا يمكن الذهاب الى أى مكان آخر .. ما دام الإنسان غير قادر على الرؤية .. فلا معنى لشيء .. اذن لا بد من العودة الى الفندق .. ولا بد من النوم .. الفندق كبير وليست له مزايا خاصة .. انه فندق أوربى .. فيه تدفئة واضحة .. وفي الغرفة راديو يطلق علينا الموسيقى .. وربما نشرات الأخبار .. لا تعرف .. فكل شيء بالروسي .. ومن نافذة الغرفة يمكن رؤية الشارع أوضح .. هناك أضواء .. وهناك كناسون — أو على الأصح كناسات — وهناك جهود عضلية لتكديس الثلج أو الطين على جانب من الشارع .. وتجيء عربات تحمل الطين أو الثلج وتنقله الى مكان لا نعرفه .. وهذه

العملية لا نتوقف لا ليلا ولا نهارا .. والروس يفضلون الجليد على هذا الوحل .. فالجليد أنظف .. ومعهم حق ..

وفي الصباح بدا كل شيء واضحا ..

الشوارع واسعة جدا .. والطين الجاف أو الجليد المتسخ على جانب الشارع .. والملابس القاتمة القصيرة الفخمة تطل منها وجوه شقراء متوردة .. والعربات تروح وتجيء .. والسيارات والناس .. أو الناس كالسيارات .. أو السيارات كالناس .. كل شيء يتحرك لهدف .. متجه .. منطلق .. فلا مجال للمتسكع الذى هو متعة فى كل العواصم الأوروبية الأخرى والافطار يجب أن نتناوله فى المطعم ..

ويجب أن نخلع البالطو وأن نقدم لحارس البلاطى سيجارا أو سيجارة يشرك عليها بحماس ولهفة واضحة .. وفى المطعم يجب أن تقدم البونات .. فكل واحد معه عدد من البونات للافطار والغداء والعشاء .. وأجمل ما يمكنك أن تتناوله فى الصباح هو كوب اللبن .. انه لبن دسم .. أما القهوة أو الشاي أو البيض والزبدة فهى كلها أطعمة عادية .. والخبز هنا أبيض وأسود .. الأسود الذى ..

وأمام الفندق تجمعنا .. وفى أتوبيس ركبنا .. والى مترجمة تتحدث العربية — أو نوعا منها — أعطينا أذاننا لنسمع منها القليل جدا عن العاصمة موسكو .. فلسنا فى حاجة الى أن نعرف منها الكثير ، لأننا نعرف الكثير عن موسكو وعن روسيا وعن الشعب السوفيتى .. وكل ما ينقصنا هو بعض المعلومات عن المعالم المحددة .. مثل تمثال من هذا .. انه تمثال الشاعر الافريقى الأصل بوشكين أو شارع جورجى .. وجوركى اسم قد أطلق على كثير من الشوارع والمتاحف والمكتبات ..

وأروع ما رأيناه فى موسكو هو متحف الرحلات الفضائية .. ان هناك تماثيل لتخليد يوم اطلاق أول سفينة فضاء الى العالم الخارجى .. يوم ٤ أكتوبر سنة ١٩٥٧ وكان أول قمر صناعى روسى اسمه « اسبوتنك » .. وكان وزنه ١٨٤ رطلا وقطره ٢٢ بوصة وينطلق بسرعة ١٨ ألف ميل ويقطع مداره حول الأرض فى ٩٦ دقيقة وأقصى ارتفاع له ٥٦٠ ميلا وأقرب ارتفاع له ١٢٥ ميلا .. وقد احترق هذا القمر الصناعى يوم ٤ يناير سنة ١٩٥٨ ..

وفى الفندق تباع نماذج لهذا القمر وتطلق صوتا مشابها للصوت الذى كان يبعث به الى الأرض من الفضاء الخارجى .. ورأيت له نموذجا فى المعرض الدولى ببروكسل .. وفى متحف الرحلات الفضائية بموسكو توجد نماذج لهذا القمر .. والقمر الذى انطلق به جاجارين .. وسفن أخرى كثيرة .. ومن الواضح أن هذه السفن ليست كبيرة .. انه سجن علمى ضيق .. ولكن المشكلة والصعوبة هى أن هذه السفينة كلما زاد حجمها ووزنها احتاجت الى قوة صاروخية هائلة لدفعها بعيدا عن جاذبية الأرض .. ثم اعادتها الى الأرض سالمة .. والنظريات العلمية لأرسالها واستعادة سفن الفضاء

موجودة عند الروس والأمريكان .. ولكن الروس تقدموا على الأمريكان في صناعة الصواريخ وفي مادة الوقود .. ولذلك فالروس يطلقون أحجاما أكبر وأوزانا أثقل ..

ومنظر سفن الفضاء لا يهزك ولا يبهرك .. لأن الانسان لا يفهم شيئا من هذا الذي أمامه .. فهي براميل دائرية وتخرج منها بعض الاسلاك .. ومن المؤكد أن الروس — وهذا طبيعي — قد جردوا هذه السفن من كل ما يكشف عن الأجهزة العلمية المعقدة التي بها .. فهي سر .. ولا أعرف ان كانوا في أمريكا يعرضون سفن فضائهم في أى معرض .. ولكنها أسرار .. وحرب معلومات .. ولا بد أن هناك زوارا آخرين أكثر فهما وعلماء .. وواضح أن الترجمة الذين يفرجوننا على هذه الاختراعات الروسية يدركون أننا لا نفهم منها شيئا .. وهذا هو سر عدم الحماس في الشرح .. فلا يمكن أن يقال أنهم تعبوا من الكلام فنحن ما نزال في ساعة مبكرة .. ومن الخير أنهم فعلوا ذلك فنحن لا نفهم من هذه العمليات العلمية الباهرة ..

وفي الفندق أخيرا وجدنا شيئا نضحك له .. ولكن ضحك بحساب وبرفق .. فقد التفتت المترجمة الروسية تقول : غدا نلتقى في صحن الدار في الساعة التاسعة !

قالتها باللغة العربية طبعاً .. ومعنى هذه الجملة : غدا نلتقى في بهو الفندق في الساعة التاسعة .. وحاولت أن أفهمها أن « صحن » هذه كلمة لم يعد أحد يستخدمها .. وأن الدار أفضل منها كلمة الفندق .. ولكنها أصرت على الدار وعلى الصحن ..

وعرفت بعد ذلك أن لغتها العربية من نوع خاص فعندها كلمة واحدة فقط لكل شيء : فمثلاً : النافذة .. عندها هذه الكلمة فقط .. فإذا قلت لها : الشباك لا تعرف معنى هذه الكلمة ..

وفي صحن الدار في اليوم التالي التقينا .. وركبنا الاتوبيس الساخن ودار بنا في شوارع موسكو .. وأهم ما رأينا هو محطة المترو .. انها أجمل وأعظم محطة مترو في العالم كله .. في غاية الفخامة .. ومن المؤكد أن الروس يعتزون بها .. ومن النادر أن يصور فيلم في موسكو لا تظهر فيه هذه المحطة .. جميلة وأنيقة وضخمة وتكاليفها لا يمكن حصرها .. الرخام والنجف وكريستال .. وعربات المترو .. والمصاعد والسجاجيد تحفة معمارية هندسية لا نظير لها ..

وفي الليل ذهبت الى السيرك ..

واكتشفت أنني وقعت في خطأ فظيع .. فقد ارتديت جاكete فوق بلوفر فوق بلوفر .. وفوق الجميع بالطو .. وعلى الرغم من أن الناس حولي قد خلعوا البلاطى وتركوها في أماكنها الخاصة قبل الجلوس في أماكنهم ، فإنه من الضروري أن اجتفط بالبلاطى لأتنى من غير كرافتة .. ولا بد من البدلة والكرافتة في المسرح والسينما والأوبرا وأى مكان يذهب اليه الانسان .. ولذلك تسترت بالبلاطو على هذه الغلطة الفظيعة ..

ومثل هذه الفلطة يقع فيها كثيرون من الناس في القاهرة .. فيذهبون الى حفلات السفارة السوفيتية والدول الاشتراكية بالقميص والبنطلون أو ببديل من غير كرافطة .. ولكنهم يجدون الدبلوماسيين الاشتراكيين في غاية الاناقة .. وبالكرافطة .. لأنه لا علاقة للبدة بالاشتراكية القائمة على العلم وعلى النظام وعلى المظهر الحسن .. الذى هو أحسن دعاية للمجتمع المخطط .. للمجتمع العلمى .. ويس المجتمع المبهدل المختل من العلم ومن التنظيم ! ..

والروس قد برعوا في كل فنون الرقص الاستعراضى .. وفي رقص الباليه .. والباليه الروسى هو سيد الباليه في العالم .. وقد رأيت في القاهرة الراقصة العظيمة تمارا تومانونا .. وأولاتوفا .. وليبشنسكايا .. وغيرهن . وعلى الرغم من المظهر المتجهم الذى يبدو عليه الروس في الشوارع — أنا لم أرهم الا في الشوارع — فانهم في الملاهى يضحكون من كل قلوبهم .. ككل الناس ..

ويبدو أن روسيا بعد خروتشيف قد بحجت عن نفسها قليلا .. وقد ذابت هذه الجهامة ومعها الجايد .. ومعها ذلك الطابع القاسى الذى يتسم به الروس أو الذى التصق في أذهاننا عن الروس الى حد ما ! .. وفي المطار استمعت الى الموسيقى الأمريكية الحديثة :: روك أند رول .. تشا تشا .. والتويست .. أيضا .. وقد أدهشنا ذلك ..

وأدهشنا أكثر أن معظم البائعات في المطار يحرصن على البيع ويتنافسن .. وفهمنا أن كل واحدة لها عمولة على البيع ..

وقد حاول أحد الأصدقاء أن يشتري بشرط .. وكان الشرط هو أن يلتقى بالفتاة يوما ما وفي مكان ما .. وأمسكت به وقلت له : هل تريد بدولار واحد أن تستغل مبدأ الحافز الفردى الذى نادى به ليبرمان أسوأ استغلال .. بدولار واحد .. ومن أول فتاة ومن أول لحظة .. وكانت نكتة الرحلة كلها ..

وفي الفندق تعشنا ورأينا شباب موسكو يرقصون التويست .. وصفقنا طويلا للشبان .. ولا أعرف بالضبط ما الذى صفقت له .. هل لأنهم يرقصون رقصا أمريكيا .. ومعنى ذلك أن الفن للجميع .. وأنه لا يوجد رقص أمريكى ورقص روسى .. هل أريد أن أشجع هؤلاء الشبان وغيرهم من الشبان على الرقص .. أى رقص .. هل المفاجأة أدهشتنى .. وأنا أصفق لمن أذاب الجليد بين الأعداء .. الأمريكان والروس .. هل أصفق لخيبتى لأننى نسيت أن ألبس الكرافطة وظللت الوحيد الذى خلع البالطو وزرر الجاكتة ورفع ياقبتها الى أعلى حول العنق .. هل لأنهم فعلا في حاجة الى تشجيع لأن الرقص الذى أراه ليس انسيابيا .. انه عنيف .. انه عملية اقتلاع فتاة والقائها على الأرض ثم العدول عن ذلك في آخر لحظة .. ربما كان ذلك .. أو كان أى شيء .. أو كان الطعام اللذيذ الذى تناولناه على مائدة فخمة ضخمة ..

أريقت فيها الوف الأكواب من الفودكا ومئات العلب من الكافيار .. وكان ذلك أول الاحساس الحقيقي بأن هذه هى موسكو ..

كانت ساعات جميلة ولذيذة وفيها تصفيق كثير ليس له معنى واضح .. وفيها مصافحات شديدة وعديدة باليد ..

ولم يكن أمامنا وقت طويل نضيعه أو نقضيه فى ليل موسكو أو فى نهارها .. فلا بد أن نعود الى المطار .. ومن المطار نستقل الطائرة الضخمة الى كوبا حيث يعقد مؤتمر القارات الثلاث .. ونحن بعض وفوده المسافرة من القاهرة .

الطائرة ضخمة ومرتفعة جدا .. وذات ثمانية محركات .. المحركات مزدوجة .. اثنين .. اثنين .. ويتحركان فى اتجاهين متعاكسين .. لماذا ؟ نظرية علمية تقول بأن هذا يضاعف قوة الاندفاع .. لم أسأل أحدا عن هذه النظرية ولم أفكر فى كيفية تطبيقها ..

الطائرة من الداخل كالسفينة .. مقاعد مرتفعة ومقاعد منخفضة .. وعلى الجوانب من الأمام غرف طاقم الطائرة .. وفى كل مكان لوحة شطرنج .. انها لعبة الروس .. ولماذا اختاروها لا أعرف .. هل لأنها نوع من التكتيك الصامت المتجهم .. هل لأنها لعبة تنتهى عادة بمقتل الملك .. يجوز وهم متفوقون فيها أيضا ..

وفى جو ملبد بالسحاب .. وفيه عواصف باردة .. أو برد عاصف اتجهنا الى الطائرة .. أما حقائبنا فمن المألوف أننا لا نعرف عنها أى شيء .. انها تدخل وتخرج وتنتقل الى الفندق دون أن نعرف عنها شيئا .. وليس من الضرورى أن نعرف .. لأنه لا خوف على ذلك .. فهى تتعرض لاجراءات أمن دقيقة .. وليس من شأنك أن تعرف ماذا جرى لها .. فصيانة البلاد من شأن أناس آخرين مدربين وعارفين وفى غاية اليقظة .. « بس اركب انت .. اركب ! » ..

سمعتها من ورائى .. وركبت .. وجلست الى جوار النافذة .. ولم أعرف من أحدكم من الوقت تستغرق هذه الرحلة الى .. الى لا أعرف الى أين ؟ اركب ! ركبت .. اقعد .. قعدت .. اسكت ! سكت .. « نم » .. لا أستطيع .. كل .. أشرب ! .. لا مانع ! اللعب شطرنج .. ممكن ..

وبعد ساعة أو ساعتين .. أضيئت أنوار الطائرة .. وجاعت صوانى الأكل .. لحم وكافيار .. وخبز وسلطة وزيدة .. ولست متأكدا فى هذه اللحظة ان كان الذى قدم لنا الأكل رجلا أو نساء .. فالطائرة ضخمة ولا تهتز .. ولا أحد يرى شيئا من النافذة .. ولا يسمع أى شيء .. ولا أحد يقول لك أى كلام .. والحقيقة أنه لا ضرورة لأى كلام .. فما الذى يمكن أن يقال لك .. نحن متجهون الى القطب الشمالى .. وليلا .. فلا شيء يمكن أن يقال ..

وأحسبنا بأن الطائرة تهبط .. هكذا دون أن يلفت نظرك أحد ..
ويبدو أن صناعة الطائرات متقدمة في روسيا جدا .. فهي وسيلتها الوحيدة
الى الانتقال في أراضيها الشاسعة ..

ومن النافذة تنظر الى لا شيء .. لا شيء يمكن رؤيته .. انه سواد ..
أو بياض .. أو ألوان رمادية شاسعة واسعة لا أول لها ولا آخر ..
وهبطت الطائرة .. ومن النافذة لا ترى أى شيء .. وإن كانت الأرض بيضاء
ثلجية .. وهناك مصابيح تعكس صورة لبیت صغير .. أو مطار صغير ..
أو أى شيء صغير ..

وانفتح باب الطائرة .. ونزلنا .. وكانت درجة الحرارة عشرين تحت
الصفر .. وهذا الرقم لا يمكن أن يكون له أى معنى أو دلالة عندك الا اذا
ذهبت الى هذه المناطق من العالم .. وخرجت برأسى وفقدت الاحساس فوراً
برأسى .. ان شيئاً أبيض قاطعاً قد فصله عنى فى نفس اللحظة التى أخرجته
من باب الطائرة .. ونزلت أترنح بلا رأس .. فلم أعتد بعد أن أكون مقطوع
الرقبة .. ولمحت عند نهاية السلم رجلاً روسيا عارى الوجه وقف ينتظرنا ..
والغريب أنه يضحك .. ياخبر .. هذه أول ضحكة فى منتصف الليل وفى
القطب الشمالى وتحت الصفر بعشرين درجة .. وقد ذكرتني بضحكة أخرى
تشرفت بها فى هوليوود عندما قابلت مارلين مونرو .. وهى قطعة من الثلج
المخلوط بالنبيد وقد أنتظرتها ساعات ولم تظهر الا دقيقة لتقول لى : أزيك
يا انت .. وهنا انخفضت درجة حرارتى الى عشرين تحت الصفر ! ..

وفى داخل المطار الصغير كان كل شيء دافئاً جداً .. من أين أتوا بهذا
الدفع .. وفى كل مكان لوحات للشطرنج .. ويبدو أنها اللعبة الوحيدة
التي يعصر فيها الانسان نفسه .. ويتآمر على الملك بصورة عسكرية صامتة ..

وجاءت مديرة الاستراحة وقدمت لنا الشاي .. وكان الشاي خفيفاً ..
وحاولنا أن نشترى منها شيئاً ولكنها أصرّت على أن البيع بالعملات
الصعبة .. وحاولنا عن طريق مترجم أن نقول لها : أننا ضيوف .. وعابرو
سبيل — على الرغم من أنه لم يكن هناك سبيل — ولكنها أصرّت وبشدة
ونهايا : بالعملات الصعبة فقط !

وهذا معناه أن هذا المطار مكان سياحى ! ..

سياحى وفى القطب الشمالى ؟ يجوز فتحن لسنا رواد القطب الشمالى
.. ولا رواد الطريق الوحيد بين موسكو وكوبا .. فكوبا معزولة تماماً عن
أمريكا اللاتينية .. ولا سبيل الى الوصول اليها من أمريكا التى تبعد عنها
٢٥٠ ميلاً الا عن طريق أوروبا .. أى الا عن طريق الوقوف الأميال .. فلا بد
أن يكون هذا المطار الصغير الدافئ الذى أقيم حديثاً مكاناً سياحياً هاماً !

وقد تصورت أن الحصول على كوب من الشاي بعد ذلك أمر صعب
فشربت كوبا آخر .. وقد أعدت هذه السيدة كل شيء لاستقبالنا ..
الشاي .. والشاي .. وابتسامة لقاء .. وابتسامة وداع .. وعدنا الى
الطائرة .. وحدث بالضبط ما حدث لى قبل ذلك .. عندما أخرجت رأسى
من باب المطار .. طارت رأسى .. ومشيت هذه المسافة القصيرة على
أرض جليدية نظيفة .. وبعد أن دخلت الطائرة .. تلمست رأسى فوجدته
فى مكانه .. وظل كذلك الى أن وصلت كوبا .. وأعتقد أنه بقى فى مكانه ..
وان كانت تصرفاتى تدل على أن خلا حدث فيه ! ..

فى الطائرة وجدنا شيئاً نتسلى به ..

ففى أوقات منظمة تضاء الطائرة ويقدمون لنا كميات كبيرة من الطعام ..
وكنا نوقظ زملائنا النائمين .. لكى .. يفطروا أو يتغدوا .. أو يتعشوا ..
نحن لا نعرف غالدنيا ليل دائم ..

وفى اللحظة التى نجد أمامنا الطعام ننظر من النافذة ، لا نجد شيئاً قد
تغير .. فنحن فوق السحاب .. ولا نرى لا شمساً ولا قمراً .. ولكن
لا بد أن هناك أشياء كثيرة تجرى تحت السحاب لا نعرفها .. ربما طلعت
الشمس .. وتغطت بهذه البطاطين القاتمة من السحب .. لا أحد يعرف ..

وعندما أشرقت الشمس أضيئت الأنوار وقيل لنا : طعام العشاء .

وسألت مستخدماً بعض الكلمات الروسية القليلة التى عرفتھا من
القاهرة ودرستها فى الطائرة فقل إنه العشاء .. نعم العشاء كما سمعتها ..
وأمسح عيني وأنظر من النافذة وأشير الى قرص الشمس ..

ويكون الجواب : نعم .. ولكنه موعد العشاء فى موسكو الآن ..

العشاء فى موسكو .. وبعد ساعة نتناول الإفطار فى كوبا .. جميلة
جدا هذه اللعبة بعقارب الساعة ! ..

رقص .. وبن .. وثورة !

وبالاقتراب من أمريكا اللاتينية نقرب من الدفء والضوء والألوان والأشجار والحلاوة والمرارة .. وكل الألوان الصارخة في كل شيء ..

والأرض كما تبدو من الطائرة لونها أحمر .. وقد رأيت هذا اللون قبل ذلك في آسيا .. في الهند وفي أندونيسيا والفلبين .. وفي استراليا أيضا .. وهذه الأشجار الاستوائية أعرفها .. وطعمها على لسانى .. وذكرياتها حية في رأسى .. ومجرد رؤية أشجار جوز الهند يحررنى من ملابسى .. ويردنى الى أصلى .. انسان بدائى عريان .. أو انسان قريب الشبه من القروء .. أو قرد .. فقد تسلفت هذه الأشجار في جزر هاواى .. ونمت عليها .. وكدت أغرق عندما كبس على النوم .. وتوهمت أننى على سرير ففردت ذراعى ومددت ساقى .. وغريزة البقاء وحدها هى التى جعلت يدى على النخلة المنحنية على سطح ماء المحيط الهادى .. ولو سقطت فى الماء لفرقت .. لأننى لا أعرف السباحة .. وقيل لى بعد ذلك أن الماء يبلغ المترين .. وأنه لولا ستر ربنا .. لكنت وكنت .. فالحمد لله على الستر!

وهذه الرطوبة الشديدة فى مطار كوبا أعرفها .. أحسستها على قفائى فى جاكرتا .. حيث الرطوبة تصل الى ٨٠٪ وأحيانا الى ١٠٠٪ .. وقد التصقت ملابسى من الرطوبة .. ولكن هنا يوجد دفء .. وتوجد حرارة وحياة .. وهنا ناس .. سمر .. بيض .. رجال ونساء .. وينظرون ويتفرجون .. وهنا أعلام .. ونحن هنا عرسان .. وهذه زفة سياسية .. هنا ينعقد مؤتمر « القارات الثلاث » لادانة الاستعمار الأمريكى الذى يريد أن يخلق كوبا .. وأن يبتلع بلادنا ومنطقتنا كلها .. وغيتنام .. وغيرها وغيرها .. وكوبا هى هذه الدولة الصغيرة التى تتحدى أكبر دولة فى العالم وفى قلب أمريكا وعلى مدى دقائق من طائراتها .. وثوان من صواريخها .. ومع ذلك لا تستطيع أمريكا أن تقضى على حرية الانسان الصغير فى أن

يقول : لا .. وأن يجعل كلمة « لا » أكبر من أى كبير .. واستطاعت كوبا أن تقول لأمريكا : لا .. ولا تزال تقولها ! ..

وأحسست أنى قريب من الأرض .. فعلا .. هذه أرض .. وليست سحابا ولا ضبابا .. وهذه سيارة واسعة تنفلت .. وهذه أعلام ... وبيوت جميلة .. وشوارع واسعة .. وهذه هى أول أرض رآها كولمبوس فى سنة ١٤٩٢ عندما جاء يكتشف الهند .. ووصف هذه الأرض فى مذكراته : بأنها أجمل وأروع لون أخضر رآه فى حياته ..

وكوبا جزيرة لها شكل تمساح .. وحول هذا التمساح أكثر من ١٦٠٠ جزيرة أخرى صغيرة .. مساحتها مائة ألف كيلو متر مربع .. أى أن مساحتها أكبر من كل من النمسا والمجر والدنمرك وسويسره وباجيكا .. وبها أكثر من ٢٠٠ نهر صغير ..

وأقرب الدول اليها هى هايتى — على مدى ٧٧ كيلو متر — وجامايكا على مد ١٤٠ كيلو متر ..

وشاوريد الأمريكية على مدى ١٨٠ كيلو متر .. ومن فلوريدا هذه تنطلق طائرات ضخمة يرغمها بعض الركاب على الهبوط فى كوبا تحت تهديد مسدس صغير .. وهذه هى أشهر اللعب التى يتسلى بها أهل كوبا هذه الأيام ! ..

وهناك لعبة أخرى هى أن هناك سفينة تجسس أمريكية تقف فى مواجهة العاصمة هافانا .. خارج المياه الإقليمية .. منذ سنوات .. تلتقط الاشارات الداخلة والخارجة من كوبا .. والرجعيون الكوبيون يفقدون أعصابهم اذا اختفت هذه السفينة .. وكثيرا ما أطلقت شائعات بأنها اختفت فأطل الناس من النوافذ ليتأكدوا .. وليتأكد الواقفون فى الشارع أن هؤلاء رجعيون ! ..

لم أشعر بغرابة فى هافانا ..

هذه الأرض كئى رأيتها .. هؤلاء الناس كئى أعرفهم .. هذه الأشجار .. هذا الزحام .. تمنيت أن أبقي شهرا أو شهرين لو كنت أستطيع ..

وكان مقرنا هو فندق هيلتون الذى تغير اسمه وأصبح « هابانا لىبرى » — أى هافانا الحرة .. والفناء ينطقونها هئاباء ..

وهذه أول مرة أنزل فى فندق هيلتون فى أى مكان فى العالم .. والفندق كان مقفلا وفتحه الكوبيون لاستيعاب هذا العدد الهائل من أعضاء الوفود القادمة من القارات الثلاث : آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية .. وهناك فندق آخر فخم جدا قد أعد لاستقبال بقية أعضاء الوفود ..

ومن أول لحظة تحس أن كل شيء في هافانا قد أعد للحفاوة السخية بأعضاء الوفود .. ففي استطاعتك أن تدخل أى مكان .. أى محل .. أى مسرح .. أى سينما .. كل شيء قد أعد لك ويعرفك وينتظرك .. وكل الناس الذين حولك شبان .. لأن كوبا شابة .. ورئيسها كاسترو شاب أيضا .. وأخوه شاب .. وجيفارا زميله فى الكفاح شاب .. كان شابا .. والذين تراهيم من الشبان والشابات تلاميذ فى مدارس أو جامعات .. أو موظفون صغار .. كلهم جاءوا لخدموك .. كل ما تريد .. حتى الفندق تستطيع أن تمسح فيه حذاءك وتحلق شعرك على حساب الدولة ..

وكل شيء منظم ودقيق .. المطبوعات والمنشورات والصور ..

حتى عندما جلست مع الأديب الإيطالى البرتو مورافيا وزوجته الأدبية داتشيا ماريانى وطلبت التقاط عدد من الصور لنا .. أخذت الصور وطبعت وأرسلت وبسرعة ومع الشكر الجزيل لك .. وعندما ذهبت الى البيت الذى كان يسكنه الأديب الأمريكى همنجواى رافنى أحد المصورين .. والتقط ما أردت من الصور .. وطبعها وقدمها لى .. فى غاية الدقة والرقعة والسرعة ..

وإذا كانت هناك ملاحظات سريعة على مدينة هافانا فهى أن المدينة نظيفة جدا .. والمحلات نظيفة .. والبيوت والفلل والقصور والمرافق فى غاية الجمال .. كل هذه البيوت كان يملكها ويسكنها الأمريكان .. أن هافانا كانت مدينة اللذات .. فكل أمريكى غنى له شقة .. أو قصر .. وليس أسهل من أن يركب طائرته ومعه صديقة .. ويختفى ساعتين أو ثلاثاً فى هافانا ثم يعود الى مكتبه فى أمريكا ..

هكذا عاشت هافانا «جرسونيرة» لأمريكا .. ويمكن أن يقال كل كوبا .. فكوبا التى تباع السكر كأنها مصابة بمرض السكر .. فهى لا تذوقه .. محرم عليها .. فالأمريكان يزرعون ويقلعون ويقطعون ويصنعونه ويصدرونه بالأسعار التى تعجبهم والشعب الكوبى يتفرج على العلم الحديث الذى يحول القصب الى سكر يذوقه كل الناس الا الذين زرعوه !

والدخان يصنعه الأمريكان ويبيعونه فى كل عواصم الدنيا .. والبن .. والآناس .. وجوز الهند .. كل شيء تحتكره أمريكا والشعب متهدم متململ .. والخونة على رؤوس الحكومات يسامون ويبيعون البلاد .. كل هذه الملايين السبعة لا تمتلك من أمر بلادها شيئاً ..

وظلت كوبا حتى أول يناير سنة ١٩٥٩ مزرعة أمريكية ..

أما ثورة كاسترو فهى التى أطاحت بالرجعية والاقطاع وبالنفوذ الأمريكى فى كوبا .. لا يزال يهددها .. وبعد ذلك مؤتمر القارات الثلاث ليس الا

اتفاقاً دولياً على تصدير الثورات الى الخارج .. وما كان يفعله الزعيم جيفارا ليبس الا محاولة لتشجيع الثورات الداخلية على أن يكون لها دور .. وإذا كانت المخابرات المركزية الأمريكية قد اغتالت جيفارا وتحاول أن تغتال كاسترو ، فإن كوبا ما تزال نموذجاً رائعاً لصلابة الضعيف صاحب المبدأ في مواجهة القوى الغاشم !

وكل شيء حلو في كوبا .. فهي بلاد السكر .. حتى القهوة لا يشربونها سادة ولا سكر شوية .. انهم يخلطون البن بالسكر .. ومن ضمن المشاكل الصغيرة كل يوم أن أطلب فنجان قهوة سادة .. هذا غير ممكن ! وقد اعتدت أن أشربها سكر زيادة .. والأناناس هنا أجمل من أناناس كثير من البلاد الآسيوية .. وهنا البابايا التي تشبه الشمام وهي لذيذة الطعم .. والفواكه كثيرة سواء على مائدة الطعام أو السلال الأنيقة التي يضعونها كل يوم في الغرفة ... وهنا يشربون نوعاً من « الروم » اسمه الباكاردى .. ويقال أنه أحسن أنواع الخمور في العالم ..

والذي عرفناه بعد ذلك يؤكد لنا مدى التضحية الهائلة التي بذلها الشعب الكوبي من أجل نجاح هذا المؤتمر .. فالشعب لا يجد كل هذا الطعام الذي نجده .. انه يضحي به من أجلنا ، ولا كل هذا الأرز ، أنه يعطينا ما زاد عن حاجته .. ولا كل هذه السجائر .. والسيجارات ولا علب الكبريت المصنوعة في المكسيك .. ولا زجاجات الكوكا المصنوعة في أسبانيا .. ولا الولاعات الصغيرة المصنوعة في اليابان .. ولا هذه الحقائب الجلدية المصنوعة في أوروبا .. إن الشعب الكوبي شعب مثالي .. أراد أن يضرب أحسن الأمثلة لأسمى المبادئ : مبادئ حق تقرير الشعوب لمصيرها ! ..

ولم تخف الصحف الكوبية ذلك .. فقد قرأت أن ولايات كوبية تعلن — بكل سعادة — تنازلها عن نصيبها من الأرز لأعضاء الوفود — منتهى الإيثار والتضحية ! ..

وفي مايو سنة ١٩٦١ أعلن كاسترو موقفه بوضوح وشجاعة وبصورة قاطعة : أنه ماركسي لينيني .. وأنه وشعبه سيتحملان نتيجة هذا القرار . وكان من نتيجة هذا القرار سياسة التجويع . التي فرضتها أمريكا عليه .. والحصار الاقتصادي والسياسي والعسكري على الجزيرة الكوبية ..

وفي أكتوبر من العام التالي التقطت الطائرات الأمريكية صوراً لصواريخ سيوفيتية في كوبا ... وأعلن الرئيس جون كيندي فرض الحصار على كوبا والتفتيش الجوي لكل السفن الدخلة والخارجة منها .. ومع دخول أي سلاح إلى كوبا ... وكانت أزمة عالمية أدت إلى أن يسحب خروتشيف الصواريخ من كوبا ... وكانت شجاعة من كيندي أن يهدد .. وكانت حكمة من خروتشيف أن ينسحب ... ولم تقع حرب عالمية ثالثة ..

ولا داع لأن يكون هناك كل هذه الأسلحة في كوبا .. فأمريكا لا تستطيع أن تهاجمها وأن تغزوها رغم محاولاتها الكثيرة ، فأمريكا لها مواقع حساسة .. أو أكثر حساسية وكلها واقعة تحت رحمة السوفييت في أوربا .. وفي آسيا .. وفي البحر الأبيض .. ولا يمكن أن تغامر أمريكا بغزو كوبا دون أن تتعرض لمواقف أكثر حرجا في أماكن أخرى من العالم ..

واحساس الكوبيين بأنهم أمريكيان لاتين يجعلهم يكرهون أنهم أمريكيان .. وكلمة أمريكي امانة لا تفتخر .. وأغانيهم الصغيرة الحماسية تردد ذلك .. وتتوعد بذلك .. فهناك أغنية تقول : فيديل .. فيديل .. أكيد سوف يعطيهم علفة ..

فيديل — أي فيديل كاسترو .. وأي مواطن ينادى كاسترو باسمه الصغير — أي سوف يعطى الأمريكان علفة .. وقد أعطاهم علفة لا نظير لها في التاريخ .. انه الصغير الذي وضع أنف الكبير في الطين .. وجعله عاجزا عن الانتقام .. وكوبا في أمريكا تشبهه ألبانيا في أوربا .. واسرائيل في الشرق الأوسط انها جميعا ركائز قوية لروسيا والصين وأمريكا ..

وإذا كان الروس يرقصون التويست ، ويجدون في ذلك نوعا من المرونة وتوسيع الأفق أو نوعا من الاعتراف بعالمية الفن ، فان الكوبيين لا يرقصون التويست .. وانما يرقصون رقصة مشابهة لها تماما اسمها « الموزمبيق » وهذه الرقصة قد ابتدع خطواتها كوبي زنجى اسمه بابيلو الأفريقى .. والكوبيون من أقدر الشعوب الأمريكية على الرقص .. ومن أجمل المتع في الدنيا أن تتفرج عليهم وهم يرقصون رجالا ونساء .. ان الموسيقى هي دمهم .. والرقص هو نشاطهم اليومي .. حتى كاسترو .. فنحن عندما ذهبنا نوعد شعلة التضامن الآسيوى الأفريقى .. وكان ذلك ليلا .. وكان الجو باردا في قمة أحد الجبال .. وكان المطر ينزل علينا .. تماسكت الأيدي ورحنا نغنى الأناشيد الكوبية الحماسية البسيطة .. و نرقص رقصة الموزمبيق .. كل الشبان والرجال .. وكاسترو .. مشدودا من ذراعيه .. الاثنيتين .. يرقص .. يغنى .. ويظل في نفس الوقت زعيما وشابا ثائرا .. اذا خطب اهتزت له الملايين .. وهو لا يخطب الا أربع ساعات وأحيانا سبع ساعات ويستقبلونه بالتصفيق وقوفا .. وكنا نستمع الى خطبه من راديوهات نترجم كلماته الى ثلاث لغات من بينها اللغة العربية ..

وكاسترو رجل بسيط .. في مظهره .. انه يرتدى الملابس العسكرية الخشنة .. والحذاء الخشن .. ويحمل سلاحه .. ولا يكف عن تدخين السيجار الكبير .. وهو ككل لاتينى يحب الخمر .. ويدعو اليها كل صديق .. وأي انسان هو صديق له وبسرعة .. ومن الطبيعى أن يكون معبودا للشباب .. وهو أيضا يحب الشباب أن يلتف حوله .. ولا عدد للفتيات الصغيرات اللاتي يدرن في فلك كاسترو .. وهو رجل أعزب بعد أن هجرته زوجته الى

أمريكا مع عشيق أمريكي .. ومن المؤكد أن هذه الإهانة التي لحقته شخصيا أعمق أثرا من انتصاره الهائل على أمريكا .. انه انتصر على أمريكا هذا واضح ، ولكن انتصار شخص أمريكي واحد عليه قد أوجعه أكثر ! ..

وقد هربت أخته أيضا الى أمريكا .. أنها لا تريد ما يريد .. ولا يهمها ما يهمه .. انه قائد وهي فتاة عادية .. هو رجل غير عادي .. رجل يصنع التاريخ لبلاده وللقارة اللاتينية ، وهي فتاة تريد أن تعيش بلا تاريخ ولا لقب .. ومهما ذهبت وفعلت فلا وزن لها الا لأنها أخت كاسترو ! ..

والكوبيون هنا خليط من الأسبان ومن الزوج الأفريقيين الذين أتى بهم الأسبان والهولنديون والبرتغاليون رقيقا يزرع الأرض .. واختلط البيض بالسود .. ولذلك نجد في كوبا أناسا بيضا وسمرًا وزنوجا .. ولا توجد أية تفرقة لونية عندهم .. والتزاوج ممكن بين هذه الألوان .. أو يحاولون أن يجعلوه ممكنا الى أقصى حد ..

وعندما كنا نذهب الى بيوت الزوج .. ونناقشهم وهم يتفرجون علينا فنقول لهم : نحن أفريقيون ..

كانت ملامحهم ترفض ذلك .. فهم سود ونحن بيض .. فالأفريقي عندهم هو الزنجي .. هو سجين اللون .. أما نحن فأفريقيون جغرافيا فقط .. وكنا نقدرهم .. فلا تزال حجتهم أقوى .. هم أفريقيون حقيقة ، ونحن متفضلون عليهم بهذه الصفة الأفريقية ، ولا يمكن أن يشعر الأبيض بعذاب الأسود الذي يرزح تحت فك بارز وشعر مجعد وبشرة في لون الظلام وقضبان السجون ! ..

ولا أعتقد أنني رأيت في حياتي يوما أجمل ولا أروع ولا أبسط من يوم عبد الثورة الكوبية .. كان ذلك يوم رأس السنة .. ونحن نجلس على منصة أو شرفة عالية في ميدان كبير .. الأنوار والموسيقى .. والموائد ممدودة .. وعلى الموائد كل طعام وكل شراب وكل أنواع السجائر وعلى مدى منضدتين منا يجلس كاسترو .. وبعينه الضيقة ذات الاحمرار الحقيقي لمح الزجاجات الموجودة على الموائد المجاورة وطلب تغييرها الى شمبانيا .. وشرب في صحة كل الشعوب .. والتضامن والشعب الكوبي .. أما الشعب الكوبي فقد افترش الميدان .. ففى الميدان موائد ومقاعد .. وطعام وزجاجات البيرة لا عدد لها .. وسندوتشات اللحوم .. والفاكهة .. مئات الألوف من الناس .. يأكلون ويضحكون .. وأهم من ذلك يرقصون ..

لقد رأيت عيد الثورة الفرنسية في باريس مرتين .. ومشيت في الشوارع ازاحم الناس .. ودخلت الى المقاهي ازاحم الناس .. واتجهت الى الميادين أفسح لى مكانا .. وضحكت .. ورقصت .. وملاأت نفسي بسعادة الفرحة بالحرية .. وتفاديت أن أدوس السكرى على الأرض .. وحرصت على

ألا ألقى بنفسى بين اثنين يتعانقان .. وألا أدق باب غير بابى وأن أضاع
المخدات فوق رأسى عندما أعود الى فراشى حتى أخطف ساعة من النوم
وسط الصرخات والقبلات والعبارات المخمورة فى الغرف المجاورة وعلى
السلالم وفى الأسانسير .. وتصورت يوم كنت فى باريس أنه ليس أروع
من ١٤ يوليو فى باريس .. ولكن فى هافانا كان أروع وأبسط وأجمل .. أنت
مع كل الناس .. لا أحد يعرفك ولا أنت تعرف أحدا .. ولكن مد يدك الى أى
إنسان تعود يده معك .. مد ذراعيك ويمتلىء حضنك .. بلل شفتيك
والقبلات تطير من كل مكان .. أنت واحد من مليون .. والفرحة تتوزع
بالمعدل بين الناس ..

وليلة أخرى فى مدينة سان فوبيجو فى مقاطعة أورينت فى كوبا أيضا ..
فى تلك الليلة أقيمت المهرجانات الموسيقية والغنائية .. يمكنك أن تقول
أن الكوبيين ولدوا ليرقصوا .. أو يرقصون منذ ولدوا .. أنهم فى غاية
الرشاقة والسيولة والليونة .. هذه هى رقصة الموزمبيق .. لم أتعلمها من
أحد .. ولكن المترجم الذى اسمه : هوربه — أى جورج فهم ينطقون
الجيم هاء — يهتز فى مكانه وبسهولة وفى جمال .. سحبنى .. انسحبت ..
هزنى اهتزت .. تركنى كلعبة لها زميلك وظللات أرقص حتى نبهنى الى أن
الرقصة تغيرت وأنه من الضرورى أن أغير .. تماما كائى اسطوانة انتهت
ويجب ادارتها على الوجه الآخر .. واهتز أمامى واهتزت أمامه ..
وتدخل بيننا عدد من الفتيات .. وليس من الضرورى أن ترقص اذا كانت
التى تقف أمامك أو وراءك فتاة .. دعها هى ترقص وتظاهر أنت بالاعجاب
بها والفرجة عليها .. وسوف يعذرك الناس لأن هذه أعظم تحية وأكبر عذر
يقبله اللاتين هنا .. أن تعجب بفتاة .. وأن تذهب فى اعجابك بها الى
الخروج على التقاليد والذوق !

فمن مئات السنين فعل أمير العشاق ذلك .. فدون جوان ألقى على
نفسه جردلا من الماء القذر لكى يضحك معشوقته .. ولما ضحكت .. رفض
أن يغسل وجهه .. ولم يعتذر عن هذا الماء الذى أصاب فى نفس الوقت
والديها .. أنه مشغول بها فقط .. وهذه أعظم تحية ! ..

والأديب العاشق كازانوفا عندما ذهب الى لقاء محبوبته فى بيتها وجدها
مريضة .. ولما سألها عن السبب قالت : أكلت طعاما فاسدا ..

فانطلق الى المطبخ يبحث عن الطعام الفاسد .. ليذوقه ويمرض الى
جوارها .. ولم يجد الطعام .. فامتنع عن الطعام حتى مرض .. وجاءت
لزيارته .. ولم يكذبها حتى قفز من سريره دفعة واحدة وكأنه عفريت
خرج من قمقم .. وانهاى على يديها يقبلهما .. وعندما نظر الى الأرض
ليعرف ما هذا الشيء الذى يلعب .. لم ينتبه الى أن هذا الذى سحقه بقدمه
كان منظار الطبيب الذى سقط على الأرض وزجاجات الدواء فى يديه والمنظار

تحت أقدام الجميع .. ولم يعتذر كازانوفنا .. أمام المعشوقة لا عذر ولا اعتذار .. ويكفى أن تكون هناك ليصبح كل شيء جائزا ..

وتصورت في لحظة أنني أنفلسف وأن الأفكار التي تتوارد على راسي هي انطلاقات شاعرية .. ولكن عندما نظرت الى جوارى وجدت عجوزا بساق واحدة .. وقد أصرت على أن ترقص .. واختارت شابا صغيرا .. وكأنت أروع وأسرع منه في الرقص .. ولما اندهشنا لذلك .. قالت العجوز: أنني قد تصلبت وبيست في أماكن كثيرة من نفسي وجسمي .. ولم يبق لي إلا الرقص ! ..

وسألتني : هل ترقص ؟

قلت : ليتنى أستطيع .. أن الرقص معك يؤكد عجزى الذى لا حدود له ..
قالت : الشاب هو الذى يرقص .. عندما كنت شابة كنت أرقص طول الليل .. وقد استطعت في ليلة أن أدوخ عشرة من الشبان .. هم تمهبوا وأنا لم أتعب ..

قلت : وتستطيعين الليلة أيضا !

وضحكت .. وكانت ضحكتها سعيدة .. وسعادتها تدل على أن المرأة لا تشبع من المديح .

وقال لى احد خبراء الرقص الكوبيين .. انه ليس من الضروري أن تكون أستاذا في الرقص .. المهم أن تتحرك فقط .. اعط أذنك للموسيقى .. والصوت يقوم بكل العمل في جسمك ..

وأدرت هذه العبارة في أذنى على كل الأشكال الأدبية والسياسية والموسيقية : اعط أذنك .. واترك الصوت يقوم بكل العمل !

وأعطيت أذنى للموسيقى الصارخة .. والطبول المدوية .. وأعطيت عينى للالوان .. أمواج من الالوان .. وأعطيت أنفى .. لا أظن أنني أعطيت أنفى .. فقد فقدته تماما .. فأنا مصاب بركام شديد .. وأعطيت ذراعى بأصابعى لكل من حولى .. فأنا أحرك المقاعد وأتساند على الحواجز الخشبية .. وأعطيت فمى لكل الفواكه .. فأنا مبذول لكل هذه الفيضانات من المشاعر .. انها تهزنى .. وتهدئنى .. وتغسلنى وتعصرنى وتنشرنى وتجففنى لتكون نفسى أكثر بياضا ..

لقد تركت الأصوات والألوان تقوم بكل العمل ..

وعرفت النوم العميق .. واليقظة النظيفة ..

وسألت احدى المرافقات لنا : أنت مخطوبة ؟

فقال : نعم .

قلت : لمن ؟

قالت : لموظف في وزارة الداخلية ..

قلت : ومنى تتزوجين ؟

قالت : قريبا .

قلت : هل هناك صعوبات ؟

قالت : يعنى .

قلت : أفهم معنى كلمة يعنى هذه .. لأنها من الكلمات القليلة التى
تضايقنى .. لأن معناها أن هناك صعوبات ولا داعى لذكرها .. أو لا داعى
لأن تعرفها .. أو ما شأنك أنت يا بارد ..

قالت : كل هذا الذى قلت ..

قلت : نقصدين أنه لا داعى لأن أسألك .

قالت : لا .. أسأل .. وأنا من الواجب أن أجيب ..

ولم أسأل طبعاً .. فقد سدت فمى عبارة « من الواجب أن أجيب » .

أحسست غجاة أنها موظفة تقوم بمهمة .. وأنها مطالبة بأن تكون لطيفة
وظريفة .. وألا تدلى بكثير من المعلومات .. أو بعض المعلومات فكوبا
دولة حساسة .. وتتوقع أن يكون أى إنسان عدوا لها .. مع أن الذى
كنت أريد أن أعرفه هو بعض العلاقات الاجتماعية والعائلية وكيف تغيرت ..
وكيف أقابل بعض المسؤولين عن تطوير الأسرة .. وكيف انتقلت كوبا من
الانحلال الى التحرر .. أو كيف انتقلت من التحلل الأمريكى الى التحرر
الكوبى أيضا .. وأين ذهبت هذه الألوف من بنات الليل .. وما الذى يفعله
الكوبيون أنفسهم فى هذه الكباريهات الكثيرة جدا الموجودة فى هافانا .. وأريد
أن أعرف منها متى بدأت تجربة الفتيات اللاتى يقمن بتنظيم المرور فى
الشوارع .. أنها كانت واحدة منهن .. ولكن لما سمعتها تقول : « انه من
الواجب أن أجيب » .. أحسست أن هذه الأسئلة الشخصية فوق الواجب ،
وأنها اذا كانت قد راعت الذوق فى كل تصرفاتها ، فلماذا لا أفعل ذلك ؟
وفعلت ذلك وسكت ..

واتجهت الى بائعة سجائر .. وما أكثر السجائر وعاب الكبريت ..
هنا .. ان أكثر أعضاء الوفود الذين غيروا عملاتهم فى السوق السوداء
قد عادوا بالألوف من علب السجائر الفخمة وعاب كبريت الشمع .. وسألتها :

— طبعاً من أصل أسباني ؟

فقالت : هه — أى نعم — وأنت ؟؟

قلت : مصرى .. أفريقى ..

قلت : هه — ومعناها : ياه .

قلت : لا تصدقين ؟

قالت : هه — ومعناها : اللعب غيرها !

قلت : احلف لك ..

قالت : هه . . . ومعناها : على ماما ؟
قلت : أريد كتابا فى اللغة الأسبانية . .
قالت : هه (مع هزة من كتفها ناحية اليسار . . الذى تصادف أنه
تناحية الباب الخارجى ولم يكن قصدها أن أخرج بسرعة) — ومعناها :
لا يوجد . .

وذهبت الى المترجمة ورويت لها ما حدث . . وسألتنى عن الفتاة وعن
أوصافها . . ولما عرفت ضحكت جدا وقالت : أنها ملكة جمال هافانا . .
وهى تتصور أنها أجمل واحدة فى كوبا وفى أمريكا . . وأن أى انسان يتحدث
اليها فهو يعاكسها فقط . . وأن كلمة « هه » من أهم الكلمات التى تستخدمها
وهى معروفة بذلك ويسمونها هنا سينوريتا « هه » ؟ ! . .

وسألتنى : ما الذى كنت تريده منها ؟

قلت : كتاب فى تعلم الأسبانية . .

قالت : هه . . ولم أعرف معنى هذه الكلمة . .

قلت : ماذا تقصدين ؟

قالت : هه — أى هذه حيلة .

قالت : والله أبدا حتى أسألى فلانا وأشرت الى أحد الزملاء . .

وضحكنا . . واندعشت جدا كيف أننى وحدى الذى كنت أبحث عن
كتاب وكل هؤلاء الخبثاء قد عرفوا بسرعة أنها ملكة جمال وذهبوا
يداعبونها . .

وقالت للمترجمة : ولكنى لا أراها جميلة . .

قالت : هه ومعناها اطلع من دول . .

قلت : أقسم لك أنها ليست جميلة .

قالت : اسمع !

وسمعت منها ما ليس غريبا على عقلى . . فمن المألوف أن يذهب الناس
فى معاكسة الفتاة الجميلة فيهاجمونها ويفيظونها ويؤكدون لها أنها لا جميلة
ولا حاجة . . وهى محاولة لهز ثمار الشجرة . . أو لزعة ايمانها
بنفسها . . فقد تحب المرأة من يكرها . . أو من يعذبها أو من يحتقرها
أو من يزهد فيها . . أو تطارد من يهرب منها . . تماما كما تهرب ممن
يطاردها . .

ولم يكن هناك مجال لكلام . . فأنا زائر عابر وأنا عندى ما يشغلنى
وهو كثير . . وأنا عضو فى أكثر من لجنة . . وعندنا تقارير وكتب . .
وعندنا لقاءات مع أدباء وأساتذة جامعة . . وأعضاء الوفود . . وعندى
موعد مع البرتو مورافيا . . الذى تتأكد صداقتى له فى كل مرة التقى
به . . فى ايطاليا وفى القاهرة وفى ألمانيا . . وهنا فى كوبا . .

سألته : ما رأيك في كوبا ؟

قال : تجربة رائعة ..

قلت : هل تكتب عنها ؟ ..

قال : أعتقد ذلك ..

قلت : كتب عنها سارتر وسيمون بوفوار ؟

قال : انه يكتب كثيرا ..

قلت : وفرانسواز ساجان أيضا ؟

قال : وأعجبك ما كتبه .

قلت : له يعجبني من كل ما كتبه غير كتابها الأول : مرحبا أيها الحزن ..

قال : وأنت أيضا رأيك فيها هكذا .. ان زوجتي من رأيك .. أسألك ..

قلت : لم يعجبني من كل ما كتبه غير كتابها الأول : مرحبا أيها الحزن ..

قالت : نصف هذه القصة .. وهى لم تضيف جديدا لا فى النصف الثانى ..

ولا فى بقية القصص الأخرى ..

ولم يخل مؤتمر القارات الثلاث الذى كان مرهقا للاعصاب لمناقشاته الطويلة وخلافاته الحارة حول الزعامة وعلى مكان مركزه الدائم .. وموقف الوفد الصينى .. والوفد السوفيتى .. والوفود الأفريقية .. ففى داخل اللجان كانت الترجمة فورية والى لغات أوربية متعددة .. والى اللغة العربية أيضا .. فمثلا أصر مندوب اليمن أن يلقى قصيدة طويلة .. وهذا الشاعر أبيض الوجه أخضر العينين قصير القامة .. وذهب الى المنصة وأخرج شريطا طويلا من الورق وراح يلقى قصيدته .. وأمسك الحاضرون السماعات التى يستمعون منها الى الترجمة .. وراحوا يحركونها يمينا وشمالا ويتلفتون حولهم .. واشتركوا فى ابتسامة غامضة .. ثم فى ضحكة عالية .. وراحوا يسألوننا عن هذا الذى يجرى أمامهم ولا يفهمونه .. ونحن لا نجد ما نقوله ؟ انه يلقى قصيدة .. ولا يمكن ترجمتها الى أية لغة .. لأنها كلام فارغ أولا .. ولأنها تتلاعب بالألفاظ .. ومن أهم ألعابها اللفظية كلمة : كوبا .. فالقصيدة تقول : جئنا الى كوبا .. ولم نشرب كوبا من الماء ، وانما شربنا أكوابا من الكرم والضيافة .. الى آخر مثل هذا الكلام البايخ الذى لا يمكن ترجمته ولا داعى لذلك !

ولكن الناس يريدون أن يعرفوا .. ولم يعرفوا لأن أحدا لم يقل لهم شيئا .. وكل ما قيل لهم : انه من اليمن .

آه من اليمن .. آه كده .. — وترددت مثل هذه الكلمات وكانت ردا .. أو مبررا لعدم الرد !

وكان الوفد الصينى عصبيا جدا .. وكان عدده كبيرا .. ولم أفهم فى كل ما قرأت أو سمعت سببا لهذه العصبية .. ربما كان السبب هو أن الصينيين اذا راوا الروس احترقت أعصابهم .. وكان الروس هناك دائما وفى منتهى النشاط ..

وأذكر — مرة واحدة — أنني لقيت أحد أعضاء الوفد الصينى وحييته
أو حياتى ولم نقل شيئاً . وضحك هو ولم يقل شيئاً . . وعاتبنى أحد الزملاء :
كيف تفعل ذلك .

قلت : وماذا فعلت . . هه ؟

قال : ألم تسمع ما الذى قاله هذا الرجل فى جلسة الصباح .

قلت : لم أسمع . .

قال : لقد لعن المؤتمر من أوله لآخره . .

قلت : اننى لا أراه قد لعننى بصفة خاصة . . ومع ذلك فما الذى قلته .

له . . أو قاله لى . . لقد حيانى فى صمت . . وحييته فى صمت أكثر . .
هو ضحك وهز رأسه . . وأنا لا ضحكت ولا هزرت رأسى .

قال : لكن كان عندك استعداد أنك تكلمه . .

قلت : ولا يزال عندى استعداد لأن أتكلم مع أى أحد من كل الذين تراهم

أمامك . .

قال : يا عم أنا مالىش دعوة . .

قلت : هه — محاولاً أن أقلد الفتاة الكوبية بائعة السجائر . .

هه . . وانصرفنا . . كل الى حال سبيله . . ولم يكن لنا سبيل الا حول

الفندق وفى المحلات الصينية التى تبيع الأحجار الكريمة وبأسعار معتدلة . .
خصوصاً حجر التراكوز وحجر الجاد الغالى الثمن . .

وانتهت بسرعة خاطفة الرحلة الى كوبا . . من الغرب الى الشرق . .

وفى النفس تلك الصورة الجميلة العميقة . . وفى الفم طعم جوز الهند الذى

شربناه . . والآناس الذى ألتهمناه . . والسجائر التى تعلمت من كاسترو

أن أضعها فى فنجان القهوة الى أن يلين أحد طرفيها ثم نكسره بأسناننا . .

وقد امتلأت الحقائق بالكتب والمجلات وعلب الكبريت وعلب السجائر وبالعقود

والخواتم الصينية والأقمشة الحريرية . . ولا أظن أنني رأيت القباقيب فى

كوبا . . ولكن وجدت ستة أزواج منها فى حقيبة صديق سعودى كان ضمن

المؤتمر . . ربما كانت هذه أول صورة للاحذية التى لبسها الانسان عندما

اكتشفوا كوبا . . بعد أن اهتدى اليها البحار الايطالى كولبوس . . ولم

أسترح لوجود هذه القباقيب فى الطائرة الا عندما تركها الزميل السعودى فى

غرفته فى فندق أوكرانيا بموسكو ونحن فى طريق العودة الى القاهرة . .

وفى غرفتى فى أوكرانيا أمسكت قلماً وورقة وكتبـت : « عزيزى

الرئيس كاسترو » . . انها بداية سخيـفة . . أفكل منها : عزيزى فيديل

كاسترو . .

أو لا داعى لكلمة كاسترو هذه . . انهم ينادونه بكلمة فيديل .

اذن أقول : عزيزى فيديل . . تذكر يوم رأس السنة يوم عيد ثورتك

الشابة المجيدة ونحن نأكل معا . . ونستعير الكثير من سعادتك ونحن

نتحدث عن كوبا . هل تذكر انك قدمت لى سيجارا كبيرا جدا . . اكبر من
سيجار تشرشل . . انه سيجار كاسترو . . والقيت بما معى من سيجار
فى الأرض — احتقارا لشأئها . . وقلت لى بالحرف الواحد : ما دمت مع
كاسترو فاشرب هذا السيجار . .

وأعطيتنى سيجارا ضخما . .

وقلت لك : واذا لم أكن مع كاسترو . .

فقلت أنت : يبعث لك كاسترو بالسجائر . .

وقلت أنا : واذا لم يبعث كاسترو .

وقلت أنت : يبعث لك كاسترو بأن تجيء لتدخن هذا السيجار معه . .

قلت أنا : هذا أفضل . .

ومددت يدك وصافحتنى . . وكانت هذه المصافحة تعاقدا واتفاقا بيننا . .

والآن يا أيها العزيز فيديل : أنا فى شوق الى سيجارك . . فما رأيك ؟ « .

ومزقت الخطاب لأن المعنى لا يعجبنى . . ولا يريحنى . . ويكفى أننى
رأيت وسمعت وقرأت واستمعت واحتفظت بذكرىات جميلة حارة ، لبلاد
جميلة وشعب حار . . وليس السيجار وقصب السكر والاناناس الا أهون
ما فيها . .

آکٲر منے سو لیسراٲ

يعنى إيه هوف؟!

أول مرة المس فيها الأرض السويسرية والجبال السويسرية واللحم والدم السويسرى عندما ذهبت الى محل البن البرازيلى فى القاهرة ورأيتة .. رأيت ذلك الرجل الطويل العريض الذى يمشى على الأرض ويدب .. ويحاول أن يؤكد لأحد من الناس أن الأسفلت يمكن أن تغوص فيه الأقدام .. وعلى الرغم من أن قدمه لم تترك أى أثر على أسفلت شارع سليمان باشا .. فان هذا الرجل لم ييأس .. انه يحاول .. انه يمشى بسرعة ويدب .. ويلتفت بحدة وهو يشبه عقرب الثوانى وسط أناس يشبهون عقارب الدقائق .. وأحيانا عقارب الساعات والسنوات .. ولكنه ينفذ مخططا فى رأسه .. هذا المخطط جعله سليم الجسم .. متين البنيان .. فى الثمانين ويبدو كأنه فى الأربعين .. انها صحة .. انها سويسرا ..

وفى البن البرازيلى عندما رأيتة فرحت .. وبلا تفكير مددت يدي .. أصافحه .. وبلا تفكير فرحت .. فقد رأيت هذا الرجل من قبل انه الدكتور ران الذى كان يدرس لى اللغة الألمانية فى الجامعة .

وظلت يدي ممدودة . وهو يسألنى : من أنت ؟
وظلت يدي ممدودة . فالرجل يرفض أن يسلم على شخص لا يعرفه .. ووضح من ابتسامتى التى تقلصت .. أنها كانت ابتسامة تلميذ لأستاذه . فتحوّلت الى ابتسامة تلميذ لم يعد تلميذا .. ثم تحولت الى غضب مهذب من خواجه قليل الذوق .. ثم بسرعة تحولت الى اعتراف بالفارق بينى وبينه .. بين الشرق والغرب .. ثم الى تقرير فارق ثابت .. وبناء حائط جامد بارد بينى وبينه .. وعبر هذا الحائط البارد تشعبت كلماتى لتقول له : أنا تلميذك فلان ..

ولم أحفل بعد ذلك بيده الغنيمة التى امتدت لتصافحنى ولتعتذر لى .. ولم أهتم كثيرا بأنه يقرأ لى مقالاتى .. وأنه أعجب بقضاياها أثرتها .. وأنه تمنى لو يلقانى ليناقتبنى ..

وكانت كلماته مثل رصاص انطلق على لوح من زجاج يصد الرصاص ..
فتحولات الى مجرد طرقعة .. صوت وصدى .. ثم جاءت تحيته وهزته
لرأسه كمساحة تزيل المطر من فوق لوح من الزجاج ..
وفي البن الأسود ابتلعت هذا الموقف البايخ ..
انه موقف سويسرى ..

وهذا الرجل قطعة من ارض وشوارع ووديان وجبال وغرابة وصلابة
وصحة وميكانيكية البلد التي اسمها سويسرا !

ولم تنغير هذه الصورة كثيرا عندما ذهبت الى سويسرا نفسها ..
ففى بنسيون « الزيتون » بمدينة جنيف ، أعجبتنى صاحبة البنسيون . فهى
وجدها التى تطبخ وتنظف . وتزرع الحديقة وتقلعها . وهى التى ترد على
التليفون وتعيد تسوية الغرف .. وعندها بعد ذلك متسع من الوقت لتضحك
وتجامل ..

وهى تشبه ترسا من النحاس اللامع يدور فى ساعة فضية نظيفة ..
ولا علاقة لها بشيء آخر فى هذا العالم .. انها ست بيت .. أو صاحبة
بيت .. وهذا يكفيها ..

فهى فى حالها .. وكل الناس كذلك !

سألتها : ألم تعرفى الحب ؟

قالت : وأنا صغيرة .. وانتهى كل شيء ؟

— ما هذا الذى انتهى ؟

— الحب !

— وكيف بدأ ..

— أنت تعرف ..

— ولكن الذى لا أعرفه هو كيف انتهى ؟

— هو مات .. وأنا ما أزال حية ! ..

— اختصرت الموقف جدا ! ؟

— أنا لم اختصره !

— ولكن الحب ليس حكما نهائيا .. انه حكم يمكن الرجوع فيه فالقلب

الذى أحب مرة .. يمكنه أن يحب مرة أخرى وبشكل آخر .. فالقلب

كالساعة لا يدق مرة واحدة .. ولا يمتلئ مرة واحدة .. انه يدق دائما

.. ويظل يمتلئ بأيدينا .. ويمتلئ بنفسه ..

— أنا ساعة تذكارية .. لا تدق ولا تمتلئ !

— ولكنك ما تزالين جميلة ..

— أذن .. ساعة تذكارية جميلة ..

- وتذكارية لماذا ؟
- فليس عندي وقت للحب !
- ليس عندك وقت .. من الذى عنده وقت ؟
- انت .. انتم ..

والحقيقة أن المشكلة ليست الوقت .. ولكن هى طبيعة السويسريين رجالا ونساء .. ليسوا خياليين ولا شعراء .. وانما هم أناس عمليون جدا .. وهم يفضلون القلوب الخالية على القلوب الثقيلة المليئة .. لأن القلوب الخالية مثل الغرف النظيفة .. وهم يفضلون النظافة على أى شىء آخر !

وليس من الصدف أن تتفوق سويسرا فى صناعات الساعات .. أنها صناعة الدقة .. صناعة الزمن .. صناعة الأرقام والتروس والعقارب .. صناعة قطع الغيار الدقيقة .. صناعة الرقيب الحسيب الذى يعد عليك انفاسك .. ودقاتك .. وتربطه فى يدك .. أو يرتبط بك من يدك .. ان حياة الرجل السويسرى كالساعة منظمة ..

فمن المؤلف جدا أن تجد فى البيت السويسرى جدولا على الحائط .. هذا إذا انطبعت أفكاره على الحائط فى ساعة ندم أو قرف — وهذا الجدول نصه : الاثنين : اجتماع اللجنة المدنية .. الثلاثاء : اصلاح الزحافات .. الأربعاء : كوتشينة .. الخميس : جمعية خيرية .. الجمعة : لجنة الخبز .. السبت : السينما مع المدام .. الأحد : الذهاب الى الجبال ..

ولو حدث أن زرت أحد أصدقائك — أن كان فى الامكان أن يكون لك أصدقاء سويسريون لآى سبب — فى يوم ١٣ مايو سنة ١٩٥٠ الساعة الثالثة و١٤ دقيقة ، وذهبت الى نفس الموعد بعد عشر سنوات فستجد صديقك فى نفس المكان .. من البيت .. على الكرسي المجاور للنافذة ممتددا بينما زوجته تروح وتجيء فى البيت .. وكل السويسريين يتمددون فى بيوتهم وينتظرون فالبيت للسيدة وليس للرجل السويسرى أى دور أو أى وزن فى بيته .. فهو عندما يدخل من الباب الخارجى ينتقل الى دولة أخرى ذات سيادة عليه .. الرجل وزوجته فى تكشيرة واحدة .. وارثدى كل منهما ملامح الجد والوقار .. مع أنه لا يوجد ما يبرر ذلك .. فهو رجل ظل يعمل طول النهار كالنحلة .. لا يكف عن الانتقال من مكان الى مكان فى نظام ميكانيكى دقيق .. وهى أيضا لم تكف عن الحركة من البيت الى الدكان .. ومن الدكان الى السوق ومن السوق الى البيت .. وفى كل غرف البيت .. تضع طبقا هنا .. وزهرة فى النافذة هناك .. وعينها تلتقط ذرات التراب على الكراسى وعلى الكتب .. وتنفض وتنفض .. والذى يرى الزوجة السويسرية وهى تنفض التراب يخيل اليه أن السويسريين قد عدلوا نهائيا عن استخدام الاطباق وأنهم سوف يأكلون على الأرض .. فالأرض كالصيني

النظيف .. وكل شيء في البيت يدل على اهتمام غير عادي .. مع أن هذا الاهتمام يحدث كل يوم ..

إذن هذه الزوجة في نشاطها ساعة محددة ودقيقة .. والزوج يتطلع هو أيضا الى هذا الموعد .. أنه موعد الغداء .. للاثنتين طبعاً وجاء موعد الغداء ودخل الزوج وفي نفس اللحظة التي يدخل فيها الزوج تخرج الزوجة من المطبخ .. كل شيء يتم بهدوء .. هو يدخل وهي تخرج .. هو يقعد وهي تقدم الطعام .. هو يقترب من المائدة وهي أيضا .. هو يأكل وهي تأكل .. هو يمضغ وهي تمضغ .. كأنهما يعزفان لحناً غير موسيقى على نوتة موسيقية .. أو لعل الرجل — خصوصاً الرجل — عندما ينظر الى السقف من حين الى حين يبحث عن المايسترو الذي يضبط حركة الطعام من الطبق الى الفم .. ومن الفم الى المعدة .. أما الزوجة فتكفي بمتابعة الزوج ولا داعي طبعاً لأن تنتظر الى رجلين في وقت واحد .. فرجل مكشّر أثناء الأكل يكفي جداً !

أما لماذا هو مكشّر .. وهي أيضا ؟

هذا السؤال معناه : لماذا هو سويسرى .. وهي أيضا ؟ فالسويسرى ليس باسم الوجه .. أنه متجهم .. جاد .. ناشف .. ضخم .. ولكنه منظم في جميع الحالات .. أنا لم أر سويسرياً يبكي .. لأنى لم أجد هذه الفرصة السعيدة .. ولأنه من الصعب على السويسريين أن ينفعلوا .. ولأن يديه مشغولتان فإن نزلت دموعه اضطر أن ينزع إحدى يديه من العمل الذى يؤديه ويبحث عن منديل .. وكل هذا يؤدي الى ارتباك عام .. ولأن الدموع اذا نزلت من عينه يجب أن تنزل بترتيب .. ويظهر أن السويسريين لم يفلحوا في ترتيب دموعهم ، ولذلك عدلوا عن البكاء .. لأنه اما أن تكون عملية البكاء منظمة الدموع ، أو .. لا بكاء .. فلا بكاء !

الرجل السويسرى حريص على أن يكون فى حاله ..

فالدنيا كلها تتمزق وتنهار فى حروب من مئات السنين وتظل سويسرا مزدهرة غنية متماسكة وسط عالم منهار .. واذا حاول انسان أن يهرب فالى سويسرا .. اذا حاول أن يتجسس فالى سويسرا .. اذا حاول أن يودع أمواله بعيداً عن الأيدي والعيون فالى سويسرا ..

وسويسرا هى البلد الوحيد فى الدنيا الذى لا يعرف الخوف .. تصور شعباً لا يعرف الخوف .. أناس لا يخافون من اليوم ولا من الغد .. لا يخافون لا من الفقر ولا من الجوع ولا من المرض ولا من البطالة .. ولا من الحرب !

أجيال وراء أجيال كلها لا تعرف الخوف ..

لا تعرف الفزع الذى يدق على الباب .. لا تعرف الخط التليفونى الذى ينقطع لأن أحداً يستمع الى التفاهات التى تقولها لى انسان ..

اناس لا يعرفون الشارع لانهم طردوا من أعمالهم .. لا يعرفون الاحالة على المعاش الا في الثمانين .. لا يهتدى اليهم الموت الا في التسعين .. يظل الموت يطاردهم في الجليد وفي الوديان .. ثم يلهث وراءهم ولا يدركهم الا بعد أن يكون أى مصرى ولد معهم فى نفس اليوم قد مات من عشرين عاما !

لقد التزمت سويسرا الحياد بين المشاكل الدولية .. والتزمت الحياد بين مشاكلها الداخلية .. فالدستور ينص على أن تظل الخلافات القومية كما هى .. فى سويسرا أربع لغات : الألمانية والفرنسية والإيطالية والرومانش — وهى اللغة السويسرية التى يتكلمها عدد قليل من الناس — ولكن الدستور صريح فى أن يحتفظ كل انسان بلونه ودينه ولغته .. وهذه قضايا لا يناقشها أحد من الناس !

هذا قرار اتخذه الشعب السويسرى سنة ١٩٣٨ : أن نبقى على وفاق مع خلافتنا !

وبعض المفكرين ثائرون على هذا الحياد المزعوم من جانب سويسرا .. فهى ليست عضوا فى الامم المتحدة .. فكأنها بذلك ليست عضوا فى أسرة .. ليس لها دور .. ليس لها وزن .. ولا موقف .. ومن الضرورى أن تكون عضوا له موقف ووزن .. وهذا رأى !

ولم يتفق السويسريون على معنى الحياد ..

وانما اتفقوا على أن يقول كل انسان رايه .. ويتمسك به .. أما الاتفاق على رأى واحد فى هذه الخلافات ، فليس ضروريا .. والضرورى أن يختلفوا .. والذى ليس ضروريا أن يتفقوا على معنى الحياد ..

وقديما سألوا الحكيم كونفوشيوس : ما الذى تفعله لو كنت امبراطورا للصين ؟

فقال : أحدد معانى الكلمات !

ولذلك فمن المستحيل أن يكون كونفوشيوس امبراطورا لسويسرا .. ! هذا اذا كان من الممكن أن يكون هناك امبراطور على الاطلاق .. لأن السويسريين يؤمنون بالانتخاب وحرية الرأى .. وحرية اختيار الحاكم .. ولا يرون أن القازق بينهم وبين الحاكم كبير .. وإذا اختاروا الحاكم اختاروه هو وحده .. فلا حاشية ولا أمراء ولا خلفاء .. بل أن زوجة الحاكم نفسه .. أى رئيس الدولة ليست لها صفة فهى مجرد « مدام .. » ولا زوجة الحاكم ولا كل النساء لهن صوت فى الانتخابات .. فالمرأة لا تعطى صوتها .. والمرأة تتقاضى أجرا أقل من أجر الرجل ، اذا اتفقا فى كل شئ : المؤهل .. والوظيفة .. وساعات العمل !

والسبب هو : أيهما يفتح أكثر ..
في سويسرا يقولون : الرجل ..
ونحن لم نتفق على رأى فى هذه القضية .. لأننا لسنا سويسرا ..
ولا يمكن أن نكون !
ولكن لا شىء يتم فى البيت أو فى الغيط أو فى الشارع دون سؤال الناس
عن رأيهم ..
مثلا : اذا فرضنا أنك صاحب بيت فى سويسرا .. ولسبب ما .. قررت
أن تهدم هذا البيت .. وبفلوسك تقيم بيتا آخر .. لا تنس أنك سويسرى
وطنى مخلص .. وفلوسك موجودة فى البنوك السويسرية وقد جاءتك من
طريق حلال .. بهذه الفلوس تريد أن تهدم بيتا وتقيم بيتا آخر ..
وسوف تلجأ الى المهندسين والخبراء لهدم البيت .. وستلجأ الى
المهندسين والعلماء لبناء بيت آخر ..
ومع حسن نيتك فانك لا تستطيع أن تهدم بيتك .. وأن تبني بيتك ..
فهناك شروط كثيرة ..
أولا : يجب أن يتأكد الشعب السويسرى فى هذه المدينة أن بيتك يجب
أن يهدم .. وأنك لست صاحب نزوة ..
واذا فرضنا أنك صاحب نزوة وتريد أن تهدم بيتك وتبدد أموالك ، فما
دخل الناس ؟
الناس فى سويسرا لهم دخل : فليس من حقتك أن تزعجهم من غير
مناسبة .. تهدم وتبنى .. وليس من حقتك أيضا أن تطرد السكان بذوق لأنك
صاحب ثروة مالية ..
واذا فرضنا أن بيتك هذا يستحق الهدم فكيف تهدمه .. لا بد أن يتأكد
لشعب السويسرى أن البيت يجب أن يهدم لأنه قديم أو منهار .. ولأن
الخبراء أكدوا بصورة علمية أن هذا البيت يجب أن يهدم .. فاذا تقرر ذلك
أجريت أعمال هندسية كثيرة من بينها دراسة طبيعة التربة .. وعملية
جس التربة تتم بالآلات حديثة .. ويتولاها مهندس أو عامل ماهر ..
ولا بد من استفتاء الشعب على بناء البيت : هل يبنى من دور أو دورين
أو ثلاثة أو أربعة .. وعلى الجيران أن يذهبوا ويدلوا بأصواتهم فهذا
يعترض لأن إقامة هذا البيت ستفسد منظر الجبال والغابات .. أو أن هذا
البيت اذا ارتفع سوف يحجب الشمس .. أو يمنع الهواء .. ولا بد أن
تلقى هذه الاعتراضات اهتماما عاما .. ولم يحدث كثيرا أن أدت هذه
الاعتراضات الى تعطيل بناء عمارة من العمارات .. لا لأن هذه

الاعتراضات لا قيمة لها . . ولكن لأنه يندر أن يهدم بيت ويقام بيت آخر في مكانه دون أن تكون هناك أسباب وجيهة جدا لهذه العملية المعمارية . .

وقد سمعت من سفيرنا في سويسرا محمد توفيق عبد الفتاح أن السفارة أقامت جناحا ملحقا بالسفارة . . وبعد أن تم بناء الجناح فوجئت السفارة بأن أحد الجيران السويسريين يشكو السفارة الى القضاء لا لأن السفارة أقامت جناحا . . فهذا من حقها ما دام الجناح قد استوفى كل الشروط الفنية . . ولكن لأن لون هذا الجناح يؤذى العين . . يؤذى عينيه . .

وقد رأيت هذا الجناح . . وفتحت عيني فيه وفي ألوانه ولم أشعر بأى اذى . .

ولكن الذى ضايق هذا الجار السويسرى هو أن الجناح قد طلى باللون الأبيض الرمادى . . وهو لون غريب عن ألوان كل البيوت المجاورة . . فهذا اللون صارخ . . تماما كالصوت الصارخ الذى يوجع الاذن . . فهذا اللون يؤذى العين . . فهو جزء من الضوضاء اللونية . .

وما دام الناس يريدون الهدوء الصوتى فى بيوتهم ، فهم أيضا يريدون الهدوء اللونى والضوئى لعيونهم ! . .

وأنا أحيى هذا السويسرى عشرين مرة . . مرة واحدة لأن له رأيا . . . ومرات لأنه مصر على هذا الرأى ولم يغير موقفه منذ ثلاث سنوات !

هذه القطة الجاهلة!

ومن المشاهد الغربية في سويسرا أن تجد أجدا كريما متحمسا شهما . . . وتحس لأول وهلة أنه ليس من أصل سويسري ، وأنه لا بد أن يكون أجنبيا . . . مع أنه لا يوجد شيء اسمه « الأصل السويسري » . . . فالسويسريون يتكلمون الفرنسية ولا يشعرون أن فرنسا هي وطنهم الأم . . . ويتكلمون الألمانية ، وألمانيا ليست وطنهم . . . والإيطالية . . . وإيطاليا ليست وطنهم الأول . . . انهم خليط . . . أو هم سلطة : طماطم وخس وخيار . . . في أثناء من الكريستال النظيف الأنيق . . . ولكن عناصر السلطة تعيش معا ، ويتكون منها هذا الطعام الشهى ، ولكنها لا تختلط تماما . . . وإنما كل واحد يحرص على هذا الخلاف الواضح . . .

ولذلك اندهشت عندما دعانى مسيو أحمد هوبر الصحفي السويسري . . . الذى أسلم وتزوج من سيدة مصرية سمراء رقيقة . . . أنه شاب فى غاية الحيوية والحماس والدقة . . . فى غاية السويسرية . . . وهو واسع الأفق . . . وعلى المام دقيق بقضايا العالم السياسية . . . وبقضايا الشرق . . . وعلى فهم كاف بتاريخ الإسلام والمسلمين . . . وهو رجل كريم خدوم . . . أو أصبح كريما . . . وهو على خلاف السويسريين تجده هو رب البيت . . . هو الذى يدعوك الى الطعام . . . و « يعزم » عليك . . . ويكاد من شدة حفاوته بك أن يأكل لك أيضا . . .

ومن المؤكد أنه لا يريد منا أن ننهض بعد الأكل مباشرة . . . هذا مؤكد . . . ولكن نظراته طاردة . . . أنها تكاد تسحب الطبق من يدك وتلقى بك على الباب الذى ينفتح تلقائيا بمجرد اقترابك منه . . . وعندما تسقط على السلالم النظيفة . . . وتتماسك وتخرج من الباب النظيف الى الشارع النظيف . . . وتتطلع الى شقيقته تجده أنه قد أطفأ النور . . . ودخل فى الفراش ليصحو بعد ذلك بخمس ساعات و ١٢ دقيقة . . .

لم يحدث شيء من ذلك . هذا أكيد . . ولكن ترجمتى الدقيقة لنظرات السويسريين تقول ذلك . .

وإذا تحدث اليك فى موضوع أدبى أو فلسفى أو تاريخى . . بالفرنسية أو بالانجليزية أو بالألمانية فهو رجل شاعرى . . وهو مفكر واضح . . وهذا الحماس والوضوح يجعلك تنسى أنه سويسرى . . ولكن عينه التى لا تبعد كثيرا عن النظر الى الباب تؤكد لك أنه من الضرورى أن تنهض . . لأنك سائح ولأنه موظف . . ولأنك مصرى ولأنه سويسرى . . ولأنه سويسرى غير عادى . . ولأنه من الضرورى أن تشجعه على ذلك فلا يكون كرمه عقوبة يستحقها وذلك بأن تسهر عنده حتى الصباح . . مثلا !

وهذا الرجل أحمد هوبز مختلف عن السويسريين فى شيء جوهري جدا : انه يقتنعك . . ولا يحاول أن يعلمك !

ومعظم السويسريين لا يهمهم كثيرا أن تقتنع . . انهم مثل المدرسين يقول كل واحد منهم كلمته ثم يمضى . . أو مثل رجال الدين كل واحد ينشد لك موعظته ثم يرفع يديه الى السماء لتنتهز أنت فرصة اتصاله بالسماء وتمضى لحالك . . على الأرض !

وهذا سر المتعة التى لا تنتهى فى الحديث الى المواطن السويسرى أحمد هوبز !

* * *

وعندما ذهبت الى أحد الساعاتية فى سويسرا . . وما أكثرهم . . انهم يشبهون مطاعم الفول فى القاهرة . . ومحلات الحلويات فى دمشق . . وقدمت له ساعتى أريد لها زجاجة جديدة . . وأخذ الرجل الساعة ووضعها فى درج . وأعطانى وصلا . وقال : ليست عندى هذه الماركة !

قلت : لم أفهم . .

قال : أننى لا أصلح كل أنواع الساعات ، ولذلك يجب أن أبعث بها الى المحل الخاص بهذه الماركة . .

ومد يده الى التليفون وسأل أحد المحلات . . أو هكذا فهمت لأنه يتكلم باللغة السويسرية التى هى خليط من الألمانية واللغة الرومانشية . . وأعطانى عنوان محل آخر . .

وذهبت . . والمحل الآخر أعطانى ورقة على أن أعود فى اليوم التالى . . لأن زجاجة هذه الساعة يجب أن تستحضر من المصنع .

والمصنع خارج مدينة برن . . ثم أن ماركات الساعات السويسرية لا عدد لها . . ثم أن من حق أى انسان أن يصنع ساعة وأن يضع عليها الماركة التى

تفجبه . . أما الماركات المشهورة فهي لا تصنع كل هذه الساعات التي تحمل ماركتها . . وإنما الشركة الكبرى تعطى لشركات صغيرة حق استغلال هذا الاسم مقابل نسبة مئوية تتفق عليها . .

وفي اليوم الثاني عدت . .

ووجدت الزجاج ، وسألت كيف يمكن خلع زجاجة وتركيب زجاجة أخرى . ورأيت كيف . . وهنا أدركت أن الساعاتية عندنا هم أناس يصلحون بوابير الجاز . . أو البلاعات . . فلا توجد عند الساعاتية في سويسرا : لا سكاكين ولا كماشيات . . ولا أحد يستخدم أسنانه في فتح الساعة . . لا لأن صناعة أطعم الأسنان لم تتطور الى هذه الدرجة ، ولكن لأن هناك آلات دقيقة رقيقة . . تلمس الزجاج فيخرج كما تخرج الشعرة من العجين . . بنعومة وبلاضوضاء . .

ولأن كل انسان قد تخصص في شيء . .

ثم أن كل شيء يتم في هدوء الساعة وبرودة عقاربها . .

وأهم من ذلك أن للسويسريين طريقتهم الخاصة في الاهتمام بك والترحيب بخدمتك . . فهم لا يضافحونك بجرارة . . ولكنهم يحترمونك بحرارة باطنية غير واضحة على الوجه أو في الأيدي التي تضغط . . وأنت كسائح لا تطمع في أكثر من الخدمات المجانية . . ويكفي جدا أن تطلب من الناس أن يخدموك مجانا . . وأن يكونوا سعداء أيضا لذلك ! . .

وإذا كانت سويسرة بلدا لا يعرف الخوف . . فهي أيضا بلد لا يعرف التوسع . .

فالأرض محدودة من مئات السنين . .

وكل شبر يمكن استغلاله قد استغله السويسريون . . ولذلك فهم يحاولون تجويد التربة رأسيا . . بعد أن ضاقت بهم أفقيا .

وهم لا يريدون أى توسع سياسى أيضا . .

والتوسع الوحيد الذى يحرص عليه السويسريون هو التوسع في الخدمات وفي استثمار أموالهم في الخارج . . ولذلك فالوارد الوحيد لاقتصادهم كله هو التجارة . . التصدير الى الخارج والاستيراد والخدمات .

وسويسرا قد تطورت في صناعات كثيرة ، كما أنها أول دولة في العالم تستخدمت الكهرباء في إدارة كل أجهزتها تماما ، وكان ذلك في سنة ١٩٤٢ . . وهناك توارىخ مشهورة في سويسرا . .

ففى عام ١٨٠١ أقامت أول مصنع للنسيج ..
وفى عام ١٨٢٦ أصدرت أولى عملاتها المصرفية ..
وفى عام ١٨٥٠ انتجت أول ساعة لا تمتليء بالمفتاح ..
وفى عام ١٨٦٧ كانت أول من أنتج اللبن المسحوق ويحمل اسم نستله ..
وفى عام ١٨٧٧ انتجت الساعة ذات الزنبرك ..
وفى عام ١٨٩٧ أنتجت الحرير الصناعى ..
وفى عام ١٩٢٢ كانت شركة ساندوس الطبية أول من توسع فى استخدام
الأعشاب الطبية ..
وفى عام ١٩٢٥ عرف العالم أول انتاج للفييتامينات يحمل اسم شركة لاروش
العالمية ..

واذا كان السويسريون عندهم جنون النظافة .. فعندهم أيضا جنون
الخوف من المرض . ولذلك فهم يراعون القواعد الصحية بوعى .. على
عكس الامريكان الذين يعرفون أن هناك مرضا .. أى مرض .. ويواجهون
احتمال المرض بتعاطى الفيتامينات والعقاقير الوقائية .. ولا يفكر الأمريكى
فى المرض الذى يتقيه .. وانما هو يتقى كل الأمراض الممكنة .. فمن المألوف
أن تجد الأمريكى يبتلع حبوبا وأقراصا فى الصباح وفى المساء .. ويترك لهذه
الأقراص أن تقولى حراسته ضد الميكروبات .. أية ميكروبات .. أما
السويسرى فهو يعرف الأمراض المنتشرة ويتقيها بحساب لا لأنه بخيل فقط ..
ولكن لأنه دقيق جدا ..

ليست صحته هو فقط .. ولكن صحة الحيوانات الموجودة فى البيت ..
الكلاب والقطط والأبقار وغيرها .. خصوصا أن هناك بعض الأمراض
المشتركة بيننا وبين هذه الحيوانات .. وهذه الأمراض موجودة ومعروفة ،
والوقاية منها معروفة أيضا . ومرض قطرة أو كلب مثل مرض أى طفل يلقي
نفس الاهتمام والهموم والسؤال عن صحته كإى كائن حى .. وغاة قطرة
كوفاة انسان . أما اذا حدث أن داست إحدى السيارات قطرة . فهذه كارثة
للشارع كله .. وأحيانا للمدينة من أولها لآخرها .. ويتوقع الناس أن يروا
صورة للحادث فى التلفزيون وقد أمسك كل واحد منهم ورقة وقلما استعدادا
للتعليق على الحادث .. أو على التلفزيون أو على طلب البرلمان للتحقيق
فى هذا الامر الخطير !

أعرف صديقا مصريا جاء الى سويسرا من ألمانيا وتعلق أطفاله بأحدى
القطط . فاشتري القطرة ، وبعد أسبوع واحد من إقامته فى سويسرا استدعاه
البوليس لأمر هام . التلفزيون يقول : لأمر هام .. والاشارة من البوليس
تقول : لأمر هام .. ومنظر البواب وهو يرشد رجل البوليس الى شقة
الصديق يؤكد : أنه هام وكارثة وطنية ! ..

وذهب الصديق المصرى . . وفوجيء بأن كل الاحتمالات التى دأرت فى رأسه لا علاقة لها بأسباب الاستدعاء الى البوليس ، فضابط البوليس يشير اليه أن يجلس لكن يشرح له : ما الذى فعلته القطه فى الحديقة ؟

— ما الذى فعلته ؟

— انها حفرت فى الحديقة . . ثم تركت بعض مخلفاتها . . وأنت تعرف . .

— أعرف . . ماذا فى هذا ؟

— فى هذا كل شيء . . ان القطه مريضة يا سيدى . . عندها اسهال . . تصور ! . .

— أستطيع أن أتصور . فما الذى أفعله أنا . . أنا شخصيا عندى اسهال . .

— أفهم ذلك . . ولكنك لا تستطيع أن تفعل ما فعلته القطه . .

— طبعا . . لا أفعل . .

— لماذا ؟ لأن هناك مكانا مخصصا لذلك فى شقتك . . فأين اذن المكان المخصص للقطه . .

— هناك مكان . . ولكن القطه لم تفعل . .

— ولماذا لم تفعل . . لأنها قطه غير متعلمه . .

— غير متعلمه ؟

— طبعا . . القطط يجب أن تتعلم أين تأكل وأين تشرب . . وأين تتخلص من كل شيء بعد ذلك . .

— ان هذه القطه قد اشتريتها . .

— كان يجب أن تسأل عن عادات هذه القطه قبل أن تشتريها حتى لا تقف هذا الموقف . . الخ .

باختصار : هذه القطه عندها اسهال اضطرها الى أن تذهب الى الحديقة

. . ولسوء الحظ رآها البواب . . وذهب البواب وأخبر البوليس . . لأن القطه مريضة . ومرض القطه مسألة صحية ، ولا بد أن تعلم السلطات الصحية بذلك . . حتى لا تنقل العدوى الى بقية الحيوانات والأطفال ، والبواب يؤدى بذلك واجبا وطنيا ، ويراه كل الناس موقفا طبيعيا . . وهو لم يضع وقته فى الكلام مع صاحب القطه . . فصاحب القطه ليس البوليس وليس الادارة الصحية . . ثم ان صاحب القطه متهم . .

وانصرف الصديق المصرى . .

وفى البيت جاء الطبيب ، وأخذ عينات من مخلفات القطه . وطلب التحفظ على القطه . وأخذ القطه فى صندوق . وبعد التحاليل ثبت أن القطه عندها اسهال حاد . . لأنها قطه قد اعتادت على الطعام المسلوق . . فلما أكلت الارز بالسمن واللحم بالسمن . . ذابت أحشاؤها فى الحديقة . .

ولا يد من علاج للقطعة . . .

ولا بد قبل العلاج أن تتعلم القطعة كيف تأكل وتشرب ، ولذلك يجب أن تذهب القطعة الى المدرسة ، وعلى حساب صاحبها . . . وذهبت القطعة الى المدرسة . وقررت المدرسة أن القطعة في حاجة الى شهر . .

وهنا قال صاحب القطعة : انا لا أريدها . .

فكان رد ناظرة المدرسة : اذن ستظل القطعة هنا تأكل وتشرب على حسابك . . وتتعلم أيضا الى أن نجد لها أحدا يؤويها في بيته . .

وضحك صاحب القطعة وهو يقول : افرض اننى أخذت القطعة وأطلقتها في الشارع .

وضحكت ناظرة المدرسة لهذه النكتة وقالت : في هذه الحالة لن يسكت البوايس على ذلك ولا الصحف . . وربما أدى ذلك . .

ولم تقل الى طرده من سويسرا — وهذا ممكن ولهذا السبب الذى لا يتسم بالرحمة ! . .

ولم تعد القطعة الى البيت لصعوبة الاحتفاظ بها . . فليس من السهل أن تأكل القطعة وحدها الطعام المسلوق في بيت يأكل فيه الأطفال الأرز المفلن وطواجن اللحم بالسمن . . ومن الصعب تربية قطعة في بيت به أطفال كثيرون لا يدركون خطورة الموقف القططى في سويسرا الذى قد يؤدى الى سوء العلاقات بين شعبنا والشعب السويسرى ! . .

وسويسرا بلد من الناحية الفنية مجدية . . فلا أحد يعرف اسم فنان كبير في أى نوع من فروع الفن . .

ربما كان المهندس العالمى لوركوربوزيه هو أشهر سويسرى في دنيا المعمار — وهو يأسف لذلك أشد الأسف . لا عالى أنه مشهور ، ولكن على أنه سويسرى . . هكذا جاء في مذكراته ، ولم يشرح لنا سر هذا الأسف . . وربما كان المثال بول كللى من أعظم صائعى التماثيل في العالم ، وهو سويسرى . .

وقد حدث أثناء تصوير فيلم « الرجل الثالث » في سويسرا من اخراج كارول ريد وبطولة أورسون ويلز أن خطرت للبطل عبارة جميلة ، فأضافها للفيلم . أما العبارة الصادقة فتقول : ان عصر النهضة الايطالية الذى ارتكبت فيه مئات الجرائم ضد البشرية قد أسفر لنا عن عباقرة الرسم والنحت في

التاريخ .. ولكن مئات السنين من الهدوء والسلام في سويسرا قد أسفرت
عن اختراع الساعة التي يخرج منها البلبل ويعلن عن الوقت .. !

ولكن سويسرا في عالم الأدب أحسن حالا ..

فقد ظهر في سويسرا أدبيان عظيمان بعد الحرب .

وهذان الأدبيان من الألمان السويسريين . وهما يكتبان باللغة الألمانية .
وهما لذلك يحركان الأدب الألماني والأوربي وهما قابعان في الجبال العالية ..

وقد قابلت هذين الأدبيين ..

وترجمت لكل منهما .. أيضا ..

الأديب الساخر فريدريش ديرنمات . فقد ترجمت له مسرحيات :
رومولوس العظيم . وقد ظهرت على المسرح وقام ببطولتها صلاح منصور
وزوزو نبيل وأخرجها سمير العصفوري .. وترجمت له مسرحية « هبط
الملاك في بابل » .. ثم مسرحية : « الشهاب » التي ظهرت على مسرح الجيب —
أي في المكان الذي لا يناسبها . وبالأخراج الذي لا يتفق مع طبيعتها ؟!

وقد لقيت ديرنمات في بيته : . والثقيت بزوجة .

وتحدثت إليه طويلا في الأدب العالمي وفي أدبه .. وهو رجل رقيق ..
يبدو سمينا قصيرا .. ولكن بعد لحظات من الجلوس إليه تجد السخرية
في عينيه وفي عبارته .. وإذا ضحك فهو يضحك من حنجرته ومن بطنه ..
وهو رسام وموسيقي وشاعر ومهندس معماري .. وابن قسيس .. وهو
من أحسن أدباء اللغة الألمانية ..

أما ماكس فريش .. فهو أهدأ وأعمق .. وسخريته فلسفية .. وقد
ترجمت له مسرحية « أمير الأراضي البور » ..

ومن الغريب أنني عندما ذهبت الى فريدريش ديرنمات قدم لي عشرات
من فناجين القهوة .. ولم أتنبه الى هذا الاسراف . وظننت أنه هو الذي
يحب القهوة كثيرا . ولما سألتته عن السبب قال لي : أستم تحبون القهوة
هكذا .. فكلما فرغ فنجان صببت لك غيره ؟

ولما سألتته عن الكتب العربية التي قرأها .. اعترف لي هو أيضا —
كما اعترف لي قبل ذلك في القاهرة البرتو مورافيا وسومرست موم — أنه لم
يقرأ غير ألف ليلة وكتابا للامير أرسلان .. وأن معلوماته عن العالم العربي
مع الأسف قليلة .. !

أما ماكس فريش فقد زرتة مع سفيرنا محمد توفيق عبد الفتاح .. وكان
الرجل في انتظارنا . في غاية الصحة والحيوية .. وهو يؤكد لك أنه في صحة

جيدة ولا يشكو من أى مرض . . وقد اختار البيت الذى يقيم فيه على ارتفاع
مدروس . . لأنه عند هذا الارتفاع يكون الهواء منعشاً والضغط معقولاً . .
وأنسب ارتفاع لنشاط العقل الإنسانى . وكان قد أعد لنا زجاجة من
الويسكى . . واعتذرتنا . واعتذر هو أيضاً لنفسه لأنه لا يشرب نهراً . .
وظهرت فتاة تروح وتجيء . ليست جميلة . فقال ماكس فريش : انها
خطيبتى . .

ونهمت . . ان كلمة « خطيبة » هى لقب قد أعطى لهذه الفتاة بمناسبة
تثريفتنا . .

ومن مئات السنين لم تعرف سويسرا أدبياً واحداً له قيمة عالمية . .
ولامفكراً واحداً بغدجان جاك روسو له أى وزن دولى . .

ان سويسرا أرادت أن تكون منطوية على ساغاتها وعلى أرضها وعلى
مقشاتها . . وعلى خلافاتها الثابتة . . وأن تغلق عينها عن العالم . . وأن
كان العالم لا يغلق عينه عنها . . ضيقاً وحسداً . وأن تنطوى على هذوئها
وطمأنينتها . . والألا تمد يدها لثصافح الا من تعرفه . . وحتى لا تمد يديها
فانها حريصة على الا تعرف أحداً . . ويكفى أن يعرفها الناس . . وهى تريد
أن يعرفها الناس عاصمة النظافة : نظافة الأرض والبيت واليد وهى البيئة
التي لا ينشأ فيها فن ولا أدب . فالأدب كالنبات ينمو فى الطين . .

ويندو أن بعض السويسريين قد استورد كميات كبيرة من الطين تكفى
لأن ينشأ فيها عملاقان هما : ديرنمات . وفريش !

اطیب نجیبانی من موسکو

عادة سيئة أن نرمى البحار بالأحجار!

أول شيء تشعر به إذا سافرت الى أمريكا أو الى روسيا أن هناك جرحا خفيفا لكبريائك .. وأن هذا الجرح قد حدث بمجرد ملامستك للارض .. مع أن أحدا لم يقصد ذلك .. وليس في نية أحد أن يفعل ذلك .. أولا لأنه لا يوجد مبرر .. وثانيا لأن أحدا لا يدري بك .. فأنت ضمن مئات الملايين من الناس من لونك ومن حجمك ومن بلدك ومن البلاد المجاورة لك ..

فأول ما تشعر به أنك صغير جدا .. وقد يشمل هذا الشعور بلدك أيضا .. فأنت وبأدك صغيران أمام هذا المحيط الهائل من الناس والأشياء والمعاني ..

كل شيء ضخم .. وهذه الضخامة موجودة قبل تشريفك لهذه البلاد .. وستبقى بعد سفرك .. وكل المطلوب منك هو أن تتوافق مع الجو وأن تعرف رأسك من رجلك ..

أما رجلاك فدعهما الآن .. عليك أن تهتم برأسك .. فالذي تراه قد صنعه الناس من العدم .. ففي روسيا هذه الأرض كانت خرابا .. أحرقها وهدمها على رؤوسهم وأولادهم ونسائهم وآمالهم الألمان .. وقبل الألمان جيوش الحرب العالمية الأولى .. وقبلها نابليون .. وأثناء ذلك كله الحروب الأهلية .. وحركات الاستقلال .. فتحت هذا الجليد الذي يغطي الشوارع والسقوف والأشجار والذي استعاره الناس للامح وجوههم توجد نيران حقيقية ونيران ثورية ..

وجوه الناس مثلا . . هؤلاء الروس لا يمكن أن تحدد ملامحهم . . ففيهم الأبيض والأصفر والأسمر والأحمر . . وكلهم أبناء دولة واحدة . . ففي بلادهم ١٨ جمهورية وعشرات اللغات والقوميات . . ولكنهم جميعا سوفيت . . ووجوه الناس جامدة . . أو رخامية أو زجاجية . . ولنفرض أن هذه هي صفاتهم التي بدت لك من أول لحظة . فما الذي يمكن أن تستنتجه من مجرد النظر الى وجوه الناس . ما الذي يمكن أن تقوله عن الروس اذا وقفت في المطار وضربت بعينك بسهما الى فتاة جميلة . وكان السهم لا خرج من عينك ولا دخل فيها . . اذا ابتسمت لأي شاب أو رجل فكأنك ما فعلت شيئا ! ما الذي يمكن أن تصف به الروس على اثر هذه المحاولة التي تبدو بريئة ؟ تقول فعلا : ما هذا البرود ؟ ما هذا الجمود ؟ الشعب كله لا يفهم النكتة ولا يحب المرح ولا يرحب بالأجانب !

في استطاعتك أن تقول ما تشاء . .

ولكن ما الذي يمكن أن يفعله انسان لا يعرفك . . ولا يدري بك طبعا . ولا يعرف ما يدور حائرا في نفسك . ثم انه مشغول عنك . وهذا طبيعي . وأنت لا تعرف كلمة روسية واحدة وهو لا يعرف كلمة عربية . . ولو عرفت كلمة . . مائة كلمة فما الذي تستطيع أن يؤديه لك وليس من اختصاصه أن يستقبلك أو يرحب بك . لا بد أن هناك أناسا آخرين ، أنت جزء من أعمالهم وأعبائهم . .

ولكن الذي يجعل هذه المعاني تدور في رأسى فى روسيا وأمريكا هو شعورى بالضالة والضياع وأن أحدا لا يدري بى . وهذا طبيعى . ولم تفقدنى معرفتى بالانجليزية فى أمريكا ، ولم يفترقنى جهلى بالروسية فى موسكو . .

ولكن لا تكاد تجد الشخص المناسب أو يجدرك الشخص المناسب حتى تتغير الدنيا أمام عينيك . وسوف تجد أن الذين يمرون بسرعة كأنهم آلات . . هم بالفعل يعملون ضمن جهاز كبير دقيق . وأولا هذا العمل الذى لا ينقطع ما وجدت طائرة ولا مطارا ولا فندقا فخما . ولا وجدت طعاما ولا شرابا . . ولا وجدت صداقة فى انتظارك أنت وشعبك وعشرات الشعوب الأخرى . . ومع الدفء والكلام والحوار تجد أنك دخلت دون أن تدري عضوا فى أسرة ضخمة طويلة عريضة عميقة شديدة التعقيد بالعلم والخرافات والفلسفات والأحداث والمعارك والأغاني والتماثيل ومتاحف الملوك وتماثيل الجنود ، وتشعر بالضيق مرة أخرى . . ولكنه ضيق انسان فى بنك مليء بالأوراق النقدية والذهب . . لا تستطيع أن تأخذ ولا تستطيع أن تترك . . ومهما أخذت فسوف يبقى الكثير ، واذا لم تأخذ فسيبقى فى نفسك الكثير من الحسرة والندم !

وأذا كان الناس في مواجهة الجليد الذي اعتادوا عليه ، يرتدون الثقيل من أغطية الرأس والأحذية والبلاطى ، فانهم في بيوتهم الدافئة يتخففون من كل شيء . . . وذن النظرة الجامدة ، والوجه الرخامى . . . فإذا أنت أمام أناس ظرفاء محبين للنكتة ومخترعين لها أيضا . . . وفي نفس الوقت لا يرفعون عيونهم عن النظر الى الماضى والمستقبل فهم يعرفون جيدا ماضيهم ، ومؤمنون تهابا بمستقبلهم . . . ويؤمنون بأن المستقبل للأغلبية من الناس . . . الذين يعماون . . . ولهم الحق في الحياة . . . ولم تكن الحياة حقا لهم قبل ذاك . . . تسمع ذلك وتراه بألف لغة وشكل وحجم ومناسبة . . . وفي كل كتاب وكل مسرحية وكل لوحة وكل أغنية . . .

ومهما ذهبت شرقا وغربا في روسيا ، فانت لا ترى الا القليل . . . ان الروس أنفسهم لا يعرفون بلادهم . . . فلا يتسع عمر الواحد منهم لزيارة معالم بلاده . . . فالبلاد واسعة . . . والروس يقرأون عنها كما نقرأ نحن تماما . . . والاتساع والضخامة يجعلان الروسى يشعرون بالمناعة والقوة . . . فحين ذهب نابليون وأين ذهب جنكيز خان ؟ وأين راح هنتر . . . كل هؤلاء ابتلعتهم الأرض الواسعة ، ودفنهم الاصرار على النصر . . . وقد أصروا وانصروا . . . وتعبوا وجنوا ثمرات تصبهم . . . وسوف يهتقون ما هو أكثر . . . فالشعب كله يعمل . . . هذه حقيقة . . . على كل المستويات . . . هذه بديهية . . . وكل ما هو ضرورى لكل انسان متوافر وكل ما هو ترف ليس متيسرا . . . وهذا حقيقى . . . ولكن عندهم أمل بأن تكون الكماليات متوافرة كالضروريات . . . والروس متحمسون بكؤوس الايمان بالمستقبل — كالامريكان تماما !

والروسى فخور ببلاده . . . والشاعر الروسى أرمنافوف عندما قارنوه بالشاعر الانجليزى بيرون قال : لست كانشاعر بيرون . . . أنا مختلف عنه . . . ومازات مجهولا ، اننى مثله منبوذ فقط . . . ولكن أهم من ذلك ان لى قلبا روسيا ! وهذا يكفيه . . .

والشعراء الروس كثيرا ما بكوا على بلادهم وما أصابها ، وأثاروا الشعب على الظلم . . . من أجل ذلك ارتفعت تماثيلهم في كل مكان . . . امتنانا من الشعب لهم ، وعرفانا بفضلهم . . . وتقديسا لكل من قال أو فعل شيئا لكل الناس . . .

والشاعر تودجست في القرن التاسع عشر قد وصف روسيا بلهجته الحزينة فقال :

((الفلاحون نيام كالموتى ، يزرعون ويحصدون وهم نيام ، ثم ينامون بعد ذلك . . . والذي يضرب الفلاح على رأسه نائم أيضا ، والذي يتلقى الضربات أكثر نوما . . . الغربان هى التى لم تعرف النوم في خرائب روسيا . . . ان روسيا تمسك زجاجة الخمر وتتجه برأسها الى القطب الشمالى ، وتمدد

سابقها في القوقاز ، وتنام نوما لا نهاية له . . هذه هي أرضنا المقدسة
روسيا . .

ونامت روسيا كثيرا على صدور الشعراء وفي قصائدهم . . . وكانت
أدخرت النوم الطويل للسهر الطويل بعد ذلك . . فصحت في كل مكان . .
وكل موقع . . وارتفعت وعات . . ودارت حول الأرض وحول الكواكب . .
وأصبحت دولة عظمى . .

وانت لا يمكن أن تعرف من بلادها الا القليل . . فأنت تلمس روسيا
فقط . . مهما طالت صلتك بها ، أو أقامتك فيها . . فأهلها أنفسهم يلمسونها
ولا يعرفون عنها الا القليل ، فلا أحد استطاع أن يعرف الكثير عن هذا
الكثير جدا في كل شيء . . وفي كل ميدان . . ولكنها رغم ذلك تبهرك وتشيرك
وتذهلك . .

وكل ما تستطيع أن تقول : انها مختلفة !

وتسال نفسك : مختلفة عن ماذا ؟

ويكون جوابك : مختلفة عن كل البلاد التي رايتها أو سمعت عنها .

وهذا طبيعي . فليس من الضروري أن يتشابه كل الناس وكل البلاد ،
مهما اختلفت الظروف . . أو دهما اختلفت أحداث التاريخ . . ولكن ليس من
الضروري أن يكون اختلافها خصما من رصيدها لديك . . وانما هي مختلفة . .
اختلاف شجرة عن شجرة أو ماركة سيارة عن ماركة سيارة أخرى . .
أو اختلافك عن واحد مثلك في مركزك وفي مستقبلك . .

وكأى انسان غريب عن روسيا تصطدم بأشياء غريبة . . وقد وقفت
طويلا عند الأشياء الغريبة . . اننى أردت أن أدور حولها . . وأهزها لعل
أنا أتحرك . . وحاولت أن أضحك . . ولا يزال الضحك نوعا من السمو
الروحي . فالذى يضحك على شيء يشعر أنه أحسن منه . . وأنه لا يمكن
أن يرتكب حماقة أن يفعل بنفس الشيء . . والضحك كالشمس . . والبيت
الذى تدخله الشمس لا يدخله الطبيب . . فقد أردت أن أكون طبيب نفسي . .
وطبيبك أحيانا !

وهذه هي المرة الثالثة التي أرى فيها روسيا — هذه العبارة ليست
دقيقة . فان أحدا لا يستطيع ، ولم يستطع أحد — أن يرى روسيا . . ولكن
لا أجد كلمة أخرى بدلا من كلمة « يرى » هذه . . وانما الأصح أن أقول :
هذه هي المرة التي فتحت فيها عيني على روسيا . . أو على جزء من
روسيا . . أو على بعض من روسيا . . فالذى رأيت قليل . . ولكنه مثير . .
والذى لم أره كثير جدا . .

ولكن كما يحدث أن يختار الانسان بعض قطرات المحيط ليحللها فيعرف بعض خصائص المحيط ، فأتنى فعلت ذلك . . اخترت القليل جدا وحاولت أن أعرف عن طريقه الكثير جدا . .

وفي كتابى ((حول العالم فى ٢٠٠ يوم)) لم أستطع أن أكتب الكثير عن أمريكا ، لنفس السبب . . فالبلاد واسعة باهرة . . شديدة الحركة غالية التكاليف . . والانسان يشعر بالضالة والفقر والذنب . ويحس لأول مرة أنه اذا كان أبونا آدم قد أخطأ فنزل من الجنة الى الأرض ، فانا قد أخطأت لأننى نزلت الى أرض أمريكا . . وقد كانت عقوبة آدم أن يترك الجنة ويأتى الى الأرض ، وكانت عقوبتى أن أأتى الى هذه الجنة المجنونة . . وأقوم فيها بدور ((الحية)) المريانة التى تزحف على بطنها بينما يركب الناس السيارات والطائرات التى تزحف على الأرض او على السحاب . .

ولذلك أمسكت قلمي عن الكتابة عن أمريكا . .

ولم أستطع أن أمسك نفسى عن الكتابة عن روسيا التى استطاعت عمل الكثير لشعبها . وللشعوب الأخرى . وأقامت أعظم تجربة فى تاريخ الانسان فاذابت القوميات واللغات والأديان والنظريات فى صيغة عمل واحد من أجل هدف واحد . . الأسلوب شاق والهدف بعيد . . والتعب كثير والعرق أكثر . . ومن الصعب أن يعرف أكثر الناس علما بوظائف الأعضاء الفرق بين العرق والدموع . . ولكن كل ذلك هان ويهون من أجل رفع الظلم والجوع والمرض والجهل عن مئات الملايين فى روسيا وفى غيرها . .

وفى نفس الوقت أحسست مرة أخرى كما يحس أى انسان يمشى على البلاج الى جوار البحر . . أنه ينحنى بين حين وآخر ويأثث حجرا . . ثم يرميه فى البحر . . أو يرمى البحر بحجر . . وفى هذا الكتاب الكثير من الأحجار — انها عادة الذين يمشون على شواطئ البحار !

أحذية أكثر برودة من الجليد

طبعاً لن يذوب الجليد في يوم وليلة وترتفع درجة الحرارة من تحت الصفر واحدة أو اثنتين وثلاثاً وعشراً لكي يصبح الجو مناسباً لزيارتي لموسكو . . لو كانوا يعرفون لفعلوا . ولذلك كان لا بد من الملابس الثقيلة والأحذاء الذي أدوس به على الجليد دون أن أشعر به . ذهبت الى دكان في شارع قصر النيل . .

سألني : الي أين ؟ قلت : الى موسكو . .

ومع اهتزاز رأس البائع عرفت أنه يعرف الأحذاء المناسب للمكان المناسب ، ولا بد أن هناك أحذية خاصة بروسيا وأحذية خاصة بالبلاد الباردة الأخرى . ووضعت رجلي في الأحذاء . وتفاهمنا على أنه مناسب . ودفعته وخرجت لأسمعه يودعني قائلاً : مع السلامة يا كابتن !

أذن أكثر زبائنه من الرياضيين فهل أنا رياضي . يبدو ذلك .

ودارت الفكرة في رأسي وبرأسي : انني أبدو رياضياً . ياريت . فأنا لا أمارس أية رياضة . ولكن أي نوع من الرياضيين ، فالفكرة ما تزال تلعب برأسي . هل أنا لاعب كرة ، ملاكم ، مصارع . هل أنا من حاملي الأثقال . أسئلة لم تعجبني لأن الإجابة لا تعجبني أيضاً . . فاستقطتها من رأسي ودمست عليها بالأحذاء الجديد ، دون أن أشعر بها .

ولم يبق أمامي غير السفر الى موسكو .

وسألت المعارفين بضرورة السفر ، ولماذا أسافر قبل الكريسماس ورأس السنة ؟

وجاءت الاجابة تؤكد نفاهة السؤال : كيف تقول ذلك . أنت لا تعرف
ما الذى يعمله الروس فى الكريسماس ورأس السنة . طبعاً هذه أول مرة
تسافر الى موسكو ؟

قلت : ليست أول مرة . فقد رأيت الكريسماس فى موسكو . وكان عادياً
ككل الأعياد ، وكل بلاد الله وكل خلق الله .

— ولكن رأس السنة شئ آخر . . ثم جاءت غمرة بالعين وفرصة باليد
ان المعنى جديد . وان الذى سوف يكون فى رأس السنة لم يخطر على بال .
وأن رأس السنة هو « رقص » السنة . . واذا أحببت فهو « رجب السنة »
وكل سنوات العمر . .

— ولكن لماذا هذه السنة بالذات ؟

لقد كانت السنة الماضية : هى سنة لينين — مرور مائة عام على مولده . .
كما كانت سنة ١٩٦٧ ذكرى مرور خمسين عاماً على الثورة السوفيتية أيضاً
. . ولكن لا بد أن هناك أسباباً خاصة لا أعرفها ، سوف تجعل رأس السنة
مهرجاناً عالمياً . ولا يبقى الا أن تذهب وترى وتذوق جمال الدنيا ، وحلاوة
الأعياد الاشتراكية الكبرى . .

اذن لا داعى لأن تمضى الكريسماس فى موسكو .

وكان الجواب : لا داعى . .

وقلت : ولا داعى لأن أكون هناك فى رأس السنة .

وقيل : مستحيل .

وجاءنى مدير وكالة نوفوستى السوفيتية للانباء وهو رجل رقيق مرح . .
أو على الأقل ضاحك الوجه . . وحديثه مشجع ويجعلك تتمنى : لو كان الروس
كلهم كذلك .

وحاولت أن أعرف منه ان كانت هناك أية مناسبة كبرى للسفر فى رأس
السنة . وكان جوابه : لا بد أن لديهم أسباباً قوية لدعوتك فى هذا الوقت .
اذن . . فهو لا يعرف مثلنا . ولكنه لا يستبعد أن تكون هناك أسباب خاصة .
ووجدت فى داخلى رغبة قوية لمقاومة هذه الرحلة كلها . ولكن ليست
عندى أسباب واضحة . وأخيراً عرفت أننى أحاول أن أخرج على الخط
الحديدى الذى سارت عليه نظرية غريبة : ففى سنة ١٩٣٠ أمضيت رأس
السنة بين المنصورة وأسيوط . . وفى سنة ١٩٤٠ كنت فى سيارة بين
المنصورة والزقازيق . . وفى رأس سنة ١٩٥٠ كنت فى لندن وفى رأس سنة
١٩٦٠ كنت فى نيويورك . . ومطلوب أن أكون فى رأس سنة ١٩٧٠ فى
موسكو . .

وحاولت . . فلم أفلح . .

وبدأت الرحلة من البيت . . وقبل أن أنزل الى الشارع ارتديت ملابس مضاعفة . . وجوارب مزدوجة . وحذاء مبطن بالصوف . وبدلة — فأنا لا ألبس البدلة عادة الا مرغما — والبالطو والكوفية والطاقيّة المصنوعة من الفرو وبدأت أشعر بالبرد . مع أن هذه ليست الرحلة الأولى في حياتي الى الخارج . ربما كانت الأربعين . ولكنى أنسى في كل مرة أنني سافرت . وأننى حزمت امتعتي . وأننى مرضت أو أصابنى البرد . . والحمد لله أنني أنسى . ولو تذكرت كل ما أصابنى ما لبست ولا تحركت . فحمدا لله على نعمة النسيان .

وتأخرت الطائرة السوفيتية عن موعد قيامها ! عجيبة ؟ !

قال بعض الناس : لا بد أن شيئا خارقا للعادة قد حدث كأن يكون مطار موسكو قد غطاه الجليد . . أو أن موسكو كلها قد اختفت .

قال آخرون : ان الروس مجاملون الى أبعد حد . . لا بد أن شركة أيرولفاوت السوفيتية تجامل شركة الطيران العربية وهى لذلك تتأخر مثلها . قال أناس أكثر واقعية : ان الروس « حنيليون » . ينشدون الكمال فى كل شيء . . فلو أحس الطيار أن فى طيارته خلا ، فلن يبرح أرض المطار . وسوف ترون عندما تقف الطائرة على الممر . . سيجرب الطيار محركات الطائرة ويهزها ويثيرها كأنه يريد أن يخرجها عن عقلها . . وبعد ذلك ينطلق ويرتفع بها .

وعرفنا فيما بعد أن السبب خال فى جهاز الراديو . وتم اصلاحه وجاء الأمر من موسكو بضرورة السفر . وارتفعت الطائرة بستين روسيا وخمسة أو ستة من المصريين . وجاء الصوت المألوف للمضيفة . . لا بد أنه يعلن أن الكابتن فلاديمير يرحب بنا على متن الطائرة الأليوشن ٦٢ وأن الطائرة سوف ترتفع الى عشرين ألف قدم وأنها ستنتطلق بسرعة ٨٥٠ كيلو متر فى الساعة . . وأن درجة الحرارة فى موسكو الآن هى عشر درجات ولكنها غدا سوف تكون ثمانى درجات تحت الصفر . وأن المشروبات سوف تقدم لنا حالا .

وجاءت المشروبات مياها معدنية وعصير فواكه .

وتهاشم بعض الناس : لا فودكا .

وقالت المضيفة : لا .

وقال غيرهم : لا كافيار .

وجاء رد المضيفة : لا . .

وأحسست أننا دخلنا الحدود السوفيتية بسرعة غريبة . . وكانت المضيفة متجهمة الوجه . هذا طبيعى . ولكن المسافرين السوفييت لم يتوقفوا عن الضحك . وعن الحكايات والنكت . بل ان بعضهم ذهب الى درجة التمثيل . وكانت النساء أكثرهم ضحكا وصراخا . . ونحن — طبعا — كالأطرش فى

الزفة . . فلا أعرف ولا كلمة سوفيتية . وازداد سخطى على مدير المكتب الثقافى السوفيتى الذى وعدنى منذ ثلاث سنوات بمدرس خاص . ولم يف بهذا الوعد !

ولو شأئت هذه المضيئة أن تضحك لعرضت عليها موضوعات مضحكة . ولكن يبدو أن النكشيرة جزء من الملابس الرسمية ، أو من المسئولية . ولو نظرت المضيئة الى وجوه المسافرين لضحكت ولكنها لا تفعل ذلك . . بيننا من ارتدى طرطورا أحمر . انه لم يرد أن يكون مضحكا . . وانما لم يجد أمامه شيئا يدفع رأسه غير هذا الطرطور . ولو ضربت برجلها فى احدى الحقائق لتكسر عدد من البيض . . ولتثاثر البرتقال . . ولو مدت يدها لتفك الكوفية من عنق أحد المسافرين لسقطت من الرعب . فقد علق فى عنقه حجابا من جلد الماعز !

حاول بعضنا أن يكون لطيفا مع المضيئة ، لعلها أن تكون كذلك فقال : الدنيا برد . . فأين الفودكا ؟ وكان ردها : بعد لحظات ستكون الطائرة دافئة !

ومعنى ذلك أنه لا داعى للفودكا . ولا شئ بعد ذلك غير الشعور بالاطمئنان الى قوة الطائرة وسلامة السفر . والى أنه بعد ساعتين أو ثلاث سنكون فى موسكو . وهذا هو الذى يهم . وفى مطار موسكو سوف ينتظرنى — طبعا — مندوب من اتحاد الكتاب . سيقول لى : حمد الله على السلامة . فأقول : الله يسلمك .

— وهل كانت الرحلة مريحة ؟

— للغاية .

— لم تشعر بأى تعب ؟

— ولا بأى ارتياح .

— كيف ؟

استطاعت الطائرة أن تضعنى بالضبط فى منطقة انعدام الوزن . . فى حالة نشوى بلا خمر . . مثل جاجارين .

— أوه . . جاجارين . . اذن كانت رحلة مريحة . .

— جدا . .

— اذن اسمح لى باسم اتحاد الكتاب السوفيت أن أضع هذا الاكليل من الورد حول عنقك . .

— أشكرك . . وأشكر الاتحاد . . ويؤسفنى أننى لم أحضر معى وردا من مصر . . فالورد عندنا أكثر وأجمل .

— اننا نعرف ذلك . .

ومن المؤكد أنه سوف يقول : وتحب تناول عشاءك أين ؟ الآن ؟ فى المطار ؟ أو فى الفندق .

فأقول : فى الفندق بعد أن أكون قد غيرت .

— أعرف .. تفضل .. السخ ..

ووصلت الطائرة الى مطار موسكو ..

وخرجت من الباب الى السلم وفقدت الاحساس بكل ما ظهر من وجهى .
البرودة شديدة جدا .. الظلام تام .. الهواء .. لا هواء .. انه حائط
اصم من الجليد .. اصطدمت به والتصقت به شفتاى وجفناى . وتسلمات
من باب الى باب أكثر دفئا .. الى طابور .. ومن طابور الى طابور ..
الى صالة الجمرى .. كل شىء يتم فيها فى هدوء وبنظام .. لا أحد يتكلم .
كل واحد قدم أوراقه وكل مسئول — أو مسئولة — يقاب فى الأوراق ويرفع
رأسه ويتفحص الوجوه ويختتم .

وانفتحت حقائب المواطنين السوفيت وامتدت الأيدي تطلب فى كل شىء .
فى كل الأدوات والثمار .. فروسيا ننتج كل الأدوات ولا بد من حماية
منتجاتها .. وحماية مزروعاتها أيضا وجاء دورى ورفعت حقائى . ولكن
موظف الجمرى أمسك جواز السفر ونظر فى تصريح الدخول .. وأشار بيده
وقال بالانجليزية : لا .. لا !

واسترحت الى هذا الاستنكار . فليس من الضرورى أن أقدم حقائى
ولا أن أفتحها . انها معاملة خاصة ولا بد أننا نعامل ضيوفنا السوفيت كذلك
.. شكرا ..

ولاحظت أن رجل الجمرى ظريف أو حريص على أن يكون كذلك . فليس
من السهل على النفس أن يقبل الانسان مثل هذا العمل السخيف دون أن
يؤكد للناس أنه مرغم عليه .. تصور أنك تقف أمام كل انسان وتطلب اليه
أن يفتح حقائبه .. وأن تطلب فى ملبسه .. وأن تخرج المقص والسكين
والعروسة .. والبرتقال والورد .. وأن تسأله لماذا اشترى ذلك ..
ولا بد أن يدفع جمركا على ذلك .. من الصعب أن تلخبط حقائب الناس
ومشاعرهم وتكسفهم دون أن تنكسف أنت أيضا ..

وقد رأيت احترام السلطات لشخصى عندما رأيت الخجل والحرص على
وجه موظف الجمرى وأنا أقدم له حقائى .

أما الآن وبعد أن تمت الاجراءات كلها ، فقد انفتح الباب .. وأصبحت
خارج القيود الجمرية .. فى صالة طويلة عريضة .. باردة بعض الشىء
.. وكل انسان له وجهة محددة : الباب الخارجى .. الاوتوبيس .. أو
التاكسى ثم الى البيت .

والشوارع مظلمة باردة .. والثلج يتساقط فى كل مكان .. وأكثر برودة
من الجو : اننى لم أجد أحدا فى استقبالى . لا من اتحاد الكتاب السوفيت .

ولا من السفارة . وبسرعة قلت لنفسي : ولماذا السفارة ؟ فعلا لماذا السفارة . . فلا شأن لها بى ولا بغيرى . . فأنا لا أعرف أحدا . . ولو عرفت . . فأنا لم أخبره بسفرى . اذن أين مندوب اتحاد الكتاب ؟

وكانت الساعة قد جاوزت منتصف الليل . . أى فى الساعات الأولى من يوم ٣٠ ديسمبر . . وهو اليوم السابق على رأس السنة . . ولا بد أنه أجازة . . وهو بالفعل كذلك فى كل الدنيا . . وفى روسيا طبعاً . . ما العمل ؟ هذا السؤال وجهه بعض الشبان الى الكاتب الكبير جوركى فكان جوابه : أن تعملوا !

الجواب مقنع . ولكن ان أعمل لا بد أن يكون العمل مغناه أن اظل أمشى فى هذا المدخل الواسع ذهاباً وإياباً حتى الصباح . وأن أجلس من حين الى آخر . . وأن أنام على أحد المقاعد حتى الصباح . . أو أن أذهب الى واحدة من عشرات المضيفات وأسأل : أنا مدعو من اتحاد الكتاب السوفيت ؟ ولم أجد أحداً فى انتظارى فما رأيك ؟

وكان رأيها أنه لا يمكن الاتصال بأحد . . ولا بالسفارة وأنه من الأفضل أن أبيت فى فندق المطار . . انتهى الكلام . . وانشغلت هى بأشياء أخرى . . وهذا طبيعى .

هذا ما فهمته . ولا أعرف ان كان هذا هو الذى تقصده هى أيضاً فالمسافة بيننا واسعة جداً ولا نقطعها الا على أكتاف عدد قليل من الكلمات الانجليزية من جانبى والروسية من جانبها .

وجاء الاوتوبيس وبدون كلام ، واقترب السائق وحمل الحقائق . . وبعد عشرين كيلو متر ، وقف أمام أحد الفنادق . وأشار بالنزول . واختفى . وظهرت وجوه مثابهة . . واقتربت وسألت : ما العمل ؟

وكان الرد عملياً : ان كانت معك فلوسك نفى استطاعتك أن تبیت حتى الصباح . . عملات روسية ؟

— لا عملات روسية .

— اذن . . اذهب وغيرها فى فندق يبعد عنا كيلو متر .

— كيف ؟

— بالتاكسى . .

— وما الذى أدفعه للتاكسى ؟

— تصرف ؟

وبدا كل شىء غير معقول ولا منطقى . فلا توجد عملات روسية . ولا يمكن تغييرها ، الا اذا وجدت التاكسى ، ولو وجدته فلا أجد ما أدفعه له . . ولا بد أن أجد مكاناً أبيت فيه حتى الصباح . . وأصبح الموقف مضحكاً . . وأمام

قوة الضحك الذى يهزنا جميعا ويجعلنا سخفاء .. اقترحت احدى المضيفات ان نبيت حتى الصباح .. وان نقرضنا بعض المال على أن ندفعه عندما نصحو .. أى بعد أن نكون قد غيرنا العملات الصعبة التى معنا الى روبلات .. أو بعد أن نكون قد اتصلنا بأحد المصريين فى موسكو .. أو حتى باتحاد الكتاب .

وقالت الفتاة : هذه الروبلات لكى تتناولوا بها طعام الافطار — وكنا ثلاثة !

وفى الصباح المبكر ارتديت ملابسى .. ولم أجد مكانا أشرب فيه كوبا من الشاي .. فالمطعم لن يفتح بابه الا فى الثامنة .. والساعة ما تزال السادسة .

وعدت الى الغرفة .. وقال واحد : كانت زوجتى عاقلة .. انها باحساسها الفطرى أدركت اننى سأحتاج الى طعام .. حاولت أن أقنعها الا تجعلنى نكتة موسكو .. ولكنها أصرت .. وتلهمت على معرفة قرار الزوجة ، لقد أعطته أكثر من خمسين بيضة بمنتهى العقل . وأعظم انتصار على الجوع وعلى مواعيد العمل فى مطاعم موسكو .

وجاء البيض .. كأنه حبات اللؤلؤ ..

وعاد البيض كأنه قطع من الحجارة .. لقد نسيت الزوجة أن تسلقه !

أشياء كثيرة حراء .. إيد الشاي

كان لا بد أن نتصل بالسفارة ..

وأنا أعرف أن أبغض الحلال إلى المواطنين هو الاتصال بأية سفارة وإلى رجال السفارة أن يتصل بهم أحد المواطنين أيضا .. فهناك عشرات القنصص والنوادر والفواجع ..

من عشرين سنة سافرت إلى غينيا واضطرت إلى أن أدق أبواب السفارة وكانت الساعة مبكرة ، فالجائع لا ينام وكانت المشكلة أن أستاذنا جامعيًا سرق أمواله ، ورفض أية مساعدة منا ، حاولنا ولكنه رفض ، ولم نفهم منه ما الذي يريده بالضبط من السفارة .. أو من « الجماعة دول » .. وجلسنا في السفارة بعض الوقت ، وجاء أحد أعضاء السفارة ، وقدمنا أنفسنا ، وكان أستاذنا الجامعي وقال أنه يريد أن يبيع الباطون ويرهنه أو يحصل على سلفة بضمان !

وكل التفاصيل بعد ذلك كانت محزنة لنا جميعا !

وفي مرسيليا ذهبت مع أحد ركاب الباخرة الفرنسية « الماريشال جوفر » إلى القنصل .. وكان الراكب مصريًا قد جاء من القاهرة ومعه حقيبة ليس فيها إلا قميص وماكينة حلاقة .. ويريد السفر إلى باريس فقط .. وكان حزننا على بلدنا عميقا !

والمواطن — عادة — لا يسأل أن كان القنصل عاجزا عن مساعدته .. أو أن كانت لديه أموال من الدولة لمساعدة المواطنين .. وما الذي يفعله القنصل إذا جاءه كل يوم مواطن نصاب يروى قصصا أغرب وأعجب .. ولكن الذي حدث في القنصلية مهين للإنسانية نفسها !

أما في لندن فهناك عشرات بل مئات من المرضى دخلوا المستشفيات ولم يدفعوا الحساب .. وعلى السفارة أن تدفع مئات الألوف من الجنيهات ! وفي طوكيو رأيت مواطنا مصريا قد هاجر الى اليابان وكان اللقاء صدفة سألته : وما الذى عمله هنا ؟ قال : كنت أعمل ولكن السفارة أوقفت حالى وبيدت مالى ..

وسألته ، وعندى استعداد لأن أقبل وجهة نظره ، فالتاس في الخارج يشعرون أن السفارة يجب أن تكون في خدمتهم لأن أعمال السفارات تبدأ عندما يهبط أى مواطن الى دولة أجنبية .. هكذا يتصور الناس فقلت له : وماذا صنع بك « الناس دول » ؟ ..

وعندما ذهبت الى السفارة عرفت أن هذا الرجل قد نصب على عدد من الشركات اليابانية ، وعرفت أن التاجر اليابانى قد يبدو ساذجا طيبا لكنه ليس كذلك ، وانما هذه السذاجة تبدو عادة في أدبه ورقته وفي أن عينيه تبدوان سارحتين ، ولكن الحقيقة أن عينيه اتجهت أحدهما الى الباب والأخرى الى يد المشتري .. والأدب لا يدل على عبط وانما يدل على أن التاجر اليابانى بعد أن رأى وجه الزبون قد تأمل بنظرونه وحذاءه وأصابع يديه .. ومن العجب أن البوليس اليابانى قد اهتدى الى معرفة هذا النصاب المصرى عن طريق خاتم عليه تمثال لأبى الهول من قطعتين ..

والمصرى الوحيد الذى قابلته في استراليا روى لى قصة عن السفير المصرى الذى ضربه بالجزمة ، وتضايقت جدا ، وقررت أن .. — وقبل أن أكمل هذه العبارة وهذا القرار تنبعت الى أنه لم تكن لنا سفارة في استراليا ! كانت هذه الحوادث في رأسى وأنا أدير قرص التليفون أطلب السفارة وأطلب الوزير وفاء حجازى ، لا أعرفه ولكنى سمعت ما شجعنى على الاتصال به ، وجاءت عبارته دافئة ، وجاءت السيارة ومعها مبلغ اثنا عشر روبلا تكاليف الافطار والاقامة في فندق المطار وهذا اقرار منى بذلك !

وبسرعة انتقلنا من المطار الى السفارة لنواجه أول سوء فهم يجب أن نزيله ، فاتحاد الكتاب السوفيت لم يتلق من القاهرة برقية تقول اننا في طريقنا الى موسكو .. واننا أجلنا موعد سفرنا أسبوعا وجاء مندوب من الاتحاد وجاء مترجم ، واعتذر لنا الرجلان عن غلطة لم يرتكبها أحد وانما ارتكبتها القاهرة ، وليس المعقول أن تقوم موسكو بالتخمين ..

وارتفعت الحرارة في كل مكان ، وأصبحت للشوارع ألوان غير اللون الأبيض الذى كان كالحا موجعا للعين ، أصبح هذا البياض جميلا ، وأصبح الجليد ، كما يقول الشاعر بوشكين ، هو الضوء السحري الذى يذكرنا بالشباب . وظهرت البيوت . والناس . كل شىء قد دبث فيه الحياة ، ونحن أيضا ، وأصبح الطريق الى الفندق قصيرا ، ودخلت في الفندق ، في قلب الدنيا ، ففى داخل الفندق ناس من كل لون ودين وقارة ، وليس في امكانك أن تعرف ما هى بالضبط معالم المواطن السوفيتى ؟ صعب .. لأن الاتحاد

السوفييتي يضم خمس عشرة جمهورية ومئات القوميات واللغات . . ومن الممكن — وقد حدث — أن يجيء أي إنسان ويتحدث اليك بالروسية وتندهش؛ ولكن لو فكرت قليلا تجد أنه لا داعي للدهشة ففي روسيا أناس في لونك ولون شمعك وطولك ولون بشرتك ويحملون في الداخلين والداخلات والداخلات أكثر . . !

الفندق اسمه « روسيا » . . والروس ينطقون هذه الكلمة بحذف الواو . . وهو أجمل وأكبر فنادق الاتحاد السوفييتي ، أكثر من أربعة آلاف غرفة ومائة مصعد . . وعشرات من المطاعم ، وكل شيء هنا كبير واسع ضخم . . الشوارع والعمارات وأرقام السيارات ، واللون الأحمر غالب على كل شيء . . المباني والملابس والإعلام واللافتات . . ومن النافذة أرى الكرملين . . وأرى الكنائس الذهبية القباب . . وأول ما يخطر على بالك : ولماذا الكنائس ؟ والجواب : والمساجد أيضا لقد أبقي الروس على كل شيء ، على ما كان عليه ، وأجمل ، وإلى جوار الماضي أقاموا المستقبل : لامع رائع . . أن السفر إلى روسيا هو سفر إلى المستقبل ، إلى مستقبل الإنسانية كلها . . وتساءل ولماذا كل هذه المباني القديمة ؟

ويكون الجواب : لأنها جزء من تاريخ الشعب ودمعه ودمه ، ولأنه يجب أن يعرف كيف كان ثم كيف أصبح . . وكيف من الممكن أن يكون أحسن ! . . . فإلى جوار هذه التحف القديمة توجد تحف حديثة : توجد مسارح ومتاحف ومطارات ومصانع وجامعات أما مسارح موسكو ولنتجراد فلا يمكن مقارنتها بأية مسارح في أوروبا كلها أو في أمريكا ولكن يمكن مقارنة مسارح المدن الأخرى بالمسارح الأوروبية ولا يغيب عن عيني ، وعن دمع عيني مسرح الأوبرا في القاهرة الذي ما نزال نقرا عليه حرفي : خ . ت — أي الخديو توفيق — أي أنه قديم جدا أو مسرح الجمهورية ، بضراحة أيها السادة : أنها تصلح لأشياء أخرى يعز على أن أسميها ، فلا أضاعة ، ولا مقاعد ، ولا مداخل ، ولا مخارج ، ولا مطاعم ولا دورات مياه ولا مسارح أيضا . . انني أظلم مسرح مركز بخاري الصغير إذا قارنته بمسرح الأوبرا . . ولا كيف هزنتي قائدة الأوركسترا وهي سيدة عندما رأيتها وأحسست اقتدارها على التوجيه . .

وهذه المسارح العجيبة تجعلك تحس أن هناك خمسة أشياء في كل مدينة روسية تبدأ بحرف الميم — في لغتنا طيعا : مدرسة ومسرح ومتحف لينين ومصنع ومطار . . بل عشرات المدارس والمصانع وأكثر من مسرح وأكثر من متحف ، بل في بعض الأحيان جامعة . .

ما نزال في فندق روسيا: زحام في كل مكان . . والمصاعد هي لعبة النزلاء والأجانب ، فالمصعد يتسع لأحد عشر شخصا ، ولكن في بعض الأحيان تكون الحمولة أكبر من ذلك ، فأكثرنا لا يعرف اللغة الروسية المكتوبة

على المصاعد ،وهنا ينطلق جرس ينبهنا الى ذلك ، وقد عرف الناس هذه اللعبة .. فيخرج اثنان لمدة ثانية واحدة ثم يعودان .. وهنا يرتفع المصعد .. هناك أيضا من لا يقدر خطورة هذه اللعبة .. وهذا نوع من الذكاء الضار ويوجد مطعم عند طرفي كل طابق ، والفندق نفسه جزيرة مليئة بالناس من القارات الخمس ، نحن على مدى يوم واحد من رأس السنة ، اننا في موسم الاجازات ، ولا نزال في داخل الفندق لم نخرج بعد ، وان كنا من النافذة نرى الناس كالنحل وكالنمل ، يروحون ويجيئون في حيوية وقوة ، صحة .. منتهى الصحة ، ولا يسقط أحد على الثلج ، كما فعلت أكثر من مرة .. والفنادق الروسية كلها لا تعرف نظام تقديم الاكل في الغرف ، وانما عليك ان تذهب الى المطعم الكبير .. او الى أحد المطاعم على جانبي الفندق وأهم من ذلك ان تقف في الطابور ، فاذا ذهبت الى المطعم ، فمن الطبيعي ان يكون قد سبقك اليه آخرون .. ولا بد ان يقفوا في طابور فتمتلك سيدة واحدة من خدمة الجميع ، وسيدة واحدة هي التي تعد لك الشاي أو القهوة أو اللحم وهي التي تحاسبك انت والذى يليك ، سوف تتضايق أول الأمر ، انا فعلت ذلك ، وستهرب من الطابور لانك لم تعتد ان تقف في الطابور ، وستذهب الى مطعم آخر ستجد طابورا أقصر ، لا بد ان تقف .. لا بد من الطابور ، حتى لو احتج كل النزلاء على نظام الطابور فلا بد ان يقفوا في طابور مرة أخرى ! واذا قررت الا تقف في أى طابور ، فأنت لخر ، هذه هي طريقة الشعب الروسى في الحياة وقد استراح اليها قبل تشريفك ، ولا يذهب به الكرم الى درجة ان (يلخبط) نظام حياته من أجلك .. بعض الروس يقرأون في الصحف أثناء الموقوف في الطابور .. ولكن لن تجد أحدا يشكو أو يتململ لأنه لا توجد أية طريقة أخرى للحصول على أى شيء ، لكى تعمل يجب ان تقف في الطابور ! هذه هي القاعدة !

وفي فندق روسيا أكثر من صالون حلاقة .. صالون السيدات عليه زحام شديد السيدات يجلسن متجاورات ، السيدات خارج الصالون وداخل الصالون يصبغن شعرهن بالحناء — موضة سخيفة ! والاسطوانات من السيدات ، وعملية تصفيف الشعر وتجفيفه لا تستغرق وقتا طويلا ومن الممكن ان يطول الوقت اذا دفعت بقشيشا ، ان احدا لا يطلب البقشيش ولكنه لا يرفضه اذا أعطيته ، وليست الاسطوانات فقط من السيدات ولكن المهن الطبية والتدريس وكنس الشوارع .. وفي شوارع موسكو ، ومعظم المدن تجد النساء هن اللاتي ينقلن الجليد والرمال ويجعلنه على شكل اكوام حتى تجيء سيارات لا تهدأ ليلا ولا نهارا لحمل آثار الجليد .. ممكن جدا ان تجد فتاة كالقمر .. ولها شعر جميل وعينان رائعتان ..

ولا تكاد تنسحب بعينيك الى أسفل حتى تصطدم بالجاروف الذى في يديها وتقف وتتفرج عليها وتقول كلاما معناه : يا خبر لو جاءت هذه الفتاة الى مطار القاهرة لسقط عند قدميها كل المخرجين .. والفتاة تسمعك ولا تعرف

ما الذى ادهشك . . فهى لا تقوم بعمل يستنكره احد ، ولكن الذى فى رأسك وقلبك شىء آخر . . والمرأة هنا هى نصف المجتمع . . أو وسط المجتمع الذى انكسر من التعب ، أيها السادة : ان المرأة هنا تساوى الرجل فى حمل أعباء الحياة وتبقى الأعمال الشاقة للرجل فى المصانع والقتال والأعمال الفنية جدا . . !

وقد تغامز كل الروس ونحن فى الطائرة ت . ي . ١١١ فى طريقنا من طشقند الى موسكو ، فقد جاءت ثلاث سيدات ورحن يحصين عدد الركاب وأخطأن أربع مرات . . وقال رجل مبسوط شوية : ان الذين اخترعوا الطائرة من الرجال . . ولكن احدا لم يضحك لهذه النكتة . . فهذه التفرقة بين الرجال والنساء ليست موضوعا للمناقشة . . ولا تفوق الرجال عن النساء حقيقة مطلقة . . وكدت أقول لهذا الرجل : أنت أيضا شرقى ولكن لم أستطع ، فليس عنده استعداد لأن يخرج عن شعوره بأنه سخي ف وأن الناس قد ادركوا فى صمت أنه مخمور ! ولا بد أن يكون حديثى معه نوعا من المواساة له ، وهو يرفض هذه التعزية من جانبي ! . .

ما زلنا فى فندق روسيا . .

لا توجد فى الفندق مكتبة لبيع الكتب ، أما الصحف الاجنبية فهى ليست « طازة » والصور التذكارية مطبوعة بألوان رديئة وعلى ورق أكثر رداءة ، وبائعة الصحف تباع طوابع البريد وعندها زجاجة صمغ أيضا ، أنها طريقة عملية لتغطية أى نقص فى جمع طوابع البريد نفسها . وفى موسكو صحيفة عربية اسمها « أخبار موسكو » ما تزال تتحدث عن زيارة الوفد المصرى وعن السد العالى وعن سفينة القمر . .

ولو حاولت أن تحدد معالم الرجل أو المرأة الروسية فأنك ستجد صعوبة ، فأنت لا تعرف أى هؤلاء جميعا هو الروسى : هل الأبيض الأشقر أزرق العينين . . متوسط الطول والسمنة . . ربما ، ربما ، ولكن هذه الصفات يشترك فيها كثيرون من أبناء أوروبا أيضا ، اذن لا داعى لتحديد صفاته الجسمية . . العقلية أهم !

ولكن الشىء الذى يوجع العيون هو : عيون الروس . . واسعة لامعة جميلة . . واسعة وقوية عند الرجال وفاتنة عند النساء ، النظرة ثابتة والعين قادرة على مواجهة الريح وبياض الجليد ، ولا تملك أنت وكل الذين يلبسون النظارات ويعيشون يتزحلقون على مثل هذه الحروف الصغيرة فى ساعات الليل الصغيرة الا أن تقول وأنت جزين على غينيك : يا خسارة هذه العيون الحلوة علشان كنس الشوارع . . أنه عدل من نوع آخر ، أو ظلم من نوع آخر !

وفى داخل الفندق تجد أناسا يحملون الفاكهة والزجاجات والخبز . . ما الحكاية ؟ انهم أناس قرروا ان يأكلوا فى غرفهم ، والسبب طبعا ان المطاعم الصغيرة فى الفندق تقفل أبوابها عند العاشرة والنصف ، وكثيرا ما تحايلنا

على العاملات في المطاعم ولكن الحيل لم تنفع عادة فتذهب بعد خروجنا
من الأوبرا الى المطاعم الصغيرة ، وتقول للعاملة : شاي .. وترد عليك وهي
شديدة الإرهاق : قهوة فقط .. وتقول لها : بيض .. وترد عليك : تفاح
فقط .. وتقول لها : أبوس رجلك ! ..

وتعطيك يدها فقط !

ومن الممكن بعد ذلك أن تنفلق الى نصفين ، أحدهما يضحك على الآخر!
ويحدث كثيرا من يقول لك : حضرتك من مصر ؟
وتقول له : و حضرتك ؟

— من اليمن الشعبية ..

— أهلا وسهلا .. طالب ؟

— أدرس الطب العسكري ..

— وهذه مرافقة لك ..

— لا .. صديقة ..

— آه .. اذن أنت تجاوزت مشكلة اللغة .

— الفضل لها ! ..

أذكر اننى قابلت ابن الممثل الكوميدي كامل أنور .. وهو طالب مجتهد
جدا .. متدين .. لا يشرب .. ويصلى .. ومصر على ذلك ..

قال لى : انه وجد نفسه أمام معادلة صعبة .. فلكى يتعلم اللغة
الروسية عليه أن يختار بين الكتاب وبين فتاة روسية .. فاختار الأصعب :
الكتاب !

وتفوق على الذين لا يعرفون الا المجاملات او المعاكسات .. والا الاشياء
الصغيرة .. اى كل ما يدور بين رجل وامرأة !

وشبان آخرون من كل البلاد العربية .. ومن الأراضي المحتلة .. هذا
يدرس .. هذا صدر ضده حكم .. هذا صحفي .. هذا مدرس .. وذاك
في طريقه الى بلاد أخرى .. وشاعر من الهند .. وآخر من باكستان ..
وتسأل الناس : الواحد يشوف ماذا هنا ؟

ويكون الرد : كل ما تريد ..

— مثلا ..

— أنت ماذا تريد أن ترى ؟

— أشوف البولشوى ..

— ممكن .. قل للمرافقة تحجز لك ..

— أشوف الكرملين .. أشوف قبر لينين ..

— اتفق معها وهي تدبر ذلك .. لكم هنا معاملة خاصة !

وفي استطاعة المرافقة أن تدوس القانون لأنك ضيف .. ففى بعض
الاحيان تقول : اننا وفد .. وفى هذه الحالة فى استطاعتك أن تتقدم الصفوف
.. وهناك أيام خاصة للأجانب فى زيارات لبعض الأماكن الاثرية ..

كنا نقف أمام سلم طائرة ضخمة .. الدنيا برودة جدا .. تحت الصفر
بثمانى درجات .. أنت لا يمكن أن تعرف معنى الصفر إلا إذا وضعت رأسك
في ثلاجة .. أو تمددت على مجموعة من ألواح الثلج عاريا .. والطابور
طويل .. ويزداد طولاً والطائرات حولنا تصرخ وتنفخ والهواء يهرب منها
ويصفعنا ويلسعنا .. والروس حولنا .. لا حاجة .. لا شكوى .. لا ضيق
.. لا برد .. وأنا أرفع قدما واضع قدما وأتلمس أحشائي ، الى اليسار :
المصران الغليظ .. الى اليمين .. لا أعرف ما الذى الى اليمين سوف أبحث
في دائرة المعارف عن هذا الذى يتقلب في الجانب الايمن ويتكور في الظل ..
والروس حولنا كأنهم قطع غيار لهذه الطائرات .. واتجهت الى المرافقة ..
في عرضك .. سأموت من البرد ..

وصعدت الى الطائرة .. وعرفت فيما بعد انها قالت للكابتن : انه اجنبى
.. وعضو في وفد رسمى ويكاد يسقط من الجليد فوق الجليد ويبدو ان
بعض الروس لم يعجبه هذا الاستثناء .. فسرت مهمة .. ولكن حدث
صمت عندما عرفوا اننى ضيف على بلادهم ..

وفي الليل خرجت وفي يدي براد شاي .. أبحث عن المطعم لأحصل على
ماء ساخن .. أما الشاي فكان عندي والشكر أيضا .. ومنظرك وانت
تحمل البراد والأكواب لا يصدم أحدا ، ولا يضيق به أحد .. لأنه ما الذى
يمكن أن يفعله أى إنسان اذا صبحا من نومه قبل أن يفتح المطعم في الثامنة
صباحا — فأنا من الطيور المبكرة ، أصبحو في الخامسة ولا أجد مكانا أذهب
إليه .. لا مكان .. كل شيء مغلوق حتى الثامنة .. واذا أردت أن تتحقق
بنفسك فاخرج من الفندق .. واذا استطعت فامش على قدميك .. واذا
كانت لك سيارة فاركبها ولكن الى أين .. لا بد أن تعود الى الفندق وتبقى في
غرفتك حتى الثامنة .. ومن حقك طبعاً أن تتلاقى عباد الله النائمين من
المصريين وتتصل بهم تليفونيا وتسألهم عن أخبار مصر .. وهو عذر وجيه
.. ولكن ما الذى يمكن أن تقول له في ثلاث ساعات لاتأس كلهم كانوا نياما ،
ثم نسيت أن تعتذر لهم !

أما ما الذى يأكله الروس في الصباح : الى جانب الشاي الاخضر الذى
لا يعجبك فأنهم يأكلون اللحوم : السمك أو الكبد أو الدجاج والخبز والزبدة
.. وهناك شيء لذيذ جدا وهو اللبن الزبادى .. انهم يشربونه كثيرا ..
أما الشاي الاخضر فقد كان احدى مشكلاتى .. فلم أفلح في خلال اقامتى
في روسيا أن أعلم الاتحاد السوفيتى كيف يصنع الشاي لا أنا فلتحت ، ولا هم
عندهم أى استعداد !!

واشتريت علبة الشاي ، وفي كل مرة يقدمون لى الشاي أضع القليل
من العلبة .. وكان هذا هو أحد الحلول الأخيرة التى اهتمت اليها .. ولكن
في كل مكان يدور هذا الحوار الذى لا معنى له لانه بلا نتيجة عادة ..

— أريد شايًا ثقيلًا ..

— الشاي ..

— ويكون الشاي أخضر ..

— أريده ثقيلًا !

— لا أفهم !

وتجىء المرافقة وتشرح معنى الشاي الثقيل ، ويكون الرد عادة .. هذا هو الشاي !

يعنى لا يوجد عندنا غير هذا .. لأننا نشربه هكذا !

في القطار السريع الناعم الدافئ الى ليننجراد ، كانت الساعة السابعة ذهبت الى الكمسارية وهي سيدة جميلة : أريد الشاي من فضلك ..

— دقيقة واحدة ..

وبعد دقيقة كان الشاي ساخنًا أخضر ، وقلت : الا يمكن أن يكون أثقل ..

— لا أفهم ..

هنا فقط لا أعرف ما الذي أضيفه .. ذهبت الى المرافقة : أرجوك فهميها حكاية الشاي الاسود ؟

حاولت الكمسارية أن تجعل الشاي اقرب الى الاحمرار .. ولكن الشاي جاء مكسوفًا أصفر اللون !

أما في مطعم فندق لننجراد ، فقد قالت إحدى المضيفات وباللغة الانجليزية : أسمع .. اذهب وتكلم مع السيدة المسئولة عن الشاي وكانت فرصة لأرى السيدة مديرة شؤون الشاي ، وقالت لى : أن الشاي هنا مضغوط في أوزان خاصة وأنت تأخذ نصيبك ، فإذا أردت مزيدًا فادفع الثمن مضاعفًا ..

— لا مانع طبعًا ..

وجاء الشاي ثقيلًا جدًا ، ولم أستطع أن أشربه ، وطلبت أن يكون أخف وقلت لى المضيئة : اذهب الى المدير ..

وكانت فرصة لأرى السيدة المدير وكيف تدير ، ودخلت مكتبها ووجدت أمامها عددًا من الموظفين والاطباق والشوك والسكاكين والفواتير ، فقلت لها : صباح الخير .. وخرجت ولكنها لم تتشأن أن ترد ..

وكان في نيتي أن أسألها : لماذا تحبون اللون الاحمر في كل شيء .. الا في الشاي ..

.. وما نزال في فندق روسيا .. أيامًا أخرى مع الشاي الأخضر !

الصديق الروسى .. ذلك المجهول

صورة الرجل الروسى : ضخمة الجثة .. جاد صارم .. دائم التكشير ..
لا يفهم النكتة .. لا يعرف الحب .. آلة تدوير ما لا نهاية له من الآلات ..
كل شيء فى فمه : جماهير .. شعب .. عمال .. فلاحون .. حرب ..
وحرب .. ثم حرب !

هذه الصورة ظالمة .. ونحن فى حاجة الى وقت لكى نضع الصورة
الحقيقية لهذا الشعب العظيم الصديق ..

اما أن الروسى ضخمة الجثة فهو اقرب الى الأمريكى ويحب الأكل والشرب
مثله تماما !

واما أنه جاد .. فهو فعلا جاد .. يأخذ الحياة بفهم وعلم ونظام .. ولا
يمكن أن يتطور شعب الا اذا سار على قواعد من العلم .. وارتفع على
سلالم من التجربة .. نحو مستقبل من العدل والامان للأغلبية الساحقة ..
وروسيا كانت خرابا بعد الحرب العالمية الثانية .. عرف أهلها
الجوع .. ولم يعرفوا الهوان .. عرفوا العراء الميت ، ولم تمت أراذلهم ،
واصرارهم على النصر ..

اما أن الروس دائمو التكشير ، فنحن أيضا دائمو الحزن .. انظر
الى أى واحد منا وقد جلس وحده .. انظر الى أية مصرية وقد جلست
بمفردها أو وقفت وحدها ، ستجدها فى غاية الحزن والاسى ونقول فى تفسير
ذلك : انه التاريخ الذى كان ثقيلًا على وجداننا منذ أقدم العصور ..
فالحزن تاريخى ونحن نحمل بكاء أجداننا فى عيوننا ولا يزال هذا الحزن
حيا فى أغانينا وفى حفاوتنا بالموت والموتى .. والبكاء على الماضى .. والذى
يقول بعد ذلك : اننا شعب حزين يظلمنا .. فنحن نتذوق النكتة ونصنعها ..

ونصدرها .. وكذلك الروس يضحكون بصورة مدوية .. صورة تدهشك ..
ففى الطائرة العائدة من موسكو كان بها وفد سياحى من أوكرانيا لم
يتوقف رجاله ونساؤه عن الضحك .. والنساء يضحكن أكثر وبصورة
صارخة !

وفى روسيا ينسبون النكت الى اذاعة وهمية اسمها : راديو أرمينيا فيقول
الواحد منهم : سمعت آخر نكتة .. لقد أذاعها راديو أرمينيا .. وراديو
أرمينيا هو الاسم الجديد لجحا السوفيتى ..

وهذه النكت تقال على المسرح الرسمى فى موسكو ..
ومن النكت : أن نجارا راح يدق المسامير فى لوح خشبى .. ولم يكد يصل
الى نهاية اللوح حتى جاء نجار آخر يخلع نفس المسامير .. ووقف الرجلان
يتساءلان ..

قال الأول : لماذا خلعت هذه المسامير ؟
قال الثانى : عندى أمر من اللجنة الثقافية بخلعها !
ثم أخرج ورقة من جيبه ..
وقال الأول : وأنا عندى أمر من اللجنة الثقافية بدقها !
وأخرج ورقة أخرى !

نكتة ثانية : يقال أن اللجنة الثقافية قررت تنشيط السياحة .. فأمرت
مدير أحد الكباريهات أن يقدم الرقص العريان ما دام هو الذى يعجب
الشباب والسياح .. وفى ليلة الافتتاح ملأ الناس كل المقاعد .. وفى الليلة
الثانية اختفى نصف الناس وفى الليلة الثالثة لم يذهب أحد .. واستدعت
اللجنة الثقافية مدير الكباريه ، وسأله .. فأجاب : انه أتى بأقدم سيدتين
من أعضاء الحزب وطلب اليهما أن ترقصا فى الكباريه !

نكتة ثالثة : لاحظ أحد الجنود أن طفلا صغيرا يبكى كل ليلة عند النصب
التذكارى للجندى المجهول .. وسأله الجندى : لماذا تبكى ؟ فقال الطفل :
على أبى ! وسأله : ومن قال لك أنه مدفون هنا ؟ وأجاب الطفل : أمى ..
لقد قالت لى أن أبى جندى مجهول !

نكتة رابعة : واحد يهودى فلاح — انتهت النكتة !
لأن اليهود لا يعملون فى فلاحه الأرض !

وعندما طلبت من السائق أن يذهب بنا الى « كواخور » — أى
أحدى المزارع الجماعية — ضحك وقال : حدث أن ركب ستالين سيارته فى
أحد شوارع موسكو فاعترضه أحد الخيول .. ولم يفلح ستالين فى زحزحة
هذا الحصان ، وأخيرا نزل ستالين من سيارته وأقترب من الحصان وهمس
فى أذنه قائلا : إذا لم تقفح لى الطريق فسوف أبعث بك الى الكواخور !
فهرب الحصان — لأن الحياة شاقة فى هذه المزارع الجماعية !

وعشرات .. ومئات من النكت الاجتماعية والسياسية يطلقها الروس على أنفسهم .. من المؤكد أنهم قادرون على الضحك والمرح والرقص والحديث .. وهم أولاد حظ .. ولكن المشكلة أننا لا نعرفهم عن قرب ولا نعرف لغتهم وهى هذا الحاجز الهائل بيننا وبينهم .. وهم من المؤكد أناس ككل الناس .. ولكننا ضحايا هذا الوهم : ان الغريب عنا ، غريب الاطوار أيضا .. شاذ .. ولكن الروس أناس عمليون علميون .. وعلى طريقتهم الخاصة .. والسباق فى الفضاء هو أوضح دليل على ذلك : فالروس والأمريكان لديهم نفس المبادئ العلمية فى الوصول الى الكواكب التى حولنا .. وأبعد من الكواكب ولكن كل شعب له طريقته الخاصة .. وليس من الضرورى أن يكون العالم الروسى كالعالم الأمريكى .. فإذا اختلف الروسى عن الأمريكى فليس من المعقول أن يكون الخلاف لصالح الأمريكى دائما أو الأوروبى أو العربى .. ان الروس مختلفون .. ولكنهم متحضرون .. ومتقدمون وجادون فى تحقيق كل ما هو ضرورى للإنسان ..

والروس لم يخترعوا كلمات : الشعب .. والجماهير .. والعمال .. والفلاحين .. والمثقفين .. والكادحين .. وإنما هذه الكلمات موجودة فى الكتب وعلى السنة الناس وفى صرخاتهم .. ولكن الروس كشفوا عنها الفطاء .. جعلوها موتورات قوية دافعة تجتاز الحواجز .. وتلك القلاع .. وتفترس البذور ، وتجنئ الثمار وتبنى المصانع ، تكتب التاريخ ! وكرهية الروس للحرب لا يمكن أن توصف .. ولا يزال الأدب السوفيتى المعاصر يختار مادته واللوانه وموسيقاه من الحرب .. انهم لم يملوا الكلام عن الدمار والخراب .. ولذلك فلن يحاربوا .. لأنهم يعرفون معنى الحرب .. معناها أن يموت منهم ٢٠ مليوناً آخرين .. وأن تنهار المصانع والمتاحف والعمارات .. وأن يعيش الروس من جديد فى الخرائب .. ولكن الحرب هذه المرة ستكون فناء للعالم كله .. لأنها بين أكبر قوتين عرفهما الإنسان : روسيا وأمريكا .. أما الشعوب الأخرى فهى وقود للنيران !

سألت الأدباء السوفيت : ألم تزهقوا من الكلام عن الحرب .. وقصص الحرب .. وأفلام الحرب ..

وكان ردهم : يجب أن تصبح كراهية الحرب حقيقة عميقة مروعة حتى يعمل الناس من أجل السلام ..

ما أزال فى فندق « روسيا » فنحن فى أجازة رأس السنة .. ولا يوجد مكان نذهب اليه .. ولكن هذا المكان الذى أنا فيه يجيء اليه الناس من أركان العالم .. فأنا لا أذهب الى العالم ، ولكنه يجيء الى !

وكلما نظرت الى الروس ولاحظت ملامحهم المكشورة ، وجدت أن هذا طبيعى .. فالجو يجعلك تنطوى بغضك على بعض تشد ملابسك عليك .. وتذم شفتيك .. وتعتقد ما بين العينين والشففتين .. كأنك تريد أن تعرض أقل مساحة ممكنة من جسمك الى البرودة .. فى روسيا أكتوبة أخرى .. غفى

الشارع تجد الناس يعملون .. والنساء يعملن والسائق يجلس فى سيارته والسيارة دافئة كالفرن .. وهو يقرأ فى كتاب والكتب أرخص شىء فى روسيا وهى فى متناول كل الفلاس .. وفى معظم الأحيان معروضة مجاناً لآى أحد .. مئات الكتب .. وفى إحدى المرات قلت للسائق : الدنيا برد .. والحياة مستحيلة ! وكان رد الفعل عنده كموقفك أنت عندما تسمع مثل هذه العبارة التى تقول :

$2 + 2 = 4$.. والحساب صعب !

فالبرد حقيقة مؤلمة .. ولكن الحياة ممكنة والسيطرة على الطبيعة أمل يمكن تحقيقه !

وفى الفندق نجد أناساً يضعون نياشين على صدورهم ونجوماً .. ولا بد أن تسأل .. وكان الجواب : أن هؤلاء عمالاً متفوقون ..

لا يهم نوع العمل الذى يؤدونه لكن العمل حياة .. ضرورة .. مقدس وقد يكون هذا العامل متفوق فى اللحم .. أو فى الطلاء .. أو هو بطل رياضى .. لقد رأيت صورة لسيدة من سيدات أوزبكستان قد حصلت على نيشان لأنها كانت أبرع سيدة فى حلب اللبن ، فقد قدمت أكبر كمية من أية امرأة أخرى .. لا يهم ما الذى يفعله .. ولكن كل شىء يفعله هو شىء هام ، له وللشعب كله ..

وروسيا واسعة جداً .. طولها خمسة آلاف كيلو متر وعرضها ثلاثة آلاف .. وهى فى حاجة إلى من يملأ هذا الفراغ الهائل .. ولذلك تشجع على زيادة النسل .. وتمنح النياشين لأكثر الأمهات أطفالاً !

والملابس التى يرتديها الروس كثيرة وكثيفة .. كوم من الملابس البالطو .. وتحت البالطو الجاكطة والبلوفر .. والقميص والفانيلا والكالسون والجورب والحذاء المبطن بالصوف .. وفوق الرأس الطاقية من الفرو ويسمونها الشبكة .. وهذه « الشبكة » هى التى تجعل الروسى يمشى يدك الأرض بخطوة واسعة .. وهو فى نفس الوقت حريص على ألا يتزحلق .. ومن النادر أن يحدث له ذلك .. فالانزلاق رياضة .. ولا شك أننى أدخلت السرور على كثير من الأطفال عندما كنت أهتز ثم أقع على الأرض كآى لوح خشبى .. بينما يتزحلق الأطفال الصغار كأنهم فرسان البحر !

وفى روسيا يسمحون لك أن تدخل مسرح البولشوى من غير كرافطة .. ممكن .. وهذا ما أسعدنى بصفة خاصة ، لأننى أضيق بالكرافطة والبدلة .. ولا ارتديها إلا مرة أو مرتين فى العام .. ولكن يستحيل أن تدخل أى مكان بالبالطو .. إذا فعلت امتدت الأيدى إليك .. وقد يدهشك هذا .. ولكن معهم حق فالذى يدخل بالبالطو المبلل بالجليد .. سوف يضع البالطو على مقعد .. وسوف يتساقط الجليد ويتحول إلى ماء بعد لحظات .. ومعنى ذلك أن الواحد سوف يحتل مقعدين بدلاً من مقعد واحد .. وإذا تكديست البلاطى والطواقى فى أى مكان عطلت الناس .. وعوقت حركتهم .. ولذلك

يجب أن يوضع البالطو في المكان المخصص له . . كنت أزور متحف بوشكين في موسكو ودخلت المطعم بالبالطو . . مع أنه بالطو خفيف . . وكانت الشبكة في يدي . . واندفعت السيدة كالصاروخ وبصوت لفت كل العيون المستنكرة لموقفى . وخرجت أتخبط في الناس ولم أعد . . وعرفت الخطيئة التي اقترفتها بحسن نية . !

والمرأة الروسية تذهب الى المسرح ومعها شنطة بها حذاء عادى ولا تكاد تدخل حتى تخلع حذاء الجليد الضخم وترتدى الحذاء الأنيق . . انها تريد أن تكون أنثى . . أنيقة . . وأخف حركة . . حتى لو لم ير الحذاء أحد . . ولكنها تلفت اليه العيون بعد الفصل الأول عندما يصعد الناس الى الطابق العلوى يتناولون الساندوتشات والعصير !

والروس يشربون الفودكا باسراف . .

ولا نكاد نتذكر الرجل الروسى حتى يتبادر الى اذهاننا أنه يشرب كميات كبيرة من الفودكا . وهذا صحيح . ولكن الفودكا ضرورة — اذا لم يشربها مات من البرد — فالروسى اجتماعى جدا . يحب أن يأكل ويشرب ويتحدث ويضحك . ولكن الفودكا لها مراسم غريبة . . فلا بد من التحيات والسلامات فيقف الواحد منهم جادا ويقول مثلا : فى صحة الصداقة العربية السوفيتية التى قامت على محبة السلام ومكافحة الاستعمار والرجعية ومن أجل مزيد من الصداقة والتفاهم المشترك القائم على الاحترام المتبادل بين الشعب المصرى والشعوب السوفيتية — وما يزال الرجل واقفا وفى يده كأس الفودكا — وفى صحة زميلنا ورفيقنا فلان الفلانى الذى نتمنى له أن يتمكن من أن يجلو حقيقة هذه الصداقة بين شعبينا العظمين . . (ثم يرفع الكأس الى فمه والجميع يفعلون ذلك فى ثانية واحدة) .

ويجلس . ويقف غيره يقول كلاما مشابها أو مخالفا . ولكن كل هذه الانخاب تجيء الواحدة بعد الأخرى . ويجب أن نفهض أنت أيضا . وترفع كأسك . . وتقول كلاما جادا . . وربما يكون هذا الكلام الجاد الوحيد فى جلسة تستغرق ثلاث ساعات وثلاثمائة كأس . . ويحدث كثيرا أن يتوقف انسان عن النكت والفرغشة ليقول : فى صحة العمال والمهندسين والشعب الذى اقام فى صلابة وبصلابة : السد العالى رمزا للصداقة بين الاتحاد السوفيتى ومصر . .

ولكنها هى التقاليد . .

وقد استطاع الروس أن يصنعوا الفودكا كيميائيا . . وأستطاع الروس أن يصنعوا الكافيار — وهو بطارخ الأسماك — من المركبات البترولية ويستحيل على أى انسان أن يفرق بين الكافيار الصناعى والكافيار الطبيعى . .

ومن العجيب أن الروس « لا يشربون » الفودكا . وإنما هم يبلغونها .
وقد زارنى فى أوائل هذا العام اثنان من الأدباء السوفيت وقلت لهما
مداعبا : انتم لا تشربون . . انتم تبلعون الفودكا . . كأنكم تخافون أن تترك أى
أثر على اللسان . .

ولم تعجبهما هذه الملاحظة . أو لم يفهماها بوضوح . . أو فهماها ولم
يتصورا أن هذا شىء جديد . . ثم قلت : لقد لاحظت أن الكثيرين يشربون
الفودكا . . ووراءها بسرعة يشربون المياه المعدنية . . أو عصير الفاكهة . .
وذكرت لهما أننى عندما رافقت الشاعر يفتشونكو الى أسوان كان يحرص
على أن يشرب وراء كل كأس فودكا كأسا من عصير الطماطم . وكان يقول
أن الطماطم تزيل مفعول الفودكا . .

واذكر أيضا أننى عندما دعانى الممثل الكبير ركس هاريسون الى بيته
فى لندن لاحظت أنه يضع الفودكا وعصير الطماطم والمستردة والليمون فى
كأس واحدة . ولكن الروس يفضلونها فرادى . . لا معا !

ولذلك فكثير من الروس لا يستسيغون الويسكى مثلا : لأنه يحتاج منهم
الى أن يشربوه . . قليلا قليلا . . وقد اعتادوا أن يتلعهوه دفعة واحدة !

فالفودكا هى نوع من الحرارة السائلة . . وهى تدفئة ضرورية فى بلاد
شديدة البرودة . . ولا بد من الدفء والا توقف العمل . ولا بد من الحركة
والا تحجر الناس . . ثم ان الروس ليسوا وحدهم الذين يشربون فى البلاد
الباردة فكما أن النار ضرورة فالنار السائلة ضرورة أيضا !

وما زالت الوجوه الروسية التى تدخل من باب الفندق شديدة الاحمرار . .
وشديدة التكشير أيضا . ولكن لى تفهم هذه الملامح عليك أن تقف أمام
مروحة يهب هواؤها على وجهك . . ثم انظر بسرعة الى وجهك فى المرآة .
انك مكشّر لماذا ؟ أنت الآن عرفت السبب !

* * *

ما نزال فى فندق روسيا فى قلب موسكو . .

والروس ينطقون عاصمة بلادهم « موسكفا » ويحذف الواو أيضا . .
ونحن نقول : الفضة المسكوفى . . أى الفضة الواردة من موسكو . . وهى
عاصمة الاتحاد السوفيتى وعاصمة جمهورية روسيا . وفيها مجلس السوفيت
الأعلى ومجلس الوزراء . ومساحتها ربع مليون فدان . . وعدد سكانها ستة
ملايين . . وهى قد أقيمت على تلال مثل روما . . وهى تقع على الخط الذى يمر
بمدينة دمشق . ومن الطابق الواحد والعشرين للفندق ترى عمارات

كثيرة جدا .. عالية .. ناطحة سحاب .. ان موسكو تتسع وترتفع ،
أيضا . وبها عمارات للايجار . وشقق للتملك . وكثير من أحيائها القديمة
قد أبيت وظهت مكانها عمارات سكنية ولا تزال أعمال البناء في كل مكان ..
ومن المؤكد أن موسكو هي أنظف عاصمة أوربية .

وموسكو رغم أنها العاصمة السياسية والإدارية فهي أيضا مركز لأهم
الصناعات الروسية من الدبوس الى الصاروخ .

ثم هذه الأرقام : بها نصف مليون طالب . وبها ٥٥٠ معهدا للابحاث .
وفي موسكو قصر اسمه « قصر الرواد » للطلبة الموهوبين مساحته ٢٦٠
فداناً . وبه مسرح يتسع لسبعة آلاف متفرج . وفي جامعة موسكو وحدها
٢٥ ألف طالب في ١٤ كلية وفي هذه الجامعة ٤٥ ألف غرفة . وإذا قرر انسان
أن يمر في هذه الغرف واحدة واحدة ، لأى سبب جنونى ، فسوف يقطع ١٥٠
كيلو متر على قدميه ..

ومن النافذة نرى مقر الكرملين .. أو قصور الكرملين .. الكرملين
معناه القلعة . وقد بناه أمير من أصل انجليزى . والكنايس الموجودة
بناها مهندسون ايطاليون . واحدى الكنايس بناها مهندس ايطالى . وحتى
لا يكرر هذه التحفة الفنية جاء الامبراطور ايفان الرهيب وفقاً عينيه .

والميدان الأحمر يحتشد فيه الشعب . في المناسبات الكبرى : الأعياد
القومية .. عيد الثورة وعيد العمال .. واستقبال رواد الفضاء .. وهذا
الميدان سمي الميدان الأحمر لسبب غريب .. ففي اللغة الروسية نجد أن
كلمة « كراسنيا » معناها أحمر .. ومعناها جميل أيضا .. فالميدان باللغة
الروسية اسمه : الميدان الجميل وفي اللغات الأخرى اسمه الميدان الأحمر ..
وعلى القباب العالية توجد النجمة الحمراء . وهى تتحرك مع الرياح .

وفي الكرملين هذا جاء نابليون سنة ١٨١٢ وربط خيوله . ولم يفعل ذلك
الا لأن موسكو كلها قد أحرقها الروس حتى لا يستولى عليها . فلم يجد الا
هذا المكان تحتوى فيه خيوله .

والذى يرى الاتساع الهائل لروسيا وقسوة الجليد وطول الطرقات
والغابات .. ويتذكر ما فعله نابليون وهتلر من أجل الاستيلاء على موسكو
يؤمن بأن كلا الرجلين مجنون !

وقد اعجبتنى عبارة قالها الأديب الأمريكى آرثر ميللر عندما زار روسيا
هو وزوجته المصورة انجه مورات : أن نابليون وهتلر عندما فكرا في غزو
روسيا يشبهان رجلا راح ينفخ صدره وينفخه آملا أن يطير الى القمر !

وإذا نظرت الى صورة هذه المدينة بعد الحرب مباشرة لعرفت كم بذل
الشعب من التعب والعرق والحرمان والاصرار على أن تكون لهم مدينة ..

و تكون لهم فى كل مكان مدينة . . وان يكون لهم فى كل مدينة راي . . وان يساهموا بالعمل والعلم فى كل مجالات المعرفة والتقدم . . وفى كل مكان بجيوش السلام وانتصار الحياة على الدمار وعلى الفناء . .

ان دستويفسكى عندما وصف الشعب الروسى فى احدى رواياته . . قال : سوف يكون على ايديهم خلاص التعساء فى كل مكان . كان ينظر الى المستقبل . . ولم يتجاوز الحقيقة . .

من الكلمات الروسية التى تعلمتها بسرعة . . لأنها تكررت كثيرا وضايقتنى كثيرا كلمة : زاموك . . ومعناها مقفل . . المتاحف مقفلة . . والصحف مقفلة . . ومن الطبيعى ان تكون الكثير من الأماكن « زاموك » لائنا فى اجازات رأس السنة . . وليس فى الامكان حشد الناس فى مكاتبهم ومصانعهم بمناسبة زيارتى الى موسكو . .

ولكن هذه الكلمة سوف تختفى عندما ننطلق الى احضان موسكو وغيرها من المدن الكبرى الباهرة !

* * *

اختتامهم الحياة.. ولكنهم اختاروا الموت!

كانت ليلة رأس السنة .. درجة الحرارة تحت الصفر كما هي العادة .. ولكن هناك حركة على الأرصفة وفي الشوارع . والاضاءة باهرة . ويقول الذين يعرفون الكثير : انها غير عادية . اننا محظوظون .

ومع ذلك فلا مكان يمكن أن نذهب اليه . كل المطاعم محجوزة منذ أيام . والناس قد انتقلوا الى بيوت الناس . ونحن غرباء فليس لنا أحد . وهذا طبيعي . وأمامنا ساعات طويلة حتى يجيء منتصف الليل عندما تتعانق العقارب في كل ساعة وفي كل مكان .

ومع ذلك هناك معارض مفتوحة : الشوارع .. فموسكو هي مدينة الأدباء والفنانين والمفكرين الجالسين على القواعد الحجرية في أهم شوارعها . وهذه التماثيل قد أغرقتها الأضواء وجمعت حولها الناس . ومن الغريب أن أكثر هؤلاء الأدباء أعمارهم قصيرة ، لأسباب شخصية . وإقامة التماثيل لهم استثناف لحياتهم التي انتهت بسرعة . وأحياء لهم في قلوب الناس ..

فهناك تماثيل الثلاثي العظيم : تولستوى وجوركى وتشيكوف .. أما لينين أبو الاتحاد السوفيتى فهو في كل مكان . وفي كل متحف ، وكل مكتب ، وكل مصنع وكل شارع وكل مدينة .. ومقبرته تخفة وهي مفتوحة ثلاث ساعات يوميا فيما عدا يوم الجمعة — وأمام المقبرة طوابير طويلة جدا على مدار السنة وتحت وفوق الصفر . وفي داخل المقبرة ترى وجه لينين ويديه على صدره : كدليل جديد على تقدم التحنيط الحديث عند العلماء السوفيت .. ولينين قد توفي سنة ١٩٢٤ . ولكن من يرى وجهه يخيل اليه أنه مات فورا ، ولكنه لم يدفن بعد !

وفي الطابور أمام ضريح لينين من الممكن أن تجد من يقول لك : معك عود كبريت . وبسرعة تخرج الولاعة من جيبيك وتشعل له سيجارته . وينصرف لقد تعب من الوقوف منذ الصباح وسوف يعود غدا . أو بعد غد . والناس

لا يدخنون في الطابور وقد تسأل : كيف أن هناك أناسا كثيرين يطلبون منك عود كبريت . . والذين يعرفون يؤكدون لك : أن هذه مسألة عادية جدا .
فالروس لا يشعرون بأى حرج في أن يطلب منك انسان سيجارة فهو يرى أن هذا نوع من رفع الكلفة بينك وبينه . وقد يفعل ذلك سائق سيارة أو طبيب . . فالذى حدث أن سجائره انتهت وأن المحلات قد أقفلت وأن في استطاعتك أن تفعل ذلك . . قال لى أحد رجال السفارة أن طبيبا زاره لعلاج زوجته . . وبعد أن كشف الطبيب على الزوجة اقترب من الزوج . . معك سيجارة . فأعطاه طبعا واندھش . . والدهشة تذهب مع دخان السيجارة . فهذه مسألة عادية تحدث في أى وقت وفي أى مكان من أى شخص . . انهم هكذا يعملون الأشياء البسيطة ببساطة . . وليس عليك الا أن تسأل لتفهم وتذهب دهشتك .

وإذا انصرفت بعد زيارة ضريح لينين ، أو بدون زيارة ، فهناك الشوارع الواسعة النظيفة المضاءة . . وإذا لم تستطع أن تمشى في الشارع ، فاجلس في أية سيارة واسمع ما يقال لك عن هذه الصواريخ أى الفنانين والمفكرين والأدباء ، التى أضاعت واشتعلت من أجل الانسانية . . ثم خمدت لتضىء من جديد للناس بالكلمة والنفمة !

فهذا التمثال لشاعر روسيا بوشكين . . وهو أبو الشعر الروسى أو أبو الأدب الروسى كله . وهو رجل لم يشأ أن يقلد الأساليب الأدبية السائدة في عصره ، فقد كانت الموضة في الأدب - كما هى في الأزياء الآن - أن يقلد الأدباء بارييس . . ولكن بوشكين هذا روسى مائة في المائة . . وإن كان جده من ناحية الأم من أصل حبشى . . كان عبدا . . أرسلوه هدية الى بطرس الأكبر . وعلمه بطرس الأكبر . وكان بوشكين لا يشعر بدم أجداده . وبوشكين شاعر عظيم . وكان يستمد مادته من الناس ، ومن عذاب الناس . . الفلاحين والعمال . . وكان خصومه يسخرون منه بقولهم : في استطاعة أى عامل أن يجد اسمه وعنوانه في قصائد بوشكين !

وكان يحب الحياة . ويستمتع بها بعمق وبغنى . وكان قصير القامة نحيفا . ولكنه ملئ بالحيوية . وقد وضعت حيويته موضع الاختبار . عندما أحب فتاة جميلة ، كان القيصر لا يرفع عينه عنها . وقد حاول القيصر أن ينال من الشاعر العظيم . فشجع شابا فرنسيا كان قد تبناه السفير الهولندى أن يعاكسها وعاكسها وحدثها . وكان بينهما الكثير ودارت الشائعات وثار الهمسات واختنق الشاعر بالفضيحة . . واتفق الزوج والعاشق على المبارزة . وفي ٢٧ يناير سنة ١٨٣٧ تمت المبارزة وانتهت بمقتل الشاعر العظيم بوشكين بعد يومين . . عن ٢٧ عاما !

وكذلك مات شاعرنا المتنبى !

وفي شارع آخر نجد تمثالا للشاعر ارميتوف . . وهو من أصل اسكتلندى وهو أيضا ضحية الخلافات العائلية . فالذى يدور في بيته يجعله يكفر بالبيت

والأهل والأب والأم . ويضيق بكل ما يربط انسانا بانسان .. كان صغيرا عندما مات بوشكين بكى عليه كأبيه وأمه وأقاربه كلهم . ونظم قصيدة اسمها « وفاة شاعر » تناقلها الناس سرا . وأصبح شهيرا في روسيا كلها .. لأنه صاحب أول منشور شعري ضد القيصر . وضد الذين اغتالوا الشاعر بوشكين .

ولخلاف حول فتاة جميلة . دارت مشادة بينه وبين السفير الفرنسي وطالبه ابن السفير بالمبارزة وجاء يوم المبارزة يوم ٢٧ يوليو سنة ١٨٤١ . وأصابه ابن السفير . فمات الشاعر ارمنتوف عن ٢٧ عاما !
وفي شارع آخر ستجد زحاما حول تمثال .. الأضواء باهرة . وقد كانت إحدى سيارات التليفزيون تلتقط صورة لفتاة جميلة وقفت أمام تمثال الشاعر والروائي والممثل والثوري والجنون والعبقري التي اشتهرت في روسيا باسم مايكوفسكى . وقد ولد في مدينة اسمها بغدادى في جمهورية جورجيا . انه نموذج للحياة والثورة والقلق والكبت الذى يولد الانفجار فحياته كانت مأساة من الانفجارات الداخلية والخارجية . وكان أكبر وأقوى وأكثر تقدما من عصره . وكان قوى الصوت يريد أن تسمعه الأجيال القادمة . أحب وفشل ، وفشل ولم ينس أنه فشل . وكانت حياته بعد ذلك انتقاما من الفشل ومحاكمة لكل شيء حوله .. وكل انسان حوله .. انه أقام محاكمات في رأسه لكل الناس وكل المبادئ وكل القيم .. وليس عجيبا أنه عندما يمضى في الشارع أن يتحدث إليه انسان فيصرخ فيه هو قائلا : لا تقاطعنى اننى اكتب !

ولما سئل مرة أخرى عن هذا المعنى قال : عندما أمشى في الشارع .. أتخيل مكتبا وأتخيل نفسى جالسا واننى اكتب !

وعندما كان صغيرا فصل من المدرسة ، وأغلقت المدرسة كلها لأنه ذهب إلى الكنيسة وشجع الأطفال على أن يتغنوا بنشيد الثورة الفرنسية !

عندما أحب ، تقدم للفتاة وسألها : هل تتزوجيننى ؟ فقالت : متأسفة . أو لم تقل متأسفة . وإنما هزت رأسها دليلا على الرفض . فهى لم تقل كلمة ، فهى لم تبذل جهدا في الرفض . لم ترفضه بشفتيها وإنما حشدت به رأسها وشعرها وأذنيها وشفتيها وعنقها وكتفيها . انها مظاهرة من الرفض لم ينسها مايكوفسكى . ولذلك عاد الى نفسه يهتف بسقوط كل شيء : تسقط أنت ويسقط فنك ، وحياتك ، ومجتمعك وكونك .. يسقط السقوط !

كان أكثر الناس بكاء في جنازة لينين سنة ١٩٢٤ . وأعلن أنه في هذه الجنازة لم يبك فقط عبقرية الرجل الذى مات .. انما يبكى كل شيء . وبكى نفسه أولا . وفي إحدى المسرحيات التى قام ببطولتها : حاكم الأشياء . حاكم المدينة وحاكم القرية .. وأعلن : هذه الأشياء لها آذان . والناس لهم عيون .. مزقوها .. حطموها !

وهو في قمة الشهرة وكل شيء حوله يستدرجه لأن يعيش ، أحس أن

الدنيا كلها تعتذر له عما أصابه .. وتبدل ريشها والوانها لعله يرضى ..
انتهر هذه الفرصة ليعتذر للدنيا .. ويعتذر عنها .. وهو يقول : لا أمل
في الخلاص من أى شيء .. أو من أى أحد !

وانتحر مايكوفسكى وعمره ٣٧ عاما !

أما هذا التمثال العملاق فهو لرجل يسمونه شاعر الفلاحين انه : اسينين
.. جاء من الريف ، ولم يشأ أن يغمض عينيه عن الريف — وعن الغابات
والجبال والتلال .. انه حزين على أن المصانع أكلت القرى .. وان المزارع
سحقت الغابات .. وأن الدخان هو الضباب الطبيعي في صورة هزلية ..
انه يبكى على ماضى روسيا ويقول : يا حقول القمح ، يا ماضى روسيا المجيد ،
ان اسينين شديد الحساسية .. شديد اليأس عميق القرف . لا يعرف
كيف يتوافق .. انه نموذج للزراعة التى لا تستطيع أن تتكيف مع الصناعة
.. ولذلك كان ضحية التحول العظيم .. انه أبرز صورة للعبقرية والجنون
.. انه عنيف ، حاد ساخط ، يحطم الأشياء والأبواب والنوافذ لأسباب تافهة .
ولكنه يراها معقولة .

وعندما جاءت راقصة الباليه الأمريكية ايزادوره دنكان بدعوة من الحكومة
السوفيتية لإنشاء مدرسة للرقص ، كانت ملكة الرقص عمرها ٤٤ سنة
وعمره ٢٧ عاما . أحبته من أول نظرة . لا تعرف كلمة روسية واحدة .
تعلمت عبارة واحدة لتقولها له : اننى أقبل التراب الذى تمشى عليه ..

أما هو فرفضها . ضربها . صفعها . لعنها . هرب منها . طارده .
روضته وتمسكت به وتزوجته .. نقلته من روسيا الى فرنسا الى أمريكا .
وكان فى القطار والعربات عنيفا ثائرا . يحطم كل ما يقع تحت يديه . وفى
باريس القى بالمقاعد من النافذة . ضرب أصدقاءه . دخل السجن واستطاعت
ايزادوره أن تخرجه من السجن بعد أيام وأدخل مستشفى الأمراض العقلية
فى باريس وأخرجته أيضا . حاول إطلاق الرصاص عليها . وهربت . ولكنها
عادت اليه وكان يحمل معه حقيبة يد كبيرة . والموت لن يقترب منها . وفى
أحدى المرات نسي الحقيبة وفتحها فوجدت كل ملابسها وأشياءها المضيئة ..
وهربت منه فى مجاهل روسيا وعاد الشاعر الريفى الى فندق لننجراد —
الذى نزلت به — وقطع شريانا .. وبدمه كتب آخر قصيدة له ثم شنق
نفسه ومات فى الثلاثين من عمره !

أما ايزادوره فكانت هى الأخرى صورة مؤلمة أنيقة للتعاسة . والداها
غرقا فى نهر السين .. أما هى فلم تكن تطيق أن ترى الأطفال بعد ذلك
وكانت تقول : الا أستطيع أن أعيش فى عالم به أطفال لهم شعور ذهبية ..
ومائت فى حادث سيارة ويقال انها انتحرت فقد لفت « الايشارب »
الظويل الأحمر الذى كانت تتفاعل به حول العجلة الخلفية للسيارة ..
وانطلقت السيارة واختنقت وهى تجلس عند عجلة القيادة .. المهم أنها
ماتت بيديها وكانت فى المقدمة !

أما هذا التمثال اذا وقفت أمامه فمن السهل معرفته فهو الموسيقار تشايكوفسكى . هو الآخر عبقرية عنيفة غريبة . . ومن أسرة غريبة السلوك الاجتماعي ، أحب فتاة ذات أربعة عشر عاما . راسلها ولم يرها . وأخيرا تزوجها . أكثر رواد المسارح يعرف أعماله العظيمة : الفتنة النائمة . . روميو وجولييت . . كسرة البندق . . فرانثيسكا دارمىنى . . عذراء اللورين — أو جان دارك وهو صاحب الموسيقى الفخمة والتوزيع الاوكستراالى الرائع . . زار أوربا كلها . . وأصابته الكوليرا فى سنة ١٨٨٣ . .

وتمثيل أخرى للرواى العظيم دستوييفسكى الذى ترجم د . سامى الدروبيى أعماله الكاملة الى العربية . . والرواى جوجول الذى كتب الرواية الشهيرة « المفتش العام » . . والتى انتقد فيها البيروقراطية الروسية بعنف . . وكان هو أيضا شديد الحساسية قلقلها ساخرا . . وكان يقول عن نفسه : اننى أجعل الناس يضحكون على كل ما يستحق الضحك . . وكان يقول — ومعه حق — ان عالمنا كرهه يا سادة !

وتمثال للقصى والمسرحى تشيخوف الذى توفى عن ٤٤ عاما سنة ١٩٠٤ . وهو كاتب المثقفين . .

وتمثال للفنان العظيم جوركى الذى توفى سنة ١٨٣٠ عن ٦٤ عاما (*) . . هناك تماثيل أخرى أكثر انتشارا وعمقا . . انها مئات والوف الكتب عن هؤلاء العظماء . . وهناك المسارح فى كل مدينة فى الجمهوريات السوفيتية . . ففى موسكو وحدها ثلاثون مسرحا ومائة سينما وخمسون متحفا . مسرح البولشوى سيحتفل بمرور قرنين على انشائه بعد خمس سنوات . . وفى موسكو مكتبة كبرى هى مكتبة لينين بها عشرون مليون كتاب فى مائة وستين لغة . . وفى روسيا ملايين الطلبة الصغار والكبار يعرفون هذه الأسماء . دارت مناقشة بينى وبين سائق السيارة التى خصصها لنا اتحاد الكتاب السوفيت . قلت له : أنت تشبهه راسبوتين .

مع أنه لا يوجد شبه بينهما . وانما حاولت ان أضحك معه . . ولكنه قال : لا . . بل اشبه ترأس بولبا !

والروس أو الذين قرأوا قصة جوجول التى اسمها « ترأس بولبا » . . يعرفون الفارق بين ما أقول وما يقول هو . . فشخصية ترأس بولبا . . رجل ضخم مسلح عنيف . . والسائق فيه هذا الشبه ، مع فارق السلاح . . فقط !

وعندما قلت لسائق آخر ، مداعبا أيضا ، أنت : راسكو لنكوف !

(*) ملحوظة : ليس فى القاهرة ولا فى أية عاصمة عربية تمثال لشاعر أو أديب . . التمثال الوحيد لأمير الشعراء شوقى . . موجود فى إحدى حدائق روما .

ضحك وهو يقول : نسيت أن اكون مثله وأنا صغير !
والعبارة طبعاً غير مفهومة إلا لمن قرأ رواية « الجريمة والعقاب »
لديستوفسكى . فبطل الرواية طالب اسمه راسكولنكوف .. وهو الذى
قتل صاحبة البيت وهو يقول : هل هى جريمة أن تقتل سيدة قد استغلت
مئات الشبان .. مصت دمهم .. فقتلتهم !
فالسائق قد فاتته أن يفعل ذلك وهو شاب !
الى هذه الدرجة يعرف كل المتعلمين فى روسيا تاريخهم وأدبهم ..
ويتذوقونه ..

قلت للسائق أيضاً — عن طريق المترجمة : اسأليه ما الذى يقول ..
أنهى قصة جاسوسية .. ؟
فثار السائق قائلاً : لا .. انها قصة بوليسية .. ثم عاد يقول :
الروسى ليس جاسوسا .. انه مخبر فقط !
ولم تكن هذه التفرقة موضوع مناقشة .. ولا فى ذهنى هذا المعنى ..
ولكن السائق يعرف هذه الفروق الدقيقة بين أن يكون الانسان جاسوسا وبين
أن يكون مخبراً .. !

ولا بد أن الرئيس بومبيدو عندما زار سيبريا الجديدة كان يدرك مدى
حساسية الروس لمعانى الألفاظ والمعانى عندما قال فى بداية كلمته : واننى
أتذكر كلمة لأديبكم تورجنيف : كل واحد ضرورى لروسيا ، وروسيا ضرورة
للجميع ..

ثم قال : هذه العبارة تدل على أعنى معانى الوطنية والروح التعاونية
بين أبناء الشعوب السوفيتية ..

وهناك تماثيل للعمال .. وتماثيل لسفن الفضاء .. أو لرحلات الفضاء
.. ونماذج ، ومئات النماذج للسيارة التى ركبها لينين عندما ذهب الى
ليننجراد .. فكل من أدى عملاً يجب أن يبقى ..
وبعد ذلك تفتتح لك موسكو ..

ففى أطراف موسكو الشاسعة توجد « البانوراما » وهى مبنى دائرى
.. لأن فى داخله لوحة دائرية لمعركة بوردينو التى أنهزم فيها نابليون وهو
يحاول الاستيلاء على موسكو .. فأحرقها الروس أمامه ، بعد أن استدرجوه
إليها .. كان قائد الروس هو الجنرال كوتوز . وفى اللوحة التى طولها ١٥٠
متراً وارتفاعها ١٥ متراً نجد أن نابليون كان يحارب فى الصفوف الأمامية
للمعركة .. عند نقطة المواجهة .. وعندما جرح القائد الروسى استبدلوا به
قائداً آخر فالمعركة لا تحتمل التأجيل .

الفنان الذى صمم هذه اللوحة الحية البارزة الناطقة المذهلة روسى من
أصل فرنسى عاش فى ألمانيا .. وبعد أن أحرقته أعادها مرة أخرى ..

أما المتحف الذى يحمل اسم الشاعر بوشكين ، ففى داخله لوحات لكل مدارس الفن .. وخاصة الفن الانطباعى الفرنسى وفيه تماثيل اغريقية ورومانية .. وفيه جناح فرعونى . وبه تحف فى غاية الرقة والجمال . وقد أدهشنى أن أجد امرأة فرعونية تسبح فى النيل .. ويبدو أنها غشيمة مثلى .. ولذلك أتوا لها بصندوق خشبى تتعلق فيه لكى تستطيع تحريك ساقىها ورفع رأسها من تحت الماء .

وأمام متحف بوشكين يوجد حمام سباحة فى الهواء الطلق . ماء الحمام فى درجة ٤٠ فوق الصفر .. ودرجة حرارة الجو ٢٠ تحت الصفر .. ويخرج المستحم من الماء الساخن الى الهواء البارد جدا ويقال أن النسخة تجيء من هذا الفارق الهائل بين الدرجتين وخصوصا اذا أتيت بأكداس الجليد ودلكت بها جسمك مباشرة . أننى أرتجف لمجرد كتابة هذه العبارة !

ورغم خوفى من مجرد النظر الى المستحمين .. حاولت أن أقرب .. ثم عدلت .. ثم حاولت .. ثم عدلت .. وأخيرا وجدته غارقا فى بخار الماء الذى يخرج من حمام السباحة ويتجمد لمجرد مفارقتها لسطح الماء .. وأحسست انها مغامرة مجنونة . ولا أزال أعتقد ذلك وأعتقد أن سبب اصابتى بالزكام هذه الأيام رغم عودتى من موسكو منذ أسابيع يرجع الى اننى تذكرت فقط اننى وقفت هناك !

وقد تذكرت قصة قصيرة لأديب روسيا سواجنتسين الذى فاز بجائزة نوبل فى الأدب . تقول القصة أن النمل كان يمشى على قطعة خشب .. وفجأة امتدت يد وألقت بقطعة الخشب فى الموقد .. وراح النمل يزحف على أطراف الخشبة محاولا الهرب من النار .. حاول .. وحاول .. ولكنه لم يفلح .. وأخيرا وتلقائيا اتجه النمل كله الى النار !

وفى كل المتاحف والمعارض التى رأيتها فى موسكو وفى المدن الأخرى لم أجد اهتماما بالسريالية أو الرمزية .. أو هذا الغموض الشائع فى أوروبا وأمريكا .. لا فى المعارض ولا على المسارح .. فلا هناك سريالية ولا دادية ولا تكعيبية .. ولا مسرح اللامعقول .. ولا التسجيلى .. ولا المسرح الحى .. ولا مسرح الخبز واللحم .. ولا المسرحيات العارية .. وإنما العقل بداية ونهاية كل شئ .. والطريق الواحد الوحيد المضمون هو : الوضوح . لأنه من المفروض أن يفهمك كل الناس .

ولا شك أن خروتشيف كان روسيا مائة فى المائة عندما ذهب الى احد المعارض فى موسكو فى ديسمبر سنة ١٩٦٢ يرافقه الأدباء والنقاد والفنانون .. واستنكر المعروضات لأنها غير مفهومة . ومما قاله عن موسيقى الجاز مثلا : انها غازات فى المعدة !

واتجه الى الفنانين وقال لهم : انتم شواذ وتستحقون السجن عشر سنوات .

وعندما نظر الى احدى اللوحات السيريالية قال : هذه لوحة رسمت
بذيل حمار !

وكانت هذه هي البداية (لنهاية) الغموض والشذوذ ..

وشولوخوف اديب روسيا الفائز بجائزة نوبل في الأدب هو صاحب
العبارة التي تقول : الفماذج السيئة كالمرض تعدينا .. أبعدوها عن أنوفنا
وعيوننا !

وفي شوارع موسكو بعد ذلك صور وتمثيل لبابا نويل .. والروس
لا يسمونه كذلك . ومن المعروف الآن أن الكنيسة الكاثوليكية قد أعلنت
أن شخصية بابا نويل هذه خرافة ، لم يكن لها أى وجود تاريخى .. وقد
سبق الروس الكنيسة عندما أنكروا معناه .. ولذلك فهم يطلقون على
بابانويل اسم : أبو الجليد .. وهو أيضا صديق للأطفال .. يذهب اليهم
لأنهم ينتظرونه محملا بالهدايا والأمنيات الطيبة ..

وانتهت ليلة رأس السنة بعد أن عيدنا على هؤلاء العظماء الواقفين في
الشتاء والمصيف .. والذين لا يعرفون نهاية أو بداية للعام .. لأنهم فوق
الزمن .. خالدون !

عندما جرت الدعوة .. لم يحضر سوى الموت !

السفر من موسكو الى لننجراد هو انطلاق ضد التاريخ فالتاريخ بدأ من لننجراد واتجه الى العواصم الأخرى .. فقد كانت لننجراد هي العاصمة السياسية والثقافية .. ومنها قامت ثورة وراء ثورة .. حتى جاء لينين وأشعل الثورة الكبرى وتحولت موسكو الى عاصمة للاتحاد السوفيتي ..

ولننجراد اسمها بطرسبورج .. بتروجراد .. وبعد وفاة لينين سنة ١٩٢٤ أخذت اسمه .. وعلقت على صدرها أسى نياشينه .. وأطلقوا عليها اسم (المدينة البطل) .. لأنها استطاعت أن تقف أمام الألمان .. ٩٠٠ يوم ليس أمامهم بالضبط .. ولكن بينهم وتحتهم .. فقد حاصروها حتى مات نصف مليون من أبنائها جوعا .. أسقطوا عليها ١٥٠ ألف قنبلة .. وكان من الطبيعي أن تسقط .. ولكنها قاومت .. وكان القائد الألماني يعلم انها ساقطة لا محالة ولذلك طبع بطاقات الدعوة لحفلة الانتصار .. ولم يبق الا أن تكتب أسماء السادة المدعوين .. وبقيت البطاقات في متحف المدينة التي لم تستسلم .

ومن أجمل ما في هذه الرحلة الى لننجراد السفر بالقطار .. ربما كان هذا مزاجا شخصيا .. فأنا أحب القطار وأفضله على الطائرة والباخرة والسيارة .. فالقطار شكله مهيب .. ورأسه مرفوع وصدره شامخ .. ومنظر القطار وهو جالس على الخيلين الحديديين يغرينى بالحسد .. فأنا أحسد القطار الذي له هدف واضح .. طريق مرسوم .. معروف .. وفي داخله نار مشتعلة .. ودخان متصاعد .. والناس تجرى اليه ومنه وهو هادئ راسخ في مكانه .. كأنه يفكر .. ولكنه في نفس الوقت على يقين من كل ما سوف يفعله بعد ذلك .. فالقطار هو المفكر .. والشريط الحديدى هو الخطة المرسومة المدروسة .. والاثنان يعنيان : النظرية والتطبيق .. ورائع منظر الناس وهم يهتمون .. أو وهم مهمومون ..

هذا يجرى .. وهذا يسير .. وهذا يودع .. وذاك يحمل حقائبه ..
كأنها رحلة الحياة والموت .. أو كأنها الحياة والموت .. فالحياة والموت
يسويان بين الناس .. فكل الناس أحياء وكلهم سوف يموتون .. وكل
واحد مهما كانت الدرجة التى يجلس فيها سوف ينزل فى محطة .. والذى
يركب الدرجة الأولى والثانية .. والكمسارى والمفتش والسائق .. كلهم
ينطلقون بسرعة واحدة ..

والقطار قريب من الأرض يلمسها ويزحف عليها ويهرب منها .. وظل
ملتصقا بها .. وصفيره الناعم الهزيل المنكمش من شدة البرد .. والاشجار
من حولنا قد تغطت بالجليد الأبيض .. نائمة .. أو كأنها لا تريد أن تصحو ..
كل شيء أبيض .. صحارى بيضاء .. ومن الغريب أن تجد أطفالا أو رجالا
يمشون فى الأرض البيضاء .. كأنهم أيضا يعرفون الطريق .. لا بد أنهم
يعرفون .. والعجلات تحولت الى عجلة واحدة تتمسح بالقضبان الحديدية ..
فلا ضوضاء ولا ارتجاج ولا اهتزاز .. وانما استمرار دافئ فى جو بارد ..
والرؤية غير واضحة لنا .. ولكن للقطار : كل شيء واضح مرسوم معروف ..
وكانت الدنيا ليلا .. والغرف دافئة .. وكل واحد قد آوى الى سريره ..
لا يعرف الا شيئا واحدا : كيف ينام .. هل يخلع ملابسه .. أو لا يخلعها ..
أنا شخصيا نمت بملابسى كاملة .. اننى خفت من البرد .. ولاحظت أن
بعض الروس قد خلعوا ملابسهم تماما .. وناموا فى الدفء .. وهذا طبيعى
ولكنى خفت ، فدرجة الحرارة خارج القطار تحت الصفر بعشرين درجة ..
ومن المستحيل أن تتسرب الى القطار .. ورغم ذلك فقد تمددت بملابسى
كاملة .. ولاحظت أن فى العربى سيدات .. ولاحظت عن قرب أن هناك
شيئا من الحرج فى عيونهن أو تصرفاتهن ..

وسألت ما الذى تفعله فتاة روسية فى قطار ليلى اذا كانت مسافرة
وحدها !

وكان الجواب : ما الذى يفعله الرجل ؟

وكنت أريد أن أعرف شيئا أوضح .. وعرفت أن الفتاة تستطيع أن
تدخل فى كابينة مع أى رجل وينام هو فى سريره وهى فى سريرها .. ولا يدور
بينهما الا كلام .. أى كلام .. ويدهى أن يراعى الرجل أبسط آداب اللياقة
كأن يخرج وينظر من النافذة الى لا شيء ويشعل سيجارة حتى تخلع الفتاة
ملابسها وتتمد وتنام ويفعل هو نفس الشيء وينام .. وليس من الضرورى
أن يقول لها : تصبحى على خير .. لأن الخير فى أن يسكت ويكون فى حاله .
وعرفت أيضا أن بعض الفتيات يضقن بمشاركة الرجل فى غرفة واحدة
.. ويذهبن الى الكمسارية ويطلبن منها النوم فى غرفة مستقلة .. لماذا ؟
مسألة مزاج .. ثم من الذى يتحمل شخير رجل لا يعرفه طول الليل ؟
سبب وجيه ..

انتهزت فرصة المناقشة حول ما يجب أن تفعله الفتاة المسافرة وحدها .. وما لا يجب .. وطلبت من الكمسارية : وحياة والدك .. نفسى اشرب كوبا من الشاي .. صحيح أن الليل قد انتصف .. والقطار حار جدا ، ولكنى أخاف من البرد ؟

وكأننى لم أفتح فمى ولا قلت شيئا .. فقد قالت الكمسارية : هذا غير ممكن الآن .. لأن الشاي فى الصباح فقط ..

وتأملت الكمسارية من جديد .. طبعا شقراء .. وملامحها جميلة .. عيناها أجمل ما فيها .. وصوتها أيضا وان كنت لا أعرف ما الذى تقوله .. والارهاق واضح على وجهها .. ولو كنت فى مكانها لقلت نفس الشيء .. هذا الرجل الغلبان الميت فى جلده من شدة البرد رغم أن الناس يقفون بالقمصان من شدة الحر .. وسألت نفسى اليس هذا شيئا غريبا . وترددت فيما بينى وبين نفسى وقلت : لو كنت مكانها لنظرت باشفاق الى أنهم فى روسيا يعلموننا أن الجسم الانسانى قادر على التكيف .. فكيف أن جسم هذا الرجل لا يشعر الا بدرجة الحرارة الموجودة فى خارج القطار .. كأنه راكب على السلم وليس جالسا على سرير فى غرفة مكيفة الهواء .. وقد ارتدى ملابسه كاملة .. ان هذا الرجل سلالة بشرية غريبة .. ولا بد أن أسأله من أى البلاد هو ؟

ولكن لم تقل الكمسارية الشقراء شيئا من ذلك .. وانما رفضت طلبى بسرعة .. ورأيت فى عيون الناس تأييدا تاما لها . لقد أجرت الكمسارية استفتاء شعبيا موضوعه : هل أصنع له كوبا من الشاي ؟ .. وكان الرد سريعا (لامحا) فى وجوه الجميع : دعيه ينفلق .

وجاء النوم وانقذ الجميع ..

وعلى رصيف مدينة لننجراد وجدنا المترجمة الجديدة .. إنها قد اعتذرت لنا فى رقة عن تأخر القطار بعض الوقت .. ولكننا اعتذرنا لها فى نفس الوقت عن أن القطار قد لطعها فى المحطة أكثر من ساعة .. هى اعتذرت لنا بالنيابة عن الحكومة ونحن اعتذرنا لها بالنيابة عن الذوق الانسانى كله .. وعادت البهجة الى وجهها . ان هذه المترجمة تتكلم الانجليزية بطلاقة (على فكرة فى الاتحاد السوفيتى أكثر من ٥٠ ألف مدرس للغسة الانجليزية .. والروس ينطقون الانجليزية بلهجة أمريكية مائة فى المائة .. من الممكن أن نتساءل نحن جميعا كم عدد الذين يدرسون لنا اللغة العبرية فى مصر وفى البلاد العربية ؟ وكم عدد الذين يعرفون اللغة العبرية ؟ اننا لم نعرف بعد كيف نعرف عدونا ؟

وهذه السيدة المترجمة تترجم الأدب الاسباني الى الروسية وتترجم من الروسى الى الاسبانية أيضا ..

أما الفندق الذى انتقلت اليه فهو قديم عتيق .. كأنه بيت لأحد أثرياء ما قبل الثورة .. فى الفندق عدد كثير من الأمريكان .. واحد أمريكى همس فى أذنى من أين ؟ قلت له : من مصر .. قال : الأسعار هنا غالية .. كيف تواجه هذا الموقف .. قلت : أنا ضيف فقال : أنت أحسن حظا !

ومن أول لحظة تحس أن فى المدينة عددا كبيرا من السياح الأجانب .. نحن على الحافة الحقيقية لأوربا .. على مدى دقائق من فنلندا . وساعات من السويد والنرويج وانجلترا وفرنسا وألمانيا .. وكل أبناء هذه الشعوب موجودون هنا فى لننجراد .. المدينة جميلة .. واسعة .. هادئة .. كأنها مرسومة على الأرض .. هدمت وبنيت من جديد .. الشوارع واسعة مستقيمة .. وفى أعلى الشوارع أرقام ، ٤٠ ، ٤٥ ، ٥٠ .. وهذه الأرقام تقول للسائق لا تزد عن هذه السرعة من الكيلو مترات .. أما مصابيح الشوارع فتضاء إلكترونيا . إذا جاء الظلام .. أو الضباب .. أو نزل الجليد .. فانها تضاء من تلقاء نفسها ..

أول ما يلفت نظرك أن هذه المدينة مقامة على عدد كبير من الجزر والأنهار والقنوات .. ففيها ٣٦٠ جسرا (أرقام أخرى : ١٨ مسرحا و ٥٠ متحفا و ٢٦٠٠ مكتبة) ..

ومن الممكن أن تجد أناسا يتكلمون لغات أخرى غير الروسية .. وتجد أيضا معالم دولة غربية .. فالى جوار الفندق يوجد مطعم فخم .. ولكنه شعبى أيضا .. فكل ما هو شعبى يجب أن يكون فخما .. فليس هناك أحسن ولا أعز من الشعب .. المطعم به مضيفات كل واحدة لها زى خاص .. ولها عدد من المناضد تخدمها .. وتجد اسم المضييفة على المنضدة وعلى هذه الورقة : المضييفة التى تقوم بخدمتك اسمها فلانة الفلانية .. ومع ذلك فأنت حر فى دفع البقشيش .. ومن الممكن أن تطلب لحم الغزال .. لا بد أنك ستطلبه .. ولكن بعد ذلك لن تجد له ميزة .. أن الغزال لا يعجبك إلا إذا أكلته فى إحدى إمارات الخليج مشويا ومتربعا على عرش من الأرز الأيرانى واللوز والبندق والجوز .. الخ .

وفى داخل الفندق تجد الكثير ممن يتكلمون لغات أجنبية .. فهذه المدينة عالمية .. أو أوربية غربية .. وإن كانت من بيوتها وغرفها وشوارعها وبلكوئاتها وأنهارها خرجت الثورة على التبعية الى الغرب فقد جاء لينين الى لننجراد من سويسرا .. ودخل على عربة مصفحة .. العربية ما تزال فى مكانها ولهذه العربية نماذج فى كل المتاحف السوفيتية وفى مدينة لننجراد تسلك الشوارع الى البارجة (أورورا) .. البارجة ما تزال فى مكانها .. والبارجة هى التى أطلقت أول قذيفة إعلانا بقيام الثورة .. ومن راديو البارجة سمع العالم كله سقوط الحكومة ونجاح الثورة البلشفية .

وفي لننجراد عاش ومات الشاعر بوشكين .. وبيته متحف .. وأمام تمثاله تتكدس الورود وأغصان الشجر .. فكل مواطن روسي يقطف زهرة أو يقطع غصنا ويضعه عند قدمي الشاعر بقصد أن يقول له بشكل عملي : السلام عليكم .

والدهشة لا تنتهى : كيف استطاعت هذه المدينة التى كانت خرابا يبابا فى سنة ١٩٤٥ أن تكون بهذا الجمال وهذا النظام والنظافة .. كيف ؟ .. لا شيء الا بالعمل المنظم والا بالايمان بالحياة وضرورة الانتصار على اليأس وعلى الموت .. ويبدو أن الايمان بالحياة أهم صفات الروس .. ففى رواية (عنبر السرطان) لأديب روسيا سولجفيتش الذى فاز أخيرا بجائزة نوبل فى الأدب : نجد المريض الذى لا أمل فى شفائه يقول : ولا يهتمك .. سوف تكون الحياة أحسن .. ممكن ..

وفى قصة لتولستوى عن مريض آخر بنفس المرض .. وهو يعلم أنه لا أمل فى حياته يقول بالحرف الواحد : من قال أنه لا أمل .. سوف يكون هناك أمل .. فواحد على الألف من الأمل هو أيضا أمل ..

ومن أهم معالم مدينة لننجراد متحفها الكبير الذى يسمونه — متحف المتاحف — ففى المتحف لوحات وتمائيل من جميع أنحاء العالم ومن كل العصور .. ويضم عددا من القصور .. وقد انشأته الامبراطورة كاترين الثانية لنفسها فى القرن الثامن عشر .. فقد اشترت مئات اللوحات وقررت أن تضع هذه اللوحات وحدها .. أو تكون وحدها مع هذه اللوحات ولذلك فهى التى أطلقت عليه اسم « أرميتاج » أى الدير .. ولكن الدير كبر واتسع حتى أصبح أكبر متحف فى العالم .. أو من أكبر متاحف الدنيا .. ومن أفخمها أيضا ..

وذهبنا مع مترجمة جديدة . وسرنا وراءها . أو على الأصح جرينا وراءها فكانت تدخل القاعة التى تدوخ أى فنان وتمر كالسحابة بسرعة .. وتساءلنا : أننا لا نكاد ننظر الى اللوحة بل الى القاعة ، حتى تكون المترجمة قد تزحلق على الأرض اللامعة ، الى قاعة أخرى وعصر آخر .

ولكن عرفنا بعد ذلك أن المترجمة لو وقفت أمام كل لوحة نصف دقيقة ولدة سبع ساعات يوميا لظلت كذلك تسع سنوات لا يتخللها يوم واحد إجازة .. ففى المتحف أكثر من مليونين ونصف مليون لوحة وتمثال ..

وعلى المدخل توجد بعض نصائح الامبراطورة لصديقتها : اخلعى قبعتك .. لا تشربى كثيرا حتى لا تحطى شيئا .. ابتسمى فان غضبك يفسد جمال المكان ..

ولا بد أن تعود بعد هذه الرحلة الثقيلة فى الزمان والمكان الى الفندق للراحة .. ولكن الراحة ليس لها معنى .. فلا أرجلنا أرهقت ولا أجسامنا ..

ولكن فقط لكى نخلع الحذاء الساخن والملابس الثقيلة . . ونرتدى ملابس أخف وحذاء عاديا . . ولا أفعل أى شىء بعد ذلك سوى أن أبقى فى الفندق . . أنقل من مطعم الى كافتيريا . . الى محل للبيع بالعملات الصعبة . . المحلات مليئة بالسجائر الأمريكية . . الفراء الروسى قليل . . أنهم يصدرونه للخارج . . الكافيار نادر بالعملة الصعبة . . أنهم يصدرونه أيضا . . المرجان والعنبر قليل . . أنهم يصدرونه أيضا . . أو أقبل عليه الناس فلم يبق منه الا القليل . . لم أنحقق من ذلك . .

وفى احدى الليالى ذهبنا الى مسرح الباليه — شىء آخر هذا الذى يسمونه الباليه . . ان فى روسيا أعظم فرق الباليه . . أحسن راقصات وراقصين . . ولذلك عندما رأيت فرقة كييف فى القاهرة أحسست أننى أنفجر على فرقة البحيرة للفنون الشعبية — فرقة كييف لا يمكن مقارنتها بفرق موسكو ولتنجراد . . وفى كل مرة كنت أسحب يدى عن التصفيق لفرقة باليه كييف . . لولا أننى تذكرت جملة لأوسكار وايلد يقول فيها : لا تظم العازف على البيانو أنه يبذل أقصى ما يستطيع .

فهم يبذلون أقصى طاقاتهم لكى يمتعوا الناس . . ولذلك يستحقون التصفيق .

واذا أنت أبديت إعجابك بما حقق الروس وما يحققونه من أعمال فأنهم لا يخفون عنك أنهم يريدون أن يفعلوا ما هو أحسن . . ويذكرون لك هذه النكتة : ان أحد العلماء اخترع أكسيرا يعيد الحياة الى الناس . وفكر العلماء من الذى يستحق أن يقدموا له هذا الاكسير لكى يعود الى الحياة . . ثم قرروا أن يعطوا هذا الاكسير للزعيم لينين . . وصحا لينين من الموت وعندما ذهبوا اليه فى غرفته . . لم يجدوه . . وانما وجدوا ورقة عليها هذه العبارة : قررت أن أعود الى سويسرا لأفكر فى ثورة جديدة !

حديث البخارى ولبخار.. والمآذن والمدافن

كلما شكونا من البرودة قيل لنا : غدا تسافرون الى الجنوب .. الى طشقند وبخارى وسمرقند . فهناك ستجدون الشمس ، يا بختكم .. والدفع ، يا سعادتكم .. والفاكهة ، نحسدكم .

ومع هذه الكلمات لمعان في العين واحمرار في الوجنتين . ونشعر بالدفع واذا شكونا من اللغاة قيل لنا ستجدون من يعرف العربية ، أو الذين تعلموا في الأزهر .. وستجدون نور الدين وقمر الدين وسيف الدين .. ولا بد أننا نعرف ذلك فليس من المعقول طبعا أن يحكم العرب هذه البلاد مئات السنين دون أن ندري .

ومن المؤكد أننا نعرف أن الامام البخارى (٨٠٩ — ٨٦٩) الذى جمع الأحاديث النبوية (٧٣٩٧ حديثا في ١٦ عاما) وقد ولد هنا ومات أيضا .. ونعرف طبعا الفيلسوف الطبيب ابن سينا (٩٨٠ — ١٠٣٦) هو احدى هداياهم العظيمة الى الحضارة الاسلامية والانسانية .. ونعرف ابا بكر الخوارزمى (٩٣٥ — ٩٩٣) الذى اشتهر بأنه كان يحفظ كل الشعر العربى .. ويقال انه ذهب لزيارة الصاحب بن عباد . وجاء الخادم ليقول له : ان سيدى لا يقابل الا من يحفظ عشرة آلاف بيت شعر . فقال الخوارزمى : قل لسيدك من شعر الرجال أو شعر النساء ؟ وذهب الخادم يقول لسيده : فكان رد الصاحب بن عباد والله انه أبو بكر الخوارزمى .. دعه يدخل !

ولا بد أن يشعر الانسان بالدفع الذى معناه أننى لم أعد وحدى مع تاريخ لا أعرفه . ومع لغة لا أدري منها الا بعض كلمات الامتنان والترحيب والتوديع .. فقد أقامت هذه البلاد مجدها القديم على حضارتنا . ولا تزال هذه الحضارة باقية بشكل ما : فى الاسماء وفى بعض الكلمات وفى المساجد التى لم نتحمس لرؤيتها فعندنا منها مئات الألوف . وكنت أتمنى — طبعا —

أن تقع عيني على تلك النسخة النادرة من مصحف عثمان بن عفان الذي نقلوه في أيام تيمور لك من مدينة طشقند الى مدينة سمرقند . ثم نقله الروس معهم الى مدينة بطرسبورج — اسمها لننجراد الآن — ١٨٦٩ . وظل المصحف هناك حتى جاءت الثورة الشيوعية فذهب وفد من المسلمين الى لينين . وطلبوا استعادة المصحف وعاد المصحف الى متحف طشقند . ويقال ان دم عثمان ما يزال على هذه النسخة . ويقال أن ورق المصحف لا يتحمل اللمس . ولكن استطاع علماء الكيمياء أن يعيدوا للورق حيويته . . . وانه سوف يبقى ألوف السنين . . .

ومن الطائفة لا شيء يدل على اننا نتجه الى الجنوب . . نحن فوق السحاب وفوق السحاب توجد الشمس السوداء التي يصفها رواد الفضاء . والناس حولنا لهم ملامح آسيوية . ولكن هذا لا يدل على شيء فأكثر الاتحاد السوفيتي يقع في آسيا ولكن هذه الملامح لا بد لها الأغلبية البارزة في جمهورية أوزبكستان (١١ مليون نسمة) . وأهل هذه الجمهورية يتكلمون عدة لغات من بينها الازبكستية .

وبهذه الجمهورية الصغيرة أكثر من مائة قومية . . ولهذه القوميات لغات ولكن هذه القوميات كلها فقد ذابت في صيغة سياسية واحدة : الاشتراكية ويتحدثون الروسية . وعلى المدى الطويل — ولا أحد هنا يستعجل ذلك — سوف تذوب القوميات واللغات . هذا لا شك فيه فالروس مثل الأمريكيان مشدودون الى المستقبل وهو الحقيقة المؤكدة عند الجميع . .

ولا بد من بعض الأرقام : من بين القوميات الموجودة في جمهورية أوزبكستان : الازبك والروس والطاجيك والقوزاق والتتار — والفتاة التي تراقبنا من أصل تتري واسمها لاريسا بدر الدينوفا صغيرة الحجم لا تبذل أي جهد في الحركة . فهي خفيفة لا تضيق بما تحمله من ملابس ولا تشكو من المشي أو من التعب أو حيرتنا بين أن نقول لا أو نعم للطعام والشراب — أو التركمان وغيرهم .

وهذه الجمهورية تقع على حدود أفغانستان . وكثير من الناس يسألونني ان كنا من باكستان أو من أفغانستان . ولا بد أن يكون سبب ذلك أننا نسرف في استخدام عبارات : السلام عليكم . . أو كلمات شكرا . . تشكرات . . المدن الرئيسية هنا عبارة عن واحات في قلب الصحراء الشاسعة التي مساحتها نصف مليون كيلومتر . وتوصف في الشعر والأغاني بأنها لؤلؤة الصحراء . . كل مدينة قد اختارت لنفسها هذا الاسم أي ان هذه المدن جميعا حبات لؤلؤ أخضر قد انفرط على بساط أصفر . هذا البساط الأصفر أصفر حار صيفا (١٥٠ يوما من العام بلا سحاب) وبارد شتاء . .

وفي المحلات تجد الحلاوة الطحينية . وهذا طبيعي فنحن في بلاد القطن والبذرة والكسب والطحينة . وهنا يوجد ٧٥ نوعا من القطن ويصدرون أربعة ملايين طن سنويا . والقطن هنا يجمعونه بالآلات . وفي هذه البلاد

ملايين من أشجار التوت لأن لديهم الوف الملايين من ديدان القز . وتصدر
١٩ ألف طن من خيوط الحرير . وهى الثالثة دولة فى العالم بعد الصين
واليابان . . .

وهنا توجد أحسن أنواع الفراء — الذى يصدرونه وذلك لا تجده فى
السوق لا بالعملة السهلة ولا بالعملة الصعبة — فهنا أغنام الكاركول . .
وقد التقطت صورة مع هذه الأغنام . واعترف بأن هذه الأغنام حاولت
أن تهرب ولكنى أكرهتها على ذلك . وعوقبت على ذلك بخجل شديد . .
فما معنى هذه الصورة لو نشرتها ؟ ! وتكرر شعورى بالخجل مرة
أخرى . فقد تذكرت اننى احتفظ بصورة مع أخت الكلبة لاىكا التى عرضها
الروس فى جناحهم بالمعرض الدولى سنة ١٩٥٧ فى مدينة بروكسل بعد أن
أطلقوا لاىكا فى قمر حول الأرض . فمن الممكن ألا تكون أختها أو بنت عمها
أو حتى من فصيلتها . . ومزقت الصورتين بعد أن ترك هذا الشعور الخجل
العميق فى نفسى . وكلمة « الكاركول » معناها البحيرة السوداء . فهم
عندما ينزعون جلد هذه الأغنام يفرشونه على الأرض فى مساحات شاسعة .
هذه المساحات تبدو كالبحيرة السوداء المتوجة . . ولكن أهل أوزبكستان
استطاعوا أن يولدوا أغناما وأنواعا كثيرة : بيضاء وزرقاء وبنية ومنقطة . .

وفى الربيع تصبح الطبيعة هنا وليمة لكل عين . فالفواكه كثيرة ومن
الضرورى أن نستسلم للأرقام : يوجد ٦٠٠ نوع من العنب و ٢٤٠ نوعا
من التفاح و ١٤٠ نوعا من الخوخ و ١٤٠ نوعا من الكريز و ٤٠ نوعا من
التين وتوجد هنا شجرة « العناب » التى كان الفيلسوف ابن سينا ينصح
بتناولها للشفاء من أوجاع ضغط الدم والمعدة . وكان يقول انها تعطى القوة
والشباب . . أما الرمان فقد عرفه الرومان هنا . وكانوا ينصحون به .
وكان هوميروس أول من نبه الناس الى ذلك . ومن بعده ابن سينا . .
ولاسباب غير معروفة قيل انه يفتح الشهية الجنسية .

أما البطيخ فهنا مئات الأنواع . . ويقال أن أهل طشقند — عاصمة
أوزبكستان — كانوا يصدرونه الى بغداد فى علب من الصفيح . وكان
البطيخ غالى الثمن . وفى استطاعة أى انسان أن يشتري جارية جميلة
ببطيخة — ليس الآن طبعاً ! .
انتهت معظم الأرقام . .

ويقول مثل شعبي قديم هنا : صحتى ثروتى . . !
اذن فالناس هنا من أغنى أغنياء العالم ، فكلهم فى صحة جيدة . وان
كان أكثرهم يشكو من أمراض الكلى . . والسبب هو مياه نهري : امورداريا
وسيرداريا . . ولكن أى انسان يرتدى الملابس الخفيفة فى هذا البرد
ولا يعطس أو لا يصاب بزكام، فهو من وجهة نظرى فى صحة جيدة .
والناس القدامى هنا يرتدون الطاقية ، تشبه طواقى أسوان التى يرتديها

الروس ، ويلبسون الجلباب ويلفون حوله الحزام . . . وتجتب ذلك سراويل يشبه سراويل قبضايات الشام أو أولاد بحرى فى الاسكندرية . . . والصدر عار رغم البرودة الشديدة . . . والنساء يرتدين ملابس مشابهة . . . وازياؤهن الوطنية من الألوان الصارخة ومن الحرير عيبيها الوحيد أنها جميعا من لون واحد ونقشة واحدة . . . وكثير من الجيل الجديد يرتدى البدل ، والفتيات يرتدين التاييرات والفساتين الأوربية . أما الشعر فأسود . . . والعيون آسيوية والحاجبان فارسىان أو تركيان . والشوارب مغولية . . . والوجوه ضاحكة . . . أو على استعداد لأن تضحك .

اذن هذه طشقند . الشوارع واسعة . العمارات مرتفعة . . . والأوناش تعلو وتهبط فى كل مكان . ولم يعد أى أثر لذلك الزلزال الذى هدم المدينة يوم ٢٦ أبريل سنة ١٩٦٦ . فقد تعاونت كل الجمهوريات الأخرى على بناء طشقند . . . جاء الخشب من لننجراد والمسامر من موسكو والعمال من أوكرانيا . وفى ذلك العام سجلت المراسد ٧٠٠ اهتزاز . ولكن الـ ٧٥ ألف أسرة التى شردت ، وجدت لها بيوتا . وتغطت المساحة التى هدمها الزلزال بالعمارات والمساكن الشعبية (المساحة المهدومة ٢٠ مليون قدم مربع) . وفى أحد شوارع طشقند يوجد تمثال لأول رائد فضاء : جاجارين هزنى التمثال لأسباب خاصة . فالتمثال يشبه تماما تلك النقوش التى اكتشفها العلماء فى كهوف صحراء التسيلى فى جنوب ليبيا . . . وجه جاجارين وراء الخوذة وقوامه القصير . كأنه هو الذى صوروه من ٢٧ ألف عام فى جنوب ليبيا وبالألوان انملاحة ووقفته تشبه ما جاء على لسان أشعياء فى الكتاب المقدس عندما رأى رواد الفضاء لأول مرة عندما هبطوا من السماء بالقرب من بغداد ، ومن الوف السنين !

وفى طشقند ، كمعظم المدن والعواصم فى الاتحاد السوفيتى ، يوجد مسرح ودار للاوبرا وفرقة للباليه وفرقة للفنون الشعبية ومتحف للينين . فيه كل شئ عن حياة لينين : طفلا ورجلا ، حيا وميتا ، مكافحا وحاكما . . . صورة ليده وخط يده . . . صورة لعربته التى دخل بها لننجراد . . . صورة لجنازته . . . وهذه الصور من الممكن أن تضاء وأن تسمع شرحا من خلال جهاز تليفزيونى . وفى المتحف قاعة سينما رائعة .

ومدينة سمرقند قد احتفلوا بمرور ٢٥٠٠ سنة على انشائها . وافتتحوا لهذه المناسبة فندقا ضخما ومطارا عظيما . وتصادف عندما نزلت فى فندق سمرقند الجديد ، أن كانت هناك مؤتمرات للحزب الشيوعى . وكان معنى ذلك أن يحجز المطعم لأعضاء المؤتمر . أما نحن غير الاعضاء فلنا مكان آخر . . . أحسن الطعام والشراب والموسيقى لهم . أما نحن فعلينا أن نذهب الى مطعم صغير آخر . . . ووجدناه أجمل والطف فنحن أحرار فى أن ندخل وأن نخرج كما نريد وأن نتكلم أيضا . ومن المناظر الطريفة أنهم كانوا يعرضون الحلوى أمام الفندق : التورتات والجاتوهات . . . هناك تورتة على شكل سفينة القمر

السوفييتية لوناخود . . والناس يشتررون من امام الفندق . . فالجو أكثر برودة من أى هريجيدير . والهواء نظيف . ولا داعى لأن يدخل أى انسان الفندق ما دام كل الذى يريده هو بعض الحلويات . . لا توجد حلويات خاصة . وانما يوجد طعام قومى اسمه بيلوف من الأرز واللحم . لم يعجبني فاللحمة تحتاج الى قضم والأرز غارق فى التمن والظاظ . . أو لعل الذى اسمه ظلط هو نوع من الأرز المحمر جدا . ربما . . وهناك نوع من الكباب اسمه الشاسيك . أما الشورية فهي مقبولة وكلها من البصل والطماطم وتساعد على النوم — شكرا لها على ذلك !

الجو دافئ . وفى ذلك الكفاية . أما المساجد هنا فهي لا تهزنى ولكن هذه المساجد لها قصص . فهناك مساجد لها مآذن منفصلة . بعيدة عن المسجد نفسه . واحدة منها قد مالت ، مثل برج بيزا الايطالى ، وقومها المهندسون . هناك مسجد له سلام . والذى يخطىء فى عددها فهو انسان خاطيء . . أى له خطايا . ومن الذى بلا خطايا ؟ وهناك مسجد عليه عبارات للفيلسوف الاغريقى سقراط وباللغة العربية . . يقول سقراط : الدنيا فانية — عبارة عادية لا تحتاج الى أن تنسبها الى سقراط .

وهناك مسجد دفن فيه تيمور لك . وقد نصح بألا ينبش أحد قبره . ولما نبش الروس قبره سنة ١٩٤١ اشتعلت الحرب الثانية . ولكن اكتشف العلماء أن تيمور لك فعلا كان أعرج ، أو كانت له ساق أقصر من الأخرى — مثل مارلين مونرو !

وهناك مسجد فى مدينة بخارى كان الناس يلقون فيه بشكاياتهم الى صاحب الضريح . وكان صاحب الضريح يجيب على رسائلهم كتابة . واكتشفوا بعد ذلك أن رجلا آخر هو الذى يفعل ذلك !

أما الرجل الذى ضرب الأرض فأخرجت ماء ، فاعتبره الناس من أولياء الله الصالحين . فما أعظم الماء لأناس يعيشون فى الصحراء . وأقاموا عليه منجدا . وأقاموا بيوتهم حوله . ولكن الماء لم يعد يخرج من الأرض . . ولكن على مدى أمتار وكيلو مترات توجد أكبر محطات توليد المياه والكهرباء فى كل الاتحاد السوفييتى . فالماء يخرج من الأرض ومنه الكهرباء ، وما لا نهاية له من أشجار القطن والفاكهة والأعشاب .

وفى « المدرسة » المشهورة يوجد عدد من الطلبة الذين يدرسون الشريعة الإسلامية . فبعضهم كان يدرس فى القاهرة . وقد حملونى السلام والتحية الى أساتذة لهم فى الأزهر . وكلية الشريعة ودار العلوم . وعندما أبدت لهم عدم معرفتى بكل هؤلاء الأساتذة اندهشوا جدا كيف لا أعرف الدكتور عبد السلام والدكتور عبد الحميد . . وكان لا بد أن أؤكد معرفتى الشخصية بهم ولو اسع الوقت لتطوعت بنقل أعجاب هؤلاء الأساتذة بهؤلاء الطلبة المخلصين الذين يسجلون القرآن على أشرطة . بعض هذه الأشرطة نقلوها من إذاعة مكة . وأكثرهم لا يفرق بالضبط بين صوت الشيخ مصطفى

اسماعيل والشيخ الحصرى . . ولكنهم جميعا يستمعون الى اذاعة صريت
العرب . . اما الصور التى على الجدران فى غرفهم الخاصة فهى لجمال
عبد الناصر . . وكان جزنهم عليه عميقا !

و امام المدرسة توجد محلات لبيع الأقمشة والفاكهة . وطلبت من المترجمة
أن تسأل عن : تفاح الأمير . . وسألت . وكانت الدهشة على وجوه الناس
تؤكد عدم الفهم . . وعادت المترجمة تسألنى : صحيح ما الذى تقصده
بتفاح الأمير ؟

فقلت لها : اننى فقط احاول أن اكون ظريفا . .
فقالت : ولكنهم لم يفهموا . عندهم نفس الاستعداد . بشرط أن تتفق
على معانى الألفاظ !

معك حق فنحن لم نتفق على معانى الألفاظ ، لا هنا ولا فى أى مكان فى
العالم . والا ما معنى هذه الكلمات : الحرية . . الواقعية . . الديمقراطية
الاشتراكية . . العدوان . . السلام . . الحرب . . وألف كلمة أخرى !
وكل الذى أردت أن أقوله هو أن عندهم حكاية عن أحد حمامات السباحة
.. وكان الحمام يموج بالفتيات الجميلات العاريات . وكان اذا أراد أن
يختار منهن واحدة ألقى عليها تفاحة . . فتأكل التفاحة وتخرج ليأكلها الأمير
.. ويبدو أن الأمير قد أخذ معه التفاح والفتيات الجميلات . . وبقي الحمام
جافا !

وضحكت بائعة التفاح عندما شرحت لها النكتة و « الخلفية » التاريخية
للأمير . . وضحكت أنا أيضا : أن بائعة التفاح قد ضحكت لأنها لم تفهم
النكتة ممكن !

وليس من المعقول طبعا أن أربط المرافقة والمترجم ، الاثنين معا ، فى
الراديو ليترجما لى كل الأغانى التى لا تتوقف من السابعة صباحا حتى منتصف
الليل . أما نشرة الأخبار فقد ترددت فيها كلمات أعرفها ، وأعرف الموضوع
طبعا : الرئيس السادات . . الرئيس بوجدورنى . . أسوان فالمناسبة عن
احتفالات السد العالى .

أما الأغانى ذات الموسيقى الشرقية الجميلة الشجية فقد سمعت أصواتا
أخرى كثيرة مشابهة لها : الأغانى التركية والفارسية والهندية . أنها ليست
غربية عن أذننى ولا عن قلبى . . وهى أيضا حزينة . وكل أغانى الحب
لا تخلو من الحزن : الحب والشوق الى المحبوب والخوف على الحب من
الزمن والخوف من الزمن على حياتهما معا ، وعلى الأسرة والمستقبل . .
أنها أغنيات شرقية صميمة أى عميقة الحزن والأسى !

وفهمت من الشبان الأدباء الذين قابلتهم أن كل شىء يتغير نحو الأحسن
وأكثر شىء أسعدنى أن وجدت بعض كنى فى أيديهم . وأن واحدا منهم يعد
رسالة جامعية عنى — اننى أعلو على الأرض بضعة أمتار من الفرحة —
ولم أعرف ما الذى أصنعه فى مثل هذه الحالة سألت ان كان من الممكن تقبيله

على وجنتيه كدليل على فرحتى به .. أو بنفسى . ثقيل : إنه من الممكن أن أقبله فى وجنتيه وفى شفتيه أيضا وفعلت !

وفى احدى الليالى والموسيقى والكلام الحزين الذى لا أعرف معناه أمسكت كتابا عنوانه « رسائل عن الحب » وباللغة العربية . والمؤلف اسمه عادل طوطوى وهو أديب تترى والكتاب طبعت منه مليون نسخة ثم حوله عبد الرحمن منسى الى مسرحية . وحوله الموسيقار جودة فيظى الى أوبرا . الكتاب تحفة أدبية رقيقة حزينة ومليئة بالايمان بالمستقبل . والأمل فى مجتمع أفضل ما دامت الأسرة قائمة على الحب وعلى الأبناء وعلى حب الوطن والكتاب رسائل كتبتها فتاة اسمها عالية الى حبيبها اسكندر . الفتاة أحببت اسكندر وأنجبت منه فتاة اسمها قدريّة . وولدين آخرين .. وانفصل الزوجان ولكن الزوجة كينبوع ماء عميق .. ولأنه عميق فانه يندفع الى أعلى بقوة .. فهي مندفعه دائما الى أعلى .. الى السماء . تقول الفتاة أنا الفتاة اليتيمة التى لم تر السعادة الا فى الخيال ، ولم تقرأ عنها الا فى الأساطير ، وكثيرا ما أغرنتى أحلام اليقظة .

وتقول عالية : ان الحب يضىء على المرء مزيدا من الجمال .. فحينما ولا نفكر الا فيه ، ذلك أن سعادة الحاضر وايماننا بغدنا لا تتركنا لنا مجالا لنذكر ما مضى من لحظات .. فالتفكير فى الماضى يبعث على الحزن واليأس .. » . وعندما تحدثت عن حبها لزوجها ، أو للرجل الذى أصبح بعد ذلك زوجها تقول : اننى أتذكر ما قاله الشاعر عبد الله توفيقى الفازانى (١٨٨٦ - ١٩١٣) .

تكتمت هذا العذاب الذى

يخرق فى مهجتي اذ سرى

تكتمته وأنا حائر .

ترى هل سوائى بهذا درى ؟ !

وتقول عالية : ان الحب يضىء على المرء مزيدا من الجمال .. فحينما دخلت الغرفة ، بعد أن قبلتنى ، بادرت الى النظر فى المرأة ولارى وجهى .. وجدت حدين كتفاحتين ، وعينين متالقتين . وقلت لنفسى : اننى حقا جميلة .. ان كارل ماركس نفسه ، ورغم أعبائه ، كان يجمع الأغاني الشعبية ويهديها الى زوجته مع هاتين الكلمتين : « هدية لقلبي ! » .

وتقول : اننى أصدق ما قاله الكاتب الفرنسى أناتول فرانس « لكى تحب حقيقة ، يجب أن تحب كثيرا .. نعم كثيرا لا كثيرات .. ولا كثيرين ؟ ! »

وتقول : كنت أظن أول الأمر أن الحب سوف يعطلنى عن درسى ، ولكن الحب الحقيقى مرتبط بحب العمل أيضا ولذلك كنت أشعر بقوة جديدة كلما رأيتك .. فالمحبة الحقيقية لا تطور الانسان فقط ، وانما تطور البلاد أيضا ..

ومن أعجب ما جاء في هذه القصة الجميلة ان عالية هذه اتفقت مع زوجها على شيء غريب . اتفقا على ان يكون هناك « دفتر للعائلة » يكتبان فيه متاعبهما اليومية . ثم كيف استطاع كل منهما حلها . وهذا الدفتر هو سجل لماضي هذه الحياة وعليهما ان يتركا ذلك لأبنائهما . فان كان الذى جاء فى الدفتر معقولا استحق الاثنان من الأبناء كل تحية وتكريم . . وان كان ما جاء به سخيفا ، ففى ذلك ما يضحك الأبناء والأحفاد بهد ذلك . . ولكن الزوج رفض هذه الفكرة . وقال انها خيالية سخيفة . . ولكن الزوجة أصرت على ذلك . . وكتبت لأبنائها فالمستقبل هو ما يشغلها . والمستقبل هو كيف تكون أسرة وكيف تخرج منه أسرة أفضل . . شعب أفضل .

ولكن الزوج من رايه ان المستقبل لأبناء المستقبل . أما أبناء الحاضر فعليهم ان ينشغلوا بأن يجعلوا أيامهم أحسن من ماضيهم . . بأن يجعلوا المداخل أكثر والمزارع أوسع والصحة أقوى والتفاهم أعمق . .

وهناك اسطورة روسية تقول ان فلاحا ذهب يبيع أوزة فى السوق وسبقته الأوزة . واتجهت الى رجل من المثقفين وسألته : يا سيدى ارحمنى من هذا الرجل . ان اجدادى أنقذوا مدينة روما من الدمار . فقال لها المثقف : أجدادك أنقذوا روما . ولكن ماذا صنعت أنت ؟

قالت : ان اجدادى يستحقون الاحترام . . وأنا أيضا . وقال الرجل : فعلا أجدادك يستحقون الاحترام . . ولكن ما شأنك أنت . . أنت تستحقين البيع والذبح والاكل بعد ذلك !

ثم هذه النقطة الروسية أيضا : يقال ان أحد القادة السياسيين جمع حوله الناس وراح يخطب فيهم فقال : فى السنة القادمة سوف يكون لكل مواطن مئتين مارك . وفى السنة التالية سوف تكون عنده سيارة . . أما فى نهاية الخطة الخمسية الأولى فسوف يكون لكل مواطن طائرة .

ثم جلس الخطيب . وسأله أحد المواطنين : ولكن لماذا طائرة ؟

وكان رد الخطيب : لكى يتمكن من شراء التفاح من جمهورية أخرى !

نصيحة : ساخر بلا عقاب .. هذا أفضل

عندما ذهب الأديب جوركى لزيارة تولستوى ، أطلق عليه تولستوى عشرات من الأعيمة الفارية — أقصد الأسئلة : ما رأيك في نفسك . ما رأيك في زوجتك ؟ هل تعتقد أن ابني موهوب ؟ هل أنت راض عن نفسك ؟ ما هي آخر قضية تناقشها وسوف تعرضها في قصة ؟

يقول جوركى : وأحسست أن هذا الرجل لا تربطه بى أية علاقة إنسانية .. اننى عينة بشرية فى أحد معاملته وأننى تحت التجربة .. وأنه يفكر أكثر مما يجب . ولعنت فى سرى صناعة الأدب التى تجعل رجلا عبقريا مثل تولستوى بهذه الوحشية ..

ويقول جوركى : اننى أتذكر عبارة للفيلسوف الألماني نيتشه يقول فيها : « ان كل انسان هو عبد ذليل لأحد المبادئ الأخلاقية .. أما أنا فأقول أن الأديب خادم لمومس .. لا يحترمها ولا يخبها .. وأكثر من ذلك أنه لا يعرفها .. لماذا ؟ لأنه من الضروري أن يقول .. وإذا حاول ألا يقول ، فإنه سوف يقول ذلك مرة أخرى ! » .

أى أننى لا بد أن أقول .. لا بد أن تتحول الدنيا الى كلمات .. والناس الى حروف .. وقطرات العرق والدموع الى نقط وفوق وتحت وبين الحروف . وأصعب من ذلك أنه لا بد لى أن أختار من الذى أقول عنه أو تقول عليه .. أو أقوله .. لقد قابلت الكثيرين . وأكثرهم لم يترك فى نفسى أثرا عميقا لم يتسع لنا الوقت أو اتسع الوقت ولم يتسع الصدر . أو اتسع الصدر ، واعتذرت اللفة التى لا أعرفها ، أو التى لا يعرفها .. والنية الطيبة لا تصنع أدبا !

ولا بد أن أختار .. كيف ؟

تقول ملحمة روسية قديمة عن الأمير ايجور أن الساحر العظيم كانت له طريقة فريدة في اختيار الشخص الذى يغنى أو يتغنى بالتاريخ المجيد للأمير وأسرته .. وكان الساحر يتسلل الى أحد الأشجار .. ومن هذه الشجرة يطلق عشرة من النسور .. وقبل أن تنطلق النسور يطلق أمامها عشرات من طيور البجع .. والنبجعة الأولى التى تقع فى مخالبا أمهر النسور هى التى يجب أن تغنى .. أى انه يحكم عليها أن تغنى . ومحكوم عليها مرة أخرى أن تغنى أمجاد أسرة الأمير . أو بطولات التاريخ الروسى القديم .

ولم أجد أننى فى حاجة الى سحر ساحر ، ولا الى براعة النسور .. فطيور البجع هناك .. فى كل مكان أسأل أى انسان وأنت تعرف حكاية هؤلاء الناس ..

أول واحد .. كان أديبا قادمًا منذ أيام من فيتنام .. اسمه ماريك .. من أصل بولندى .. شعره أسود تدلى على قفاه .. أنه ليس أحد الخنافس ولا هو يقصد الى ذلك . وهو فى غاية الهدوء ويتكلم الفرنسية ، وتحس أن كلمة « فنان » تنطبق عليه تمامًا . هذا اذا كان المقصود من هذه الكلمة انه انسان بسيط .. وان هذه البراءة والطفولة التى على وجهه هى طبيعته ، وليست قناعا أعد لاستقبالنا . ويبدو أنه أحس أن اللغة الفرنسية تسعفه فى الدلالة على طبيعته أو على مدى محبته لفيتنام .. أو اندماجه فى صراعها ، أو فى الكتابة عن هذا الصراع . فقد دعانا الى بيته . انه أول روسى يدعونا الى بيته مع الأسف .. وهو يسكن فى شقة صغيرة من ثلاث غرف صغيرة . الشقة كلها تؤكد انه أحد السعداء بخراب بيت فيتنام . فقد جمع من آثارها الشيء الكثير . من بيوتها ومناحفها . ونقل ذلك الى بيته وعلقه على الجدران مع عظيم الاحترام والامتنان لا أعرف ربما كانت هذه التحف عهدة لديه . وسوف يعيدها الى فيتنام بعد إزالة آثار العدوان الأمريكى عليها . ولكن لم أفهم منه ذلك ، وانما أنا أجتهد فى تفسير هذا المتحف الصغير الذى فوجئت بوجوده . احدى الغرف مكتبه — .. والغرفة الثانية للنوم .. أما الغرفة الثالثة فهى المطبخ . وهى أبسط وأجمل غرف البيت . فالمنضدة الصغيرة ، التفننا حولها أما الجدار الذى وراءنا فقد ازدان بزجاجات الشراب الفارغة من كل الألوان والأحجام والبلاد . أما الطعام الذى أمامنا فيمكن أن يوصف بأنه ترجمات مختلفة لكلمة واحدة هى : الشطة .. ولكى أكون أمينًا فاننى لا أقول أنها ترجمات وانما هناك اقتباس خفيف واقتباس عنيف فالفودكا قد وضع فيها الفلفل .. والجبنه قد وضعت فيها الشطة ، والسمك قد حشاه بالفلفل الأحمر والشطة والبصل والثوم .. والصلصة ان لم تكن من النار الخضراء ، فلا بد أنها من الخضروات النارية .. والبيت دافئ جدا وتعالى صيحات الألم : آه .. آف .. النار .. ويبدو أن صديقنا الأديب الروسى قد توقع ذلك ، فأعد لهذه المناسبة زجاجات المياه المعدنية ..

وهو روسي أولا وآخر . . ولذلك يجب أن ترتفع الكؤوس في أيدي الحاضرين ليشرّبوا في نخب الصداقة والمحبة والسلام . . وكانت الكؤوس ترتفع لتسقط بسرعة . . ولا تلبث أن تتراخي في الارتفاع . . وعمليات النفخ والصراخ فالكؤوس تمشي في اتجاهين متضادين : النفخ فوق والأكواب تحت ! كان رقيقا هذا الأديب السوفييتي وبلغ من رفته أنه جاء لوداعنا . . أشكره ألف شكر على ذلك . . فقد كان مريضا . ورغم مرضه الذي أحمرت له عيناه وشفتهاه ووجنتاه وأنفه أيضا . فقد جاء ليقول لنا : الى اللقاء . . وهزنى موقفه هذا . ولما قلت له ما كان ينبغي أن تكلف نفسك كان هذا التليفون يكفي . ولكنه قال : آه لو تعلم . . اننى مصاب بانفلونزا آسيوية ! يا نهار أسود . . انفلونزا ؟ ألم يجيء اليك تقرير من القاهرة يقول لك اننى من أشد الناس خوفا من الزكام ألم يترجموا لك اننى عندما جئت الى موسكو منذ خمس سنوات زففت الى الناس اكتشافا عظيما : ان ميكروب الزكام لا يعيش في الجو البارد تحت الصفر . وان شجاعتي في الخروج الى الشارع في موسكو وبلا جوائتى سببها ايمانى الشديد باستحالة الزكام . . انها كارثة اذن . . سوف أصاب بالزكام وأظل نائما في غرفتى كل الأيام الباقية من هذه الدعوة الكريمة لا أعرف ما الذى فعلته عندما سمعت منه ذلك . . ولكن فككت العناق الحار وانطلقت الى الشارع لكى أقضى على الميكروب في الجو البارد . . واكتشفت أنه من الممكن أن أقضى على الميكروب بأسلوب آخر . . يكفي أن أموت أنا ، فلا يجد الميكروب ما يعيش عليه ، وبذلك أنجو من الزكام !

ثم عدت من الخارج لأعطيه يدي وأشكره على روحه النبيلة . . وفي ذهنى معنى هو خلاصة مركزة لخيبة الأمل : فقد عرفت الآن أن ميكروب الزكام يعيش وينتشر تحت الصفر . وهذا الأديب دليل على ذلك . وتخيلت اننى أخرجت من جيبى ورقة كتبت عليها أسماء بعض الناس . . ثم أخرجت من جيبى عود كبريت وأحرقتها . . وتخيلت أن ساحرا أعطانى نائما ورحلت أقلد نيرون سغيذا باحترق كل هؤلاء الناس الذين دعونى لزيارة روسيا !

ومن العجيب اننى لم أصب بالزكام حتى وضع هذه النقطة في نهاية هذا السطر .

كان في نيتى أن أكتب عن فرحتى بلقاء الشاعر الفلسطيني محمود درويش وكيف أمضينا ساعات في موسكو نتبارى في اليأس . . ثم توقفت عن هذه المباراة . . لأن التوقف معناه اننى يأس من المباراة في اليأس . . لقد تفوقت عليه !

وعلى مدى خمسين كيلو مترا من مدينة ليننجراد ذهبت لزيارة أحد قصور الثقافة . . أو احدى استراحات الأدباء . . فالأدباء يذهبون الى هذه الأماكن « ليفرخوا » أفكارهم . . أما الأديب الذى سافرنا اليه فهو من

الاسكيمو . وقد سمعنا قصته على مسمع منه . . فهو من أسرة بدائية . علم نفسه وساعدته الدولة . وهو أحد مؤلفي القصة القصيرة المشهورين . وقد استمعنا الى احدى قصصه من اذاعة صوت العرب . زوجته روسية ، وابنته كانت تجلس معنا وأبوها يسمح لها بأن تشاركه في شرب النبيذ . . وفجأة تحول الكلام الى الجنس . . وكان مكشوفاً ، وقد رفضت المرافقة لنا أن تترجم النكتة النابية جداً التي قالتها زوجة الأديب . . وهنا تخرج الأب ، ولم تخرج الأم . وطلب الى ابنته أن تخرج لأي سبب . . كأنه فلاح من أرياف القطب الشمالي . . ولم نناقشه في هذا التصرف . ولكن فهمنا أنه ككل أب محافظ أو أن هذه الروح المحافظة مسألة مرحلية حتى تكبر البنت ، وتتسلم حصتها من الحياة والحرية كأي انسان بلغ سن الرشد !

ويبدو أن الأديب لكي يتمكن من الخلق والابداع محتاج الى هذه العزلة التامة . وقد يبقى هنا أياماً أو شهوراً ، وله حجرة وحمام . . وغيره في هذا البيت كثيرون . أما الزوجات والاولاد فيجيئون في نهاية الأسبوع وبعد ذلك يتركون الأديب ينفرد بنفسه وبفنه . . وهي عزلة عن المجتمع لكي يعود اليه . . أو لكي يعود بصدى المجتمع الى المجتمع فالفن صوت المجتمع وصداه أيضاً !

وتلفتنا نحن بعضنا الى بعض ودون أن ينطق واحد منا بكلمة تنهدها معا وقلنا : يا ريت !

ولم نتفق على معنى « يا ريت » هذه . . فنحن أمام غرفة دافئة . . وأمام طعام بسيط . . وأمام أب من الاسكيمو . . وفي قصر كبير . . وفي غابة جليدية . . وجو صحو . . وهدوء عميق . . ورجل يكتب . . أما الذي دار في رأسي فهو : يا ريت أشوف أديبا أكبر ! .

وخطر لي أن أطلب رؤية الأديب الروسي الكبير شولوخوف مؤلف « نهر الدون الهادئ » والفائز بجائزة نوبل . وأعلنت عن هذه الأمنية . ولكي تعرف غراية هذه الأمنية وشذوذها ، دعني أنتقل الى محطة مصر بالقاهرة . تخيل الآن تلميذا جاء من أقصى الصعيد . . ونزل من القطار . . وخرج الى ميدان المحطة وأول شيال رآه سألته : قل لي يا عم هو من بيت طه حسين ؟ !

كأننا هذا التلميذ الصغير وكأننا طلبنا شيئاً خرافياً . . والحقيقة لم أفهم أين هي الخرافة ؟ فنحن لم نطلب رؤية تولستوي الذي مات من ستين سنة . . ولا أظن أن المسافة بيننا وبين شولوخوف بعيدة الى هذه الدرجة فلا هو كبير جداً ولا نحن صغار جداً . . ولذلك تعاوننا جميعاً على دفن هذه الامنية . . وأجلناها الى ما بعد وفاة شولوخوف !

في طشقند كان المرافق لنا ابناً لأحد رجال الدين المسلمين . . والطاوية التي على رأسه دليل على ذلك . وقد وعدنا برؤية والده في أقرب فرصة ولا أذكر الآن لماذا لم نتمكن من ذلك . . وكان من نصيبي أن ننام في غرفة

واحدة . ولم أتصور أنه ظريف ومرح الى هذه الدرجة .
وفي احدى الليالى تمددت على سريري . . وتمدد هو على سريريه .
وأخرج من جيبه ورقة يقرأ فيها : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله
الرحمن الرحيم . . انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام
الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله » وكان ينطقها بصورة مضحكة .
وكنيت أصوب له طريقة النطق . أما المعنى فهو لا يعرفه ولا يعرف من اللغة
العربية الا الكلمات التى بقيت فى اللغة الزبكية .

أما لغته الانجليزية فهى اقرب الى الأوامر العسكرية . فقد أخرج من
حقيبته كتابا فى اللغة الانجليزية . وفجأة جلس على السرير وقال : القراءة
أى سأتبدا فى القراءة وقرأ وصوبت له نطقه .

وبعد أن قرأ اعتدل على السرير ليقول : المعنى — أى أرجوك أن
تشرح لى المعنى .

وبعد أن شرحت له المعنى تمدد وألقى بالكتاب على الأرض وهو يقول :
النوم — ثم نام !

أما اسم هذا الشاب الظريف فهو : نور الدين سيف الدين ولكنه لا يعرف
كيف ينطقها وانما يقول : نور الدين زيف الدين . ولما شرحت له الفرق بين
زيف الدين وسيف الدين عدل تماما عن النطق القديم . وأخذ يسألنى عن
كثير من الأسماء والكلمات العربية والاسلامية الموجودة فى لغته ، صحبت له
نطق كثير من هذه الكلمات — صحبتها لشخص واحد سوف ينساها بعد
سفرى .

وسألنى : ما هى بالضبط ملامح العربى ؟

فقلت له : بالضبط كملامح السوفييتى .

وقال : ولكن السوفييتى ليست له ملامح واحدة . . لأن السوفييت كلمة
سياسية . .

فقلت : وكذلك العربى . . فنحن — مثلكم — خليط من اجناس واللوان
أوربية وآسيوية وأفريقية . . من ألوف السنين !

وسألنى : هل تتزوجون أكثر من واحدة ؟

قلت : ممكن . . ولكن ليس كثيرا .

— والطلاق ممكن ؟

— طبعاً .

— وكل الناس يصلون فى المساجد ؟

— بعض الناس .

وفجأة جلس على السرير ليقول : القراءة . .

فصرخت : النوم !

وأول مصرى يدعونا الى بيته كان الهادى كامل أنور — ابن الفنان
الكوميدي المعروف — أما خطايات الأب فهى صفحات من أدب الدنيا والدين
ملئمة بالآيات والأحاديث . وكلها تدعو الابن الى التمسك بالعروة الوثقى . .

يجبل الله . وأن من جد وجد . . . واغسل يديك قبل الأكل وبعده .
وهذا الشاب ليس في حاجة الى أن يشرح لك طبيعة قلبه وصفاء نفسه
وإيمانه بالله . وتقديسه لوالديه فكل ذلك واضح ، ولا يتعب من أن يقول :
أن والذى قد تعب كثيرا ولا يزال ، وأنه يستحق التكريم . . . وربنا يقدرنى !
وكان من الواجب أن نتناول الغداء عنده واعتذرنا ، ولا بد أنه أدرك
المعنى فقال : الحمد لله . . . مستورة والطعام هنا متوافر . . . ولن يكلفنى
أى شيء . والى جوارى توجد جمعية استهلاكية ضرورى من الغداء وسوف
أطبخ كل شيء بنفسى . . . فقد تعلمت من والدتى كل شيء . . . وآخر خطاب
تلقيته منها كان عن كيفية صناعة « كباب الحلة » .

وكانت فرصة أن نزور بيت مبعوث مصرى يجاهد فى سبيل العلم . وقد
وفقه الله الى كثير مما يريد . فهو يتكلم الروسية بطلاقة . وهو متقدم فى
علومه ويلقى التقدير من أساتذته . . . حتى شريكه فى الغرفة الصغيرة فهو
يتركها له معظم الوقت . . . أما الغرفة فهي صغيرة جدا . . . سرير له على
هذا الجانب ، وسرير آخر لزميله الروسى . والمكتب يشغل ربع الغرفة .
والربع الثانى يحتله الدولاب . . . وفى الوسط انحشرت منضدة وحولها
تزاحمنا . . . وعلى موسيقى غناء أم كلثوم انتظرنا . . . وواضح جدا أنه هو
الذى أعد كل شيء فالأطباق غسلها ولا تزال مبللة . وقد تعاوننا على
تحفيفها . . . والملاعق أيضا . . . وبين الحين والحين يؤكد لنا : حالا . . . سوف
نتناول غداءنا . . . بالهنا والشفا . . . اننى أجتهد فى الطبخ . . . ولكن سيكون
لذيذا ان شاء الله . . .

وطلب اليانا أن ننهض لى يتحرك فى الغرفة . . . وفتح الدولاب . . . وسحب
أحد الأدراج ، وأخرج منه صينية بطاطس . . . وكان لا بد أن نضحك . . .
ويسحب الدرج الآخر وأخرج كباب الحلة . . . والدرج الثالث وأخرج الصلصلة
 . . . ووقف على الكرسي ليسحب طشتا صغيرا به أربع دجاجات محمرة . . .
والله العظيم ثلاثا لا بد أن ننتهى من هذا كله . . . وقبل أن يجلس سحب كوما
صغيرا من الأرز المسبك من تحت السرير !

وكان الطعام لذيذا شهيا وكثيرا . . . وجاء الشاى الأحمر اللون بالنعناع
يغطى على التفاح والجاتوه . . . وكان من الصعب أمام هذه الايمان المفلطة
وهذه الروح الريفية السمحة ، أن نرفض أى أرز أو بطاطس أو بومبون
بعد كل هذا !

* * *

انكسرت اللمة الموجودة فى أعلى سريرى فى فندق سمرقند الجديد . . .
وقيل لى فى ذلك الوقت : هل المشرفة على هذا الطابق قد دخلت معك
الغرفة . فقلت : لا . . . فقيل لى : اذن هى لا تعرف ان كانت اللمة مكسورة
قبل أو بعد مجيئك . قلت : نعم . . .

وجمعنا الأزجاج المكسور والقيناها فى اليكونة . . . ولم يتسع وقتى لى
أفكر مرة أخرى فيما حدث ، فقد كان من الأكرم أن أخبرها بذلك ، حتى

لا يدفع ثمن اللبنة انسان آخر لا ذنب له . وان اعتذرت عن ذلك من كل قلبى !

وفي مدينة طشقند تجمعتنا فى احدى الغرف وشربنا الشاي . ونقلنا الاكواب من غرفة الى غرفة أخرى . . وقبل منتصف الليل عاد كل منا الى غرفته . وعندما دخلت الفراش لأنام نهضت لأعرف من الذى يدق الباب . وكان المترجم وفى يده الاكواب التى نقلتها من غرفتى . . وقبل أن أستوضحه قال ضرورى أن تعود هذه الاكواب الى غرفته حتى لا تضايقك المشرقة على هذا الطابق !

وجاء النوم يحول بينى وبين التفكير فى هذا التصرف ولكنى عرفت المعنى بعد ذلك وفى آخر يوم فى موسكو . فقد خرجت من الفندق فى ساعة مبكرة وجاء من يحمل الحقائب . . ودخلت سيدة ونظرت فى كل محتويات الغرفة . البطاطين والملايات والاكواب والبراد والصينية والشماعات . . وجهاز التليفزيون وقالت : هذا التليفون قد سقط منك على الأرض ؟ فقلت لا . . لا أظن ذلك . . !

وخرجت . . وعرفت أنه من الضرورى أن يجرى من « يتمم » على محتويات الغرفة قبل سفر أى نزيل . . والا فلن توقع بامضائها على تصريح الخروج بالحقائب من الفندق !

وقبل أن أذهب الى مطار موسكو عائدا الى القاهرة ، فمن المناسب جدا أن أنقل كلمات للرحالة الأندلسى ابن جبير الذى زار مصر فى نهاية القرن الثانى عشر . يقول ابن جبير عندما رأى رجال الشرطة والأمن يفتشون المسافرين الى الأراضى الحجازية عبر النيل . . يقول ابن جبير : ومن أشنع ما شاهدناه خروج شرذمة من أعوان الزكاة فى يد كل منهم « مسلة » طويلة . . كانوا يصعدون الى المراكب استكشافا لما فيها . . فلا يتركون « عكما » أى غرارة إلا ويتخللونها بالمسلة الملعونة مخافة أن يكون فى تلك الغرارة التى لا تحوى سوى الزاد ، شئ أخفيناه عليهم من بضاعة أو مال . . وهذا أقبح ما يؤثر فى الأحاديث . . وقد نهى الله عن التجسس ، فكيف عن الكشف عن شئ يرجى سقره » .

أما نحن فى مطار موسكو ذهابا وإيابا فلم تفتح لنا حقيبة . . ولكن عندما عدنا الى مطار موسكو كنا فى حاجة الى ابن جبير . . فقد كان يودعنا أحد كبار اتحاد الكتاب السوفييت . . لقد جاء إلينا فى الفندق . وانتظرنا ، ورافقنا . . وأمام الميزان ارتفعت الحقائب . . أما أنا فقد أشار الموظف المسئول الى ضرورة أن أدفع ١٢٠ روبلا . أى روبلين مقابل كل كيلو زيادة فى الوزن . . مائة وعشرون روبلا فى المطار ؟ ! يا خبر . . أين هذه الزيادة فى الوزن : حقيبتان ظننت بالحداقة أننى سوف أستغفل موظفى المطار وأحملهما معى فى الطائرة . . ولا داعى لمعرفة وزنهما . . ! والحقيبتان فيهما كتب — نعم كتب اشتريتها بفلوسى ، عن روسيا وعن الحياة الأدبية والفكرية — أى والله أنا حر طبعاً . . وكان فى استطاعتى إلا أفعل ذلك .

ولكن لا بد من وزن الحقيقتين .. ولا بد من وزن كل ما يحمله المسافر ..
وليس من حق المسافر أن يقرر أن كانت هذه الحقائب سيضعها فوق رأسه ،
أو إلى جواره .. وإنما موظف الميزان هو الذى يقرر ذلك .. أما إذا لم
أستطع أن أدفع المبلغ ، ففى الامكان ترك هذه الحقائب فى المطار ، على
أن تصلنى فيما بعد . أما العجز عن الدفع فمعناه : تكون معى فلوس
روسية ، أو فلوس صعبة غيرها فى المطار .. أو يتعذر وجود مصرى
واحد اقترض منه على أمل أن ادفع له فى القاهرة .. أو يدفع له أحد المبعوثين
فى موسكو .. وأدفع أنا لأهله فى القاهرة .. و أبعث الحقائب إلى القاهرة ،
وأبقى أنا فى موسكو ..

وتطلعنا إلى مندوب اتحاد الكتاب السوفييت .. وكان سعيدا جدا
وسارعنا إلى ترجمة هذه السعادة .. بأنه لا خوف علينا فسوف يحل هو
هذا الاشكال .. ايه يعنى مائة روبل من أجل أديب غلبان ضيف على الاتحاد
السوفييتى .. ثم ان هذه ليست عقبة أمام كاتب سوفيتى كبير .. ووقفت
أمام الميزان ، ووقف الناس وراءنا ينتظرون . وتساءلنا : ما الذى ننتظره ؟
وكان مندوب اتحاد الكتاب أسرعنا إلى الجواب : ادفعوا وسوف ينتهى
كل شىء ويتحرك الطابور ..

ودفعت وتحرك طابور من اللعنات فى داخلى ..
وفى الطائرة أدركت أن الحق ليس معى .. فالقانون هو القانون ..
والأصول هى الأصول .. وتساءلت ان كنا فى مصر نعامل الأدباء السوفييت
بنفس الطريقة .. ففيل لنا : لا .. فقلت : اذن انتهز هذه الفرصة لأحى
فى الأدباء السوفييت حرصهم ، فى كل الظروف ، على تطبيق القانون .. !
هذه النكتة ليست لها علاقة مباشرة بما حدث فى مطار موسكو :

يقول الكاتب الأمريكى آرثر ميلر أنه سمع هذه النكتة من السيدة جاليا
زوجة الشاعر الروسى يفتشنيكو . تقول جاليا : ان زوجها يعتقد أحيانا
أنه مشهور جدا .. وأن هذه الشهرة تبرز الكثير من تصرفاته التى لا تعجبها
.. فهو إذا ذهب إلى المطار يندهش إذا أحد سألته عن اسمه أو عن جواز
سفره .. وفى احدى المرات كان يقود سيارته .. فكسر الإشارة ..
وانطلقت صفارة عسكرى المرور .. واستوقفه وطلب منه الرخصة ..
وهنا نظر الشاعر إلى زوجته وقال : سوف ترين ما الذى يفعله العسكرى
عندما يعرف من أنا ..

وفعلا سألته العسكرى : أنت يفتشنيكو ؟ فقال الشاعر سعيدا : أنا ..
وعاد العسكرى يقول له : كيف تكون يفتشنيكو وترتكب مثل هذه الغلطة ؟
وقال الشاعر : آسف .. كنت أتحدث إلى زوجتى ، ولم التف إلى الإشارة ..
وعاد العسكرى يقول : هذا لا يليق بواحد مثلك .. له أخ يعمل مديرا
للمرور فى موسكو !

فقد كان هناك مدير للمرور له نفس الاسم ، وان لم يكن قريبا للشاعر ..
وانهارت الزوجة من الضحك — وكسر الشاعر إشارة أخرى ولم يتوقف !

عقوقاً كثيرة .. وأذوناً قليلة

استدردنا جميعاً لنرى فتاة ترقص وهى مخمورة جداً وكانت تنهار على صدر سيدة أخرى .. وكان دور هذه السيدة هو أن تعطل قانون الجاذبية فلا تقع على الأرض ..

أما الفتاة نفسها فكانت حريصة على أن ترفع ثوبها الى أعلى .. وارتفاع الثوب الى أعلى معناه أن الفتاة تخرج لسانها لقانون الجاذبية الأرضية وكذاب من يقول منا نحن السادة الجالسين ، إن كان يشغلنا أى شئ غير العبث بجاذبية الأرض ..

وكان كل واحد يخجل من طبيعته ومن نزعاته الغريزية .. دارت مناقشة بيننا .. واحد قال : انها مسكينة .. فهى زوجة .. وزوجها غير موجود .. ومن الطبيعى أن يتبسط نفسها .. ولم يتقدم أحد ليرقص معها فاختارت خماتها .. تصوراً فضيحتها .. !

وقال آخر : ولكن منظر فتاة وهى ترقص مع فتاة أخرى يضايقتنى .. وقتلنا جميعاً فى نفس واحد : وما الذى تقترح ؟

وقال ثالث : الغريب أن أحدا لا يمنعها من الرقص بهذه الصورة . ولا تشىء الى أحد .. بل انها ادخلت السعادة على بعض المتفرجين المصريين الذين يتناولون عشاءهم فى مطعم أرمنى اسمه ارارات فى قلب موسكو . ومعنى ذلك أن من حق أى انسان أن يتبسط على النجو الذى يعجبه لأن ضرراً لم يقع بأحد أو على أحد وكان هذا الراى مبرراً لأن ننسد ونسكت .. ونسكتنا .

ودارت العيون الى مشهيات أخرى ، كل السيقان مليانة قوية . المشى السريع هو السبب .. وفى هذه البلاد من لم يمش يتجمد . والفساتين كلها يثبتت من النزول الى ما دون الركبة .. وان كانت هناك محاولات ..

فقد رأيت أكثر من واحدة أطالت ثنية الديل فنزل الى اقل من خط الميذى .
ولكن لم أر فستانا طويلا فى أى مكان . . وربما لأننا لم نزر زوجات الكوادر
السياسية . . فكل اللاتى رأيتهن من النساء العاديات العاملات الشقيات
بالعمل والتعب .

وعند الخروج من المطعم تطالعنا هذه السيدات يكتسحن الجليد . .
واذا اتسع وقتك فانك سوف تفكر فى « أمر » المرأة الروسية . . وليس
فى أمرها بالضبط ، فهناك ملايين من الرجال والنساء وقد شغلهم هذا
الأمر . ولكن نفكر فقط فى هذا الذى تفعله . انها تقطع الجليد ، وتنقله
وليس غريبا أن تسمع من يقول حولك : هذا هو العمل . . بنات كالقمر .
وأجمل من القمر . . انظروا ماذا يفعلن . . يا عينى علينا وعلى سستاننا . .
لا فى لون القمر ولا فى جماله . . ولا يؤدين عملا . . والتى لا تؤدى عملا
لا يعجبها الحال ولا يكفيها المال . . !

ومن يقول أيضا : انها طلبت المساواة دعوها نشرب . . المساواة
المثلجة . . انها عدالة السماء أن يجرى اليوم الذى تطرد فيه حواء من
الجنة الدافئة الى جهنم الجليد . . أتركوها . . فلن تموت (الأرقام تقول
انه لم يحدث أن ماتت واحدة فى الشارع بسبب اكتساحها للجليد) . . !
ولكن المرأة لا تحس أنها تفعل شيئا غريبا ، ولا الرجال . انها مواطنة
تمارس احدى مواد الدستور السوفيتى : المساواة التامة بين الرجال
والنساء . . من الشارع الى منطقة انعدام الوزن حول الأرض . . ومع
ذلك فلا توجد فى روسيا نساء ممتازات . وانما نساء مجتهديات . . فلا توجد
الا وزير واحدة . . حتى عملها ادارى فقط . . انها وزير الثقافة . . !
والوظيفة الوحيدة التى لم تشغلها المرأة السوفيتية ، ولا المرأة فى أى
مكان ، هي أن تكون قاضية . . !

ولكن ٩٠٪ من المهن الطبية ومهن التدريس تشغلها المرأة . حتى يمكن
أن يقال أن الطفل السوفيتى تربيته سيدة وتعالجه سيدة . . أما ما تبقى من
شئون التربية والعلاج فتتركه هاتان لواحدة ثالثة هي الزوجة . . أو الزوجات . .
وعلى الرغم من هذا الصمت الرهيب الذى تراه على ملامح السيدات
الروسيات فانه صمت ظاهرى . . فإذا اقتربت منها ، وكانت عندك بضع
كلمات فسألتها عن شيء . . هنا فقط تجد عددا من الألوان الجميلة فى
عينيهما وعلى وجنتيهما . . ولا داعى لأن تطيل النظر الى شفتيها . . لأنك
سوف تضطدم بهذه الأسنان . . الذهبية والفضية التى تضايقك . .
وتضايقها هي أيضا . . وسوف تجد أن اللغة الروسية غنائية . . وسوف
تجد أن الروس ، والروسيات فيهم شقاوة واضحة . . فى امكانك أن تقول :
حيوية . ولكن الذين يعرفون أكثر يقولون أنها حيوية واعدة . .

فى احدى الجمعيات الاستهلاكية وقفت فى الطابور . . تعبت من الوقوف
خرجت من الصف . . وأشرت الى من يقف ورائى وأمامى الى مكانى بينهما ،

تمشيت بضع دقائق أفرج في الجمعية وعندما عدت كان الطابور قد اختفى حاولت أن أختار أى مكان واقف فيه . ووقفت وتعاليت أصوات غير مفهومة لى بالتفصيل . . ولكن واضح أنها أصوات احتجاج على هذه الفوضى — احتجاج على تصرفي هذا وأشرت بيدي أنني لا أفهم ما يظن . . ولكن واحدة أشارت بيدها أن أخرج . . وبهذه الحركة لم تعد أمامي أية حجة في عدم الفهم . وعندما قررت الخروج من الطابور أشارت سيدة أخرى أن آخذ مكانها . . ووقفت ودفعت . . ونظرت الى السيدة التي احتجت وكنت أريد أن أقول لها : لو نظرت الى وجهك الآن وهو عليه ألوان الكسوف والاعتذار والتحفز ، ما غضبت أبدا . . لا بد أن أحدا قد أخبرها بذلك في العشرين سنة الماضية . فهي ما تزال جميلة وفيها (الحيوية) الروسية !

وفي إحدى المكتبات اشتريت عددا من الكتب . . من فلوسى والله العظيم وكلها عن روسيا والأدب الروسى وغالية الثمن . وأشارت البائعة الى أن أدخل بين رفوف الكتب وأختار ما يعجبني ودخلت ودفعت . وأخطأت الفتاة في الحساب ثم ذهبت أدفع . . وعادت الفتاة تقول لى أن هناك خطأ في الحساب . . ونظرت الى الآلة الحاسبة الخشبية . . وهى عبارة عن حبات من الكرات الخشبية تحركها يميناً وشمالاً . . انها آلة صينية . . وظهر الخجل على وجه الفتاة فقلت لها : ما دمتم تستخدمون الحساب الصينى ، فلا بد من الغلط .

ولم تضحك للنكتة خصوصا أنني تلاعبت بكلمة (حساب) ، فعديت أشرح لها النكتة لأكتبها بعد ذلك . فلم تضحك . وسألتها لماذا لم تضحكى لهذه النكتة التي ضحكت لها المرافقة لنا عندما رويتها لها . . فأشارت الى أن ضرسها مسنوس . ولكن سوف تضحك لها فيما بعد . . !

ولم أتمكن من أن أستنتج أن كان ذلك عيباً في صناعة الانسان . . أو أن هذا عذر جاهز حتى لا تضحك لنكتة قد تكون سياسية . وخصوصاً انها لا تعرف من أى البلاد أنا . . وربما تصورت أنني من أمريكا مثلاً . . وانها لا تحب أن يكون ضحكها هذا دليلاً على المسافة البعيدة بين موسكو وبكين . لم أفهم على كل حال . . !

بقى أن أتحدث عن نوع آخر من النساء الروسيات . كان ذلك في طشقند وأحسست بدوخة شديدة . أما تشخيصى أنا لهذه الدوخة فهو أنني لم أنم جيداً في الليلة السابقة . فقد كان الجو بارداً جداً . والتدفئة ليست جيدة في الفندق ونسيت أن أطلب مزيداً من البطاطين وعندما أصابنى البساج ابتعلت قرصين . ويبدو أن القرصين منومان . ثم نهضت وارتديت ملابسى وشربت المزيد من القهوة والشاي أغلب النوم . . فهذه الدوخة بسبب الإرهاق والمقاومة العنيفة للمادة المنومة . . انتهى تشخيصى المتواضع . وذهبت الى الطبيبة . . وكتبت الاسم والعنوان والسن واسم الأم والأب وطلبت منى أن أصف ما يوجعنى . . وقاست الضغط والنبض . ووضعت

مقياس الحرارة تحت أبطى .. وسألتنى عن أمراضى وعن متاعبى ..
وانتهزت هذه الفرصة لأعرف بالضبط ما الذى ستوفى عمله . وقلت :
آه .. هنا .. وأشرت الى جنبى الأيسر .. وآه هنا وأشرت الى الجانب
الأيمن .. وطلبت منى أن أخرج لسانى وأخرجته .. وأن أفتح عينى ..
وفتحتها .. وأن أقول آه وقلتها .. وأن أتمدّد وتمددت .. ورأيت الحيرة
فى وجه الطبيبة .. !

وكما هى عادة الأطباء لم يظهر عليها أى تأثير لحالتى ولا رثاء لشخصى
وهذا طبيعى . فليس من الممكن أن يكون الطبيب رقيقا الى هذه الدرجة .
وسألته : الحالة ميئوس منها يا دكتورة ؟
فقلت : سأعطيك الدواء .
وسألت : لكن هذه الأوجاع .
وهزت رأسها : نعم .

وفتحت زجاجة وأعطتنى ثلاثة أقراص لأتناولها قبل الغشاء وقبل النوم .
وبمئتهى الرقة نظرت الى مريض آخر .. وانصرفت .. وانتهزت هذه
الفرصة لاعتذر لها . فلم أكن مريضا وانما أردت أن أعرف كيف يعالجون
المرضى فى روسيا ولكنها حرمتنى من هذه الفرصة . وفى الليل نمت . وفى
الصباح ذهبت اليها لأشكرها .. وتقبلت الشكر بنفس الاهتمام الذى
استمعت فيه الى آهاتى بالأمس .. !
فما هى هذه المرأة الروسية .. ؟

ان المرأة مقياس حضارة المجتمع فاذا كانت مساوية للرجل فالمجتمع
متحضر واذا كانت دون الرجل ، فالمجتمع أقل تحضرا .. ومن المؤكد أن
المرأة هنا تتعلم وتعمل مثل الرجل والفرص واحدة .. وقدراتها الطبيعية
هى التى تدفعها الى أعلى جوار الرجل .. أو الى أعلى وتظل دون الرجل
أيضا .. .

والمرأة الروسية خليط من الرجل والأنثى .. انها قطعت الطريق
الضعف ، حتى أصبحت الى جوار الرجل ومعه وضده ، وهى الآن تريد
أن تعود الى أنوثتها .. !

لقد قرأت عبارة قالها الناقد زادنوف عن الشاعرة أخماتوفا ، قرأ لها
بيتين معناهما :

« أقسم بملائكة السماء ، أقسم بكل تماثيل الكنائس ، أقسم بليالينا
الحمراء المنشوانة .. » - قال زادنوف : ان هذه الشاعرة أخماتوفا سيدة
مجنونة فى رقة ، سيدة حائرة بين السرير والكنيسة ، نصف راهبة ونصف
غانية بل هى راهبة وغانية معا .. بل انها حتى عندما تريد أن تكون غانية
قائما تصلى من أجل ذلك .. بل انها تصلى فى الحالتين .. !

ان هذا الناقد السليط العميق لم يقصد الشاعر الكبيرة وحدها . . انه يتحدث عن كل النساء وكل الرجال . . وقد أحسننا بهذه المعانى ونحن نتفرج على الفتاة المخمورة . . لقد غطينا أجسام الذئاب بمسوح الرهبان !

وبعد الثورة السوفيتية سنة ١٩١٧ حدث انحلال عام . لقد جاءت الثورة تهز أسس المجتمع . وتساقط الكثير من القواعد . وتمزقت الروابط . وتصور الناس أن الثورة هي على كل شيء : الطيب والسيئ . . وظهرت هناك عبارة الحريات العاطفية . . أو الحريات الجنسية . . وتفككت العلاقات العائلية . . وأصبحت كلمة الشيوعية مرادفة للشيوعية الجنسية . وظلت الحال كذلك أكثر من عشر سنوات وكانت المرأة السوفيتية تعرف أنها أكبر عدداً . وأن المجتمع يقف على ذراعيها فقد كان عدد النساء في تعداد ١٨٩٧ : امرأة مقابل مائة رجل . . وفي سنة ١٩٢٦ — كان : ١.٧ نساء في مقابل مائة رجل . . وفي ١٩٣٩ كان ١.٨ نساء في مواجهة مائة رجل . . أما في سنة ١٩٥٩ فقد بلغ عدد سكان الاتحاد السوفيتي ٢٠٨ ملايين نسمة من بينها ٩٤ مليون رجل و ١١٤ مليون امرأة . . ولو عاش العالم ربع قرن آخر بلا حرب فإن عدد الرجال سيصبح مساوياً لعدد النساء . وربما زاد عليه . . وفي هذه الحالة يرتفع سعر المرأة وتهبط قيمة الرجل . . كما هو الحال في استراليا . . !

وكان من الطبيعي أن تمسك الثورة مكاسبها . وأن تحمي مجتمعها وأن تربط بين الناس . وتربط الناس ، ولذلك رأينا في الأعمال الأدبية تراجعها أو رغبة في التراجع . . هذا الانفلات من قيود الأسرة ، التي هي أساس المجتمع والحضارة . . ففي رواية اسمها « ميلاد الانسان » للأديب بلتيك ظهرت ١٩٣٥ — نجد البطلة التي شعرت بالحمل تكتب مذكراتها فتقول : « لم أفكر في أن يكون لى ولد ولم أتصور أنني سوف أضيع وقتي في انتظاره والاحساس به . كل ذلك بعيد عن خيالي لقد أجهضت نفسي قبل ذلك . وفي كل مرة ألزم الفراش ثلاثة أيام . . وبعدها تعود الحياة . . ولكن هذه المرة لا أظن أنني سأفعل ذلك . . ان مجرد كلمة : ماما . . تهز الدنيا كلها أمامي . . » .

وهذا يدل على أن المرأة تريد أن تكون أما . مهما كلفها ذلك وتريد أن يكون لها ابن ترعاه وتربيته . وأن تنام وتصحو على نغمة موسيقية واحدة . خائدة هي : ماما . .

ولكن في العشرينات كانت الأييرة السوفيتية ما تزال تعاني من مشكلة (الحب الحر) . . أى الحر من قيود الزواج أو المجتمع . فالمرأة قد تعذبت طويلاً . . وجاءت الثورة واطلقتها . . وفتحت لها الأبواب . . ولذلك فالمرأة لا تريد أن تضيع وقتها .

وفي رواية اسمها (الأسمنت) ظهرت سنة ١٩٢٥ للأديب جلانكوف نجد

أن البطل يعود الى بيته بعد الحرب الأهلية . وكان يعلم أن زوجته كانت ضمن قوات الجيش الأحمر . وحاربت وقاومت . وانتهت الحرب ولكن علاقة الزوجة بجنود الجيش الأحمر لم تنته .. وقد أنجبت هذه الزوجة طفلا .. أودعته أحد الملاجيء ومات الطفل .. عاد الزوج الى البيت ليجد هذه الورقة في انتظاره . مكتوبا فيها : قررت أن تكون لى حياة خاصة . شكرا والى غير لقاء .. !

ولكن هذه الصورة تغيرت بعد ذلك .. فى رواية اسمها : (ماريا) صدرت سنة ١٩٤٦ للكاتب ميدنسكى .. نجد أن بطلها يعود من القتال ليجد أن زوجته تعمل مشرفة على إحدى المزارع الجماعية .. وفى البيت يجد صورته معلقة على الحائط . ويمضيان ليلة سعيدة .. وفى الصباح يذهب كل منهما الى عمله .. اذن لقد عادت الأسرة الى تماسكها . وكل انسان الى موقعه من المجتمع .. لأنه من الضروري أن يكون له موقع . وأن يكون الموقع هو العمل . لأن العمل حياة للفرد وللمجتمع كله .. !

وقد أصدرت الثورة الروسية يوم ١٨ ديسمبر ١٩١٧ أول قانون مدنى للزواج والطلاق . فقبل الثورة كانت الكنيسة هى التى تتولى الربط والفصل بين الناس .. أو الربط فقط .. !

وبصدور هذا القانون أصبح معروفا عند الناس أن هناك نوعين من الزواج المدنى والعرفى . أما العرفى فهو مجرد التعايش بين اثنين ولا يكون للمرأة أية حقوق قانونية . أما الزواج المدنى فهو المسجل قانونا ومن حق أى انسان بعد ذلك أن يتزوج دينيا ، قبل الزواج المدنى و بعده ولكن لا بد من التسجيل بل أن هذا القانون قد أسرفوا فى تطبيقه لدرجة أن المواطنين جميعا طولبوا بالتسجيل . وكان الموقف محرجا لرجل عنده أحفاد .. كيف يذهب ليؤكد أمام المسجل أنه تزوج من زوجته من ثلاثين عاما . وصدر قانون آخر يعتبر كل زواج صادر قبل هذا القانون شرعيا .. أى معترفا به على أساس الأمر الواقع .

وفى حالة الطلاق يكفى أن يذهب أحد الطرفين الى المحكمة . أما اذا اتفق الاثنان على الطلاق فانهما يذهبان الى مكتب التسجيل ويتم الطلاق . وكان من الضرورى تسجيل الزيجات السابقة فى جواز السفر ..

وفى سنة ١٩٢٦ صدر قانون يلغى مهمة المحكمة هذه . ومكتب التسجيل يقوم بمهمة طلاق أحد الزوجين من الآخر ..

أما الاجهاض فكان القانون يعاقب عليه ..

وكان الاجهاض يتم سرا . وفى كثير من الأحيان يؤدى الى موت المرأة أو تشويهها . وفى ١٨ نوفمبر سنة ١٩٢٠ صدر قانون يلغى عقوبة الاجهاض ولكن الاجهاض استمر سرا ، لأن المستشفيات لا تتسع لهذا العدد الكبير . ولأن المرأة لا تريد أن يعرف أحد ما أصابها .

وفي ٢٧ يونيو سنة ١٩٣٦ صدر قانون يحرم الاجهاض الا اذا كان الحمل خطيرا على صحة الأم ، والا اذا كان هناك خوف من مرض وراثي — وفي ذلك يلتقى السوفيت مع كثير من الدول المتزمتة دينيا . وهذا القرار قد اتخذته ستالين .

اما لماذا اتخذ ستالين هذا القرار فله قصة مضحكة . فقد زاره قبل ذلك وفد من نساء منغوليا . كانت من بينهن واحدة ترأس مزرعة جماعية قالت لستالين : ان عندي سبعة من الاولاد . وكان تعليق ستالين : لو كان عندك سبعة آخرون لكان أفضل .

وتلاقت عيون النساء والرجال . ولم يفهموا المعنى . ولكن الخبراء عرفوا ان ستالين يريد زيادة في النسل فأصدروا القرار بمنع الاجهاض !!

ولكن هذا القرار ألغى أيضا في ٢٣ نوفمبر سنة ١٩٥٥ . وأبيح الاجهاض فقد ساءت حال كثير من الامهات . . خصوصا انهن كن يذهبن الى « دايات » وكانت الداية تستخدم أساليب بدائية في اسقاط الجنين . . وأصبح في استطاعة أية مواطنة ان تذهب الى أى مستشفى وتضع مولودها دون أن يسألها أحد : كيف ومتى ولماذا ومن هو أبوه ؟ .

ولكن لسبب غير واضح ما يزال الطفل المجهول الأب مشكلة . فكل طفل لم تنشأ الأم أن تسجل اسم والده تجد شهادة ميلاده خالية من هذا الاسم . وإنما يضعون في هذه الخانة شرطة مثل هذه — . ولذلك سيكون هؤلاء الأطفال : أطفالا بشرطة ! . .

وقد تقدم عدد كبير من الأدباء والفنانين يطلبون من الدولة إلغاء هذه الشرطة . تقدم الأديب أبهزنبورج والموسيقار شاستاكوفتش وغيرهما . ولكن بقيت الشرطة في مكانها .

أما الدولة فهي حريضة على أن يكون الأب والأم لكل طفل . بل انها تشجع على زيادة النسل . وتعين الأسرة ذات العدد الكبير . . والأم التي عندها عشرة أطفال تعطيها الدولة لقب : الأم البطل . . أما المساعدة فهي لكل طفل ولمدة ثلاث سنوات . . من السنة السابعة حتى العاشرة . . وأكثر الأمهات اللاتي يفزن بالنياشين والألقاب بسبب كثرة الأطفال فانهن من الجمهوريات السيوية . . أزيكستان مثلا . . ولا ترى الأسرة في ذلك عيبا ويقولون أن تولستوى نفسه كان عنده أحد عشر ولدا . . والعالم مندليف كان واحدا من أحد عشر أخا .

ولكن المرأة السوفيتية تعمل في كل مكان . . بعض الرجال قد اعترضوا على أن تعمل المرأة في المناجم . ولكنها تعمل . . وفي المعرض السوفيتي الذي أقيم في يناير سنة ١٩٦١ عرض الفنان تروخاتوف لوحة كبيرة لفتاتين تحملان فوائيس عمال المناجم .

صحيح أن هناك قوانين تمنع المرأة الحامل من أن تحمل الاثقال أو من السهل ليلا ، ولكنها تعمل .

أما إذا كانت المرأة قد وضعت طفلا فبعد ثلاثة شهور بالضبط يجب أن تعطى طفلها لأحدى دور الحضانة . . أما إذا كانت تعمل ليلا ، فتتركه ينام هناك أيضا . وفي سن مبكرة يتعلم الطفل الروسى ، ما يتعلمه بقية أطفال العالم فى سنرات . . انه بعد سنة يستطيع أن يجلس على (القصيرة) . . وبعد ستة شهور أخرى يستطيع أن يتناول طعامه وحده . .

وبعد ساعات من ولادة الطفل يذهب الأب ليراه ، ثم لا يرى زوجته الا بعد أسبوع خوفا على الطفل من العدوى . . وكثيرا ما يرتدى الآباء ملابس الأطباء ليتمكنوا من رؤية الزوجة والطفل . . فإذا ضبط الأب ، عاقبوه . .

أما وظيفة القضاء فعندما تشكلت المحكمة السوفيتية فى أبريل سنة ١٩٥٢ كان أعضاؤها اثنى عشر عضوا . من بينهم سيدة واحدة . ولهذه المحكمة ٤٥ مستشارا من بينهم اثنتا عشرة سيدة . . أربع منهن مسلمات . . ! وأصبح يوم ٨ مارس عيدا للمرأة . . صحيح ليس عيدا بالمعنى المعروف وإنما مسموح لها فقط أن تنصرف من عملها قبل الموعد بساعتين . . !

وما دام المجتمع السوفيتى مفتوحا على العالم ، أو العالم مفتوحا على روسيا . . فالرجال يرون ويقارنون والمرأة أيضا . . ولا بد أن تلبس وأن تراعى — الموضة أن تضع الأحمر والأبيض . . لم أجد سيدة واحدة قد رسمت عينها ! ولا بد أن تهتم أيضا بتصفيف شعرها . . وفى موسكو محلات لمشاهدة عروض الأزياء . . وعلى كل واحدة أن تختار الموديل الذى يعجبها . . ان المرأة تريد أن تكون أنثى . . أن تكون مرغوبة . . مطلوبة . . مثيرة . . أن تكون أكثر نعومة . . فليس من الطبيعى أن تكون لها خشونة الرجل . . وهى تعلم أن الرجال يفضلونها ناعمة . .

وقد رفضت سيدة أن تخرج الى الشارع وفى فمها سيجارة . . ان هذه السيجارة تفقدها أنوثتها . . !

وفى رواية اسمها « غصن الزيتون » ظهرت سنة ١٩٦٥ للكاتب برزينوف تقول فيها البطلة : أريد أن أصنع أكلة لذيذة .

ويقول أبوها فى خزع : تعودين الى المطبخ . . ؟

— أتمنى .

— وعملك وأبحاثك .. ؟

— لا تهمنى الى هذه الدرجة ..

وفي رواية أخرى اسمها « العقدة » ظهرت قبل ذلك سنة ١٩٥٩ للكاتب فاسيلفسكى . البطلة اسمها تاتيانا تعمل طيارة . تعبت من هذه المهنة فقالت : ليس من الضروري أن يظل الانسان وحيدا طول عمره .. يمشى وحده يستند الى قدمه .. لا أحد الى جواره . وليس من الطبيعى أن تظل المرأة تعمل طول حياتها ، الا اذا كانت تريد أن تعتمد على نفسها .. ولكن من الضروري أن يكون لها أطفال .. أن يكون لها بيت .. أن تكون هى لهذا البيت وأن تجعل أطفالها يشعرون أن لهم أما ..

أما اذا عاكستك فتاة فى الشارع ، ولم تجد اللفة هى المانع الطبيعى ففى العواصم عدد من بنات الشوارع .. وهذا موجود فى كل عواصم الدنيا .. ولكن هذا العدد ليس كبيرا فكل النساء يعملن . ثم أن هناك مشكلة السكن .. لا توجد شقق خاصة .. ولا أماكن تصلح لاستقبال الزبائن . فليسكن أزمة ومشكلة رغم العمارات الهائلة التى تنهض فى كل مكان ..

واذلك من الطبيعى أن تفجر من هذا الموقف النكتة السوفيتية المعروفة . يقال أن الروس عندما أطلقوا أول قمر صناعى بداخله جاجارين . تطلع الروس الى السماء .. واستطاع بعض الناس أن يروه بالعين المجردة فكانوا يقولون : ما أسعده .. انه يسكن وحده .. !

في السماء كواكب يسكنها الإنسان الزمجر

الآيمان بالمستقبل دين • والدين أفيون الشعوب ، شرقا وغربا •

وليست كلمات : الخطة والمشروع والخطة الخمسية الأولى والثانية ومشروع العشر سنوات ، الا كلمات دينية • وهذه الكلمات قائمة على : أن الإنسان أصبح قادرا على أن يرى أبعد من اليوم والغد •• وأنه أصبح يضمن بصورة علمية ما سوف يحدث أو يضمن بصورة مضمونة ما سيقع غدا و بعد غد •• ولم يعد الواقع أن تحسب حاضرك وإنما أن تحسب مستقبلك أيضا • ودراسة المستقبل هي استدعاء السنوات القادمة واصدار الأوامر إليها بأن تكون على النحو الذي نريد •• أو الذي نحلم به •

ولينين أبو السوفييت قد طلب الى شعبه أن يحلموا • وقال : من الضروري أن تحلموا • بل يجب أن تحلموا • فالذي يبدأ عملا ثم لا يتخيل نهايته ، أو نهاياته المختلفة ، فلن يحقق شيئا كبيرا فاحلموا !

ومعظم الاختراعات والاكتشافات الكبرى حققها أناس حالمون • أن الرجل الذي اخترع الصواريخ السوفيتية في نهاية القرن الماضي كان من أكبر الحالمين لقد تخيل الحياة على القمر • وأدرك أن الحياة على القمر غير ممكنة • وإنما الحياة سوف تكون تحت سطح القمر •• وكان ذلك مجرد حلم • والعلم الحديث يؤكد بأن هذا ما سوف يحدث (١) •

(١) راجع كتابي « الذين هبطوا من السماء » ••

وقد أصدر السوفييت كتابا عن المستقبل اسمه « العالم سنة ٢٠١٧ »
أى العالم عندما يحتفل السوفييت بمرور مائة عام على الثورة السوفيتية
وقد لمس الكتاب كل ما يخطر على بال المواطن السوفيتى والمواطن العالمى :
حياته فى بيته ومع أهله والشوارع والمدن .. حتى طريقة الكتابة . وكيف
أن الانسان فى المستقبل لن يجد نفسه فى حاجة الى أن يكتب وإنما أن يملأ ..
وهذا ما كان يحلم به تولستوى العظيم الذى كان يطلب من الكاتب أن يكون
سهل العبارة . وكان يشطب كثيرا جدا . ولو عرف هذه الآلة التى يضعها
الانسان فى جيبه لا يدع للانسانية الكثير ولاستراح ذلك المعبرى دستوفسكى
الذى أملى أعماله الكبرى على زوجته المريضة فأرهبها وضاعفت من ويلاتها
الجسيمة أيضا . وكذلك الرحلات الى الفضاء الخارجى ..

حتى الحب فى المستقبل . هل سيكون هناك حب ؟ كيف يكون ؟ هل من
الممكن أن يعيش الانسان بلا حب ؟ .. كل أنواع الحب .. وما أهمية الحب
فى حياة الناس فى القرن الواحد والعشرين وبعد ذلك ؟ . هل سيكون هناك
هذا النوع من الحب الذى عرفته العصور الوسطى ؟ هل سيكون ذلك
الحب العذرى الذى عرفه العرب ..

هذا الكتاب يؤكد لنا ما نعرفه : وهو أن الحب علاقة معقدة سرية سحرية
عجيبة . وليس من السهل أن نعيش من غيره ، الانسان لم يستطع ولن
يستطيع .

يقول لوناشرسكى الروسى : اذا تخلصت الانسانية من متاعب العمل
ومن ذل العبودية ، فسوف تصبح قادرة على أن تخلق من الحب والجنس
علاقات رائعة سعيدة ، وسوف تجعل من الاثنين متعة لم تعرفها الأجيال ،
ولا كانت تحلم بها ..

أى أن الحب سوف يكون مأدبة ضخمة تضم كل أنواع الهمس الهندى
والهيام العربى والعشق الاغريقى . والفرونية الاوروبية . واحترام
الحرية الفردية .

ويقول الكتاب أيضا : ان الحب يحقق للانسان اليوم أعظم لذة وسعادة
اذا ما قورن بالمعاطف الأخرى . ومن الطبيعى أن نمجد الحب .. ولكن
اذا ظهرت فى الحياة أشياء أخرى تبعث على البهجة فمن المؤكد أن وهج
الحب سوف يخبو قليلا . وأما لماذا نمجد الحب ونقدسفه فهناك سببان :
الأول هو الحب نفسه .. والثانى هو هذا التعب والملل والقرف الذى يعانى به
الانسان فى حياته اليومية . والحب هو نوع من التعويض اللاشعورى لفقدان
السعادة فى أشياء أخرى كبيرة ..

ولا شك فى أن دور الحب فى حياة الانسان سوف يكون قويا كما كان
دائما .. على الرغم من أن الحب يحتوى على شىء من التناقض . فالذى
يجب يقبل الذل ويقبل الامتلاك ويقبل الاحتكار . بل يقبل العبودية .. ثم أن

الحب نفسه يبدد الطاقة الانسانية ، على حساب كثير من الالتزامات الأخرى
الحيوية — اننى ما أزال أنقل عن الكتاب . .

والحب لن يمشى فى خط مستقيم لأن العلاقات الانسانية ليست سهلة
ولا هى تمشى فى خط مستقيم أيضا . . ولن يكون الحب نايًا ومزمارًا وراعيًا
للغنم فقد انتهى عصر الرعاة فى العالم . .

وسوف يكون هناك هذا الفارق بين الجنسين فى الحب وفى العلاقات
الجنسية أيضا . وسنجد أن الحب عند المرأة من الممكن أن يظهر بوضوح
بعد الزواج أو بعد ميلاد الطفل الأول . فالحب عند الفتاة عادة حب عذرى .
وعند الرجل حب واقعى . وستبلغ المرأة أوج رغبتها فى سن متأخرة ، عندما
تبدأ هذه الرغبة فى الضمور عند الرجل ولكن مهما تقدمت سن الرجل ، ومهما
ضعفت قدرته فسيظل عاشقا دائما . .

وسوف تتزايد المتاعب بسبب هذه الفوارق بين الجنسين . ولكن الناس
سيتعلمون كيف يخففون اضطرابهم . وبمرور الوقت سوف يتحسن الجسم
الانسانى ولكن هذا الوقت ليس عاما ولا قرنا وانما عشرات القرون . .

سؤال عن الشخص الثالث فى حياة الزوجين : هل سيكون هناك شخص
ثالث فى حياة الزوجين ؟ أو بعبارة أخرى هل سيكون هذا « الثلاثى »
(الثلاثى) موجودا ؟ . . أى الزوجان والعشيق أو العشيقه ؟ يقول انجلز :
ان الخيانة كالموت لا علاج لها ! ويقول الكاتب : ان هناك آخرين لهم رأى
آخر . .

ومن المؤكد أن الحب والكراهية والوفاء والخيانة ، عواطف لم يناقشها
الانسان تماما . ولكن غيرت بعض مفهوماتها . كما تغيرت أشياء كثيرة فقد
كان الانسان يتصور أن الأرض مركز الكون . وهو الآن يعلم أن الأرض
ليست مركزا لهذا الكون . وكان يعتقد أن أشعة الشمس مستقيمة وهو يعلم
أن أشعة الشمس موجات ، والموجات يستحيل أن تكون مستقيمة .

وكذلك الزواج لم يعد بالاكراه : ولا الطلاق أيضا ، وكثير من الأشياء
الثابتة الجامدة ، لم تعد كذلك . وسوف تنظر الأجيال القادمة الى الحب
بسهولة وبلا خوف . وسوف يدرس الأطفال فى مدارسهم كل العلاقات
الجنسية بلا خوف . وسوف يكون الحب نفسه بلا خوف من الحمل . .

هل ستكون هناك سرقة قائمة على حب واحد . . أى على زوجة واحدة ؟ . .
لقد كانت الأسرة المتماسكة من أهم عوامل تطور الانسان ولكن ربما ظهرت
فى المستقبل أشكال أخرى للأسرة . وربما ظهرت علاقات متعددة وان كان
الحب بطبيعته يميل الى الدوران حول واحدة فقط . وسيبقى الحب صعبا
مقعدا . ولكن سيكون الانسان الذى يحب ، هو الانسان حقا .

وما دام عصر الانسان سيطول في المستقبل ، فان حبه سيطول أيضا .
والمواطن الروسى قد تدرب على أن يقرأ كف المستقبل . وأن ينظر اليه
بوضوح و يقين . . انه يشبه المحامى الأمريكى التليفزيونى بىرى ماسون
الذى ينهى كل حلقة بقوله : « والآن سيداتى وساداتى هذا هو الرجل الأعرج
الذى قتل الفتاة الجميلة وهى تستحم ليلة السبت فى الساعة السابع وأربع
دقائق تماما !

— ولكن ستبقى بعض المشاكل الأخرى بلا حل سريع . . لصعوبتها . ولأن
العلم الحديث لن يبلغ نهايته بعد مائة سنة أو بعد ألف . مثلا : ما قول علماء
الفضاء فى مشكلة « الناس الصغار الخضر » ؟

هؤلاء « الناس » الذين يعيشون فى كواكب أخرى بعيدة عنا ولا ندري
عنهم أى شىء . ولكن العلم الحديث لا يستبعد ، بل يرى من المؤكد ، أن هناك
كائنات أخرى أعقل وأذكى فى أماكن أخرى من الكون الشاسع . .

ان العلماء مختلفون : هل نتصل بهم أولا نتصل ؟ أى أن الخلاف ليس
على وجودهم ، ولكن على الاتصال بهم . وهذا التردد سببه الخوف على
الحضارة الانسانية . .

وحتى لا يتحول كلامى الى سحاب غامض فى ليلة مظلمة فأنى أعود الى
الكتاب وأنقل حرفيا هذا الحوار التاريخى الخطير الذى دار بين مراسل
احدى الصحف الايطالية وبين العالم البريطانى الكبير أنتونى هويش : ثم
ما الذى قاله العالم السوفيتى ستافان عضو اكاديمية العلوم .

سؤال : نحن نعرف أنك استاذ جادى ، ولست حالما أو خياليا روائيا
فلماذا ما تزال تتحدث عن « الناس الصغار » أو هؤلاء الأقزام ذوى
اللون الأخضر ؟

جواب : لا تنس اننا بشر أيضا من حقنا أن نحلم . وأن نتمنى وأن نفكر
. . فقد استمعت الى اشارات ترد اليينا من الفضاء الخارجى ، وأطلقت على
هذه الاشارات اسم : اشارات الناس الصغار الخضر اللون . . والحقيقة أن
هذه الاشارات تجىء اليينا من مصدر واحد بعيد جدا . ولها ذبذبة واحدة لم
تتغير . . وهى بالتقريب ثانية . أو بالضبط ١٩٣٧٧ ر ونحن لا نعتقد أنها ظاهرة
طبيعية . . وانما يجب أن نتصور أنه حيث تصدر هذه الموجات فهناك من
يصحبها باستمرار ولا بد أنه قد أدخل فى اعتباره حركة الأجسام السماوية
التي تصدر عنها هذه الموجات . وعندما سجلت هذه الاشارات شعرت
بالفرع . نعم بالفرع ، ولذلك قررت أن أجمع كل هذه البيانات والتسجيلات
وأحرقها نورا . وظللت فى حالة من الرعب أسبوعا لا أعرف كيف أفكر ولم
أستطع أن أنام . أما مساعدتى الأنيسة بل فقد اكتشفت مصدرا سماويا
آخر لهذه الموجات ، يشبه تماما مصدر اشارات الناس الخضر ثم اهتدينا
الى مصدر ثالث . . وشعرنا بالارتياح . .

سؤال : تقول شعرت بالارتياح ، ولكن لماذا ؟
جواب : لسبب بسيط وهو أنه في استطاعتنا أن نقول : اننا أمام ظاهرة
مجهولة تحتاج الى تفسير . .

سؤال : سمعتك تقول انك خفت وأن فزعاً أصابك ، فما الذى أفزعك
وأخافك ؟ هل هناك شيء اسمه الخوف فى العلم ؟
جواب : سيدى العزيز ، اننى أخاف دائماً من المجهول . اننى أخاف من
هؤلاء الناس الصغار الخضر . ولا أزال أخاف من أهل الأرض الذين يريدون
الاتصال بهم ، وأخاف عليهم أيضاً .

سؤال : هل معنى ذلك انه لو كانت هناك حضارة أخرى بعيدة تريد
الاتصال بنا ، وارسلت هذه الاشارات فانك تخاف أن ترد عليها ؟

جواب : هذه مشكلة خطيرة جداً . وحل هذه المشكلة ليس من اختصاص
علماء الفلك . وانما من اختصاص الصحفيين والسياسة . عليهم أن يتناقشوا
فيما بينهم ، هل نرد على الحضارة الأخرى أو لا نرد ؟ هل نتصل بهم أو نخفى
رؤوسنا بين أيدينا . . ويجب أن ندرك بوضوح أن أرضنا فى هذا الكون ،
ليست سوى ذرة رمل على شاطئ هائل . وأن هناك ملايين الرمال حولنا .
وإذا نحن افترضنا أن هناك حضارات أكثر تقدماً ، ولا نعرف عنها شيئاً ، فمن
الحماسة أن نبعث لها بآية اشارات ، دون أن نعرف كيف يكون رد الفعل
عندهم ! بل من الجنون الأكيد أن نكشف لهم عن أنفسنا ، أن نلفت عيونهم
أو آذانهم اليها . . ليس من الحكمة أن نكشف أنفسنا لكائنات أخرى لا نعرف
عنها الا أنها أقوى وأذكى وأكثر تطوراً !

سؤال : ولكن الكثير من زملائك علماء الفلك يفعلون العكس . انهم
يحاولون أن يقنعونا دائماً بأن التقدم العلمى ضرورى . ومرغوب فيه ، وأن
التقدم العلمى هو وحده الذى يحقق الرخاء للإنسان . وأن حرصهم على
التقدم هو الذى يدفعهم الى البحث عن مصادر جديدة للمعرفة . .

جواب : اسمع يا سيدى : ان الفلاح فى فيتنام قد عرف الآن شيئاً
جديداً . . عرف أن هناك دولة أقوى وأكبر وأكثر تطوراً تساعد بلا تردد
بماذا كانت النتيجة ؟ . . من الأفضل لنا يا سيدى ألا نكشف أنفسنا لهذه
الحضارة الهائلة المخيفة !

سؤال : هل أفهم من هذا أن علماء الفلك الذين تعجلوا فأرسلوا اشارات
الى الفضاء الخارجى ، لم يدركوا حقيقة هذا الخطر !

جواب : من المؤكد أنهم أخطأوا . لأن هذه المشكلة يجب أن تناقش
دولياً وبعد ذلك يجب أن نوقع العقوبة على كل من يخالف الاتفاق الدولى
على عدم الاتصال . . كأن نطرده من ميدان العلم والعلماء .

سؤال : ولكنى أستطيع أن أقول أن هناك عدداً من العلماء يفعلون ما يحلو
لهم ، دون أن يكثرثوا كثيراً لهذه التحذيرات . . لا بد أن لهم وجهات نظر

أخرى . . ولكن أريد أن أسألك هل هناك أى أساس علمى للاعتقاد بأن نجوما فى هذا الكون تسكنها كائنات أخرى أكثر تحضرا ؟

جواب : أنا لا أعرف شيئا عن هذه النجوم . ولكن من المؤكد ، بل من المقطوع به علميا ، أن هناك كواكب أخرى بعيدة ، تعيش عليها كائنات أكثر عقلا وذكاء . بل أقول أكثر من ذلك : أن نظرية الاحتمالات سمحت لنا بأن نأمل أن يتصلوا بنا ، أو نتصل نحن بهم ، أن نعثر عليهم ، أو يعثروا هم علينا !

سؤال : سيدى الاستاذ هل تعتقد أن هذه الاشارات التى سجلتها أنت عبارة عن رسائل موجهة لنا ، واننا لم نهتد الى معناها ؟

جواب : هذا مؤكد . ونحن الآن ندرس مجال هذه الاشارات التى تلقيناها، لمعنا نعثر على طريقة لتفسيرها . . ولا نهاية لما يدخره لنا المستقبل من المفاجآت !

انتهى أخطر حوار مع أكبر علماء الفلك فى القرن العشرين ولا يزال أصحاب الاشارات الغريبة، مصدر الدهشة والخوف لكل علماء الفلك والفضاء . وأعود مرة أخرى الى كتاب « العالم سنة ٢٠١٧ » وأنقل مناقشة الأستاذ جوستاف نان عضو أكاديمية العلوم السوفيتية . انه يبدأ مناقشة الأستاذ هويش بأن يقول اننا لا نعرف بالضبط أن كانت الاشارات من مصدر مادى أو انسانى . . أى مصدر شيء ما أو كائن ما . ويضرب لذلك مثلا أنه حدث منذ سنوات أن التقطت أجهزة استقبال الأرض صوتا من بعيد . . وبعد ذلك اكتشف العلماء أن مصدر الصوت ليس الا نوعا من الأجسام الفلكية الهائلة المتناثرة .

ويقول البروفيسور نان : أما فى حالة « الناس الخضر » فلا يمكن أن يكون المصدر شيئا . نظرا لأن الموجة قصيرة ولأنها منتظمة . ولذلك فمن المؤكد علميا أن لها مصدرا عاقلا حاسبا عظيما . .

والسؤال الخطير هو : هل نرد على هذه الاشارات أو لا نرد ؟

أى انه لا خلاف على وجود كائنات أعقل ، ولكن هناك خوفا من الاتصال بها ، أو اتصالها بنا . وأمام هذه المشكلة لا بد من أن يكون هناك عدة احتمالات جعلتهم يبعثون بهذه الاشارات .

ربما كان سبب ذلك أنهم « يفهموننا ويهتمون بنا » . . وانهم يريدون أن يحذرونا من أخطائنا القاتلة : تلوث جو الأرض وتسمم مياه الأنهار وخراب هذا الكون . ربما كان ذلك . ولكننا نحن نفهم أكثر من أى أحد ، أن عالمنا مسموم واننا نعيش فى قنبلة زمنية . ونعلم اننا لم نستفد من أخطائنا . ويبدو اننا نفضل الحياة بهذه الأخطاء والصعوبات ، وأن الورد من غير شوك ، كما يقول المثل ، ليس وردا ، أن الأرنب لى ينمو ويقوى يجب أن يطارده الذئب . ثم أن العلم اذا أصبح سهلا جاهزا ، فقد يؤدي ذلك الى عدم اهتمامنا بالعلم نفسه .

وهناك احتمال آخر : أن يكون أهل هذه الحضارة البعيدة « يفهموننا ولكن لا يهتمون بنا » ربما كان ردهم على اشاراتنا لصالحنا ولكن الأمر لا يهتمهم أو أننا لا نهتمهم . هذا ممكن . وربما كان ذلك مهينا لنا وسبب ذلك أنهم سبقونا بألوف السنين . وانهم ينظرون إلينا بنفس نظرتنا إلى النمل . الذى نصفه أحيانا بأن له عقلا أو غريزة تنظيمية . وعلينا أن نتساءل : ما الذى يمكن أن نعمله للنمل مثلا ، وما الذى يمكن أن نحذره منه !

وهناك احتمال ثالث أن يكون أهل هذه الحضارة البعيدة « يهتمون بنا ولكن لا يفهموننا » . ربما كان اهتمامهم بنا لأسباب تتعلق بظروف التغذية عندهم . . أو البحث عن موارد أخرى للطعام . ولكنهم لا يفهموننا ولا يعرفون كيف .

أما الاحتمال الرابع فهو أنهم « لا يهتمون بنا ولا يفهموننا » . . يقول البروفيسور نان : ولكن يجب استبعاد هذا الاحتمال . لأنهم بالفعل يطلقون اشارات قصيرة منتظمة . أما هذه الاحتمالات : فأولها مأمون وثانيها : مهين ومأمون وثالثها : خطير ومحير .

يقول أيضا البروفيسور نان : قد يظن القارئ اننى أتردد أو أعارض فى الاتصال بهؤلاء الناس الأخضر ، بالعكس . بل أرى من الضرورى الاتصال بهم والاتصال بيساوى ما نبذله من جهد . فزيادة المعرفة هى وحدها التى تمكننا من القضاء على الملل والهوان والخوف . وإذا كانت لدى أية حضارة أخرى وسائلها العلمية للاهتمام إلينا فليس فى الامكان أن نهرب منها ، ولكن ليس هذا هو المهم فالإنسان حريص دائما على توسيع مجال اتصاله ، لأن هذا هو الذى يدفعنا إلى التطور فهذه الاتصالات ضرورية ومطلوبة بقدر ما تثير الفكر وبقدر ما يكون الذين نتصل بهم أكثر اختلافا . . فليكن لونهم أخضر حقيقة !

وإذا نحن أفلحنا فى الاتصال بكائنات أخرى كونية — ومن المؤكد أنها أكبر عقلا ففى وسعنا أن نفهم وضعنا فى هذا الكون . ومكاننا من السلم الكونى . فإذا ما تغير هذا السلم أو هذا المجال ، فلا بد أن يكون لكل شئ معنى آخر جديد مختلف . وسوف تصبح الأشياء « الأكيدة المؤكدة » فى حياتنا التى تفسر حياتنا وتاريخنا ، عبثا وهراء فى المجال الكونى . . والعكس بالعكس ربما كانت هذه هى الفائدة الاولى من مثل هذه المناقشة أو الحوار . . ومن الناحية النظرية فمن الممكن أن نقول أن سلم التطور لا نهاية لدرجاته وإذا نحن تصورنا أن التطور الانسانى قد بلغ نهايته ، فنحن نغالط أنفسنا ونخدعها . وكل ما نفعله هو أن نحمل أنفسنا . وهذا بمثابة العادية معقول ومنطقي . والديناصور ذلك الحيوان المنقرض ، كان هو أيضا يحمل نفسه ولو نجح الديناصور فى ذلك ، ما كان هناك إنسان حتى الآن ، ولو ظل الديناصور وحده على الأرض يقضى

على كل حياة أخرى لكان نوعا من التعفن والجمود في الطبيعة . والطبيعة لا تمثل شيئا مثل الجمود والتعفن . .

ويختتم الأستاذ نان مناقشته بقوله : أنا من الذين يؤمنون بأن الهرب من المعرفة والعلم ، لا يؤدي بنا الى شيء . ولو قررت الكائنات الأخرى الأعقل الاتصال بنا حتى اذا لم نشأ ذلك ، فليس في استطاعتنا أن نتواري منها . وفي امكاننا أن نتعلم منها الكثير من الأشياء الهامة والضرورية لنا . ومن يدري ربما قالوا لنا : ان الانسانية لها مستقبل طويل أمامها . وأن الزمن المخصص لنا في تاريخ هذه الأرض لم ينته بعد . واننا ما نزال ناقصين وبيعيدين تماما عن استنفاد كل امكانياتنا التي ولدتها تطوراتنا الاجتماعية . وفي استطاعة الانسان أن يتأكد من أشياء أخرى : مثلا أن يتم التفاهم بيننا وبين هذه الكائنات الأخرى بينما هذا التفاهم لم يتحقق بيننا نحن سكان الأرض حول المشاكل الصغيرة والكبيرة ، الاجتماعية والعنصرية ، ولكن على الرغم من هذا كله فان شعوب العالم تتزايد وحدتها وسلامها وتفاهمها . حتى اذا ما واجهنا حضارة سماوية أخرى ، جعلتنا نفهم وضعنا الحقيقي ، فسيؤدي ذلك ولا شك ، الى أن يتأكد لدينا هذا المعنى : ان كل الناس اخوة . . وان تجربة الاتصال بهم تساوى ما بذلنا في سبيلها من تعب وسهر ! » .

وقد يقول مالنا ومشاكل القرن العشرين . ومعك حق فما أكثر مشاكلنا الآن . ولكن هذه أيضا مشاكلنا الآن . . ثم ان كل سبعة من كل عشرة من سكان الأرض سوف يعيشون حتى أوائل القرن الواحد والعشرين . . فأبناء القرن العشرين هم أغلبية بيننا ! ومن العدل أن نشاركهم مشاكلهم ، كما أننا أغرقناهم بمشاكلنا . .

ولن يكون المستقبل هكذا مخيفا كئيبا . . لن تكون الحياة كلها هما وغما وتطلعا الى السماء مصدر الكائنات الأخرى الخطيرة المخيفة .

وانما من الممكن ، ومن الضروري ، أن نواجه الأرض والسماء بالابتسام بالمرح . بالضحك . فمن الطبيعي . .

وهذا هو الفصل الأخير من الكتاب وفي الكتاب عينات من نكت المستقبل أيضا !!

واذا كان الضحك يقتل ، فانه يداوى أيضا — كما يقول الكتاب . وقد بحث الكثيرون من الفلاسفة ظاهرة الضحك وضرورته . . ولم يهتدوا الى رأى قاطع . . ولكن يبقى الضحك ظاهرة حيوية وضرورية دائما !

« والضحك يدل على السمو المعنوي فانت عندما تضحك على شيء ما ، فمعنى ذلك أن تقول لنفسك : لا يمكن أن ارتكب مثل هذه حماقة . . والمرح يقرب بين الناس ويجعلهم أكثر تفاؤلا . . ثم أن الضحك يبعد عنك الطبيب . . هذه نصيحة » . .

فليس من السهل أن يتغير الإنسان كأنسان ، في عام أو ألف .. ولذلك
سيبقى الإنسان يحب ويكره ويخاف وبحلم ويضحك في النهاية ..

ثم هذه النكتة : يقال أن أحد العلماء اخترع عقارا ينقل الإنسان من
الحاضر الى المستقبل . وفي المستقبل يرى كل ما يتمناه . وقد أعطى هذا
العقار لأحد سائقي التاكسي والتف حوله العلماء يسألونه بعد أن تركوه
ساعة : ماذا رأيت ؟

ولكن الرجل لا يرد .

ركعوا عند قدميه : لا تنس خطورة المهمة التي تقوم بها .. نريد أن نعرف
والشعب السوفييتي كله يريد أن يعرف كيف رأيت المستقبل . ان جارك قد
أعطيناه العقار فرأى نفسه حاكما للمريخ .. وأن هذا الجار قد أعطيناه
العقار فرأى نفسه رئيسا لسلاح الطيران في كوكب الزهرة .. فماذا رأيت ؟

ولكن الرجل لا يرد . وأخيرا قال :

لقد وجدت نفسي وزيرا !

وهلل العلماء . راحوا يعانقونه وهم يطلبون المزيد : ثم ماذا رأيت ..
فقال : أسوأ ما في هذه الدنيا .. لقد رأيت زوجتي ما تزال تفتش في
جيوبى .. !

العنـ ذكـ مجـول

في البحر.. أفرقت خاوفي

أنا مسافر الى اليمن .. ولذلك فانا في غاية السعادة ..

يكفى أن أشعر أنني على سفر ، أو في طريقى الى السفر ، لاكون سعيدا .. اننى في الليلة السابقة على سفرى الى الاسكندرية لا أنام ، وأظلم طول الليل أتقلب على فراشى كأئننى موج البحر .. أو كأئننى جنين يتحرك في بطن أمه ، يريد أن يخرج الى النور ..

فالسفر هو النور .. هو البلاد الجديدة .. يكفى أن تجد ناسا غير الناس .. وهواء غير الهواء .. يكفى أن تضيق في مجتمع لا تعرفه ولا يعرفك .. يكفى أن تجد نفسك وحدك .. في غرفة وحدك .. « تتشقلب » .. تقف على رأسك . تمشى عاريا .. إذا رن جرس التليفون لا ترد عليه .. وإذا استمر في الرنين ، ترفع السماعة وتقول لعاملة التليفون في الفندق : « وحياتك أنا غير موجود .. مش عاوز أبقي موجود .. مش من حقي أن أنكر نفسى .. ؟ مش من حقي أن أقطع صلتى بالعالم .. ؟! » .

وبهزة من كتفيك ينقطع رنين التليفون .. وترفع رجلك وتضغط على الجرس .. بدلا من أن تضغط عليه بيديك .. أنت حر .. أنت وحدك .. وحين يجيء الجرسون في الفندق ، فانه لا يعرف كيف ضغطت على الجرس .. وتطلب منه ألا يجيء بعد ذلك .. أنت حر .. أنت وحدك .. وهذه الحرية التي ظهرت فجأة ، سببها أنك سافرت من مكان تعيش فيه ، الى مكان لا تعمل فيه ..

ان فرحتى بالسفر الى اليمن مثل فرجتى بالسفر لأول مرة خارج مصر ..
بوكان ذلك منذ ١٥ عاما ..

لا يمكن أن أصف لك المشاعر الغريبة التي اجتاحت حياتي كلها قبل أيام السفر . . لقد سافرت بالطائرة الى أوربا . . وكانت أول مرة أسافر فيها خارج القاهرة . لم أكن قد رأيت الاسكندرية لم أكن قد رأيت دمياط مع اننى من المنصورة . لم أكن قد ذهبت الى أبعد من الجيزة . .

ومرة واحدة . . أجدنى فى طائرة . الطائرة محروقة قديمة . . كانت تعمل فى نقل الحيوانات من الحبشة الى السودان . . أرضية الطائرة وسقفها مملوءان بالثقوب . . معظم المسافرين كانوا يجلسون على الأرض . . وإذا فكروا فى الجلوس على مقاعد ، فالمقاعد مربوطة بحبال . . هذه الحبال كانت تستخدم فى ربط أرجل الأبقار والجواميس . . وكان يجلس الى جوارى ثلاثة من الدكاترة . . وكنت سعيدا بجلوسهم الى جوارى . . فى مقدمتهم الدكتور غيليب المنقبادى كبير أطباء شركة ثل ، أما سبب فرحتى بالدكاترة فستعرفها بعد لحظات !

وهبطت بنا هذه الطائرة فى أثينا ، ثم فى روما ، وباريس ، ولندن . « وتخطبت » كل هذه الصور الغريبة الرائعة المثيرة فى رأسى . . لدرجة أننى حينما عدت الى مصر كنت أتخيل أن برج آيفل موجود فى لندن ، ومجلس العموم البريطانى موجود فى أثينا . . والجندول فى باريس . . ولكن هذه « اللخبطة » كانت مثل أكلة دسمة جدا فيها كل شئ تحبه . . ثم ملأت به فمك ومعدتك مرة واحدة . . انها اكلة توجع البطن . ولكنه وجع لذيد !

وأول مرة سافرت بالباخرة كانت فرحتى لا يمكن وصفها . . وكنت أيامها محرراً فى جريدة « الاهرام » ونشرنا فى الاهرام خبرا عن سفرنا . . وقراه الناس ولم يضحكوا كما ضحكنا . لقد كان الخبر يقول : « يسافر اليوم الى أوروبا على « ظهر » الباخرة : الأساتذة حسين بيكار ، وعبد السلام الشريف ، وأسعد مظهر ، وصلاح طاهر ، وكمال الملاح ، والأخوان وانلى وأنا ، فى رحلة تستغرق شهرا » . .

ولكن حينما قرأنا الخبر ضحكنا ، لأننا بالفعل مسافرون على (ظهر) الباخرة . . فلم نسافر فى الدرجة الثالثة أو الاولى . . وانما على (الظهر) . هناك تحت خيمة وضعنا حقائبنا وتمددنا على الأرض المصنوعة من الحديد . . وتحتنا توجد « أشولة » . . وفوقنا السماء . . وبين كل اثنين نائمين ، توجد حقيبة كبيرة . . وفى ساعة مبكرة فى الصباح ، يجيء البحارة بالجرادل وخرابيطم المياه ليغسلوا ظهر السفينة . . وفى هذه الحالة لا بد أن تنهض بسرعة وتلم « الغزال » لتفصح الطريق أمام المقشاشات .

والبحارة يصحون فى الساعة الخامسة صباحا ، قبل أن تصحو الشمس . . فهم يغسلون ظهر الباخرة حتى لا تتسخ أشعة الشمس وهى تتمشى عليها . .

ونحن عادة في الباخرة نظل ساهرين في طبل وزمر ورقص حتى الفجر ..
وبعد لحظات يجيء البحارة يوقظون هؤلاء النائمين بأجراس غريبة : عبارة
عن زعيق وصريخ وتهديد بالماء ..

يعنى لم نكن ننام . ولم نكن نشكو من قلة النوم ، ولا من التعب ! وكيف
يشكو من التعب ، أى انسان على سفر !

ان فرحتى بالسفر تجعلنى أفكر من جديد في نظرية التطور التى تقول
بأن الانسان أصله طائر أو سمكة .. فالسمكة حيائها في الماء ، وتموت
في الماء أيضا .. وأنا أموت في الماء وفي الهواء .. يكفى أن أرى لأحلم
انى استحم وأغوص وأعووم وأموت .. وتخيل قبرى من الأسفنج أو أتخيله
عبارة عن قوقعة .. أموت فيها كما تموت حبات اللؤلؤ .. وأظل عائما
في الماء .. قبرى عائما في الماء .. تماما مثل قبر الكلبة « لاىكا » الذى
ظل طائرا في الهواء حول الكرة الأرضية ..

ولم يكن من آمالى أن أكون بحارا ولا طيارا .. ولكن كان من آمالى أن
أكون طبيبا .. وهذه أمنية كل طفل صغير .. كل طفل يخاف من الدواء ومن
الحقن . ويرى المرض في بيته يأكل والده ، ويهد حيل أمه ، ويخطف أقاربه
.. وكانت من آمال والدى أن أكون من رجال الدين .. ومن آمال أمى أن
أكون مهندسا زراعيا ..

فكل أحلام الأطفال أن يكونوا أطباء .. أى قادرين على قهر المرض
وطرد الموت .. لا يتناولون الدواء المر ولا يصرخون من الحقن . والأطفال
الصغار يتصورون أن الطبيب لا يمرض ولا يموت . وكان الكاتب الانجليزى
« برنارد شو » يرى أن الدكاترة جميعا جزارون .. وأنهم يذبحون المرضى
بالجهل وابتزاز أموالهم .. وأن الطبيب ليس الا خفيرا للمقابر .. وهذه
المقابر هى أجسام الناس !

ولكن لا يزال عندى هذا الخوف من المرضى ومن الإصابة بالمرض ..
فأنا أستطيع أن أكون مقياسا لكل أمراض الشتاء .. كالزكام والسعال
.. وأنا أصاب بها عادة قبل بدء الشتاء . ولا تتركنى هذه الأمراض الا في
أوائل الصيف ..

وأى انسان يعطس أمامى ، يعلم أننى سأتناول « الاسبرين » بعد
لحظات . وأى واحد يسعل ، سيجدنى قد سبقته الى « الاجزخانة » لأخذ
حقنة « بنسلين » .. ومع أننى أخاف من الحقن وأتوجع منها كأى طفل .
فان خوفى من المرض هو الذى يدفعنى الى تعذيب نفسى .

وأنا حائر في صداقتى للطباء .. هل هى صداقة فعلا ، أو هى خوفا
من المرض ..

وكل أصدقائي من الأطباء يشكون من مخاوفي .. فلا أكاد أصاب بأى ارتفاع فى درجة الحرارة ، حتى أدور عليهم واحدا واحدا ، وأسألهم عن كل الأمراض التى تصيب أى انسان ترتفع درجة حرارته .. وقد تعلمت حقيقة بسيطة جدا وهى أن ارتفاع درجة الحرارة ليس معناه أى مرض .. أو معناه الإصابة بأى مرض .. فارتفاع درجة الحرارة هو المقاومة الشعبية فى داخل الجسم لهذا الدخيل الأجنبى : الميكروب !

والحقن والأدوية ليست الا ذخيرة نلقى بها فى المعركة ، لمقاومة ملايين الميكروبات .. ملايين المتسللين الى أجسامنا !

ولما كنت فى الهند أرسلت برقية الى صديق فى جاكرتا ، بأننى فى طريقى إليه . وانتظرنى فى المطار وفوجئ بأننى مسافر الى استراليا . وقال منزعجا :
— انت ايه .. ماز هقتش من السفر ؟

— لا ...

— مش تعبنا .

— أيوه .. لكن ايه يعنى ؟

— والجيوب الأنفية ؟

— والجيوب الأنفية .. الآن أحسن .

— قصدى الفلوس اللى فى الجيوب .

— ولا بهمك .. فاستراليا كلها صحة .. الهواء نفسه غذاء .. الهواء لحم وفاكهة ونوم هنىء !

ولا أعرف ما الذى حدث لى .. لقد نزلت فى مدينة « سيدنى » باستراليا ، وأنا أشكو من التهاب الجيوب الأنفية .. وأصابنى الفزع وخشيت أن تكون هذه بداية أمراض لا أول لها ولا آخر .. وأنه لا بد أن تكون هذه الأمراض قد تسلمت الى جسمى فى الهند .. ولم تظهر الا بعد أن تغير جو الهند الحار ، الى جو استراليا البارد .. وخشيت أن تكون هذه الأمراض هى طلائع الأمراض المتوطنة فى آسيا كلها ..

وبدلا من أن أذهب الى الفندق ، ذهبت الى المستشفى . وبدلا من أن أشكو من الجيوب الأنفية .. شكوت من كل الأمراض التى أعرف أنها موجودة فى الهند .

ودار هذا الحوار بينى وبين أطباء المستشفى :

— عندك ايه ؟

— كل حاجة .

— زى ايه ؟

— كل الأمراض .. فأنا كنت فى الهند والتبت ، وسيلان ، وأندونيسيا ..

وتعذبت ، ومرضت ، وجعت ، وعرفت الأرق ، والنوم واقفا والنوم جالسا

.. وطول الليل هربان من الناموس ومن الثعابين .. وأعصابى مفيش ..
فيه انقلاب عسكرى فى داخل جسمى .. ان مصارينى قامت بمظاهرة
وحملت معدتى على الأكتاف ، وارتفعت بالمعدة الى مستوى الرأس ..
ومعدتى الآن فى مكان عقلى .. وكل أعضائى معطلة عن العمل .. وأنا أريد
ارجاع الحياة الى ما كانت عليه قبل الحكم المعوى .. أريد أن يعود العقل
الى عرشه فوق كتفى .. الحقونى ياناس ياهوه ..

طبعاً قالوا اننى مجنون ..

وبعد ليلة هادئة قمت من النوم وأنا لا أصدق اننى على قيد الحياة ..
وفتحوا لى الأبواب وطلبوا منى أن أبحث لى عن لوكاندة أخرى غير
المستشفى !

ومنذ أيام ذهبت الى الدكتور .. وأعطيته ذراعى اليمنى للتطعيم ضد
الجدري .. وذراعى اليسرى لحقنى ضد الكوليرا وضد التيفود وضد الحمى
الصفراء .. ووقفت مرعوباً .. وبعد لحظات ارتفعت درجة حرارتى ..
وأحسست بدوخة شديدة وصداع . وسألت :

— ما الذى أفعله ؟

— فى ايه ؟

— اذا مرضت ..

— مش فاهم ..

— اذا ارتفعت درجة حرارتى وظهرت دمايل فى ذراعى .

— خد قرص اسبرين ..

— بس كده ..

— واذا حصل أكثر من كده .

— لا .. مش حيصل .

— لا بد أن يحصل .. أنا عارف نفسى .. أرجوك قل لى أعمل ايه ..

— عليك بالاسبرين ..

وأحسست اننى سخييف جداً ، وأن مخاوفى « عيالى » وأن الوقاية من
المرض متعبة كالمرض نفسه .. تماماً كالذى يحمل شمسية ثقيلة جداً
للووقاية من ضربة الشمس .. الشمسية ثقيلة ، ولكن ضربة الشمس تشبه
سقوط قرص الشمس كله فوق دماغك وجسمك .. ولكن الشمسية أهون
من الشمس ! .

وبدأت أبحث عن أدوية الوقاية من كل الأمراض التى يمكن أن يصاب
بها أى انسان فى أى مكان . فى العالم حبوب وسوائل . وحقن ومراهم
وشاش وقطن .. وكل يوم أرتب علب الأدوية ترتيباً معيناً .

مما يعلب التي على اليمين خاصة بالمعدة والمصارين ، والتي على اليسار خاصة بالكبد . والتي في الوسط خاصة بالصداع والصدر وكل الجهاز التنفسي . أما التي في الكيس من النايلون فهي أدوية للاستعمال من الخارج ، كالمراهم والمطهرات .

ومفروض أن تبقى هذه الشنطة كما هي لا تتحرك لا يمينا ولا شمالا حتى لا أخطيء في استعمالها .

وأمسكت ورقة وكتبت أسماء هذه الأدوية وطرق استعمالها . . والكميات ، والظروف . . وقبل وبعد وأثناء الأكل . . ثم نوع الأكل . . وبدأت أذكر هذه الأدوية . .

ولكى أتأكد من معلوماتي سألت أصدقائي من الدكاترة . وكانت المائدة !

فلا يوجد طبيب واحد يتفق مع طبيب آخر في الرأي ، ولا في العلاج ، ولا في التشخيص . . وكل واحد له نظريته وعنده دليل على صحتها . . ووجدت أن الحل الوحيد للخروج من أزمة فلاسفة الطب ، هو أن « الخبط » الشنطة . فأى دواء يقع في يدي هو علاج لأي مرض لا أعرفه . وأي لخطبة هي علاج ، وهذه الخطبة لها نظرية عند طبيب معين .

والنتيجة هي أن العلاج الوحيد لكل الأمراض هو أن تكشف على نفسك وأن تشخص لنفسك المرض ، وأن تعالج نفسك بنفسك .

وعرفت من كلام الدكاترة أيضا : أن المريض إذا أحس بأن الأطباء كلهم لا يفهمون في الطب وأنه لم يعد يثق فيهم ، وأنه يثق في نفسه . . فهذه أيضا أمراض مرض خطير . . هذا المرض يسمونه : الوسوسة . .

ودكاترة آخرون يسمونه : نزعات انتحارية . .

وينصح الدكاترة بعضهم البعض بأنهم إذا صادفوا مريضا بهذا الشكل للعلاج الوحيد هو ألا يسألوا عنه ، وأن يتركوه لمرضه الذي لا علاج له .

ولخطبت الشنطة . . ولكني اكتشفت أن بعض هذه الأدوية مفيد وبعضها الأخر سام . . وأنه قاتل .

وعلى ظهر الباكسة « مصر » رحت أقلب في الشنطة عن الورقة التي كتبت فيها أسماء هذه الأدوية وفوائدها . . لم أجد الورقة . . لقد نسيته في البيت . مع أنني نقلت منها ثلاث نسخ . . ووضعت نسخة مع الأدوية ونسخة في جيب البنطلون ، ونسخة في جيب الجاكتة .

ونزعت كل هذه الملابس التي كنت أرتديها وأنا آخذ الحقن في مبنى البداية .

وحيثما أخذت صندوق الدواء ، أو هذه الأجرخانة الصغيرة ، كنت قد
الصقت هذه الورقة على الصندوق ، ولم أكن أتصور أن الصمغ سيذوب
من حرارة الجو . . وذاب الصمغ ، وطارت الورقة . . تماما كما تنقطع
الحبال التي تشد زورقا الى الشاطئ . . فيجرفه التيار .

وكان الصمغ هو الأصابع الخفية التي تشدني الى الصحة . . الأصابع
التي تمسك « الروشتة » . . أما الآن فما فائدة الدواء الذي لا أعرف طريقة
استعماله . .

والآن أجلس أمام صندوق أدوية ، وأنا خائف من هذه الأدوية ، خائف
أن أستعملها ، وخائف ألا أستعملها . .

ووضعت الأجرخانة الصغيرة في ركن . .

وفكرت في أن ألقها في الماء . . لقد خجلت . . لقد شعرت أن هذه
الأجرخانة ليست الا وثيقة سخافة ، ودليل اتهام ضد أفكار صغيرة . .
فأنا خائف من المرض . . أى مرض بعد أن أخذت عددا من الحقن تكفى
لوقاية جبل .

ثم أى مرض هذا الذى يخيفنى ويهز القلم فى يدي . . وأنا ذاهب الى
اليمن حيث سبقنى عشرات الألوف من أبناء وطنى ، ناموا على الصخر .
وشربوا المطر ، وصحوا على النار من أجل الدفاع عن حرية الشعوب ،
وحققوا فى أن تنحصر من الخوف ، ومن الفقر ، ومن الجهل ، ومن المرض !
وأدركت أن خوفى من المرض هو خوف قائم على الجهل . . والجاهل
خائف لأنه لا يعرف . . ولأن خوفى من مرض تاريخى . . مرتبط أنا مع المرض
وتاريخ أهلى وأخوتى وأسرتى فقد كان فيها الكثيرون من المرضى والخائفين من
المرض ولكن هذا الخوف التاريخى يجب أن يتغير . . فالتاريخ نفسه يتغير . .
يتبدل . . ويصبح ظلامه نورا . . ويأسه أملا ، والمحكومون فيه حاكمين ،
والمقيدون فيه أحرارا .

انتى ذاهب الى أرض التاريخ . . وهذه فرصة عظيمة لأنسى مخاوفى
ولأحطمها على صخرة الشجاعة وأرض التضحية . . فإذا كان المرض يعدى
فإن الصحة تعدى أيضا . . لقد انتقلت الى جسمى ونفسى عدوى الشجاعة
فى مواجهة العدوان ، وعدوى التضحية فى مواجهة الواجب .

ومع الصندوق ، الذى رميته فى البحر ، أغرقت مخاوفى !

والله نذكرك

الكتب الكثيرة التي قرأتها عن اليمن ، والأيام القليلة التي أمضيتها في اليمن ، لم تمكني من معرفة جبال اليمن ووديانها ومدنها وآثارها وأهلها وعاداتهم وتقاليدهم ومشاكلهم . ولماذا وقف بهم التاريخ منذ عشرين قرنا ؟ ولماذا اندثرت الحضارة اليمنية ؟ ولماذا أقفرت الأرض الخضراء ؟ وأين ذهبت الجنات التي تحدث عنها القرآن الكريم ، والكتاب المقدس ؟ وأين الصناعات ، وأسواق الأحجار الكريمة ؟ وأين السدود والبحيرات ، وأين هؤلاء العباقرة ؟

ان نصف الكتب التي قرأتها من تأليف جماعة من المغامرين الأوروبيين ، الذين دخلوا اليمن وهم في حالة من الرعب والفرع ، وأكثرهم لم يكمل الطريق الى المدن ، فقد خاف من الجبال ومن العيون التي تنظر اليه من وراء الصخور ومن فتحات الكهوف . وأكثر هؤلاء المغامرين يتحدثون عن أشياء يندهشون لها ، ولا تدهشني . فهم يتكلمون عن الفقر والعري والأقدام الحافية والصدور العارية ، والعيون الزائغة ، وعن الجهل والإيمان بالخرافات . . وكلها حالات عرفناها منذ وقت ليس ببعيد .

أما الكتب العربية فهي ناقصة أيضا . . فلا توجد خريطة مضبوطة لليمن ، ولا توجد احصائيات . فلا أحد يعرف كم عدد سكان اليمن ، ولا أحد يعرف ثروتها ، ولا كم طنا من البن تصدر كل عام ، ولا كم رأسا من الغنم ، ولا كم طنا من الملح ، ولا ميزانية الدولة ولا الضرائب . . ولا توجد باليمن طرق مرصوفة ، ولا طرق يسهل المشي فيها بالقدمين . . ولا يوجد أمان لأحد ، فكل الشعب يحمل السلاح . ولا فرق بين رجل البوليس ورجل الجيش .

لقد نجح الأئمة واحدا وراء واحد ، في ١٢ قرنا من الزمان ، أن يجعلوا بلادهم لغزا لا يفهمه أحد في اليمن ، ولا خارج اليمن . لقد أغلقوا حدودها، وأغلقوا البيوت على أهلها . . بالفرع « والقات » والخرافات وأصبحت

اليمن كبلاد التبت .. بعد أن كانت اليمن لؤلؤة الجزيرة العربية فقد كان فيها ٨٠ سدا لحجز المياه وتوزيعها على ملايين الأفدنة المزروعة بالفواكه .. ومن بين هذه السدود سد مأرب .. ولقد رأيت مكان السد .. وأعتقد أن مدينة مأرب كانت عملا هندسيا رائعا .

وقد عرفت اليمن حكم الملكات ، وربما كان اليمن من أول البلاد التي حكمتها النساء . ان « بلقيس » كانت سيدة جميلة ذكية . وقد روى القرآن على لسانها أنها قالت :

(يا أيها الملأ أفتوني في أمرى) .. فقد كانت تستشير رجالها ، مع انها أعقل منهم . وعلى لسانها قال القرآن أيضا : « ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة ، وكذلك ، يفعلون » .

وعرفت اليمن ملكة أخرى بعد الاسلام ، وكانت في غاية الحكمة .. هي السيدة أروى بنت أحمد .

والمؤرخ الهمذاني يحدثنا عن ناطحات السحاب في اليمن .. وكيف أن المهندس اليمنى أقام عمارات من عشرين دورا ، وكل دور ارتفاعه عشرون قامة .. وكيف أن هذه العمارات لم تكن خاصة بالملوك والأمراء وانما كانت لأغنياء الشعب .. وكان ذلك من ألوف السنين أيضا ! ..

ولم تكن اليمن في عزلة عن العالم .. فقد سافرت بلقيس الى الملك سليمان ، وعادت تحمل أول ملوك اليهود .. وفي أيام المسيح سافر ثلاثة من أمراء اليمن لمقابلة المسيح والايمان به .. وفي أيام الرسول — عليه الصلاة والسلام — دانت بلاد اليمن وأسلمت بلا قتال . وقال فيهم النبي : « أتاكم أهل اليمن ، وهم أرق أفئدة والين قلوبا » .. وقال الرسول أيضا : (الايمان يمانى ، والحكمة يمانية) .

وكان جيش عمرو بن العاص ، الذى دخل به مصر من أهل اليمن وجيش معاوية الذى دخل به الشام ، وجيش عبد الرحمن الداخل ، الذى فتح به المغرب .. وجيوش عربية أخرى ، كلها من اليمن . وكل القبائل العربية الموجودة في محافظات الصعيد والبحيرة والشرقية والاسكندرية من أبناء اليمن ، وأسماء عائلات جهينة ، وعلام ، وعامر ، وعبس ، وخولان وعبيد ، وسالم ، وبنى مر .. كلها من القبائل اليمنية .

ولا أحد يعرف بالضبط ما الذى فعله الأئمة ليقيموا هذا المجد اليمنى .. أى سلاح مسموم استخدموه ؟ أى أساليب جهنمية أطاحت بالشعب اليمنى منذ اليوم الأول لدخول الامام الأول عليهم ، وهو الهادى لدين الله يحيى بن الحسين !

حتى البن ، الذى اشتهرت به اليمن .. لا أحد يدري لماذا انقرض من اليمن ؟ ان كل اشجار البن التى فى العالم من اليمن . فأول شجرة بن انتقلت من اليمن الى اندونيسيا حملها موظف هولندى بشركة الهند

الشرقية . ونقلها بعد ذلك الى هولندا ، ومنها الى البرازيل . . ان اشجار البن في اليمن تختفى لتحل محلها اشجار كريمة اسمها اشجار « القات » . . الذى هو قوت الشعب اليمنى ، فهم يمتصونه فى أفواههم ، « والقات » يمتص حيوياتهم وأعمارهم ، ويفتح أعينهم حتى لا يروا شيئا وقد وجد العلماء أن « القات » يحتوى على مادة « الكافيين » المنبهة ، ومادة « المورفين » المنومة . فهو يصيب من يتعاطاه بنوع من اليقظة الفائقة . أو نوع من التنبيه البليد ، أو بشيء يمكن تسميته باغماء اليقظة ، وبذكاء شرير ، وفهم إجرامى ، شجع الأئمة أبناء الشعب على ادمان « القات » . . فهم يمرضونه ، ولا يأكلون ، وهم يدمنونه ولا يفيقون . وهم يستحلبونه ست ساعات كل يوم ! . .

واستطاع الأئمة الخبثاء أن « يلخبطوا » عقول الشعب بالامامة المقدسة فالامام لا يخطئ . وهو معصوم لأنه يرى بنور الله . والويل لمن خالف الامام . أو أن فكر فى مخالفة الامام . ومن تعاليم الأئمة أن من أنكر على الامام بقلبه فهو فاسق ، وبلسانه فهو كافر ، وبيده فهو محارب لله !

ولم يكتف الأئمة بذلك ، بل اشعلوا النار بين القبائل ، وابتكروا أسلوبا همجيا اسمه : الخطاط ، أو التخطيط . . فالامام يأمر احدى القبائل بالخطاط ، أو بالتخطيط ، على قبيلة أخرى . ومعنى ذلك أنه يحق لهذه القبيلة أن تستولى على كل ما تملكه القبيلة الأخرى ، وتستحل نساءها وثرواتها ، وتقتل منهم من تريد بأمر الامام ، أو أمر الله . . وبذلك تظل النار مشتعلة بين القبائل فى الجبال . . حتى فى أيام الأتراك ظلت نار الثأر والحقد والطمع تاكل القبائل . . ولم يحدث فى تاريخ اليمن كله أن توقفت الحرب بين القبائل . . وكثيرا ما أعلنت القبائل انفصالها عن الامام واختارت كل واحدة منها اماما حتى بلغ عددهم ١٧ اماما فى وقت واحد . فالامامة ليست موروثة ، كما يفعل الشيعة فى العراق أو فى ايران . . وانما هى فى اليمن بالاختيار . . ويشترط أن يكون الامام مقاتلا ! .

حتى الذين هاجروا من اليمنيين الى أمريكا . . ظلوا متمسكين بهذه الخرافات التى أشاعها الأئمة . . ومعنى ذلك أنها كانت عميقة فى قلوب أبناء اليمن . وقد حدث أن الكاتب اللبنانى ، أمين الريحانى ، قابل أحد اليمنيين فى أمريكا وسأله :

— ما الذى تفعله اذا دخل اجنبى بلدك ؟

— والله نذبحه !

— واذا قتل أحد الامام ؟

— والله نذبحه !

وقدر أمير الريحانى أن يذهب لمشاهدة هذه البلاد التى أطلق عليها اسم « بلاد والله نذبحه » . . وقام برحلته المشهورة منذ نحو خمسين عاما .

وبالرغم من أننى عشت أياما فى اليمن ، وتنقلت من الحديدية — ذلك الميناء الحار الملىء بالتراب والرطوبة — الى صنعاء العاصمة العالية المعتدلة الجو ، ومنها الى مأرب ، ثم الى المدينة الناعسة . تعز ، والتي أحاطتها الجبال الخضراء ، وغمرتها العطور والورود والياسمين . . حتى وجوه النساء ملونة باللون الأصفر ، الذى هو نوع من « الكريم النباتى » لصيانة البشرة ، والأزياء كلها هنا ملونة زاهية . . للرجال والنساء وبالرغم من أننى استمعت الى كثير من رجال وشباب اليمن ، فأننى أريد أن أعرف أكثر ، وأن استمع أكثر وأكثر . . فلا بد أن هذه الملايين التى تمشى هادئة ساكنة ، لا تلتفت اليك ، وقد حمل كل منهم حزاما تحته خنجر ، فوقه بندقية تحتها عشرات الرصاصات . . وفوقها عمامة ملفوفة . . ألوف الناس . . ملايين الرجال . . يمشون ببطء شديد كأنهم خرجوا فورا من كتاب قديم أو كأنهم فى طريقهم الى أحد « الاستوديوهات » ليشتروا فى فيلم ضخيم عن اليمن القديمة .

وكثير من الشباب اليمنيين يعترفون بصراحة وصدق فى ندواتهم الأدبية بأنهم لم يدخلوا المدرسة . وان قصائدهم اذا جاءت ركيكة فلأنهم لم يدرسوا أوزان الشعر . . ولكن كل الشبان والرجال الذين تحدثت اليهم أنكياء يحسنون الفهم ويحسنون التعبير ، ويتابعون نشاط الأدباء فى مصر وفى العالم العربى .

وقد رأيت الحديدية . . رأيت المستشفى الذى انطلق فيه الرصاص على الامام أحمد . . ورأيت القصر الذى كان يعيش فيه . . ورأيت الميناء الذى أنشأه الروس ، وأقاموا حوله بالمئات . . ورأيت الطريق الذى رصفته الصين . . ورأيت المطار الذى شيده جنودنا . . وفى صنعاء رأيت القصر الذى هاجمه السلال بالدبابات وهرب منه البدر .

وقابلنا الزعيم السلال ، وكان يتحدث الينا حانى الرأس ، كأنه يقدر العبء الثقيل والمسئولية الخطيرة . . مسئولية تطوير شعب من أوله لآخره . . وتحويله من الحياة القبلية الى الحياة الزراعية ، ومن حمل البندقية الى حمل الفأس ، ومن زراعة « القات » الى زراعة القوت ، ومن قطع الطريق الى رصف الطريق ، ومن العزلة الخائفة البدائية ، الى الاتصال بالعالم الخارجى . لقد حاولت الدول الأوروبية أن تنفذ الى أعماق اليمن . . الى أراضيها البكر ، ووديانها العذراء . . فأرسلت جواسيسها من المغامرين . . وحاولت أن تعقد اتفاقيات تجارية مع الامام . . ولكن الامام صدها وردھا .

حاولت أمريكا أن تنقب عن « اليورانيوم » وفشلت . حاولت المانيا أن تجد البترول وفشلت . حاولت ايطاليا أن تبحث عن الفحم ، وطردها الامام . . وتركت له فى قصر الروضة « الاسانسير » الوحيد فى اليمن ، وهذا الاسانسير يرتفع وينخفض بأيدى الناس . فقد رفض الامام أن يشتري له « موتورا » لأنه غالى الثمن . ووضع المبلغ المخصص لشرائه تحت البساط . . وحاولت ايطاليا أن تجعل اليمن امتدادا لآرتها ، التى تقع

على الجانب الغربى من البحر الأحمر .. وفشلت .. وحاولت اليابان أن توسع صناعة الملح وأصابها اليأس .

ولا بد أن هذه الدول ستحاول من جديد المساهمة في زراعة الأرض ونبش القربة .. فاليمن تحتاج الى رأس المال ، وتحتاج الى الخبرة .. وتحتاج قبل هذا كله الى الاستقرار والطمأنينة والنظام . وهذه هى المهمة الانسانية الخطيرة التى حملها شعبنا دفاعا عن شعب اليمن وثورته ومكاسبه .. وان كل هذه الصعوبات التى لا يتصورها العقل ، هى التى جعلت آمالنا خيالية فى اليمن .. بل معجزة من معجزات الاصلاح الاجتماعى والاقتصادى والسياسى فى القرن العشرين ..

ان تجربة اليمن صعبة وثقاقة ، وهذا ما يشرفنا ، ويرفع مكانتنا فى تاريخ الأمة العربية ، وفى تاريخ العالم .. وليس من المنتظر أن تنهض أمة نامت عشرين قرنا ، مرة واحدة .. تنهض وقد أمسكت غصن الزيتون ورسمت على وجهها ابتسامة القناعة ، ونشرت ذراعيها بالحب والصدقة . ان أحدا لا يستطيع أن يخلق شعبا .. ان الشعب هو الذى يجدد نفسه .. ان الأساطير اليونانية فقط هى التى تحدثنا عن « زيوس » كبير الآلهة الذى أخرج « منيرفا » من جبهته .. كاملة التكوين ، رائعة الجمال فى لحظة واحدة ! .

فهو كبير الآلهة ، والقصة كلها خرافية !

وأنا أذكر أن صديقى المرحوم الزبيرى أصدر كتابا بعنوان « مأساة واقى الواقى » ، وفى الصفحات الأولى من الكتاب راح يعاتبنى على أننى لم أذهب لرؤية أهل « واقى الواقى » ويقصد بهم أهل اليمن ، الذين التفوا حول الامام وراحوا يتناقشون فى البيضة والكتكوت .

وقابلنى الزبيرى فى اليمن وهو يقول : أهلا بك فى أرض لن تكون « واقى الواقى » مرة أخرى .

وأنا واثق من أن الشعب اليمنى سينهض ويقف ويتقدم ، ولن يتعب من السير فى هذا الطريق الطويل الوعر الذى خلقه بتاريخه وعقده وعقائده .

قال أحد اليمنيين : لا بد أن ننزع أشجار « القات » من الأرض ..

قلت له : بل من أفواه الناس ..

فقال : ومن أفواه الناس طبعاً ..

وشمرت بشيء من الحرج أن أقول ذلك لأحد .. فهذه بلادهم وهم يعرفونها أكثر .. وما أنا الا عابر سبيل .. وما هى الا أيام حتى تكون اليمن صفحة من ذكرياتى !

سيف الإسلام في حرقه حيوان

كانت الباخرة الفرنسية « الماريشال جوفر » تقترب من ميناء مرسيليا . . . وكنا قد تعبنا من أمواج البحر . . . وتعبنا من صفارات الانذار والاستعداد للفرق . . . ومن التجارب على الفرق واستخدام الزوارق وأطواق النجاة . . . وفي كل مرة تنطلق فيها الصفارة أرى عددا من الراهبات بملابسهن السوداء يصلين لله ، أن ينقذ الباخرة من الفرق . . . مع أن الباخرة لم تفرق بعد ومع انها تجارب . . . أن البحر هادئ جدا ، والسفينة كبيرة ولا تهزها الأمواج الا بصعوبة . . . وتملكنى الخوف الشديد . وأضربت عن الطعام . واكتفيت بالشاي والليمون . . . وقررت أن أنام جالسا على مقعدى حتى أصل الى فرنسا . . . وكان سريرى . مع الأسف . فى الدرجة الرابعة . وكانت هذه الدرجة فى أعماق السفينة . . . وأعماق السفينة تقع تحت سطح البحر . . . وكنت أشعر بالاختناق من رائحة العرق والحرارة . . . ورائحة الأطعمة المحفوظة ، والتي لا أزال أكرها حتى الآن (كنت قد نسيت رائحتها الى أن تذكرت هذه الرائحة وأنا جالس أمام علبة السرددين فى مدينة صنعاء باليمن . وكان يقاسمنى اياها يوسف السباعى ، ونجيب محفوظ ، وصالح جودت ، ومحمود اسماعيل ، والدكتور علام) .

وأتيت ببطانية وفى مقدمة السفينة جلست أواجه العواصف بجسم هزيل ومعدة خاوية ، وانتظار نافذ لطلوع الشمس . . . وطال الليل . . . ولا أعرف أن كنت قد نمت أو لم أتم . . . ولكن حين الفجر تقدم شاب فى ملابس زرقاء . . . واضح جدا أنه يعمل فى أعماق السفينة وعلى ملابسه شحم وعلى وجهه أيضا . . . سألنى : أمرض أنت ؟

قالها باللغة العربية . . . فاندعشت . . . ولكن دهشتى تلاشت مع لهفتى وأنا أقول له :

نعم . . . ولم أتمكن من سؤاله : من أنت ، وتشاغلنا بأوجاعى وجمعت

البطانية ووضعت يدي على بطني .. ولا أعرف ما الذي يوجعني بالضبط .
ولكني مَجُوع .. أو كَأَنِّي الوجع نفسه .

وبعد لحظات جاء الشاب نفسه وفي يده كوب من البن الأسود القائم
المحروق .. وطلب مني أن أشرب هذا الكوب فوراً ، وشكرته وأنا أسأله :
الأخ من أي البلاد العربية ؟ .

فقال : من اليمن :

ولم لاحظ أنه نطق كلمة « اليمن » باعتزاز شديد إلا بعد أن تذكرت هذه
الواقعة — وحينما قال كلمة : اليمن ، لم يدر في ذهني شيء . ولم تدر في
رأسي أية صورة . ولا أعرف أي شيء يذكرني باليمن وإنما رنت « اليمن »
في أذني . وتلاشي وجهه من عيني . ولم أفكر في هذا الشاب الطيب النحيف
بعد ذلك .

ولكن ظل ، طيلة الساعات التي قضيتها في الباقرة الى أن وصلت الى
مرسيليا يحدثني عن مصر .

ولاحظت بعد ذلك أنني اكتفيت بهذه الحفلة التي أقامها الشاب اليمني
لتكريم مصر والاذاعة العربية ، ولم أنس أن أسأله عن اسمه وعن حاله
وعن اليمن .. ولكن يبدو من كلامه أن الحال سيء جداً في اليمن .. ولكن
هذه الحالة السيئة أيضاً لم تشغلني عن أوجاعي ، ولا عن خوفي من المرض .
وأختمني الشاب اليمني في أعماق الباقرة . وكان هذا أول عهدي بأبناء
اليمن منذ ١٢ عاماً .

وكل ما تبقى في ذاكرتي أن أبناء اليمن نحفاء ، وأنهم في أشد الحزن على
حالتها السيئة .. وأنشغلت بفرنسا وباريس عن كل أحداث الباقرة وعن
كل الذين قابلتهم من عرب وغيرهم ! ..

ولكن حدث شيء آخر في باريس جعلني أتحدث عن اليمن وأنا أعترف
أن كلامي عن اليمن لم تكن له دلالة ولم يكن له أي أثر في نفسي بعد ذلك .

ففى أحد المطاعم في حي « الباربيس » في باريس قابلت عدداً من الشبان
الجزائريين والمغربيين وتحدثنا في أمور كثيرة . كلها مرحة وخفيفة ومن
الغريب أن شاباً واحداً كان جاداً وكان جامداً طول الوقت . واتجه بحديثه
الى وهو يقول ، وكأنه يعاتبني : الأخ من مصر ؟

فقلت له : نعم . وأنت ؟

فأجاب : من اليمن السعيد .

قلت : آه ، لقد قابلت يمينا آخر في الباقرة فهل أنتم كثيرون هنا ؟ .

فأجاب : بضع عشرات . . ولكن في ايطاليا وفي أمريكا عدد كبير جدا . .

وسألته : ماذا تعمل ؟

فأجاب : في أحد المصانع .

وأصبح واضحا من كلامه أنه لا يريد أن يكمل حديثه معي . أو أنه غير راغب في الكلام بصفة عامة . وهذا ما ظننته أنا . . ولكن خاب ظني حينما سألتني : هل ذهبت الى اليمن ؟

فقلت له : أبدا !

وسألتني : ولا عندك رغبة ؟

قلت له : ليس الآن .

قال : متى ؟

قلت : لا أعرف . ولكن لا بد أن يجيء اليوم الذي أسافر فيه الى اليمن . . أو الى أى بلد آخر .

ورغبت أنا في انتهاء الكلام عن اليمن . . ولكن كان يبدو أنه يريد أن يستمر في الكلام عن اليمن .

حاولت أن أغير مجرى الحديث ، وأن أنشغل بالكلام مع بقية الاخوة العرب . . وفعلت . وتناقشنا في الأدب والفن . . وفي أشياء كثيرة لا علاقة لها بالأدب والفن . . وانما في أسعار الطماطم وفي لحم الخيل الذي اكلناه . . ولم نستطع . . وبعد ذلك ، عاد الشاب اليمنى يستأنف كلامه وكأنه لم يقطع حديثه . . فقال بعبارة قاطعة باردة : ماذا تعرف عن اليمن ؟ .

والحقيقة أنني لم أكن أعرف شيئا له قيمة عن اليمن . . لم أكن أعرف واحدا على مائة مما يعرفه عن مصر وأدباء مصر وشعراء مصر ، ومعارك الأدباء ، وعن رجال السياسة في العالم العربي كله .

وسألتني : هل تحب أن تقرأ شيئا عن اليمن ؟

وقلت له : ياريت .

وسألتني : وأنت ماذا تعمل ؟

والحقيقة أنني خجلت أن أقول له أنني أعمل صحفيا ، وأنني مدرس الفلسفة بالجامعة . . وقلت له : أنا مهندس مناجم !

ولم ينقذني هذا الجواب فانطلق هذا الشاب يقول لي : مهندس مناجم ، ولا تعرف كنوز اليمن القديمة ، ولا تعرف محاولات الدول الكبرى خلال

مئات السنين لكى يدخلوا اليمن ، لينهبوا مناجمها التى لم يمسسها انسان ..
افنى تصورت انك رجل تشتغل بالفلسفة وانك غرقان فى الأفكار المجردة وبعيد
عن هذا العالم .. اما انك مهندس ، ومهندس مناجم فاسمح لى بأن أقول لك:
هذه فضيحة !

وهى بالفعل فضيحة ..

وتلاشى الشعور بالفضيحة ، مع أضواء باريس ، وليالى باريس وظلام
باريس ، والشعور الغريب الذى يغمر أى انسان وهو يزورها للمرة
الثانية فى حياته ، وهو مبهور بالمتحف ، والمكتبات ، والمسارح والناس ..

وفى كل مرة اذكر فيها باريس .. لا اذكر هذا الشاب اليمنى ولا أى
شئء قاله .. بل فى كثير من الأحيان كنت اذكر مضايقاتى مع أصحاب
الفنادق ومع سائقى التاكسى ، وحنائى فى الاتوبيس ووقاحة الفرنسيين
وهم ينظرون الى كل اجنبى .. وخيبة املى فى معنى الحرية فى فرنسا ..
فى كل مرة اذكر فيها الأشياء التى ضايقتنى لا اذكر على الاطلاق ، هذا
الحديث الذى دار بينى وبين الشاب اليمنى .. أو الذى دار حولى ، ولم
أشترك فيه .

ولا أعتقد أننى تذكرت اليمن بعد ذلك الا حينما تنشر الصحف شيئاً
عن عدن ، وعن المحميات ، أو عن جنوب البحر الأحمر .. أو حين تنشر
الصحف صورة لأحد سيوف الاسلام .. أو أحد الأمراء اليمنيين .. ولا اذكر
بالضبط ما هى الأسباب التى جعلت الصحف تنشر أخبارهم .

فقد كانت اليمن ، بأخبارها وناسها وكوارثها ، بعيدة عن مجال
اهتمامى .. فقد كنت مشغولاً بأشياء أخرى من ضمنها الأدب العالمى ،
والنقد والفلسفة وعلم النفس وعلم الجمال .. ومشغولاً بزيادة معلوماتى
فى هذا المجال المتخصص .

الى أن كان يوم وجدت نفسى فيه مكلفاً بالذهاب الى حديقة الحيوان
مع أحد سيوف الاسلام ..

ولا اذكر اسمه الآن .. فقد نادانى الأستاذ محمد صبيح ، نائب رئيس
تحرير جريدة « الأساس » فى ذلك الوقت - فى سنة ١٩٤٧ - وطلب
منى أن اذهب الى حديقة الحيوان مع سيف الاسلام فلان .. وكان هذا
الأمير هو أول يمنى أراه عن قرب .. وأتحدث اليه .. وأناقشه .. والحقيقة
أنه لم يدر بيننا حديث .. وإنما أنا الذى كنت أتحدث اليه طول الوقت ..
أما هو فلم يكن يتكلم .. ولم يكن يشعرنى بأدنى رغبة فى الاستماع . وكان
لا بد أن أملاً هذا الفراغ الهائل الذى بيننا .. أو على الأقل كان لا بد أن
أقول له . أنت ستنزل فى المحطة القادمة ..

طبعا أركبته الترام .. وظللنا واقفين .. والناس يتفرجون عليه ..
كأنوا يتفرجون على الخنجر الذى علقه فى حزامه .. أو يتفرجون على
العمامة .. أو على العينين المبلطتين فى لا شيء ، أو على حدائه أو على
جوربه .. أو على أشياء أخرى لا أعرفها بالضبط فى ملابسه .

ونزلنا ودخلنا حديقة الحيوان .. وانطلقت من غمى ، وعلى فترات
متباعدة جدا ، هذه العبارات : هذا هو الفيل .. وهذا هو الأسد ..
ونظر الى الثعبان .. آه .. لقد تعثرت فى طوبة وهذا هو الفزال ..
ما أجمل النعام .. وهذه مستعمرة القروء .. وعددها هنا بالمئات .. وهذه
القردة تبكى على زوجها الذى مات .. وهذا يؤكد أن المرأة أصلها قردة ..
أما الرجل فهو من سلالة أخرى .. هاها .. ها .. ها (ولم يضحك سيف
الاسلام فلان) .

واقترحت عليه أن نتناول الغداء .. وذهبنا الى جزيرة الشاي ..
وأحسست كأننى أجلس وحدى ووضعت ساقا على ساق .. ثم وضعت
ساقى على مقعد مجاور .. وسقط كوب الماء على ملابس سيف الاسلام ،
واعترضت ، ويبدو أنه لم يتضايق .. وانما راح يلتفت بكل رأسه ، وكل
جسمه ، الى الأوز العائم فى جزيرة الشاي .

وفجأة هتفت : أهلا دكتور .. أزيك يا دكتور حسن .

وكان الدكتور حسن حافظ أحد أطباء الحديقة . وكان صديقى .. ولا أعرف
أن كان لا يزال يعمل بالحديقة الآن .. ودعوته الى الغداء .. ولكنه لم
يتحمس فلا بد أن وراءه شيئا أهم .. كولادة قردة . أو ثورة كلب البحر ،
أو تمرد السلاحف .. لقد اندهشت جدا حينما عرفت منه أن السلاحف تثور
.. (حتى السلاحف تثور ، يا سمو الأمير فلان !) .

وسألت سيف الاسلام ان كان يريد قدحا من القهوة .. ومط شفتيه
الى الامام .. ولكن لجهلى باللغة اليمنية ، لم أفهم منه ان كان يريد
يسكر أو من غير سكر .. أو كان معنى هذه المطة الى الامام ، انه لا يريد
أن يشرب بنا آخر ، إلا اذا كان يمتيا .. وهذا ما لا أستطيعه . وطلبت
فنجانيين من القهوة : واحد مضبوط وواحد سادة .

ولعبت الأستاذ محمد صبيح ، وتناقشت مع نفسى : هل من سلطنة
أن يبعث بى الى حديقة الحيوان .. اننى أعمل محررا للصفحة الأدبية
وأناقش القضايا الفكرية والفلسفية فى مصر وفى العالم .. وليس من
اهتماماتى الذهاب الى حديقة الحيوان ، وبهذه الصورة .. لقد أحسست
أن يوما ضاع من عمرى .. فلا أنا قرأت ولا أنا استمعت الى كلام من
سيف الاسلام فلان .. وازددت تعجبا للزملاء الفارقين فى قضايا اليمن ،
وصور رجال القبائل ، (بل اننى حينما ذهبت الى قصر الامام فى صنعاء

وجدت نسخا من الصحف المصرية لم تفتح ، ووجدت فيها مقالات عن الامام
ويبدو ان الامام لم يشأ ان يقرأ هذه المقالات .. او انه قرأ نسخة واحدة
وترك النسخ الأخرى مطوية ومقفلة بحزام من ورق) .

وقررت ان أرغم سيف الاسلام على الكلام .. او أرغمه على ان يستمع
الى رأيي .. فقلت له : الحقيقة انه مشوار سخيف جدا .. وكان في
استطاعتك ان تجيء هنا لوحداك ! .

ولم ينطق سيف الاسلام فلان بكلمة !

ثم عدت أقول له : لقد قابلت يمينين في فرنسا .. كانوا في غاية
الفصاحة والثقافة ..

ولم ينطق ايضا .. ولم ألمح على وجهه أى معنى من معانى الضيق
او القرب .. او انه فهم الغرض المقصود من كلامي .

واقترحت عليه ان يأخذ « تاكسى » .. وأن يعود وحده الى بيته .

وهز رأسه موافقا ، واندثشت لهذا النطق الملكى السامى .. واستنتجت
انه تعب ، وأنه تضايق من ركوب الترام ، فالتزام اهانة لسموه .. ولكن
لم اكن أستطيع ان أدفع له اجر تاكسى ..

وقبل ان نقرب من الباب الرئيسى لحديقة الحيوان .. فوجئت بسيف
الاسلام يجرى .. وظننت انه يريد ان يلحق بالتزام .. او انه توهم انه
لا يوجد الا سياره تاكسى امام الباب .. او انه يريد ان يذهب الى دورة المياه ..

وحاولت ان أمسك سمو سيف الاسلام .. لكى أفهم سبب الجرى
المفاجىء وأمسكته من كتفه .. ولكنه انطلق .. وقفل من فوق الاسلاك
المحيطة بالأشجار وتشبثت الاسلاك بجلبابه .. ولكنه بسرعة نزع الاسلاك
من جلبابه .. ثم هجم على احدى الأشجار وراح ينزع أوراقها .. ويضع
هذه الأوراق في فمه ..

ومن الغريب اننى رايت لمعة غريبة على وجهه وبريقا خاطفا في عيئه
.. ولا أكون مبالغا ان قلت انه تبسم وعرفت ان هذه هى شجرة « القات »
الوحيدة في حديقة الحيوان .. وربما في مصر كلها .. ولاحظت ان سمو الأمير
سيف الاسلام قد افاق من صمته المميت ، فقد اقترب منى وهو يتبسم ..
وهو يضحك وهو يتكلم .. نعم يتكلم ويقول : لا مانع من ان تفرج على
الحديقة .

فقلت : لقد تفرجنا عليها أكثر من ساعتين ..

فقال : صحيح ؟ !

قلت وأنا أجرى ناحية الباب ، تماما كما كان يفعل قبل لحظات : اننى
ذاهب الى الطبيب . عندى مغمص .

ومن الغريب انه سألنى : كيف حدث هذا فجأة ؟

ونظرت الى اللعاب الذى يسيل من بين شفتيه وأنفه ويتدفق على صدره
كأنه أصيب بحالة تسمم ، ثم لاحظت أحد رجال البوليس وقلت لرجل
البوليس وحياة أبوك يا شاويش . . الراجل اللى هناك عنده كوليرا . .
امسكه !

ولما اقترب منه رجل البوليس هربت الى خارج حديقة الحيوان ! .

* * *

الرجل الذي جعل الإمام أراعدنا

ولا ادعى بعد ذلك اننى بدأت اهتم باليمن ، مجرد اننى رايت عددا من اليمنيين فى اوربا ، او فى القاهرة ، واننى مضيت نصف يوم مع أحد الامراء اليمنيين فى حديقة الحيوان .. ولكن حدث أن وجدت كتابا صغيرا عن اليمن ، الكتاب يبلغ نحو ٥٠ صفحة ، وهو يصف رحلة أحد الايطاليين الى اليمن وكيف واجهته مصاعب من نوع غريب . فقد طلبوا اليه أن « يقطع » البنطلون لأن ارتداء البنطلون يتنافى مع الدين ! وطلبوا اليه أن ينزع القبعة ، لأن القبعة من ملابس الكفار .. ثم لاحظوا أن هذا الرجل الايطالى لا يتوضأ وإنما يكتفى بغسل وجهه وأحيانا قدميه .. فاعتقد اليمنيون الواقفون على الحدود ، أو فى إحدى نقط الحدود ، أنه كافر أو أنه جاسوس لأحد الكفار .. ولكنهم لاحظوا أن معه ساعة كبيرة .. وأنه بدأ يلعب بها ، وتنامسوا حوله ..

واخفى واحد منهم ، وبعد قليل عاد هذا الرجل وهو يرفع سلاحه فى وجه الخواجه الايطالى ، ويطلب منه أن يرافقه الى مكان ما .. ثم خطفوه ووضعوه فى بيت وحبسوه .. ولم يعرف الخواجه سبب هذا التصرف .. وأخيرا سمع خطوات تقترب منه وضوضاء .. وظن أنهم قد أتوا له بأحد رجال الدس ومعه طشت ليعلمه كيف يتوضأ .. ولكنه فوجئ بأنهم أتوا له بجهاز غريب ، وألقوه أمامه على الأرض وطلبوا منه أن يصلحه كما يصلح الساعة التى فى جيبه .

ولم يكن هذا الجهاز الغريب الا مطحنة بن .. وتمكن الخواجه من اصلاحها بسهولة .. فاعتقدوا أنه ساحر ، وأنه يستعين بالجن ، فبعد أن أصلحها طردوه من اليمن ..

وبعد ذلك سافرت الى ايطاليا .. وقابلت فى سفارتنا هناك أحد الشبان اليمنيين .. وعرفت فيما بعد أنه مات فى حادث طيارة فى روسيا .. وكان شابا نحيفا مهنيا وكان شديد الذكاء .. وتناقشنا فى موضوعات كثيرة ..

وفوجئت به يسألني ان كنت قد زرت اليمن . . ولكن في هذه المرة لم أشأ أن أقول له . . اننى لم أزرها وانما قلت له : في ثقتى أن أزورها وأرى أن من واجب أى عربى ، أن يعرف البلاد العربية ، وأن يعرف أهلها لأن أهلها هم أهله ، واننا يجب أن نتحمس لزيارتها ، كما نتحمس لزيارة إيطاليا وألمانيا وكل البلاد الأوروبية .

ويبدو أن هذا الرد . . أو محاولة الرد ، لم تعجبه
فعاد يسألنى : هل تذهب اذا وجهت اليك دعوة ؟ . .

فقلت وقد تصورت أن هذه الدعوة مجانية ، وفى وقت مناسب من أوقات السنة . . ومن هيئة رسمية ، وأنه سيكون فى رفقتى عدد من الأصدقاء من الأدباء والصحفيين : لا شك سأذهب الى اليمن ،

وعاد يقول : مع الأسف لا أستطيع أن أوجه لك هذه الدعوة ولا أحد يستطيع فى بلاد مقفلة فى وجوهنا وفى وجوه الغرباء أيضا ، وذلك لن يعرفها ولن يعرفنا أحد .

وتذكرت على الفور ما دار بينى وبين شبان يمنيين آخرين . . وأدركت ان هذه طريقة اليمنيين فى الكلام . . انه يستدرجك الى الكلام عن بلده فاذا أبدت أية رغبة فى زيارتها حدثك عن صعوبة السفر اليها ، والحياة فيها .

ولكنه مع ذلك أعطانى كتابا صغيرا مطبوعا بصورة رديئة ، وقلبت فى الكتاب الصغير . . ولم يلفت نظرى فيه أى شئ . . لا العناوين ولا الأسماء ولا العمايم التى مالت صفحاته . . ولكنى تذكرت بعض هذه الأسماء حينما عدت الى القاهرة .

ومع كثرة أعمالى ومشاغلى ، نسيت هذا الشاب اليمنى ، وزيارة اليمن . . وكل ما له علاقة بالبلاد المقفلة على أهلها وفى وجه العالم كله .

الى ان كان مؤتمر الأدباء العرب فى دمشق . .

وفوجئ أعضاء الوفود الأدبية برجل يرتدى عمامة وملايس يمنية لا أعرف كيف أصفها . . ولا أدري أن كانت هى جبة وقطانا أو هى جلباب واسع وقميص فوق جبة . . أو تحت جبة . . ولكن . . واضح جدا أن هذا الرجل نحيف القوام متوسط القامة لامع العينين وصوته صارخ ، وهو يتحدث فيميل برأسه يمينا وشمالا ، وهى عادة يمنية .

وتحدث الرجل النحيل ، وهو يشير الى كل الوفود العربية ، لقد تحدثت جميعا عن كل شئ ولم يتحدث واحد منكم عن اليمن ولا عن شعب اليمن . . ولا أدباء اليمن . . (ثم ضحك) وان كان اليمن ليس به الأنوعان من أنواع الأدب : أدب فى مدح الإمام وأدب فى رجاء عفو .

وهنا ضحكت الوفود كلها ..

واندهش الحاضرون كيف أن ممثل حكومة الإمام أحمد يهاجم الإمام بهذه القسوة ويسخر من الأدباء الذين يمدحون الإمام ، ثم يعودون فيقبلون يديه ورجليه .

وعرفت هذا الرجل بعد ذلك . وكانت بيننا صداقة .. فهو رجل لطيف وذكى وفي غاية الوعي .. ويعرف تاريخ بلاده ويتابع حركات الفكر العربى فى كل هذه المنطقة . أما هذا الرجل فهو الشيخ أحمد محمد نعمان ، وهو رجل ساخر حاضر البديهة .. وكان من الصعب على الذين عرفوه بعد ذلك ، أن يتبينوا من كلامه أن كان جدا أو هزلا .. وخصوصا إذا تحدث عن الإمام .. وهو لا يتعب من السخرية من الإمام ومن رجال الإمام ومن حكم الأئمة ..

وعرفت بعد ذلك أنه هارب من الإمام .. وأنه استطاع أن يحصل من الإمام على موافقته بالسفر الى الأراضى الحجازية ، ومن هناك هرب الى مصر .. وأرسل الى ابنه برقية يقول فيها : لقد تم الحج ونحن فى الطريق الى المدينة المنورة .. وكان يقصد بالمدينة المنورة مصر .. أما ابنه محمد فقد هرب ليلا من مدينة تعز الى عدن البريطانية . وترك زوجته وأخوته فى تعز .. ولما علم الإمام أصدر أمره بطرد أسرة الشيخ نعمان خارج البلاد .. ولما علم الشيخ نعمان بانعقاد مؤتمر الأدباء ، سافر الى الشام وطلب بطاقة عضوية فى المؤتمر ممثلا لحكومة اليمن .. ولم ينتبه أحد من المسئولين عن المؤتمر فى دمشق ، الى أنه ضد الإمام ، وأنه لاجئ سياسى الا حينما ذهبنا الى بلودان ، وتحدث مندوبو الدول كل واحد عن الأدب فى بلده .. ووقف الشيخ نعمان يتحدث عن الأدب فى اليمن ، وقال : ان اليمن هى جنة الله فى أرضه .. لقد كان فى اليمن خمسة من القراء قتل الإمام منهم أربعة ، ولم يبق سواى !

وهنا ضحك الحاضرون ، وجاء أحد المسئولين عن المؤتمر وهمس فى أذنه بأنه لا داعى للهجوم على الإمام وإحراج الحكومة السورية .. فوعدهم الشيخ نعمان بالتزام الأدب والكلام عن الإمام فى حدود جدول أعمال المؤتمر . ثم عاد يقول : لقد استدعانى الإمام يوما وسألنى : قل لى يا نعمان هل تقرأ طه حسين ؟ فقلت له : أعوذ بالله أنه كافر ! ثم طلب منى الإمام أن أعود الى بيتى ، وكانت الساعة قد تجاوزت نصف الليل وكان الجو باردا .. ولكن الإمام لم ينم .. وعاد يطلبنى من جديد ويقربنى منه ويسألنى : فكيف عرفت أنه كافر وأنت لم تقرأ له ؟ فقلت له : اتنى لم أقرأ له ولكن سمعت من مولانا الإمام أنه كافر .. فكيف يقول الإمام أن طه حسين كافر وأقول له أنه مؤمن ! وهنا تركه الإمام .. وبعد ساعة استدعاه ليسأله ومتى قلت أنا أن طه حسين كافر .. فأجبت : ان مولاي الإمام لم يقل هذا صراحة ، ولكن رأيت فى عينيه أنه لا يحب طه حسين .. والإمام لا يحب الذين كفروا .. وظللت ساهرا أنتظر السؤال التالى فى حين نام الإمام !

وضج الحاضرون بالضحك .. ثم جاء أحد المسؤولين عن المؤتمر يطلب
الى الشيخ نعمان أن يتوقف عن السخرية من الامام ، والا كان مضطرا الى
منعه من الكلام نهائيا واخراجه من المؤتمر .

وأصبح الشيخ نعمان معروفا بأنه أحد معارضى الامام ، وأنه رجل شديد
السخرية .. وفي كل مرة كان يحاول فيها الكلام أو التعليق ، كانت الوفود
كلها تلتفت اليه ، وتنتظر النكة القادمة وفي كثير من الأحيان كنا نطلب اليه
أن يتكلم في أى موضوع .. فنحن نعرف سير الكلام .. فهو سيبدأ جادا
ويستشهد بالقرآن وبالأحاديث الدينية ، وبشاعر واحد اسمه الزبيرى ،
وبعد ذلك يهاجم الامام ثم يروى عنه المواقف المضحكة ، ثم يتوجه الى الوفود
العربية ، ثم يطلب منها أن تفكر في حال اليمن .. في حال الشعب من أوله
الى آخره .

وفي احدى الليالى القمرية .. اتفق الأدباء على أن يسهرُوا في ضوء القمر
حتى الصباح .. وفي قمة مدينة بلودان الجميلة ، وفي احدى ليالى الصيف
سنة ١٩٥٦ جلس شعراء العرب وفي مقدمتهم شاعرنا أحمد رامى وشاعرات
من سوريا في مقدمتهن عزيزة هارون وشاعرة العراق نازك الملائكة ، وأدياء
من مصر من بينهم يوسف السباعى ، واحسان عبد القدوس وعبد الحليم
عبد الله .. وغيرهم كثيرون ، لا أذكر أسماءهم على التحديد ونهض كل واحد
والقى قصيدة رقيقة كالقمر ، منعشة كنسيم الصيف ، ولذيذة كالأطعمة
الموضوعة أمامنا .

وأنشدت عزيزة هارون قصيدة اسمها : محال .. هذا السؤال ..
وشاعرة اسمها رشيدة العمري أنشدت قصيدة تقول فيها : تفوحين
عطرا وشيثا حرام .

ونازك الملائكة أنشدت قصيدة فيها : الأظافر والطين وعيناك والعدم .
وجاء دور الشيخ نعمان ، ولا أعرف لماذا جاء دوره ، ولا لماذا التقى
شعرا في كل مناسبة ، ولماذا يحرص على أن يتكلم في كل مناسبة مثلما
يحرص على العمامة والجبّة والقفطان .. والتفتنا جميعا ننظر ما الذى
سيقوله الشيخ نعمان .. ولكن لا أدري هل أردنا منه تلك السبحة أن
يغير أسلوبه ، أو يغير لهجته العامة من السخرية والهجوم على الامام ..
ولكن كل ما أذكره ، أنه لم يكن عند أى انسان مانع من أن يقول أى كلام
ما دام سيضحكنا في النهاية .. وعلى الامام بالذات !

واعتدل الشيخ نعمان ، وهو يتلفت الى الوجوه الهادئة التى حوله
وراح يقول : يقول شاعرنا الزبيرى : مشائق علقت في الفضاء .

وأزعجتنا هذه البداية فقلنا له : يا شيخ نعمان .. ايه ده .. أعوذ
بالله مشائق ايه والقمر طالع ؟

ولكنه غاد يتور فينا ويقول : يا سيدى نحن هكذا في اليمن .. ولا يكاد

بالقمر يطلع .. حتى تطير له الرعوس من الأجساد .. شوقا اليه .. هذه
هلى سياسة الامام .. انتم تندهشون لانكم لا تعرفون اليمن ! ..

ورجوناه ان يغير هذه اللهجة فوعدنا وغاد يقول : مقابر .. مقابر ..
وأسكتناه ولكنه أصر على أن ينشدنا آخر قصيدة الليلة .. وليس فيها
كلمة واحدة عن الموت أو المشائق ، ووقف بعد نزع العمامة ، وهذا يدل على
أنه قد اتخذ موقفا خطيرا ، وراح يقول :

فلنفسوس مريح وللنشيط انجذاب
ويطرد النجوم عن له الجليس كتاب

وسألناه ان كان يقصد الامام .. فقال : بل هو شيء أسوأ من الامام
.. انه نبات « القات » الذى يأكله الشعب .. أو الذى يأكل الشعب كله
.. انتم لا تعرفون اليمن .. انتم لا تعرفون الا القمر .. انتم لا تنظرون الى
ما تحت أقدامكم .. ان تحت أقدامكم التراب .. وتحت التراب شعب بأكمله
.. شعب اليمن !

وانتهت جلسات مؤتمر الأدباء في سوريا ، بعد أن أصبح الشيخ نعمان
مفروفا كنموذج لليمنيين السياسيين المطرودين من رحمة الله .. وبعد أن
أدت شخصيته الساخرة الى تغيير شامل لفكرة الأدباء عن أهل اليمن ..
فلأصبحنا نقول : ولكن هناك يمينيين في غاية الذكاء .. ويعلمون كل شيء
عن العالم العربى ، ولا يعلم عنهم الشعب العربى أى شيء ..

وبظهور الشيخ نعمان في الشام وبعد ذلك في مصر .. أصبحت كلما
رأيت شابا يمنيا أو عجوزا يمنيا ، توقعت أن أسمع منه شيئا واعيا .. فلابد
أن يكون في اليمن أناس يشبهون الشيخ نعمان .. وبالفعل لاحظت ان
اليمنيين الذين قابلتهم بعد الشيخ نعمان وقبله كانوا على جانب كبير من
الذكاء .. واليمنيون أذكاء بصفة عامة وعندهم استعداد كبير لأن يتعلموا
بسهولة .. هذا ما سمعته أيضا حينما ذهبت الى اليمن ورأيت نماذج
هذهشة لاستعدادهم لتعلم أى شيء وبسهولة وبسرعة أيضا ..

وفي لبنان كنا نجلس حول حمام سباحة في أحد الفنادق .. والدنيا صيف
.. وطبيعى جدا أن تكون هناك فتيات جميلات في مايوهات « بكينى » وأصغر
من « بكينى » ولا بد أن يعلق الشيخ نعمان ولو بكلمة على هذا الشيء
الغريب العجيب الذى يراه .. ونظر الى الفتيات والى حمام السباحة
وهو يقول : هذه المياه طبعاً سترمونها في البحر .. أنها لا تكفى لتنظيف
جسم الامام .. أنه لا يستحم أبدا .. أنت تعرف أن ملابس المرأة اليمنية
الواحدة التى تغطى وجهها وكل جسمها ، تكفى لعمل ألف « مايوه » ..
والله العظيم ألف « مايوه » .. بل الطرحة التى تضعها المرأة اليمنية على
وجهها .. وهى مكونة من طبقات .. تكفى لعمل « كرافات » لجميع

أعضاء الوفود .. يا سيدى أنتم لا تعرفون اليمن .. انها أسوأ جدا مما يتصور أى أديب متشائم .. أنه سيقول : انه يكره الحياة ويريد أن يموت .. ان هذا الرجل أحسن حالا .. من اليمنيين .. ان أحدا هناك لا يستطيع أن يريد أن يموت .. ولو قتل نفسه من غير الامام لعاقبه بعد موته ، بأن يمزق جثته ويقتل أباه وأخاه وأولاده لماذا ؟ لأنه مات بدون اذن .. ان أهل اليمن عاجزون عن الموت .. هل هناك أسوأ من ذلك ؟ ..

ولما عدنا الى القاهرة زارنا الشيخ نعمان ، وقال لي : أنت تتهمنى دائما بأننى أسخر ، ولكنى شعرت بأنك أكثر سخرية منى .. غدا سأحضر لك مفاجأة .. ستعرف ان كان هذا الشخص الذى أتحدث عنه شخصية خرافية او شخصية حقيقية .. غدا سأأتى به هنا ..

وسألته : ماذا تقصد ، هل ستأتى بالامام أحمد ؟

فأجاب وهو يضحك : موعدا غدا .. أنت لا تعرف أبناء اليمن !

وأخر قفشات الشيخ نعمان ان اليمن عرفت « التأميم » قبل أن نعرفه نحن ..

فالتأميم فى اليمن معناه ان يملك « الامام » كل شىء .. فتأميم أى شىء معناه ان يؤول الى الامام .. وليس الى الأمة ، كما هو عندنا ! .

حُساة بلاد واقه اوقه

كنت أعانى من الأرق . . أقلب فى فراشى . . وأسحب من تحت المخدة كتابا ثم أكمله ، وأقلب فى صفحاته ثم أضعه فى مكانه . . وألاحظ أن المخدة توجع رأسى ، فألقى بالكتاب على الأرض . . ثم ألقى بالمخدة ، وأسحب إحدى المجلات ، وأحاول القراءة . . ثم ألقى بنفسى من السرير وأنهض واقفا لأمسك التليفون الذى يرن ويثن فى هذه الساعة المبكرة . .

وأرفع السماعة ويكون المتكلم هو الشيخ نعمان ، ويدور هذا الكلام بيننا :
يا أخى . . يا أخى ما هذا الكلام الذى نشرته جريدة « الأخبار » ؟
قلت له : لا أعرف ما الذى تقصده !

قال : ان هذا ظلم . . والله هذا ظلم !

قلت : أى ظلم ؟ الساعة كام دلوقتى ؟

فأجاب : ربما السادسة . . ربما السابعة . . ولكن هذا ظلم فادح . .
أنتم اليوم نشرتم أن روسيا أطلقت قمرا وفى داخل القمر كلب . . ونشرتم هذا الكلام بالعناوين الكبيرة . . الحمراء والسوداء . . فى حين أن الامام احمد قد أرسل ابنه البدر ، ومعه عشرون حصانا الى انجلترا ، فلم تكتبوا عن « البدر » والخيول حرفا واحدا ، مع أنكم نشرتم عن القمر والكلب صفحات وصفحات !!

ورحنا نضحك لهذه القفشة المرة التى تختلط عادة بكلام الشيخ نعمان . . وقد صارحنى بأن اليوم الذى يمضى دون أن يشتم فيه الامام لا يعتبر من أيام العمر . .

وسألته : أين المفاجأة التى وعدت بها ؟

فأجاب : المفاجأة جاهزة . . وسترى !

ولما عدت الى مكتبى وجدت رسالة من الشيخ نعمان يقول فيها : أنه سيحضر لمدة خمس دقائق . .

وفوجئت بالشيخ نعمان وقد حضر . . وعرفت أنه كتب هذه الرسالة وهو واقف أمام مكتبي ولم أكد أفرغ من قراءتها حتى دخل بمفاجأة . . لقد وجدته قد حلق لحيته ، وخفف شاربه ، وارتدى بذلة . . جاكته وبنطلونا وكرافتة . . وكانت مفاجأة أن ينزع الجبة والقفطان والعمامة والخنجر من حزامه . . وان كان لا يزال يمشي كأنه فعلا يرتدى كل هذه الأشياء الغريبة . . وعرفت أن سبب ارتدائه البذلة أن الجبة تكلفه الكثير . . أولا إذا ركب الأتوبيس فهو شخصية مضحكة ، وهو لا يطيق أن يضحك هو على كل الناس ويسخر منهم ، ثم يجد نفسه عاجزا عن الدفاع عن نفسه أمام عيون الناس وهم ينظرون الى الخنجر . . وقد دفعته هذه النظرات الغريبة الى الهرب من الأتوبيس وركوب التاكسيات وهذا يكلفه الكثير . . وللتكت التي أطلقناها عليه في مؤتمر الأدباء . . لكل هذه الأسباب عدل عن ارتداء الملابس اليمنية . .

ولم تكن هذه هي المفاجأة . . وإنما المفاجأة أن شخصا آخر كان يرافقه متوسط القامة ممتلئ الجسم يرتدى هو الآخر بذلة وفي يده حقيبة وصوته هامس هادي . . وعرفت من الشيخ نعمان أن هذا هو الشاعر الزبيري . . وكنت قبل ذلك أتصور أن الشاعر الزبيري شخصية خرافية . . وأن كل القصائد ، التي يرويها نعمان وينسبها للشيخ الزبيري ، هي من اختراعه . . هو . .

وذكرت للشيخ نعمان : أنني اكتب الكثير من المقالات وأوقعها بامضاءات مختلفة . . بامضاء رجال ونساء . . وأحيانا بامضاء حيوان أو ظائر . . وأنا لا أستبعد أن يكون الزبيري هو مجرد اسم . . أو امضاء ! . . ولكني وجدت اصرارا ولهجة جادة من الشيخ نعمان ومن الزبيري . . وكانت لهجتهم قاطمة . .

وكان هذا أول لقاء مع القاضي محمود الزبيري زعيم الأحرار اليمنيين . . أو الأب الروحي للثورة اليمنية . . وقد عرف الشيخ الزبيري العذاب والهوان في أيام الامام . . وهرب الى باكستان وهناك دخل السجن ، وكان سفيرنا في باكستان في ذلك الوقت هو الدكتور عبد الوهاب عزام ، ثم تم الافراج عن الشيخ الزبيري . . ومنعته مصر في أيام حكم فاروق أن يدخل الى بلادنا . . ولكن بعد قيام ثورتنا دخل مصر وأقام فيها . . والزبيري الآن أحد أعضاء الوزارة اليمنية البارزين . . وهو يحسن الكلام ويحسن التعبير . . وإذا استمعت اليه وهو يتكلم أحسست أنه انسان رقيق جدا مع أن معانيه كالنار ، وأهداه كالصواريخ . . وإذا قرأت شعره ، وجدت نفسك أمام بركان يغلي . .

ولا شيء في مظهر الشاعر الزبيري يدل على أنه رجل ثوري ، أو سياسي قهقههم . . وإنما كل شيء يدل على أنه رجل متحفظ أو يريد أن يكون متحفظا . . أن يكون في حاله . .

وبعد ذلك اعتدت أن أراها كثيرا في مكتبي .. وفي يوم طلبا منى أن يقابلا محمد حسنين هيكل ، وكان في ذلك الوقت رئيس تحرير (آخر ساعة) .. وأخذ الاثنان يعتبان على حسنين هيكل أنه كتب عن اليمن منذ خمس سنوات فقال : هذه البلاد ..

وقال الشيخ نعمان : نقول عن اليمن هذه البلاد .. كأن هذه البلاد لا قيمة لها .. أو كأنها شيء تافه .. لا .. لا يا أستاذ هيكل .. ولم يتذكر هيكل متى كتب عن اليمن ، ومتى قال عنها « هذه البلاد » .. ولكن هذين الرجلين يرصدان كل ما يكتبه الصحفيون والأدباء في كل العالم العربي ..

وقال الشيخ الزبيرى لهيكل : اننا نستنكر النياشين التي أعطاها لنا الملك حسين ، وجئنا اليك لكي ترددها اليه .. لأن موقف الملك حسين من الشعب الاردنى ، واضطهاده للاحرار ، لا يمكن أن نسكت عليه .. وخرج الزبيرى ونعمان وأحدهما يهمس في أذنى قائلا : أتنى خجلت أن اذكر لمحمد حسنين هيكل أنه كتب منذ عشر سنوات يصف اليمن بأنها (مجاهل) الجزيرة العربية .. لقد أوجعتنى هذه الكلمة .. وكنت أتصور أنه سيحاول أن يدخل هذه المجاهل ، كما دخل كوريا وايران .. ولكنه لم يفعل ..

ومن المؤكد أن هيكل لا يذكر متى وصف اليمن بأنها (مجاهل) الجزيرة العربية .. فهي عبارة ضمن موضوع من مئات الموضوعات التي كتبها عن العالم العربي ، وعن ثوراته وبراكينه وزعمائه .. ولكن هذين الرجلين لا ينسيان كلمة قالها كاتب بقصد أو بغير قصد .

وأذكر أنني سافرت بعد ذلك الى ألمانيا .. وفوجئت وأنا في مدينة هامبورج بمكالمة غريبة .. وكان المتحدث شخصا لا أعرفه .. ولكنه يعرفنى ويرحب بى ويسألنى عن الجو .. وكيف كانت رحلتى بالطائرة ..

وقبل أن أسأله عن شخصيته قال لى : لقد عرفت أنك موجود هنا فى الفندق من الصحف الألمانية التي صدرت اليوم .. وشعرت بالسعادة من أن مواطنا عربيا قد نشرت له الصحف الألمانية رأيا فى تطور الشعوب العربية . وأنا أقدم لك نفسى : محمد عبد الله دارج .. وأبى من اليمن ، وأمى من المجر ، وهى تعرف اللغة العربية ..

ولا أعرف أن كانت هذه الكلمة الأخيرة هى دارج ، أو داريج ، أو دارى ، أو الدارى ..

وفى اليوم التالى زارنى فى الفندق ومعه ثلاثة من الشبان ذوى الملامح الشرقية .. وكانوا جميعا من اليمنيين وهم يعملون فى مناجم الفحم .. وقد أدهشونى جميعا حينما تحدثوا عن اليمن ومشاكل اليمن .. الكلام نفسه الذى أسمعته فى القاهرة .. العبارات نفسها .. كأنهم يقرأون فى كتاب واحد .. أو كأنهم يرددون لحنا واحدا ..

ومن الغريب جدا أن واحدا منهم اقترب منى وعاتبني على كل ما كتبت
عن الشيخ نعمان . وقال :

ان هذا الكلام قد أغضب كل الشبان اليمنيين . . انهم اتفقوا على أن
يبعثوا لى بمقال يحتجون فيه على هذه اللهجة الساخرة التى تناولت بها
شخصية الشيخ نعمان . .

ودافعت عن نفسى بأئنى لا أسخر منه ، ولكنه هو الذى يسخر من كل
الناس . . خصوصا من الامام . . وكل ما فعلته هو انى سجلت عبارات
الشيخ نعمان . . وعرفت أن المقال الذى كتبتة فى « أخبار اليوم » عن
الشيخ نعمان قد أرسله أحد الشبان اليمنيين من الخرطوم الى هببورج !
وحينما عدت الى القاهرة تلقيت خطاب الاحتجاج الذى كتبه هؤلاء
الشبان اليمنيون . . قرأت تاريخ الخطاب فوجدت أنهم كتبوه بعد سفرى
من ألمانيا . . ومعنى ذلك أنهم لم يعدلوا عن موقفهم بالرغم من اننى قلت
لهم اننى معجب بالشيخ نعمان وبذكائه وروحه المرحية . . وتصورت أن
اعجابى هذا سيشفع لى عندهم . . ولكن لم ينفع هذا الاعجاب . . وجاء
خطابهم شديد اللهجة . .

وبعد ذلك زاد عدد اليمنيين الذين يحرصون على مقابلتى . . وكأئنى
أنا الجاهل الوحيد بشئون اليمن ، ورأى هؤلاء الشبان انى والجهل يجتئم عليهم
أن يعلمونى ، ما هى اليمن . . أرضها وجبالها وناسها ونباتها . .

وبالرغم من اخلاصهم وصدقهم فاننى بدأت أضيق بالجلوس مع شبان
صغار يسألوننى بأشكال مختلفة :

وما الذى تعرفه عن اليمن ؟

وكنت أجيب بأشكال مختلفة ، مرة بأدب ومرة أخرى بقله أدب . .
أئنى لا أعرف الكثير عن اليمن ولكنى أعرف الكثير عن بلاد أخرى ، صدرت
عنها كتب وأفلام ولها تاريخ معروف كما أنها تحت الأضواء ويمكن السفر
اليها . . والحياة فيها . . ثم اننى ماذا فعلت لكى أستحق كل هذا الاضطهاد
من أهل اليمن . . اننى لم أكتب عن اليمن حرفا واحدا . . ولا كان فى نيتى
أن أكتب . . ولا هى ضمن مجال اهتمامى . . كما أن هناك عددا كبيرا من
الأدباء والصحفيين يستحقون من أبناء اليمن هذه العناية والرعاية
والاضطهاد . .

وعرفت أن هذا هو الحب والمودة عند أبناء اليمن . .

فكما أن الواحد منهم حينما يصادفك يمسك يدك بشدة ويضغط عليها
. . ولا يتركها مهما تحاول أن « تتفلفص » منه . . فكذلك الحب عندهم ،
أن يظل الواحد منهم يطاردك بكل أدب ويشرح لك مشاكل لا تهك بكل
صبر . . ويقرأ لك ويحاسبك حسابا عسيرا فى اعجاب شديد !

وفهمت منهم أيضا أن الشبان الذين أرسلوا مقالى من الخرطوم الى
ألمانيا لم يفضيوا منى . . وانما هم ضغطوا فقط على يدى . . ولم يتركوا

يدى بزغم محاولاتي اليائسة .. وهذا هو منتهى الحب في التقاليد اليمنية ..
وزارنى القاضي الزبيرى زيارة مفاجئة وهو يقول : هل تعرف بلاد واق
الواق ..

قلت : سمعت عنها ..

سألنى : هل تعرف مكانها ؟

قلت : اظن انها جزيرة خرافية .. جاعت فى كتاب ألف ليلة وليلة ..
وكان رده : لقد سافرت أنت الى كل بلاد الدنيا .. ولم تر بلاد « واق »
الواق « ان الذى لم ير هذه البلاد كأنه لم ير الدنيا ..
وسكت قليلا ليضحك ويستأنف كلامه : غدا يصدر كتاب عن « مأساة
واق الواق » .

وسألته : من المؤلف ؟

فأجاب : ستعرف غدا .. وعلى كل حال لا تغضب مما جاء فى هذا
الكتاب ..

.. ولم أغضب مقديها فقد توقعت من الشاعر الزبيرى ، زعيم أحرار
اليمن أن يضغط على يدى ، على الطريقة اليمنية .. ومهما زادت درجة
الضغط وتكسرت أصابعى بين يديه أو بين أيديهم فليس معنى هذا الا الحب
العظيم والاحترام الكبير .. !

كاريّة : واحد فلو فيه دخل البلد

وفي ساعة مبكرة ذهبت الى مكتبي .. ووجدت نسخة من الكتاب الجديد الذي ألفه القاضي الزبيرى وعنوانه « مأساة واق الواق » والزبيرى شاعر اليمن الأوحى ..

والكتاب يتحدث عن مأساة بلاد اليمن التى لا يعرفها أحد ، ولا يريد أن يعرفها .. فمشاكل الناس كثيرة وبلاويهم لا عدد لها .. ولا تنقصهم بلاوى ومصائب اليمن .. وهذا ما يقوله المؤلف الزبيرى ..

ولذلك فبطل هذا الكتاب اسمه « العزى محمود » والكتاب يقول لنا : ذهب العزى محمود الى جامع الأزهر ووجد العلماء هناك يتناقشون فى كل مشاكل الدنيا .. فى الكونغو ، وفى التفرقة العنصرية فى جنوب أفريقيا وفى أمريكا .. وفى اللاجئين العرب .. واللاجئين على حدود باكستان ، واللاجئين على حدود الهند .. وفى التليفزيون .. وقد انبهر محمود لهذا العلم الواسع ولذلك لم يستبعد أبدا أنهم يعرفون طبعا بلاد « واق الواق » .. ومن الغريب أنهم لم يعرفوا شيئا عن هذه البلاد وظنوه يضحك .. وراوا انها نكتة لطيفة .. وأنهم بالفعل يحتاجون الى نكتة تخفف عنهم هذه المشاكل الثقيلة التى يتناقشون فيها .. ولكن محمود هذا كان حزينا فلم تكن نكتة ، وإنما هى حقيقة ..

وقال لهم محمود : أننى اندهش كيف أن كاتباً ، مثل أنيس منصور ، قد سافر الى كل بلاد الدنيا ولم ير هذه البلاد .. كيف أنه فى رحلاته الى الهند وأمريكا واليابان وأستراليا وأوروبا لم يصادف بلاد « واق الواق » .. ولكن علماء الأزهر لم يتصوروا أن هناك بلادا بهذا الاسم الخرافى .. وأن هذه البلاد موجودة فقط فى خيال الأدباء والشعراء .. وأن مكان هذه البلاد هو قصص ألف ليلة وليلة ..

وتناقش الحاضرون في استحضار الأرواح عن طريق « السلة » ..
فإذا حضرت الأرواح الطيبة أو الشريرة في السلة وراحت السلة تكتب
غمن المؤكد أنها ستروى للسادة الحاضرين أين توجد هذه البلاد .. عن طريق
تحضير الأرواح بالسلة .. وراحوا يفكرون في طريق آخر لمعرفة مكان
هذه البلاد التي جاء منها هذا الزبيري مؤلف الكتاب ..

والكتاب من أوله الآخره حزين جدا ، لأن الناس لا يعرفون عن اليمن
وأحزانها شيئا ، ولا عن العذاب والفقر والجهل والقبور التي يعيش فيها
أبناء اليمن ..

وأذكر اننى قابلت الشيخ نعمان في بيت الصديق عبد العزيز حسين
الوزير الكويتي .. وقد سألتنى لماذا لم أفكر في السفر الى اليمن ؟ ..
فقلت له : فكرت .. ولكن لا أعرف كيف أسافر ..

ووعدنى الشيخ نعمان بتدبير الأمر ..
ولأن الشيخ نعمان رجل ساخر ، فهو لا يعنى ما يقوله .. ولا بد أنه
يفكر في شيء آخر لا علاقة له باليمن ولا علاقة له بسفري !

وبعد هذا الموعد مضت دقائق ثم سألتنى : هل تسافر الى أوربا ؟ ..
قلت : ربما .. أتمنى ..

فقال : اذن في طريقك الى أوربا ستجد الامام مريضا في ايطاليا ، وهناك
في استطاعتك أن تطلب اليه أن يدعوكم لزيارة قصره العظيم !
وعدنا الى الصمت ، فليس الاقتراح وجيها ، وليست مقابلة الامام شيئا
معقولا .. ولست متحمسا لهذه الفكرة ..

وعاد الشيخ نعمان الى سخريته الاليمة وهو يقول : هل تعرف أن الامام
أحمد حينما سافر الى حضرموت رجع وهو حزين جدا .. وأغلق على
نفسه القصر .. ثلاثة أشهر .. لم يقابل فيها انسانا .. هل تعرف لماذا ؟

تساءلنا جميعا ، ونحن نتوقع مفاجأة : لماذا ؟

قال : لأنه كان مبهورا بالحضارة هناك !

ولكنى مع هذا كله فكرت في أن أسافر الى اليمن .. وأن أرى هذه
البلاد التي زارها عدد كبير من الصحفيين وكتبوا عن الجانب العسكري فقط
منها ، فأكبر أحداث اليمن ثورة السلال تسانده عشرات الألوف من قواتنا
الجوية والبرية والبحرية .. ومن الطبيعي جدا أن يهتم كل الذين تسافروا
الى اليمن بهذا العمل الانساني الكبير ، الذي قامت به جمهوريتنا في
اليمن ..

وبدأت بالفعل أجمع الكتب التي تتحدث عن اليمن ..

وقد ظهرت فى المكتبات كتب كثيرة كلها مترجمة فى القاهرة وفى بيروت ، بل أن اليمنيين أيضا أعادوا نشر كتبهم القديمة عن اليمن .. وأضافوا لها مقدمات تتمشى مع الأحداث التى تجرى فى بلاد اليمن ..

وكل الكتب التى ظهرت مترجمة عن اليمن قد ألفها جماعة من الأجانب من ايطاليين وألمان وسويديين وانجليز ، وهذه الكتب عبارة عن « مغامرات » على حدود اليمن ..

فالمؤلف الأوربى يحاول أن يدخل بلاد اليمن .. ولكنه لا يعرف الطريق وحتى إذا عرف الطريق الى أول مدينة على حدود اليمن .. فلا بد من الحصول على إذن من الامام شخصيا .. ولا بد أن يسافر أحد العساكر الى الامام يسأله ان كان يوافق على دخول هذا الكافر — أى الاجنبى — الى بلاد اليمن — ومن الممكن أن يقابل الامام هذا العسكرى .. ومن الممكن جدا أن يرفض مقابلته .. فيظل ملطوعا أمام القصر شهرا أو شهرين .. وفى هذه الحالة يعدل « الكافر » عن فكرة دخول اليمن .. وقد يعود العسكرى ومعه قصاصة صغيرة فى حجم الكف مكتوب عليها بخط الامام أنه لا يوافق على دخول هذا الكافر ..

أما اذا كان هذا الاجنبى سعيد الحظ — وهذا شىء نادر — فسيوافق الامام على دخوله بلاد اليمن .. وفى هذه الحالة سيرافقه بعض الجنود وسيمنعونه من دخول الكثير من الأماكن .. الا بشروط صعبة .. ودخول اليمن أصعب بكثير جدا من الخروج منها .. لأنه من الممكن أن يرتكب هذا المسافر الغريب بعض الأخطاء دون أن يدرك وفى هذه الحالة سيعاقبه الامام بالسجن .. أو يطلق عليه بعض رجاله فيعذبونه عذابا لا حد له ..

والامام يشك عادة فى كل الأجانب لأنه لا يعرف لغتهم .. ولا يفهم بوضوح ماذا يريدون .. وهو يعتقد أن بلاده مليئة بالكنوز ، وأن كل هؤلاء الأجانب لصوص .. وهو أيضا يخاف أن يرى أبناء اليمن شعوبا أخرى فيظنون أن هناك أناسا أرقى منهم أو أحسن منهم فالناس فى اليمن يعتقدون أن بلادهم أجمل وأعظم بلاد الدنيا ..

ولو حدث أن أحد اليمنيين الذين سافروا الى خارج اليمن تحدث عن بلاد أخرى .. وأنها أجمل من اليمن فإن الامام يغضب منه .. وقد يأمر بقتله ..

وفى كل مرة يسافر فيها أحد رجال الامام الى الخارج .. يناديه الامام ويسأله هل وجدت بلادا أحسن من بلادنا ؟ فيجيب الرجل : أبدا ..

— هل هناك بلاد أكبر من صنعاء ؟

— أبداً ..
— وهل رجالها أشجع من رجالنا !
— أبداً ..
— وهل قابلت الملك هناك ؟
— يصعب مقابلة هؤلاء الملوك .. ليست عندهم السباحة التي عندنا ..
— هل أعجبك طعامهم ؟
— لم أذق طعاماً ولا ماء .. لقد أخذت طعامي معي الى مصر والى سوريا والى لبنان ..

— وهل يتمسكون بالدين مثلنا ؟
— كلهم كفرة لا يصلون ولا يصومون ..
— هل سألوكم عنى ؟
— لم يسألنى أحد لأنهم يعرفون كرمك وفضلك وعظمتك وما أدبت للإسلام والمسلمين من خدمات جليلة ، ولولاك على العرب لاحتلتهم قوى الطغيان ..
ويشعر الامام بالسعادة ، فهو أعظم العرب وبلاده أحسن بلاد العرب وفضله على الناس كلهم لا ينكره أحد .. وينتهزها الامام فرصة ويطلب من الحريم اعداد ماء ليستحم للمرة الثانية .. فى خلال ستة أشهر .. وهذا حادث خطير جداً .. وفى الليل يدعو رجاله ويتناولون « القات » ، ويظل الامام يطلب اليهم أن يعيدوا ما سمعوه من هذا اليمنى الذى سافر الى البلاد الأخرى ولم تعجبه .. وأن يرووا له مرة أخرى كيف أنه لم يستطع أن يقابل الملك هناك ..

ومن أهم ما يقال للأوربيين الذين يدخلون اليمن ، هو أن الامام إذا قابل أحدهم وسأله عن بلاده فعليه أن يقول أنها بلاد متأخرة .. وأن الملك فى بلاده رجل ظالم .. وأنه لا يحب الشعب وأنه لا يمكن أن يقابل أى انسان الا اذا مات على بابيه .. وحتى اذا مات على بابيه فان الملك يرفض أن يراه بعينه أو يلمس يده ..

وقد حدث أن ذهب أحد الايطاليين وقابل الامام يحيى وسأله الامام :
ما رأيك فى معاقبة المجرمين فى بلادنا ؟ (وهم فى اليمن يشنقون المجرم ويعلقون رأسه على أبواب المدينة ليراه الناس وليكون درساً لأى انسان يحاول أن يرتكب جريمة) ..

فما كان من الرجل الايطالى الا أن قال له : اننا فى بلادنا نعاقب القتلة بالقتل ..

وهنا يشعر الامام بسعادة شديدة ويتمايل فى مجلسه .. ويطلب من الرجل الذى يترجم كلام الخواجة الايطالى أن يعيد هذه العبارة بصوت أعلى حتى يسمعه كل الناس .. ويقوم المترجم ويكرر العبارة نفسها وهو سعيد أيضاً لسعادة الامام ..

ويقول الامام : ولكن كيف عرف الملك في بلادكم أننا هنا نعاقب المجرم بالقل ؟

ويرد الايطالى الذى علمه اليمينيون ما الذى يجب أن يقوله في هذه المناسبة فيقول : لا أحد في الدنيا يجهل عظمتك ولا سياستك الحكيمة .. وفى هذه الحالة تبلغ سعادة الامام أقصى درجاتها ، ويطلب الى هذا الرجل الايطالى أن يمزغ معه « القات » .. وربما يكون هذا الايطالى لم يعرف طعم « القات » وأنه « يقرف » من منظر الذين يتعاطون « القات » ويمضغونه ولعابهم يسيل على ملابسهم .. ولا يستطيع طبعاً أن يعتذر عن تناول « القات » ، بأى شكل من الاشكال ..

ويمد الايطالى أو الألماني يده الى أوراق « القات » التى تشبه أوراق الملوخية ويضعها في فمه ويمضغها وينبهه الامام — وهذا شرف عظيم — الى أنه لا داعى لأن يبلعها .. وانما يبللها فقط بريقه .. ويحتفظ بها في جانب من الفم .. حتى منتصف الليل .. وأحياناً حتى الصباح .. وقد يقع هذا الايطالى من الدوخة أو من الاعياء .. وإذا سقط على الأرض فسيكون نكتة يتسلى بها الامام ورجاله وسيقلبونه على الأرض ويمزقون ملابسهم ويعبثون به .. ولن تنتهى دهشتهم لهذا اللون الغريب في بشرته .. لونه أبيض أحمر .. واليمينيون لونهم أصفر .. أصفر جداً مع قليل من السمرة .. ومن المؤكد أن هذا الأجنبى سيقوم من نومه سعيداً لأن أحداً لم يضعه في السجن أو لأن الامام لم يأمر بطرده من البلاد ..

فالسجون في كل الدنيا ملعونة .. الا في اليمن فان السجن في اليمن لا يمكن أن يوصف بأنه ملعون وانما بأنه « العن » من القبر .. وان القبر بالنسبة للسجن يعتبر فندق « هيلتون » ! .. فالسجن اليمنى .. كهف في الأرض مظلم بلا نوافذ وملئ بالحشرات من كل لون .. ويتشاقط فيه الناس بعضهم فوق بعض .. والسلاسل في أيديهم وفي أرجلهم .. ومفروض أن يأكل السجن في السجن ويشرب على حساب أقاربه ، وأن يقوم بكل شيء آخر وهو مقيد وفي المكان نفسه الذى ينام فيه .. ومئات من الناس ماتوا في السجن بسبب العذاب ، أو لأن الامام نسيهم ..

وقد دخل كثير من الاوربيين سجون اليمن .. ولم تعرف حكوماتهم عن أمرهم شيئاً وحتى اذا عرفت حكوماتهم ذلك .. فانها لا تعرف كيف تتفاهم مع الامام .. كيف تدخل هذه البلاد ، واذا دخلتها فكيف تخرج منها ..

وقد حدث في أيام الامام يحيى أن تسلل اثنان من الاوربيين المغامرين الى بلاد اليمن عن طريق عدن .. ومعهما سلاح وآلات تصوير ، وكان في نيتهما أن يصلا الى عرش الملكة بلقيس .. وقد استعان هذان الرجلان المغامران بعدد من اليمينيين بعد أن أعطياهم الأموال ووعداهم بأموال أكثر وارتنى واحد منهم ملابس النساء .. وكان يرافقه رجل آخر أطلق لحيته

وارتدى ملابس الاعراب وأدعى أنه زوج هذه السيدة .. وتمكن الاثنان من الوصول الى تعز .. وفوجيء الاثنان بأن اليمنيين الذين تولوا حراستهما قد انقلبوا الى خونة غادرين .. وهذه عادة يمنية معروفة ، ثم ربطوهما بالسلاسل وأرسلوهما الى الامام ..

وكان هذان الرجلان من ايطاليا .. وعرفت ايطاليا بذلك .. فأرسل الحاكم الايطالى من أرتريا يهدد الامام ، فما كان من الامام الا أن أرسل له الرجلين بعد أن فصل رأس كل منهما عن جسده .

ولا أريد أن أقول أن كل هذه الكتب التى صدرت عن اليمن ، لا قيمة لها ولا أن مؤلفيها لم يدخلوا اليمن .. ولم يقابلوا أحدا .. ولم يذكروا الكثير عن هذه البلاد الغريبة عنا .. ولكنى أريد أن أقول أن هذه الكتب قد امتلأت بالملاحظات الدقيقة التى يدركها أى أوربى بسهولة .. فالفارق واضح جدا بين عادات وحياة وأزياء أهل اليمن .. وبين عادات بلاده وتقاليدها وبيوتها وشوارعها والمعاملات فى اليمن وفى أوربا ..

ولكن عيب هذه الكتب أن بها أشياء كثيرة لا تدهش لها .. فالمؤلف الأوربى يندهش للشحوب على وجوه الناس .. ويندهش للعمامة والجبّة والقفطان .. ويندهش للاقدام الحافية .. ويندهش لايمان الناس هناك بالخرافات ، ومن بين هذه الخرافات أن الامام — أى الملك — شخصية مقدسة **ولا يمكن أن تخطئ** .. وأن كل تصرف من تصرفات الامام قد نزل به وحى من عند الله .. وكل تصرفاته هى أوامر الهية .. وأن كل شئ فى بد الامام .. من أول شجرة « قات » الى آخر شيخ قبيلة ..

وهذه المناظر لا تدهشنى أنا — ولا تدهش أى واحد منا — فنحن فى بلادنا عرفنا صور الفقر ، وعرفنا المرض والجهل .. ورأينا فلاحينا يمشون حفاة ونصف عراة ومرضى وجائعين .. وهم أيضا كانت تستبد بهم الخرافات .. ولكن وجه مجتمعنا ومعامله تتغير .. ولا أقول أنها تغيرت تغيرا تاما ولكن من المؤكد أنها ستتغير .

ولكن الشئ الوحيد الذى أجمع عليه كل المؤلفين الأجانب .. وكل المغامرين الاوربيين ، هو أن اليمن بلد منعزل عن الدنيا كلها .. وأن الامام قد أغلق عليها الأبواب بالقفل والمفتاح .. أما القفل فهو « القات » .. وأما المفتاح فهو الخرافات .. أى الامام نفسه ..

وفجأة وبصورة مثيرة جدا تقرر أن يسافر وفد من الأدباء الى اليمن ويضم هذا الوفد : يوسف السباعى ، ونجيب محفوظ ، ومهدى علام ، وصالح جودت ، ومحمود حسن اسماعيل .. ثم أنا ..

غالى اليمن ..

تَعَشَّيْتُ فِي قَصْرِ الْإِمَامِ

وقفت اللقمة في « حلقى » حينما سألتني يوسف السباعي : هل تسافر الى اليمن ؟

ثم ابتلعت هذه اللقمة التي تصادف وجودها أثناء مرور هذا السؤال من فم يوسف السباعي الى أذني . ولكني أثبت شجاعتي . ابتلعتها بشراهة تدل على أن نفسي انفتحت .

بعد لحظات بدأت أشعر بالرعب . . فقد قيل لي أن السفر الى اليمن سيكون بالطائرات الحربية . وسمعت أن هذه الطائرات لا يتحمل السفر فيها الا الجنود . فهي خالية من كل وسائل الراحة فهي ليست مكيفة . ثم أنها ترتفع الى عشرات الألوف من الأقدام ولا بد أن نضع على أنوفنا كمادة من الأكسوجين . . وأنا لا أخاف ركوب الطائرة . . فقد ركبتها مئات الساعات . . وقد ركبت طائرة لنقل الجنود . . وكان معي كل الجنود المصريين ببنادقهم ومدافعهم وقنابلهم . . وكانت طائرة فيها كل السوان العذاب : البرودة الشديدة ، والحرارة الشديدة . وكنت أتلوى من الوجع في إحدى سيارات « الجيب » في داخل الطائرة (راجع رحلتي الى الكونغو) . وأنا لا تضايقني الحرارة مهما ترتفع ، ولكن التي توجعني هي البرودة . . أي « شوية » هواء من الممكن أن تصيبني بالزكام والسعال وكل أنواع المرض . .

فلو كانت هذه الطائرة الحربية سترتفع الى أعلى طبقات الجو من غير أن يكون الجو باردا فانا لن أعترض على السفر مطلقا . . ولكن الذي سمعته جعلني أنكمش في جلدي . .

وتمنيت ومعى كل زملائي من الأدباء أن يكون السفر بالباخرة . فأمامنا ثلاثة أيام في البحر الأحمر . هي راحة لنا ، ننتظرها ونحلم بها . . راحة

نتمدد فيها بلا عمل .. وبلا كتابة .. بلا كلام .. بلا تليفون .. وبلا أحد تراه أو يراك .. فقط أن تتمدد وتتراخي وتترك نفسك دون أن تقوم بأي شيء .

وتحقت هذه الأمنية وسافرنا من ميناء الأدبية بالباخرة (مصر) ولكنى لم أنتقل بهذه السهولة من القاهرة الى السويس .. وانما ظللت أفكر طول الليالى السابقة على السفر الى السويس فيما سأعمله اذا مرضت أننى لا أفهم فى الطب ولهذا أبالغ فى مخاوفى من المرض .. ولكن لا بد أن أسافر الى اليمن ..

إن الطبيب الأوربى الذى اسمه « فاوست » باع عشرين سنة من عمره لكى يرى شيئا جديدا .. لقد اتفق « فاوست » مع الشيطان . ذلك الاتفاق المعروف فى الأدب الأوربى ، أن يعطيه عشرين عاما من عمره بشرط أن يعيش فى عالم جديد . عالم لا يعرفه ، أن يحس بالدنيا .. وبعد انقضاء المدة المحددة جاء الشيطان وقبض على روحه ..

لقد باع « فاوست » عمره من أجل أن يعرف شيئا جديدا .. لقد ظللت أياما قبل هذه الرحلة لا أنام . ظللت أقرأ كل ما كتب عن اليمن . وكل ما جاء فى كتب الأجانب عن اليمن ، وكل ما كتبه المصريون عن تاريخ اليمن . وأهم من هذا كله — وهى أهمية خاصة بى أنا — قرأت كل ما جاء فى تقارير الصحة العالمية عن اليمن .. ولم تكن هناك تقارير كثيرة عن الحالة فى اليمن . فيبدو أن الامام — كل امام — لم يسمح لأحد من الأجانب بالدخول فى هذه البلاد وسؤال أى انسان عن صحته ..

والسؤال الوحيد الذى يردده الأجانب فى كتبهم سؤال معقول جدا والجواب نكتة جدا — سألوا الامام أحمد : كم عدد سكان اليمن ؟

فأجاب الامام ، وهو يهتز ويتلوى فى مقعده ويسيل لعابه وتلمع عيناه ويدفع « غمته » الى الامام قليلا : والله عدد سكان اليمن يتراوح بين خمسة ملايين وأربعين مليونا !

وكل المعلومات عن اليمن تشبه هذه النكتة .

ولذلك « تحيرت » فى هذه الأمراض التى يمكن أن أعالج نفسى منها قبل أن أسافر الى اليمن .. فأخذت حقنا لأمراض لا وجود لها فى قارة آسيا وأفريقيا .. وحاولت أن آخذ حقنا لأمراض كانت موجودة أيام بلقيس ملكة سبأ إحدى ملكات اليمن ، ولكن الأطباء حذرونى من الاسراف فى العلاج فأنه يؤدي الى نتيجة عكسية .. وحذرونى من أخذ الحقن والتطعيم معا .. ولكنى سألت طبيبا احترم رأيه ، فقال لى : ولا يهملك !

وسألته : ولا يهمنى ايه ! هل تقصد أنه لا داعى أن آخذ أى حقنة إطلاقا ..

فأجاب : لا .. وانما أقصد لا تخف من الحقن والتطعيم معا ..

بقيت مسألة مهمة . وهى ايضا بالنسبة لى انا . وهى الادوية التى
ستأخذها معى الى اليمن والتى آخذها معى الى أى مكان . فأننا لا أعرف
بالضبط ما الذى يوجعنى . . ولا ما هى أمراضى ، ولكنى اذا وجدت انسانا
مزكوما . فمن المؤكد أن أصاب بزكام . . وهذه مسألة معروفة لكل الذين
الهم صلة بى . . واذا ظهر أى مرض على أى انسان له صلة بى فمن المؤكد
أن أصاب بأى مرض فى اليوم التالى . . والسبب هو خوفى الشديد . .
وأوهامى التى لا أول لها ولا آخر .

ولولا حرارة الغرفة التى كنت أقتسمها مع يوسف السباعى . ولولا أن
الهواء خائق . وأن المراوح عاجزة عن تحريكه . كأنها طفل صغير يحاول
أن يزحزح الهرم ، لكنت رحلتنا الى اليمن ممتعة . جدا . . وان كانت
جلساتنا ومناقشاتنا على ظهر الباخرة كانت فرصة نادرة للتعارف . . لأن
نتعارف نحن الأدباء . وقد فرقتنا أعمالنا . وضاق وقتنا عن أى لقاء بيننا . .
فنحن نتعارف بأن يقرأ بعضنا لبعض ، أو نلتقى عابرين مسلمين أو مودعين .
ولم تتح لنا الفرصة للتقارب ونتفاهم ونتساعل . . ونفكر فى قضايانا السياسية .
ورسالتنا الانسانية الهائلة فى اليمن .

فمعنا فى الباخرة جنود أبطال فى طريقهم الى أرض المعركة . وعلى أرض
المعركة شباب مثلهم فى شجاعتهم وفى ايمانهم . يدافعون عن قضية العروبة
كلها . عن حق شعب فى أن يظهر للتاريخ مرة أخرى بعد أن طواه الائمة
فى النسيان .

كل شىء فى تاريخ اليمن بلا حركة . . تماما كالبحر الأحمر لا موجة فيه . .
لا موجة واحدة . . كأن البحر مرسوم على الأرض . . ان الباخرة لا تهتز . .
ان ساعتى « الأوتوماتيك » حينما تركتها فى حقيبتى توقفت تماما . وهذا
يدل على أن الباخرة لا تهتز مطلقا .

وثورة السلال هى الريح الوحيدة التى حركت أمواج الشعب . التى
هزت العالم العربى . فلم يكن أحد يتصور أن فى اليمن حياة . ان فى اليمن
سخطا كامنا . من الممكن أن يتحول الى ثورة ضد الخرافة القديمة ضد
الامام . . ولكن شعب اليمن ثار . وساندناه برجالنا . ووقفنا الى جواره
ضد عملاء الامام وحاولنا القضاء على قوى المتسللين الى بلاد اليمن لكى
يتمكن اهل اليمن من أن يعيشوا الحياة الكريمة . . من حقهم ان يعيشوا
مهم بشر . وأرضهم غنية . . وتربتهم خصبة . . وكان لهم تاريخ . . من
الممكن أن يكون لهم تاريخ جديد .

وأول أرض يمنية توقفت عندها الباخرة هى ميناء الحديد . وهم فى
اليمن ينطقونها دون تشديد للياء . . ولم نر شيئا واضحا سوى بعض الناس
يبيعون الفاكهة . . ولكن الذى عرفته على وجه التأكيد أن أحدا لم يشتر
منها شيئا . وجوه الناس وأجسامهم هنا نحيفة ، ولونهم أميل الى السمر
الشديدة ويقال أنهم من الأحباش ، أو من الحبوش كما يسمونهم فى اليمن ،

وهم يرتدون نوعا من الأزياء قريبة الى (الدوتى) الهندى الذى رأيت فى ولاية « كيرالا » فى أقصى الجنوب من الهند . وهى فى الوقت نفسه شبيهة بالملابس الفرعونية ، فيما عدا الحزام الذى يحرص عليه اليمنيون .

والحزام فى الملابس اليمنية هو عبارة عن رف . يضع فيه وتحتته كل ما يحتاج اليه من طعام وسلاح . يضع فيه الخنجر . . . وكل الناس يحملون الخناجر . . . ولكى اكون دقيقا . ان عددا كبيرا جدا من الناس يحمل الخناجر والرصاص والبنادق . فقد لاحظت أن اليمنيين فى منطقة « تعز » لا يحملون السلاح ولاحظت أن الفقراء جدا لا يحملون السلاح أيضا .

.. ثم هم يحملون فى هذا الحزام أو تحتة أو بينه وبين الملابس بعض أطعمتهم ، مثل الذرة أو القمح أو الزبيب .

وهذا الخنجر غالى الثمن جدا . وقد يصل الى مائتين من الجنيهات ، وهى ثروة من الصاب والنحاس والذهب والجلد . . وصناعة الخناجر من الصناعات اليمنية الدقيقة . وكانت اليمن مشهورة فى تاريخ العرب بالسيوف اليمنية .

ومن ميناء الحديد يبدأ الطريق الطويل الذى رصفه العمال الصينيون وطول الطريق نحو ٣٠٠ كيلو متر . . وهو من أحسن الطرق المرصوفة . فى اليمن . ان لم يكن أحسنها جميعا . وقد حاول الفرنسيون قبل ذلك عمل طريق ، وحاول الأمريكيون أيضا .

ثم قامت القوات المصرية برصف الطرق . وبناء المطارات . ثم ربطت البلاد بعضها ببعض بشبكة من الطرق المعبدة أو المرصوفة .

وميناء الحديد قد حفره الروس وأقاموا له المرسى الذى تقف عنده السفن الكبيرة . . كما أنهم حفروا قناة تحت الماء . ولولا هذه القناة . وهذا الرصيف الذى أقامه الروس ، لوقفت كل السفن فى عرض البحر الأحمر . كما كانت السفن المحملة بالتجارة تقف على مسافة ١٥ كيلو متر من الميناء . ثم يتم تفريغها فى سفن صغيرة . والسفن الصغيرة تنقل البضائع الى ميناء الحديد ، ومن الميناء الى داخل البلاد ، وداخل البلاد هذه كلمة واضحة وأقصد بها مجاهل اليمن . فكل شيء فى اليمن مجهول . . لا أحد يعرف لها داخلا ولا خارجا . ولا حدودا . . ولا عددا ولا ثروة ولا خريطة . . الخ .

ولقد رأيت معالم الحديد . رأيت المستشفى الذى أطلق فيه الرصاص على الامام . المستشفى قديم ولكن يتم فيه علاج المرضى اليمنيين على أيدي أطباء مصريين . . والطبيب فى اليمن . ينظرون اليه على أنه رجل يصنع المعجزات وكلمة طبيب معناها ساحر . . ولا يكاد الناس فى اليمن يسمعون عن رجل طبيب حتى يسافروا اليه من أقصى البلاد .

وفي هذا المستشفى ضرب الامام أحمد برصاصة استقرت في أعماقه . ولم يمت . ولكنها كانت سببا في موته . ومنذ هذه الرصاصة التي أصابت أحشاه والامام قد أيقن أن هناك شيئا خطرا وراء الوجوه الباهتة التي اذا نظر اليها تطلعت الى الأرض . لقد أدرك الامام ، قبل وفاته ، ان الناس ليسوا دائخين كما يتصور وأن « القات » لم يقض عليهم قضاء تاما . فلا تزال لهم عيون ترى فضائحه وتسكت . ولكنها تسكت أمامه فقط . وحينما تعود الى أهلها تتكلم . وقد حاول الرصاص أن يتكلم مرة بعد مرة . حتى تحول الرصاص الى مدافع .

وفي الليل دعانا ، على السلال ، قائد قوات الحديد . وهو ابن المشير السلال . . الى مأدبة عشاء في أحد قصور الامام . والقصر يشبه بيوت العمدة في الريف عندنا .

لولا انك تجد في داخله حوضا للسباحة . والحوض أمام القاعة الكبرى التي كان يتصدرها الامام . . والقاعة من الطراز العربي . او الفارسي وعلى الحائط توجد لوحات بها طواويس إيرانية . وتوجد بها أبسطة عجيبة ثمينة جدا . وحول الامام كان يجلس وزراءه ورجال الدين .

ومددت يدي الى المكتب الذي كان يضع فيه الامام أوراقه الخاصة ، ووجدته مليئا بقطع من الورق الصغير . كل ورقة من حجم ورقة « الكوتشينة » .

ورق الكتابة في اليمن طويل على شكل لفائف . وأوراق الامام أو قراراته ويسمونها في اليمن (التنافيذ) يكتبها الامام على قطعة ورق صغيرة . . أي نوع من أنواع الورق .

وقد وجدت في المكتب عددا كبيرا من هذه الأوراق ، ورجت أقلب فيها ولم أفهم شيئا وهي أقرب الى البلاغات الكيدية أو الشكاوى من بعض الناس ضد بعض الناس . . ولا تزال هذه الشكاوى في انتظار رأى الامام وقال الامام رايه . . بل أعظم آرائه انه مات .

ووقفت أمامنا فرقة موسيقية تغزف الحانا غريبة عن الأذن . وكانت هذه الفرقة الموسيقية على الجانب الآخر من حوض السباحة ، أما قائد الفرقة الموسيقية فكان يتحرك أمامها يروح ويجيء ويشير الى بقية الأعضاء بأن يتابعوه . والموسيقى اليمنية خليط من كل الموسيقى الشرقية التي يذيعها الراديو . . وأزياء العازفين خليط من كل لون . والنغمات يشب بعضها فوق بعض محاولة أن يكون لها لحن .

ولا أعرف بالضبط ان كانت هذه الفرقة قد استحضرت خصيصا لنا . أو أنها هي الفرقة نفسها التي كانت تغزف للامام .

ووضعت مناضد العشاء حول حمام السباحة . وكانت الأطباق فخمة . . أحسن أنواع الضيعة . والملاعق والسكاكين أيضا . « والسفرجي » كان حريضا على وضع الشوك والسكاكين في المكان الصحيح . وعلى تغيير

الأطباق والملاعق في كل مرة يقدم لنا فيها طعاما جديدا ، ولم أر هذا الرجل يعدل من هذه القاعدة أبدا . مع أن كل شيء يغري بأن ينسى ذلك !

وكان الطعام مكونا من الدجاج المحمر ومن السلطة . ومن الخبز الأفرنجي ومن كثير من الفواكه المحفوظة في العلب . وهي كثيرة جدا في اليمن وهي مصنوعة في كندا وأستراليا واليابان . وكلها تدخل اليمن عن طريق عدن . . وهم في اليمن لا يجيدون صناعة الشاي أو القهوة . . والقهوة يفضلونها من قشور البن على طحن حبات البن نفسه . أما الشاي فقد لاحظت أنهم لا يحسنون صنعه . وأعتقد أنني إلى حد ما خبير في شرب الشاي . فقد شربته في أماكنه الحقيقية في الهند وسيلان وإنجلترا وأستراليا .

أما مدينة الحديدة نفسها . فهي تشبه القرى عندنا في مصر . . الشوارع مليئة بالقرباب والقهواوي كثيرة . « والمحلات » مملوءة بالبضائع . وينقصها النظام . وهم في اليمن يبيعون كل أنواع السلع .

وقد رأيت في هذه المحال عددا كبيرا من فراء « الاستراكان » والثعلب الأصلية . ولكنها موضوعة في درجات حرارة عالية جدا ، فهذه الفراء يجب أن تكون في أماكن باردة . . وفي القاهرة يضعونها في ثلاجات تسعة شهور في السنة .

« والاجزائيات » تتكدس فيها الأدوية من كل بلاد الدنيا . والمصيبة أن هذه « الاجزائيات » ليست بها مراوح ولا تكييف . ولا شك في أن درجة الحرارة العالية تؤدي إلى فساد الأدوية وخصوصا الأدوية الحساسة . وأذكر أن أحد الزملاء اشترى نوعا من الفيتامينات ولم يكديفح العلبة حتى وجدها جميعا سائلة ملتصقة .

وبقية « المحلات » المليئة بالراديوهات الصغيرة والصناعات اليابانية تذهلك عند الظهيرة ، ففي الظهيرة تخدم الحياة في هذه المدينة . وربما في معظم مدن اليمن ولا أستطيع أن أقول في كل مدن اليمن . فأنا لم أر إلا عددا قليلا منها .

ففي هذه الساعة يتعاطى الناس « القات » في كل مكان . وهناك شبه كبير بين ساعة « القات » وساعة انطلاق المدفع في شهر رمضان . فقبل انطلاق مدفع الإفطار نجد الناس مسرعين إلى البيت . وعلى وجوههم فرحة باهتة ، فرحة باقتراب تناول الطعام . وهي باهتة لأن الصيام قد أرهاقهم .

وكذلك في هذه الساعة أقصد ساعة الظهر . أو ساعة الضفر . نجد الناس في الشوارع مسرعين وقد حمل كل منهم حزمة من نبات أخضر يشبه النعناع أو يشبه الملوخية . والحزمة عبارة عن أعواد متوسطة الطول . ولا تزيد على عشرين عودا وثمانها ريال يمني .

هذه الحزمة هي نبات « القات » . والقات ، أو الجات ، أو القاط ، كلمة حبشية معناها الورق الصغير . . والذي يتعاطى « القات » يقطف

الأوراق الصغيرة من هذه الشجرة . ثم يضعها في فمه ثم في جانب من فمه . .
يمضغها أول الأمر . ثم يكومها على شكل كرة في جانب من الفم . . وتبقى
في هذا المكان ست ساعات أو عشر ساعات كما يحلو له . ولكنه يظل طول
الوقت يمتص طعمها المر وهذه الماراة هي التي تنزل الى معدته فتلسعها
وتجعلها زاهدة في الطعام ، وإذا نزل فيها الطعام فإنها تعجز عن هضمه .
وعملية وضع « القات » في الفم . يسمونها في اليمن عملية التخزين
فالذى يتعاطى القات يقول عن نفسه انه يخزن .

وفي « المحلات » التجارية تجد الناس قد توقفوا عن البيع والشراء لأن
هذا وقت التخزين . فكل واحد يبدأ في التخزين . ومعنى ذلك أنه يكون في
حالة انسجام . وهذا الانسجام يجعله عاجزاً عن ممارسة أى عمل ، فهو
مفتوح العينين ولكنه لا يراك . وهو في حالة يقظة غير مركزة .

وأحياناً يتناولون « القات » مع البن أو مع الشيشة . والرجال يبدأون
في ادمان « القات » في سن صغيرة جداً . . وربما في الثانية عشرة حتى
يموتوا .

ولولا أن (معزة) صغيرة كانت تلعب في أحد سفوح الجبال ثم أكلت
ورقة صغيرة وراحت تقفز من هنا وهناك . ثم اتجهت الى صاحبها وراحت
تنطحه . ولولا أن صاحب هذه المعزة رجل ذكى . لظل هذا « القات » نباتاً
لا يعرفه أحد في بلاد الحبشة ، ولما انتقل من الحبشة الى اليمن .

أما كيف انتقل « القات » من الحبشة الى اليمن فله قصة أخرى عجيبة .
لا يمكن الكلام عن اليمن . دون الكلام عن « القات » . مع الأسف
الشديد . وعلى الرغم من أن القات أصله حبشى . فإن اليمن أصبحت
مشهورة به . تماماً كالبن الذى أصله يمنى وأصبحت البرازيل مشهورة به .
وقصة البن والقات . قصة واحدة . وهناك حيوان واحد هو الذى
نقل البن والقات من الحبشة الى اليمن . هذا الحيوان الطيب المسكين
المجرم في الوقت نفسه هو : الماعز !

فقد كانت في قديم الزمان معزة . معزة ليست لها أية مزايا خاصة . .
لها أربع أرجل ولونها أسود وشعرها طويل . . وحينما تحتاج الى طعام
فإنها تمأىء . معزة كأية معزة في الدنيا . .

ولا أحد يعرف بالضبط متى « قرفت » هذه « المعزة » من الأعشاب
الخشنة الموجودة في سفوح جبال الحبشة . ولكن المعزة قرفت . زهقت
من الطعام الواحد الذى تجد نفسها كل يوم تأكل منه . ولا تجد غيره .
كل شيء ممل . كل شيء كما هو . الجبال والأعشاب والأمطار وصاحب
المعزة . انه هو الآخر . ينام تحت الشجرة وله صوت سخيف . لا هو
كنباح الكلب . ولا كعواء الذئب . ولا كنهيق الحمار . . صوت ممل جداً
هو أيضاً .

ويقال أن هذه « المعزة » التاريخية حاولت الهرب من صاحبها . فدخلت في منطقة بها أعشاب ونباتات من نوع غريب . و « شمشمت » في النبات الغريب ثم ملأت فمها منه . ولم يضايقها هذا النبات . ثم أكلت ، وبعد لحظات صحا صاحبها من النوم على ثورة بين الماعز . والأغنام . وحاول صاحب المعيز أن يعرف السبب ولكنه لم يهتد إلى شيء ، فقد لاحظ أن معزة واحدة . هي سبب هذه « الهيصنة » . فهي تقفز من هنا إلى هناك تكاد ترقص على إيقاع موسيقى لا يسمعها أحد . . وحاول صاحب المعزة أن يربطها ولكن المعزة لم تستسلم .

ونظر الراعي إلى عين المعزة . فوجد فيها بريقا غريبا . انها لا يمكن أن تكون مصابة بمغص . فهذه الحيوانات حينما تصاب بمغص تتطلب على الأرض وتتوجع ، ويلتف بعضها حول بعض . كما يلتف الناس حول مريض . أو كما يلتف الورثة حول أبيهم . ولا أحد يتمنى له الشفاء . وانما الكل يريد أن يدفنه حيا ويخلص . . وحاول صاحب « المعزة » أن يفهم شيئا من عيون المعيز ولكن لا شيء يدل على أن هناك أى شبه بين المعيز وبين الورثة .

اذن المعزة ليست مريضة . وانما هي « مبسوفة شوية » وفتح فم المعزة وأخرج بعض الأعشاب من فمها . واكتشف أنها ليست عثبا . وانما هي أوراق من نبات غريب . وأمسك ورقة من فم المعزة ، ولاحظ أنها تشبه الأوراق التي علقت بشعرها الطويل . وراح هو يمضغ هذا الورق . ووجد له طعما غريبا . وبشيء من الذكاء . اهتدى هذا الراعي إلى النبات الغريب الذي انتقل بعد ذلك من الحبشة إلى اليمن . ليمضغه اليمنيون فيمتص دمه وحيويتهم مئات السنين .

انه نبات يأكل الناس . مع أن الناس هم الذين يمضغونه في أفواههم وهم الذين يأكلونه ، ان هناك نباتات في الغابات تأكل الحشرات . ونباتات تأكل الزواحف . هناك شجرة لها ورود . هذه الورد تتفتح ويدخل فيها الذباب والعناكب والنحل والفراش وحينما يشعر النبات بوجود هذه الحشرات فإنه يطبق أوراقه عليها ويخنقها ثم يعتصرها . وهذه العصارة هي رحيق حياة هذه النباتات .

وهناك أشجار تأكل الثعابين والزواحف فلا يكاد الثعبان يقترب من هذه الشجرة حتى تفرز مادة صمغية تمسك الثعبان فلا يقوى على الحركة ويبقى ملتصقا بالشجرة حتى يموت . فإذا مات فإنه يتحلل إلى مواد عفنة . . هذه المواد العفنة تمتصها الشجرة . . وهذه الأشجار تتصيد الحشرات والزواحف ولكن هذه الضحايا لا تختار هذه الأشجار وانما هي تفاجأ بقبر مخفور لها .

ولكن « القات » شيء آخر .

ان الناس يقدمون عليه بكامل وعيهم . يزرعونهم ويشترونه بأعلى الاثمان ويحتفظون بلياليه ويبددون أموالهم في مضغ أوراقه الخضراء .

ويقال ان « المعزة » التي اكتشفت شجرة « القات » . هي نفسها المعزة التي اكتشفت شجرة البن . والشجرتان تزرعان في مكان واحد . في تربة واحدة وفي جو واحد . فكلتا الشجرتين في حاجة الى حرارة شديدة وإلى أمطار . في اليمن ينزعون الآن أشجار البن ويضعون بدلا منها شجرة « القات » والسبب في ذلك أن شجرة البن لا تثمر الا بعد سنوات أما شجرة « القات » فتثمر بعد شهور . . والناس في اليمن تركوا البن . واقبلوا على استهلاك « القات » .

والهولنديون حينما مروا باليمن منذ مئات السنين . نقلوا شجرة البن الى هولندا ، ومن هولندا الى أندونيسيا . ومن أندونيسيا انتقلت مرة أخرى الى البرازيل . ولم يعد أحد يسمع عن البن اليمنى .

والقات نبات غريب من الناحية الطبية . فقد جاء في تقرير للدكتور التيجاني الماحي ، مستشار الصحة في هيئة الصحة العالمية أن نبات « القات » يتضمن مادتين متضادتين . مادة منبهة ومادة مهدئة . . فيه مادة « الكافيين » ومادة « المورفين » . فالذي يتعاطى « القات » يكون في حالة هدوء منبه . أو في حالة وسط بين الانتباه وعدم الانتباه . هذا في أول عهده يتناول القات . ولكن بعد أن يدمن القات . فانه لا يشعر بأي شيء . (أنظر ملخص هذا التقرير فيما بعد) .

وحينما كنت في صنعاء طلبت من أحد الأصدقاء اليمنيين أن يحضر لي بعض أوراق « القات » . وسألني عن السبب فقلت سأخذها معي الى القاهرة .

وعاد يسألني : هل تريد أن تزرع القات في مصر ؟ فقلت . عندي حديقة صغيرة (طبعاً هذا غير صحيح) وأنا من هواة جمع النباتات النادرة في العالم .

وذهب الصديق وأتى لي ببعض بذور شجرة القات .

ونسى أن يأتي بشجرة كاملة لكي أتفرج عليها . ثم عاد يحمل شجرة ثم سألته على الأوراق التي يتناولها المدمنون . وأشار الى الأوراق الصغيرة في أعلى الشجرة . ومددت يدي وقطفتها ثم أخذت الأوراق وغسلتها في ماء مطهر . وعلى مرأى من هذا الصديق بدأت أمضغ أوراق القات .

دعني أصفها لك . طعمها مائع وفيه مرارة وفيه لسعة خفيفة . وليس لها أي أثر في اللسان أو الأسنان في الحال . وقد علمت من أصدقائي في اليمن أن أثر القات لا يظهر بهذه السرعة ولا بسبب هذه الأوراق القليلة وإنما يجب أن اجلس وأخذ راحتي . وأملأ غمبي بأوراق القات وأمضغها

وامتنص رحيقها المر ساعة بعد ساعة . وأن أضحك وأن اتكلم فهذا النشاط والضحك كلاهما يساعد على أن يقوم القات بالغرض المطلوب ، أما الغرض المطلوب فهو السرور .

ولكن الذى يرى مجلس القات لا يجد السرور على وجه أحد من الناس ، فكل واحد من الجالسين قد وضع أمامه حزمة من أوراق القات . . وراح يمد يده ويمضغ ، ثم يبصق على الأرض . وأحيانا فى طبق .

والمنظر كما ترى « مقرف » . ومثل هذا المنظر ، وعلى نطاق واسع جدا ، موجود فى الهند وباكستان ، فهم يعضفون نوعا من اللبان يسمى (بان) وهو عبارة عن حبوب وبذور ملفوفة فى ورقة شجر وتباع فى « محلات » السجائر . وأحيانا أمام المطاعم . ويقال انها تساعد على الهضم ، تماما . كما نعتقد أن « اللبان الذكر » يساعد على الهضم .

ولكن « اللبان » الهندى له بذور حمراء اللون . ولذلك تجد معظم أفواه الناس حمراء اللون وكأنهم ينزفون دما . . ثم يبصقون على الأرض . ولذلك أيضا تجد معظم الشوارع بها بقع من الدم لا نهاية لعددها بل فى الجامعات والوزارات نجد هذه البقع من « اللبان » الأحمر !

وحيثما كنت فى الهند جريت « اللبان » . ولاحظت أنه يقوى اللثة ويكسب الاسنان لونا ورديا . هذا بعد غسل الاسنان بالماء عشرين مرة . أنه يشبه فى لونه معجون الاسنان الفرنسى المعروف باسم (امى ديامان) . وكان لا بد أن أذهب الى مجالس « القات » . ولكن للأسف لم يتسع وقتى ، واكتفيت بأن ذهبت الى سوق القات فقط . وهى سوق تشبه سوق الخضار . مع فارق واحد . أن هذه السوق لا تضم الا خضارا واحدا . والناس يتقدمون الى حزمة القات ويقلبونها وينظرون الى عدد الأوراق الموجودة فيها . هل هى كثيرة أو قليلة . طازجة أو « باينة » . ثم يشمون رائحتها . وباعة القات يدللون على هذه النباتات . فواحد يقول لك . انها من الجنوب . وواحد يقسم لك بأنها من الحبشة . وأن الذى أنى بها تاجر حبشى قرر أن يسافر الى أمريكا ، ولولا حاجته الى الفلوس ما باع هذه الكمية بهذا السعر الزهيد !

مددت يدي الى حزمة « قات » وسألت البائع : ما ثمنها يا أخ ؟

فقال كلاما لم أفهمه بوضوح . ولم يفكر البائع فيما اذا كنت جادا أو مجرد واحد يريد أن يعرف . . حاولت أن « أفاصل » معه . . ولكنه لا يقبل الفصال لأن القات سلعة مطلوبة . . وعيب القات أنه كالخبز يجب أن يباع طازجا .

ومددت يدي أقطف ورقة . وأتظاهر بأننى أضعها فى فمى . ولم يسأل عنى البائع ولم يلتفت ناحيتى . فقد كان مشغولا بكمية لا بأس بها من

القات موجودة في جانب من فمه . وتظاهرت بأننى أريد أن أختلس منه حزمة القات . . ولكنه لم يلتفت ولم يسأل عنى . . ويظهر أن السرقة معدومة في سوق القات .

وقيل لى أيضا أن القات قد انتقل الآن من مجالس الرجال الى مجالس النساء . وأن هناك عددا من السيدات يتسلين بالقات . كما يتسلين عندنا بلعب الورق . والنساء معذورات ما دام الرجال لا تربطهم بالنساء أية صلة من أى نوع . خصوصا اذا تجاوز الرجال سن الخامسة والعشرين . — أقول أية صلة !

وهناك أناس كثيرون يمتدحون القات ويؤكدون أنه المسئول عن وجود حياة اجتماعية في اليمن . فهو الذى يجمع الرجال في مكان واحد ليتناقشوا في هدوء ، والذى يتعاطى القات لا يفكر في ارتكاب الجريمة على عكس شارب الخمر ، الذى يصاب بحالة نفسية تدفعه الى ارتكاب الجريمة .

ويقولون في مزايا القات أنه هو الذى جعل الناس مسالمين ، في حالهم — وهو كلام غريب وعجيب .

فلو كان اجتماع الناس في مكان واحد دليلا على حياتهم الاجتماعية السليمة . لكان مجتمع السجون والمستشفيات ، حيث يحتشد مئات الألوف ، مجتمعاً سليماً . . ولكنها مجتمعات مريضة جسمياً ونفسياً . ثم أن الذى يتعاطى « القات » يميل الى الهدوء ، ولا يميل الى القتل لأنه يقتل نفسه أولاً بأول . .

وليس من الضروري أن يكون القتل هو القضاء في لحظة واحدة على حياة انسان . وإنما من الممكن قتل أى انسان في سنوات . قتله عضوا عضوا . قتله عقلاً ونفساً وجسماً . ولا أعتقد أن هناك أبشع من قتل الانسان لنفسه بنفسه ثم عجزه عن انقاذ نفسه من نفسه .

ولا أفهم الحكمة في أن يمتدح بعض الأطباء العرب نبات القات وفوائد القات الاجتماعية . لقد استمعت الى عدد كبير من الشبان اليمنيين . أنهم يخلون من الذين يتناولون هذا النبات السام .

وانشغلت بعد ذلك بالتطلع الى الناس في الدكاكين والشوارع . فقد رأيت أحد عساكر المرور مقيداً بالحديد . ويمشى في الشوارع . وظللت أتبعه حتى رأيته يقف في أحد الميادين ثم يوجه السيارات يمينا وشمالا .

وعرفت أن الذى حدث لعسكري المرور من الممكن أن يحدث لأى انسان آخر . فكل انسان يرتكب خطأ . لا بد من أن يعاقب عليه . ومن العقوبة وضع رجله في السلاسل . على أن يؤدي عمله في الوقت نفسه .

فاذا صدر الأمر بعقوبته . فإنه يذهب الى دكان الحداد . وهناك يضعون

السلاسل في قدميه بعد أن يدق الحداد هذه السلاسل دقا متينا ، وبعد نهاية مدة العقوبة يذهب العبيكرى أو أى انسان آخر . رجلا أو امرأة ، الى الحداد لفك هذا القيد .

ودخلت مدرسة اسمها مدرسة الرهائن ، وهي في مدخل قصر الأمير الحسن . على ما اعتقد ، وهذه المدرسة تضم عددا من الأطفال كل طفل من قبيلة ، وشيخ القبيلة يبعث بابنه رهينة . ودليلا على حسن نيته وحسن سلوكه . وبين الحين والحين . يبعث شيخ القبيلة بابن آخر يحل محل الابن الأول .

وفي هذه المدرسة وجدت تلميذا يمشى والسلاسل في رجله . ومن المناظر المألوفة جدا في اليمن أن تجد الناس — رجالا وأطفالا — يمشون وقد وضع الواحد منهم يده في يد الآخر . في الشارع أو في المدرسة . وفي هذه المدرسة وجدت الأطفال والشبان يمشون اثنين . اثنين . متلاصقين أو ملتصقين . وعرفت من أحد المدرسين أن هذا الطفل المقيد تشاجر مع زملائه ولذلك لا بد من توقيع العقاب عليه . أما العقاب فهو وضعه في السلاسل في داخل المدرسة .

وفي المدرسة لفت نظري شيء غريب أيضا . فاللعبة الوحيدة المفضلة عند الأطفال هي لعبة « النيشان » . فالأطفال يقفون أمام لوحة . وعلى اللوحة توجد علامات من الكبريت الأسود . ويقف الأطفال كل واحد يمسك ببندقية ، والبندقية حينما يضغط ينطلق منها مسمار وإذا أصاب المسمار العلامة السوداء فإنها تنفجر .

ولم يحدث أن طفلا واحدا أخطأ في النيشان . بل لقد رأيت طفلا يصيب هذه العلامات السوداء من مسافة ثلاثة أمتار . علامة . علامة . فهو يجلس على ركبته وينثنى على الكبريت ويصيبه بدقة مذهلة . وفي هذه السن يتمرن الأطفال على ضرب النار . فإذا كبروا حملوا السلاح ، ولذلك فاليمينيون بارعون في ضرب النار .

ومن المفروض أن يكون كل طفل يمتنى قادرا على حمل السلاح . فهذه مؤهلات الرجولة . ولذلك يضعون الطلبة الصغار في فصول مظلمة . وهكذا قالوا لنا ، وقد دخلت أحد هذه الفصول ووجدت التخت في صفوف بعضها وراء بعض . الصف الأول هو سنة أولى . والصف الثانى هو سنة ثانية . وهكذا . . وكل هذه السنوات تدريس في وقت واحد وفي غرفة شبه مظلمة . والمدرس يتوجه بكلامه الى تلامذة السنة الأولى . على مسمع من تلامذة السنوات الثانية والثالثة والرابعة .

وقد حاولت بعينى المجردة وبالنظارة أن أرى الكلمات المكتوبة . على السبورة فلم أتمكن بأى حال من الأحوال .

واقتربت من السبورة ومسحت الكلام المكتوب عليها . . واقتربت أكثر لكى أرى يدى وهي تكتب . . وكتبت هاتين الكلمتين : الامام البدر .

ونظرت الى الطلبة لكي اعرف ان كانوا قد راوا هاتين الكلمتين .
وسمعت « صوصوة » . ولم افهم شيئا مما يقولون . وسألتهم باللغة
العربية : هل ترون ما اكتب ؟
وترددت « الصوصوة » .
وسألت المدرس : ماذا يقولون ؟
فأجاب : انهم يقولون الله يلعنه .
وسألته : يلعن من ؟
فأجاب : الامام البدر طبعاً .

وفي هذه الغرفة المظلمة يدرس التلاميذ الصغار . وليس من المعقول
أن تكون هذه الغرفة قد بنيت ولها نوافذ عالية من أجل تقوية عيون الأطفال
ولو كانت هناك غرفة مضيئة لذهبوا اليها ، ولكنهم مع ذلك يرون في هذا
الظلام الشديد .

ومن الغريب أن هذه المدرسة ، أقصد مدرسة الرهائن ، بلا حراسة
تغابوا بها مفتوحة . ومع ذلك فإن واحداً من هؤلاء الأطفال لا يهرب .

وقد سألت عن السبب فقيل لى أن هؤلاء الأطفال غرباء . ومن أماكن
بعيدة ولا يمكن الوصول اليها بسهولة ثم أن شيوخ القبيلة لا يحاولون أن
يخطفوا أطفالهم . فقد وعدوا بأن يكونوا مسالمين . وأن يطيعوا الجمهورية .
ولسبب لا علاقة له بالمدرسة ولا بالأبواب المفتوحة . ولا بالسلاسل
الموجودة في أرجل التلامذة . ولا بالتراب الموجود في شوارع صنعاء .
ولا « باللوريات » التي بها جنودنا يغنون ويرقصون وهم سعداء بالعودة
الى مصر ولا بالشمس الشديدة . ولا بلونها الأسمر .. أقول لسبب
آخر بدأت « أهرش » برفق في يدي .. فأنا أخشى أن أهرش بحق وحقيق .
وأخشى من نتائج الهرش .. وبدأت أفكر في أسباب الهرش .. اننى لم
أكل طعاماً فيه ملح .. ولا طعاماً فيه شطة .. ولم آخذ دشاً . الا في
الباحرة حين سفرى الى صنعاء .

وعرفت السبب وبدأت أسأل عن دكتور .
لقد كان السبب هو عصير الأناناس . وهو علب مقلدة مصنوعة في
بلاد الملايو ..

واتجهت الى الفندق فوراً ابحت عن الدواء الخاص « بالارتكاريا » وعن
الدواء الخاص بالهرش . وعن زجاجة الحبوب التي تمنع الحموضة ، والى
العلب الكثيرة التي حملتها معى من القاهرة لتهدئة الأعصاب . اى الحبوب
الخاصة بمنع الوهم .

وفي الفندق ابتلعت بعض الحبوب المهدئة . ولكى اتسنى مخاوفى من
الأطعمة المحفوظة . ومخاوفى من الهرش والمغص . وكل هذه المتاعب التي
جربتها كثيراً خلال رحلات فى بلاد أقصى من اليمن ، كالكونغو مثلاً .

هنا عرش الملك بلقيس

قال لى أحد اليمنيين المثقفين جدا ، أن الصور التي نشرتها الصحف والمجلات المصرية لم يرها في حياته !

ولم أفهم معنى هذه العبارة . . وطلبت اليه أن يوضح ما الذى يقصده فقال لى : أن صور كل المدن اليمنية يراها لأول مرة . . فقد كان ممنوعا على أى انسان أن يبرح المدينة التى يعيش فيها الا بأذن من الامام . . ولم يأذن لى الامام بالخروج من العاصمة مرة واحدة . . فهربت من اليمن الى مصر ولم أر كل هذه المدن التى نشرتها الصحف فى مصر . .

وقال أيضا : لقد عشت فى مدينة صنعاء ٣٥ عاما ولم أتركها . . لأننى لى أخرج منها ، لا بد أن أقول للامام عن الاسباب التى أدت الى خروجى . . ولا بد أن أذكر اسماء كل الذين سأقابلهم وما الذى قالوه لى . . ولذلك قررت أن أبقى فى العاصمة من غير أن أرى البلاد الأخرى حرصا على راحتى وسلامة اهلى .

ومن ضمن البلاد التى لم يتمكن من رؤيتها هذا اليمنى ، الذى سافر الى اوربا وأمريكا ، مدينة مأرب . فهو لم ير هذه المدينة المشهورة . . ولم ير عرش الملكة بلقيس ، ولم ير سد مأرب الشهير . ولذلك كان سعيدا جدا برؤية هذه الصور التى نشرتها الصحف والمجلات فى مصر . .

وقد سافرنا بالطائرة الى مدينة مأرب وهى مدينة صغيرة جدا وحارة جدا . . بل حارة أكثر مما أتصور . . نار والعة . . وكان لا بد أن ندخل بعض الخيام التى نصبها قواتنا فى الطريق . . وتحت هذه الخيام جلسنا على المقاعد . . وبعضنا استسلم لنوم مفاجئ . . والسبب هو التراب وحرارة الجو .

ولما حاولت الوقوف والتوجه إلى مدينة مأرب ، علي ظهر احدي السيارات المصفحة ، رفض ضباطنا وجنودنا ، قبل أن نشرب الشاي . وجلسنا ننتظر الشاي .

وجاءت أكواب الشاي . عبارة عن علب وعن « بطريمانات » ، وعن صفائح صغيرة . . وليس من بينها كوب واحد . . وكانت مفاجأة ظريفة . . ولم يبد واحد منا أية ملحوظة على هذه الأوعية . . وانما أدركنا الفرق بين حياتنا كمدنيين وحياتهم كجنود مقاتلين . . أو حياتهم في مصر ، وحياتهم هنا في اليمن . .

وشربت الشاي وكان لذيذا . . ولا أعتقد أنني أبالغ كثيرا لو قلت انه الذ شاي شربته في حياتي . . لقد شربت الشاي في الهند ، وفي سيلان وفي أمريكا وفي إنجلترا . . وكلها أماكن مريحة ، وكان في استطاعتي أن أشرب الشاي في أي وقت بأي صورة . ولكن الشاي الذي شربته في خيام جنودنا ، كان في الوقت المناسب . . كان هو الوحيد الذي شفاني من الصداع . . فالذي صنعه لي كان جنديا مصرية ، يعيش في ظروف قاسية ، والذي قدمه لي كان ضابطا مصرية ، يعيش في ظروف قاسية . . ولكن هذه الظروف لم تتمكن من محو الابتسامة الحلوة من الوجوه ، ولا كرمنا المصري الأصلي . . وشربت الشاي في « بطرمان » من الزجاج . . نصف « بطرمان » من الزجاج . . فالماء هنا بحساب . . ويساوي وزنه ذهباً .

وروى لنا أحد الجنود حكاية غريبة . .

قال لنا أنه لاحظ أن الخيمة التي ينام فيها يجد فيها كل يوم عددا من الثعابين الميتة ، وكذلك بعض العقارب ، ولم يحدث شيء من هذا في كل مخيم زملائه من الجنود ولم يفهم حقيقة هذا السر . .

وأخيرا اكتشف الحقيقة . . فهو قبل أن ينام يضع في الخيمة مادة « أد. د. ت » ويملاؤها بالمبيدات الحشرية . . ثم ينام وتتسلل هذه الحشرات إلى الخيمة فتختنق وتموت . . في حين أن زملاءه لا يفعلون ذلك . . ولهذا فهذه الحشرات تتسلل إلى الخيمة ، ثم تتسلل منها !

ولسبب غير معروف فإن الثعابين والعقارب لا تلدغ إلا اليمنيين فقط ! كما أن ذبابة « تسي تسي » الموجودة في جنوب افريقيا لا تلدغ إلا السود فقط . أما البيض فهي لا تقترب منهم . وهذه الذبابة تصيب الناس بمرض النوم . . فاذا لدغتهم ناموا على طول . . حتى يموتوا !

وركبنا احدي السيارات المصفحة . . وركوب هذه السيارات الحربية ليس شيئا مريحا للناس أمثالنا من المدنيين . . فنحن لا نعرف كيف نتوازن اذا جلسنا ، ولا اذا وقفنا . . والطريق طويل . . وغير مرصوف . . والسيارة المصفحة تطلع وتنزل فوق الجبال وفي الوديان بشيء من العنف ،

ولها صوت مخيف .. وفي مقدمتها مدفع .. وعدد من الجنود .. ونحن لا نفهم كيف تعمل هذه السيارة ولا ما الذي يحدث لو هاجمنا عدد من المتسللين ..

ان نجيب محفوظ يقول انه تمرن على حمل السلاح ايام العدوان ..
ويوسف السباعي احدى كبار ضباط الفرسان ..

والشاعر محمود حسن اسماعيل لم ير بندقية في حياته ، وانا ايضا .
ولم يفكر الشاعر صالح جودت ما الذي يمكن ان يعمله ، وانما كان يرى ان فينا البركة .. وانه يكفي جدا ان نتولى الدفاع عنه وهو يتولى الاحتماء فينا ..

والدكتور مهدي علام ، ترك الامر لله ..

وسألت بعض الجنود ان كانت هذه المصفحة تكفى لحمايتنا من الرصاص .. فhez رأسه ساخرا : نعم .. ولم أعرف سبب السخرية ، هل هو سخافة السؤال ، او انها لا تستطيع ان تقاوم الرصاص .. والتزمت الصمت ولم أسأل ! .

وانتقلت بنا المدرعة الى احدى مراكز قواتنا ..

ودخلنا مركز القيادة .. انه في مكان مرتفع . والهواء الطيف ..
وهناك وجدنا عددا كبيرا من قواتنا ..

ورأينا احدى الافران التي يخبزون فيها « العيش » القلاحي المصنوع من القمح .. والعيش سخن .. اول رغيف سخن نلمسه . لقد اخذت رغيفا واكلته بنهم .. ووزعت نصف رغيف آخر لقما على الزملاء .. انه مصنوع بأيدي ابطالنا .. وقالوا لنا ان بعض الجنود لم يكن يعرف كيف يخبز ، واكنهم الآن يتفنون في خبز العيش وفي طهو الطعام .. كل انواع الخبز واللحوم والخضروات .. وقالوا لنا انهم سعداء .. وان الحصة هنا لذيذة والاكل هنا لذيذ . وان عملهم هنا يرفع مقدارهم في اعين انفسهم ..

ورأينا في داخل مركز القيادة بئرا قديمة جافة عمقها مائة متر ..
اما طريقة اليمثيين في رفع الماء من البئر فهي غريبة .. فهم يدلون بحبل في داخل البئر .. ثم يأتون بجمل وهذا الجمل يسحب الحبل من البئر .. ولما كان الحبل طويلا ، فان الجمل يمشي ما يساوى طول الحبل الذي في نهايته دلو ماء ، ثم يعود الجمل ليدلى بالحبل من جديد .. ثم يعود فيسحبه .. وهكذا طول النهار .. ولكن هذه البئر لم تعد صالحة .. فقد ردمها التراب ..

ورأينا متحفا صغيرا به عدد من التماثيل الاثرية .. وقد عثروا على

هذه التحف مع العرب البدو . . انهم يبيعونها بأبخص الأسعار ولا يعرفون قيمتها الأثرية . .

وكل هذه التحف مصنوعة من الرخام الشفاف ، ويرجع تاريخ بعضها الى الوقت السنين .

وعلى ظهر السيارة المصفحة اتجهنا الى عرش الملكة بلقيس . . وهذا العرش مطمور في الرمال . ولم يتم بعد رفع الرمال عن قاعة العرش أو غرفة البرلمان التي كانت موجودة أيام بلقيس ملكة سبأ .

ومعظم الذين حاولوا التسلل الى اليمن من الأجانب ، كان هدفهم رؤية آثار دولة سبأ ، وعرش بلقيس . وبلقيس هي أول ملكة حكمت اليمن . وبعدها بمئات السنين ، حكمت اليمن سيدة أخرى اسمها « اروى بنت أحمد » . . وبلقيس يهودية ، أما الملكة « اروى بنت أحمد » فواضح أنها مسلمة . .

وفي الكلام عن بلقيس نعود مرة أخرى الى حكاية « المعزة » . . فقد تكلمت عن المعزة كثيرا لأن المعزة هي التي أكلت أوراق « القات » وراحت ترقص وتتنطط ، فاكشف صاحب المعزة أن سر هذه الشقاوة « المعزوية » هو هذا النبات . .

أما الكلام عن المعزة هذه المرة فسببه الملكة بلقيس . .

فيقال أن الملكة بلقيس كانت لها ساقان تشبهان الماعز !

ولذلك دعاها الملك سليمان لزيارته في القدس ، أقصى شمال شبه الجزيرة العربية .

وبلقيس ملكة غنية . . وعندها ملايين الأفدنة المزروعة . وعندها ذهب وماس وعنبر وزيت وحرير . .

فلما تلقت بلقيس الدعوة من الملك سليمان سافرت على الفور . . ودخلت مملكة سليمان في موكب من الفتيات الجميلات والشبان الأقوياء ، وكانت معها خيول تحمل الذهب والماس والحرير والهدايا للملك سليمان وحاشيته .

ويقال أن الملك سليمان أراد أن يعرف أن كانت للملكة بلقيس ساقان مثل سيقان الماعز . فأقام لها بيتا خاصا . . وجعل « أرضية » البيت من الزجاج ، فلما دخلت البيت خيل لها أن في داخل البيت بحيرة من الماء ، فشمرت فستانها عن ساقها . . ولم يكن هناك ماء ، وإنما « أرضية » من زجاج . .

واكتشف سليمان أن ساقى بلقيس كساقى أمة امرأة . . وأنه ليس صحيحا أن لها ساقى الماعز !

وأحببت بلقيس الملك سليمان ، وأكلت الفيرة قلبها من مئات الجوارى الجميلات اللاتي يعشن في قصره . .

ويقال أن بلقيس تزوجت سليمان وأنجبت منه أول ملوك اليهود .

ولا يزال ملك الحبشة حتى الآن يسمى : ملك الحبشة ووارث عرش سليمان وبلقيس !

وبلقيس ملكة غاقلة .. وقد وصفها القرآن الكريم بأنها كانت ملكة ديموقراطية ، انها كانت لا تتخذ قرارا في شئون دولتها دون أن تستشير رجالها . كانت سيدة غاقلة .

ويقال أن الملك سليمان هو الذى استعان بالجن فبنوا لها عرشها الموجود في مدينة مأرب .. وأن الجن هى التى نقلت عرش بلقيس من مأرب الى القدس في غمضة عين ، ولم يبق من عرش بلقيس الا خمسة أعمدة ..

وكانت الأعمدة سبعة قبل ذلك ..

ويقال أن الأمريكى « وندل فيلبس » حينما ذهب الى اليمن سنة ١٩٤٩ جاول الكشف عن آثار بلقيس فكسر هذين العمودين ثم جمع بعض الآثار والعملات الذهبية وهرب من اليمن !

وفي هذه الأثناء اتهمه راديو موسكو بأنه جاء ليجث عن اليورانيوم الموجود بكثرة في اليمن ، وأنه يتظاهر بالبحث عن آثار الملكة بلقيس ..

وقد استمعت في فندق سميراميس سنة ١٩٥٠ ، الى المحاضرة التى القاها « وندل فيلبس » وهاجم فيها الامام بأنه أستولى على كل التماثيل والعملات الذهبية التى عثر هو عليها ..

ولكن « وندل فيلبس » هذا لم يكن الا نصابا ، ولا علاقة له بالآثار .. وانما قد ذهب الى اليمن لسبب آخر غير ملكة سبأ . فقد ذهب ليجث عن وجود بترول أو معادن في اليمن .

وقد تصادف في الوقت نفسه ، أن قامت بعثة أمريكية بالبحث عن « سفينة نوح » فوق جبل « ارارات » على حدود تركيا .

واتهم راديو موسكو هذه البعثة بالتجسس على روسيا من ناحية . وبالبحث عن اليورانيوم من ناحية أخرى ..

ومن المؤكد أن عروق اليورانيوم موجودة في اليمن .

وأنه لا يوجد مكان في اليمن يخلو من المعادن .. كل أنواع المعادن .. وقد اشتهرت اليمن من مئات السنين بصناعة الحديد والصلب والذهب والفضة ..

ولا بد أن المكان الذى يشغله برلمان ملكة بلقيس كانت حوله بحيرة ضخمة .. هذه البحيرة قد صنعها سد مأرب الذى يمنع السيول التى تنزل من الجبال بقوة عنيفة ..

ثم أن مدينة مأرب نفسها لا تزال فوق ربوة عالية والربوة تشرف على بحيرة ، وفي الطرف الآخر يوجد سد مأرب . وقد كان في اليمن ثمانون سدا آخر .. كلها لتتحكم في مياه السيول ..

وكان سد مأرب هذا يحجز كميات ضخمة من المياه تكفى لزراعة ملايين الأفدنة ، طول السنة (انه يشبه خزان أسوان والقناطر الخيرية والسد العالي) .

ولكن هذا السد العظيم قد انهار .. فقد حدث سنة ٧٥٠ ميلادية أن جاء سيل هائل غطاح بالسد .. وأغرق هذه الأراضي المزروعة .. ومنذ ذلك اليوم ، وهذه الأراضي لم تعد صالحة للزراعة ، فالسيل حينما يجيء يفرقتها ، وتظل جافة طول السنة .

وقد قال لنا بعض جنودنا أنه حدث أن نزل سيل كبير أدى إلى انقلاب إحدى السيارات المصفحة الضخمة الثقيلة . ومن الغريب أن هذا السيل يجيء مرة واحدة وفجأة .. فتتزل كميات من الأمطار مخيفة .. ثم تصفو السماء وكأن شيئاً لم يحدث ..

وسنة ٥٧٠ ميلادية ، هي السنة التي ولد فيها الرسول غثية السلام . وهي السنة نفسها التي هاجم فيها الأحباش الكعبة بقيادة القائد الحبشي الذي اسمه « أبرهة » والقرآن الكريم يقول : « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل .. » .

ملاحظة تاريخية : الذين يفسرون القرآن الكريم يقولون بأن الهجوم على الكعبة كان بقوات حبشية تستعين بالفيلة على هدم الكعبة . وقد قال لي الأستاذ الدكتور مراد كامل انه اكتشف أن كلمة « الفيل » هذه ، ليس المقصود بها الفيل المعروف ، إنما المقصود بها — وهو حجة في تاريخ الحبشة ولغاتها — قائد القوات الحبشية الذي كان اسمه « أفيل » .. ومعنى ذلك أن أصحاب الفيل هم أصحاب القائد أفيل .. أي قوات القائد الحبشي أفيل ..

وأما النقوش التي وجدناها على أعمدة العرش .. أو قاعة العرش فلا تزال واضحة جدا ، كأنها كتبت اليوم ، أو على الأكثر كتبت أمس . ويقال أن هذه الرمال التي غاصت فيها هذه الأعمدة تغطي مدينة كاملة .. وهذه الأعمدة مطبوعة الآن على طوابع البريد اليمنية الجديدة .

وتحت الشمس المحرقة ، وفوق الرمال اللاسعة ، وأمام الأعمدة الوردية اللون ، ووراء إحدى المصفحات ، وبين عدد من أبطالنا ، وقفنا نلتقط صورة تاريخية ..

وهمست في أذن أحد أبطالنا : كل اليمن والعة تار بالشكل ده ؟

فأجاب : غدا في مدينة تعز ستجد قطعة من سويسرا ..

الوجه مصبوغ والبنطلونة ضيق

قبل أن أركب الطائرة الى مدينة « تعز » اقترب منى أحد الأصدقاء وقال لى اذا كنت تريد شراء أى حاجة ، فاشترها من تعز فهى أحسن وأرخص .

ولم أفهم لماذا هى أحسن ولماذا هى أرخص ؟ .

ولكن حينما سافرت الى « تعز » عرفت السبب ، ووجدت أن تجار « تعز » فى غاية الشطارة .. وأحيانا لا يعرفون المجاملة ، وأكثر من هذا يرون فلوسك ولا يرونك ، وأحيانا لا يريدون أن يروك .. لا أنت ولا فلوسك . ويكفى أن تذهب الى « محل الـ ... » لتعرف أى نوع من المعاملة وأى نوع من المجاملة !

وفى الطائرة جلست استعد لرؤية جبال سويسرا ، ولم أناقش الذين رأوا هذه الجبال ان كانوا قد رأوا جبال سويسرا ، بالفعل أو سمعوا عنها . ومن بعيد بدأت أرى بعض الأشجار الخضراء ... على سفوح الجبال .. وقالوا لنا أنها أشجار قصيرة . وقالوا لنا أنها غابات كثيفة . ولكن الطائرة كانت مرتفعة ولذلك لم أر بوضوح من أول الأمر .. ولكن بعد نصف ساعة رأيت الجبال فعلا قد اكتست باللون الأخضر .. وأحيانا بالأخضر الذى يميل الى الأزرق .. ورأيت سفوح الجبال على شكل مدرجات ومصاطب ، ورأيت طرقا ضيقة جدا على سفوح الجبال .

ولكن المنظر يختلف عن كل مناطق اليمن .. وأحسنا فى الطائرة ببرودة الجو .

وطلبت الى أحد الجنود المرافقين لنا أن « يسلفنى » البالطو الذى يرتديه لأننى أكاد أموت من البرد ، فملا بسى خفيفة ولم أتصور أبدا أن هذه المنطقة

ستكون باردة الى هذه الدرجة، وكان الباطل ثقيلًا خشناً . وشعرت بالدفء الثقيل .

ومن النافذة رأيت المناطق المغطاة باللون الأخضر .. ورأيت مساحات واسعة على مدى البصر .

ولكنها ليست كجبال سويسرا طبعاً . وان كانت مناطق الجبال في الدنيا كلها متشابهة لأنها تقع على ارتفاع متقارب من سطح البحر .. فمناطق الجبال في شمال جزيرة سيلان ، نشبه منطقة البحيرات في شمال اسكتلندا .. ونشبه مناطق الجبال في الهند واستراليا .

وحيثما نزلت الطائرة الى مطار تعز .. كان الفارق واضحاً ، وكأننا انتقلنا الى بلاد أخرى .. فالفناس مختلفون في ملامحهم وفي أزيائهم .. حتى الحيوانات التي وجدناها ترعى على جانبي الطريق كانت واضحة البسملة ، ومعنى ذلك أن هذه الحيوانات تجد الطعام ثم أن أصحابها لا يرهقونها بالعمل ، وقد اندهشت حينما نظرت الى الماعز والأغنام في الحديدية وصنعاء . لقد كانت عجفاء بلا لحم ولا شحم ، وإذا كان بها لبن فلا شك أن هذا اللبن ليس فيه دسم على الإطلاق والنتيجة طبعاً أن الناس لا يجدون في هذه المناطق اللحم الذي يشبع واللبن الذي يغذى .

فعلى الأعشاب تعيش الأغنام وعلى الأغنام يعيش الناس .. فإذا جاءت الأغنام جاع الناس أيضاً .

وكنت في الحديدية أجد الناس يحملون « الترموس » الذي يملأونه بالماء المثلج ، تماماً كما يحمل الناس عندنا الراديو الترانزستور . فالقادرون هم الذين يشربون الماء مثلجاً ، لأن الثلج مرتفع الثمن ، وفي مدينة الحديدية مصنع واحد لعمل الثلج . وكلمة « مصنع » ليس لها المعنى نفسه المؤلف عندنا ، وإنما استخدمتها لأنني لم أجد غيرها فهذا المصنع يخرج في اليوم الواحد ١٧ « لوحاً » وهذه الألواح يتم إنتاجها بالطرق البدائية غير الصحية ..

ولا شك أن الانسان يبدو غنياً جداً ، أو يحاول أن يبدو غنياً ، إذا حمل « الترموس » الملىء بالماء المثلج ، في يد ، و « القات » في يده الأخرى وعلق الراديو الترانزستور في صدره الى جوار الخنجر في مواجهة البندقية ، وعلى قميص ملىء بالرصاص . وكل هذه المناظر لا تجدها في تعز .. أو لا تجد منها الا القليل . فهناك أناس يحملون السلاح ، ولكنهم اقلية واضحة ، ومعظم الناس يرتدون الملابس الملونة في هذه المنطقة : الاحمر والأخضر والأصفر .

وكل مناديل اليد في اليمن ، بلا استثناء ملوثة ، وكلها « حريمى » .

والمرأة اليمنية في هذه المنطقة ملففة للنظر ، فهي سافرة الوجه

وملامحها دقيقة وحلوة وترتدى البنطلون الضيق وهو يشبه « البلوجينز » ولكن لونه أسود . وهى تصبغ وجهها بمادة صفراء ويقال أن هذه المادة الصفراء هى نوع من « الكريتم النباتى » المغذى للبشرة والذي يقى الوجه من الشمس مع أن الشمس هنا معقولة الحرارة .

ويندو أن هذا اللون الأصفر شائع فى كل اليمن ، فقد رأيت نسيدة فى الخمسين من عمرها تجلس فى الشمس وتصبغ وجهها بهذه المادة الصفراء . .

وقيل لى أن النساء يصبغن سيقانهن أيضا بهذا اللون ، وفى هذه الحالة لا تكون الصبغة بقصد التغذية للبشرة ولكن للفتنة والاثارة . . فاللون الأصفر يعتبر لونا مثيرا فى اليمن !

والمرأة اليمنية فى هذه المنطقة الزراعية ، أى منطقة تعز ، هى التى تقوم بكل أعمال الرجل ، فهى التى تزرع الأرض ، وهى التى تحرثها وتحلب الماشية ، وتبيع صوفها وجلودها ، أما الرجل فإنه يظل نائما الى ساعة متأخرة من النهار .

وقد علمت أن نسبة الذين يتعاطون « القات » فى هذه المنطقة قليلون جدا ، والكثيرون لا يحبونه ويخجلون من هذا العار ، عار تعاطى هذه المادة ، التى تسلبه نور حياته .

وربما كان اعتدال الجو فى هذه المنطقة ، وقربها من عدن ، هما اللذان جعلتا كل رجال السلك الدبلوماسى يعيشون فيها . .

ولقرب هذه المدينة الى عدن ، فهى مليئة بالبضائع من كل أركان العالم ، ففيها الاناناس من كندا ، والبلوفرات من استراليا ، والراديوهات من اليابان ، وفيها الفراء من روسيا . . وفيها الجاككات الشاموا ، وفيها كل انواع العطور الباريسية . . وحتى أكون دقيقا فأنك تجد نوعين أو ثلاثة فقط من عطور باريس هى : كريستيان ديور ، وفام ، وشانيل . . أما بقية العطور الأخرى فمن النادر أن تجدها . .

واكثر السلع رواجاً فى هذه المدينة هى مجفف الشعر الكهربى للسيدات ، والساعات المتعددة الأغطية . . والراديو الترانزستور ، والحقائب الجلدية ، هى التى فى المقدمة دائما .

ويندو التاجر اليمنى ، تاجرا بحق وحقيق ، فهو شاطر ، وهو خفيف الدم أيضا وهو يحب « الفصال » أو اعتاد على الفصال لا أحد يعرف !

ولكن يظهر أنه يطمئنه وأنه لا يستجيب الى طلبات زبائنه بسرعة . . ممثلا كل الملابس الداخلية التى يبيعها صغيرة جدا ولا تناسب مع الأجسام

والأحجام غير اليمنية ، ، ولذلك تجد كل الملابس الداخلية من الحرير أو النايلون مكدسة في هذه « المحلات » التجارية المليئة بالبضائع ، لا يشتريها أحد !

وفي تعز يوجد أحد البنوك ، ، والبنك يشغل مكانا متوسط المساحة ، ولكن العمل يتم فيه بسرعة ونظام . .

وإذا كانت هناك بعض الاجراءات التي تعطل سير العملة من البنك الى جيبك . فلأن مدير البنك يحتم عليك أن تشرب شيئا ساخنًا أو باردا ، أو الاثنين معا .

وإذا غيرت الفلوس التي معك بعملة يمنية ، فانهم يضعون هذه العملات في صينية لأن الريال اليمنى الجديد ، أو الريال اليمنى القديم كبير الحجم ولا يمكنك أن تضعه في جيبك الكبير أو الصغير ، وهو ثقيل الوزن ، وهو من الفضة الخالصة ، فوزنه يصل الى ٢٨ قمحة ، ولا بد أن تضع كل هذه الريالات على صينية من الخشب ، وتنقلها بشخصك أو بفرك الى « المحلات » التجارية . . وفي بعض الأحيان يضعون لك هذه الريالات في « شوال » . .

ولذلك من النادر أن تجد يمينا واحدا أو أجنبيا قد وضع أمواله في جيبه ، خصوصا انه لم تكن هناك أوراق مالية في اليمن ، ولا بد أن تصبح لليمن عملات ورقية . .

والأموال يضعها اليمنيون في بيوتهم تحت الأرض ، في صناديق أو في صناديق من الخشب أو في تجويف من الحجارة ، وليس هذا جريا على سنة الامام ، ولكن هذه هي الطريقة الوحيدة للاحتفاظ بالفلوس ، مادامت لا توجد هناك بنوك أو صناديق للتوفير !

وفي مدينة « تعز » تجد نوعا من الحياة والنشاط . .

ففى « تعز » صحف ومجلات محدودة الانتشار ، وقد نشرت هذه الصحف في صفحاتها الأولى خبر مجيئنا الى اليمن ، ونشرت أخبار المهرجان الأدبي الذي سيقام في ساحة الشهداء ، ولا بد أن هؤلاء الشهداء هم الذين قتلوا في ثورات اليمن المتعددة منذ أيام الامام يحيى ، وفي هذا الميدان الكبير ، وفي إحدى الشرفات جلسنا ، وعلى الأرض وقف الشبان الخطباء ، وفي لغة عربية سليمة فصيحة راحوا يقدموننا ويشيدون بفضل الأدب المصرى على العرب ، وعلى اليمن . .

وتوالى المتحدثون من أبناء اليمن ، وكلهم حريص على أن يفتح لنا قلبه ، ويكشف لنا عن ثقافته وعلمه . . ولفت آذاننا جميعا عامل يمنى . لم يدرس الأدب ولا الشعر ، ولكنه نظم قصيدة طويلة .

وتحدث شاب بمصلحة الاستعلامات ، وكان فضيحا ويليغا ، فتناول قضية اليمن ، وقضية الغرب .. ورحب بنا ، ورحب بالمصريين في شخصنا . ولحت شابا يصلح الميكروفون الصارخ ، وكان في الجانب الايمن من غمه كرة تحت الجلد .. انها كرة « القات » الكريهة ، ولكن لم أر أحدا بين الحاضرين سواه .

وفي نهاية المهرجان نزلت أمطار خفيفة من السماء .. فهذا أول مطر على أرض اليمن ، فقد كانت السحب قريبة وكثيفة .

وفي سيارتنا صعدنا الى أعالي الجبل .

وفي بيت جميل كان معتقلا للانجليز الذين تسللوا الى اليمن وقفنا حول مائدة نشرب الشاي ونأكل الفاكهة ، ونأمل الشمس عند الغروب .

دعني أرسم هذه اللوحة الجميلة النادرة في اليمن : فمن بعيد ووراء الجبال ، الزرقاء والشجر ، وتحت السحب السوداء ، والسفوح التي غطتها ظلال الليل ، وصبغتها بلون الدم والذهب .. وراء الأشجار الباسقة بالقرب من الشرفة ، وحولها الصخور السوداء ، والمياه الطبيعية التي تتدفق بغير توقف من الجبل ، ووسط « سيمفونية » من الأصوات الطبيعية بين الأعشاب ، وعلى صوت راديو صغير ، وأم تهدد طفلها ، وماعز يحلبها رجل وله صوت ، ولها أيضا صوت غريب .. وفي هواء منعش ، وبرودة خفيفة .. وقفنا جميعا نقول كلمة واحدة : سويسره .. كأنها سويسره .. بل ان الفاكهة التي تزرعها اليمن ، لا تزرعها سويسره كالتفاح والبطيخ والبن .

أما البيت الذي كنا ننام فيه فهو في أعلى الجبل ، والطريق اليه صاعد ويتسع ويضيق ..

ولكن البيت جميل ونظيف ، وفي هذا البيت عرفنا الأطعمة اللذيذة وبكميات وافرة .. وعرفنا الشاي والقهوة .. عرفنا النوم الهادئ لأول مرة .. وأحسست أنني في بلد آخر غير اليمن .. في يمن على اتصال بالعالم الخارجى ، عن طريق التجارة والأجانب .. كما أن الجو مسئول عن الحياة والحيوية .

والانسان والحيوان يعيشان على قاعدة واحدة : أن كل كائن ينزل يموت ، وكل كائن يتصل بغيره يعيش ، ولذلك تعيش « تعز » وكل مدينة مثل « تعز » ، وتموت مناطق « الجوف » المحصورة بين الجبال التي تعزلها عن اليمن ، وعن الدنيا كلها .

وقد كادت اليمن تموت ، من مئات السنين من العزلة ، ولم تكتب لها الحياة الا حينما حطمت الأبواب الصفيقة والأغلال الصعدئة ورفعت

صوتها صارخة وثارَت واستجارت .. وانفتحت أبوابها ومدنها ووديانها
وجبالها للعالم الخارجى .

واذا كانت اليمن قد نامت طويلا ، فقد جاء دورها اليوم لتفريق ..
وتصحو طويلا .. وينزع الشعب من يديه سموم « القات » ، ومن رأسه
خزعبلات الأجيال .. ويلقى بأسلحة الغدر ، ويحمل الفأس ويزرع البن
والقمح ويبنى مدارس ويعالج مرضاه وينقب عن كنوزه ، ويعرف من هو
الصديق ومن هو العدو .. ويعمل فى امتنان الى جوار الذين اثاروا يقظته ،
وأضاءوا شمعته .. وصانوا ثورته .. !

القات .. أو السم الأخضر

تقدم الدكتور تيجانى ، أحد مستشارى الهيئة الصحية العالمية بتقرير للأمم المتحدة فى مارس سنة ١٩٦٢ عن « القات » .

والتقرير لا شك مفيد ..

على الأقل لأنه أشار الى عدد من المراجع والكتب التاريخية ، التى يمكن أن يرجع اليها من يريد أن يعرف الكثير عن تاريخ « القات » ، والعادات الاجتماعية والنفسية والدينية التى رافقت انتشاره فى الحبشة وفى اليمن .
وسأعرض — فيما يلى — الى هذا التقرير وأترجم عنه بعض الفقرات ذات الدلالة الخاصة ، وسأحاول أن أتابع سير شجيرات « القات » من الحبشة الى اليمن ثم الى البقاء فى اليمن .

والأشجار تزداد اخضراراً والشعب يزداد اصفراراً .

هذه مشكلة تعرضت لها الأمم المتحدة ، واتخذت فيها رأياً ، لا قراراً .

تاريخ « القات » والبن مترابط منذ البداية ..

فكلا النباتين قد زرع فى الحبشة ، فى درجات حرارة واحدة ، وفى مناطق جبلية واحدة . وكثيراً ما زرعوا أشجار البن لحماية أشجار « القات » .

وان كانوا اليوم ينزعون أشجار البن ، ويزرعون أشجار « القات » لأنها سريعة النمو ، ولأنها أغلى ثمناً . فى حين أن شجرة البن لا تثمر الا بعد سنوات .

وطريقة تناول « القات » كانت تشبه طريقة تناول البن . .
فقد كان القابس يغلون أوراق « القات » ثم يشربونها بعد ذلك . .
ثم عدلوا عن عملية الغليان ، وراحوا يستحلبون أوراق « القات » . .
والشيء نفسه حدث للبن . . فقد كان الناس يستحلبون قشور البن ،
وبعد ذلك عدلوا عن أكل القشور الى غلى حبات البن .
وغلى « القات » كالبن ، هو الذى أطلق عليه المؤرخون العرب
والأوربيون « قهوة القات » . . وأحيانا كانوا يسمون « القات » : شاي
العرب . .

وكل من كلمة « قهوة » و « قات » مأخوذة من كلمة واحدة حبشية
هى : « قهفا » .
وقهفا اسم مدينة صغيرة فى الحبشة اشتهرت بنمو اشجار البن
« والقات » معا .

وكلمة « قات » أو قاط ، أو كاط ، يطلقونها أيضا على الأوراق
الصغيرة وهى جافة . . ويطلقونها أيضا على « القات » وقد تم غليانه فى
الماء . . فالقات هو الورق ، وهو الشراب أيضا . .
ويقول المؤرخ « دريو » أن غلى أوراق « القات » : كان هو الطريقة
المتبعة فى المناطق الداخلية من الحبشة . وقد أطلق هذا المؤرخ التونسى
على « القات » المسمى اسم : القهوة القاتية ، وهو يقصد بذلك قهوة القات ،
أو القات المغلى .

وهو يرى انه كان لا بد من غلى « القات » ، بدلا من امتصاصه أو
مضغه واستحلابه ، فقد كانت القوافل تحمل « القات » مسافات طويلة
وفى وهج الشمس ، ومن الطبيعى أن تجف هذه الأوراق الخضراء . ولم
يكن هناك مفر من غليها ، ما دام الحصول عليها طازجة ، أمرا مستحيلا .
ويقال أن تجفيف « القات » أو غليه يؤدي إلى تقوية مفعوله .

وربما كانت أول اشارة تاريخية الى « القات » هى التى جاءت فى
كتاب « مسالك الأبصار » لمؤلفه ابن فضل الله العمرى (١٣٠١ - ١٣٤٨ م)
والذى نشر الجزء الأول منه سنة ١٩٢٠ . فقد روى المؤلف ما كان بين
الملك جبر الدين ملك « افيات » وبين الملك الحبشى « أمد اصيلون » الذى
حكم الحبشة فيما بين ١٣١٢ ، ١٣٤٤ . فقد هدد الملك جبر الدين أن يخطم
عاصمة الحبشة وأن يجعلها مزرعة « للقات » .

واشارات أخرى لنبات « القات » فى كتاب « فتوح الحبشة » للمؤلف
اليمنى شهاب الدين أحمد بن القادر ، المتوفى فى القرن السادس عشر .
كما أشار نجيب الدين السميرقندى ، المتوفى سنة ١٢٢٠ م الى
« القات » فى كتاب له بعنوان « كتاب الأتريادين » الذى نسخ فى ١٢٣٧
ميلادية (٦٣٥ هجرية) .

وهو في هذا الكتاب يتحدث عن اثر « القات » في النفس ، وكيف انه يقتبر وصفة طبية ضد الكآبة والبلادة ، وانه يملأ نفسه بهجة وانتعاشا . وفي هامش هذه المخطوطة وجدنا يدا غريبة قد اضافت في الهامش هذه الملاحظة : « القات » نبات حبشى يبنى ، ويشتهر باسم قفطا .

وفي كتاب « الالم » للمقريزى (١٣٦٤ - ١٤٤٢ م) اشارة الى وجود نوع من النبات في مدينة « زيلع » بالصومال يأكل الناس اوراقه . وهذا النبات لا يؤتى ثمرة . ولكن عندما يبتلع الناس اوراقه تنتابهم نشوة وخفة وقدرة على التذكر . . وان كانت تضعف شهيتهم للطعام ورغبتهم الجنسية وتصيبهم بالارق .

ولاحظ المقريزى ان سكان هذه المناطق مولعون بتعاطى هذا النبات واكثرهم ادمانا ، اكثرهم ثقافة ! .

وفي القرن الرابع عشر الميلادى زار « ابن بطوطة » كل هذه المناطق وأشار الى انه اثناء اقامته في منطقة « ظفر » و « مقديشيو » لاحظ ان الناس يمضغون اوراق « التنبول » . . وان الناس جميعا قد ادمنوه . وقال ابن بطوطة : ان من مظاهر الضيافة ان يقدم الناس اوراق « التنبول » بل ان في قصور الملوك والأمراء يقدمون هذه الاوراق بكل حفاوة واحترام . وعندما سافر ابن بطوطة الى الهند ، عاود الكلام عن مضغ « التنبول » . وواضح ان الرحالة العربى الكبير قد اختلط عليه الأمر بين « القات » وبين نبات « البان » الذى يمضغه الناس في الهند . واكبر دليل على ذلك انه عندما تحدث عن هذا النبات — أى التنبول — قال انه يحدث البهجة في النفس وهو بالضبط ما لا يحدثه البان — أو اللبان — وانما هذا يحدث فقط من جراء تناول اوراق « القات » . ثم ان « البان » لا ينمو في الحبشة أو في اليمن ، أو في كل شرقى افريقيا ! .

والمؤرخ البيرونى الخوارزمى (٩٧٣ - ١٠٤٨ م) وهو الذى لا يجاريه احد في معرفة بلاد الهند ، تحدث عن « البان » فقال انه يقوى اللثة ، ويمنع تسوس الأسنان ، ويساعد على الهضم . ولا يحدث اية رغبة في النشوة أو المرح .

وقد وقع كثير من المؤرخين في هذه الخلطة . عندما كانوا يخلطون بين « القات » الذى يمضغه الناس في شرقى افريقيا وبين « البان » الذى يمضغه الناس في الهند وسيلان .

ومثل هذا الخلط يحدث في مخطوطة نادرة بمكتبة بلدية الاسكندرية ضمن كتاب « مسالك الابصار » للعمري . فتحت كلمة « تنبول » نجد ان المؤلف قد اشار الى هذا النبات المتسلق ، والى انه ينمو في امانة عمان . وان اوراقه تحدث في النفس سرورا لاحد له . .

وفي هذه المخطوطة أيضا نبهنا المؤلف الى أن الناس يتعاطون هذا النبات بعد كل وجبة ، حتى يعتدل مزاجهم ويستريح خاطرهم ..

وكما ذكرنا من قبل أن قصة البن هي نفسها قصة « القات » .. وكل واحدة تلقى ضوءا على الأخرى من حيث التاريخ والاستعمال ، والأثر والعادة النفسية والاجتماعية ..

ولهذا فمن المناسب هنا أن أشير الى أن كتاب عبد القادر الجيزري (١٥٥٥ م) « عمدة الصفة » هو من أحسن الوثائق التي بين أيدينا عن انتشار عادة شرب القهوة . فهو يرجع فضل انتشارها الى رجل متصوف اسمه : شهاب الدين التريهاني المتوفى سنة ١٤٧٠ ميلادية . فقد كان من كبار الصوفيين ، ومن أصحاب الكرامات أيضا . وكان سلطانه على الناس لا حد له . فقد أدى تعاطيه للقهوة الى انتشارها بين الناس ، والى أن تكون لها مكانة خاصة في نفوسهم .. مكانة دينية !

ورجل آخر أطلق عليه المؤرخون والناس أيضا انه شيخ مشايخ القهوة . أو حامى حمى القهوة ، واسمه على بن عمر الشاذلى (١٤٤٢ م) وهو من أشهر المتصوفين في اليمن وقد توفى في « هرر » بالحبشة .

والشاذلى لم يكن فقط مسئولا عن انتشار القهوة ، وإنما كان مسئولا عن جعلها أكثر شعبية من « القات » .

وأصبح اسم الشاذلى — في السودان خصوصا — دليلا على القهوة فهم يسمونها قهوة الشاذلى أبو الحسن .

وكما انتشرت القهوة بين المتصوفين ، لما تحدثه في نفوسهم من صفاء وتنبيه ورغبة في السهر ، كذلك « القات » .. فهو يحدث هذا السرور وهذا الصفاء ، والرغبة في التزام الهدوء ، وكلها حالات يطمناها المتصوفون ..

وفي البرازيل قام العلماء ببعض التجارب على النباتات التي يتعاطاها البدائيون في المناسبات الدينية ، فوجدوا انها تحدث لهم نوعا من الهلوسة تتفق تماما مع حالاتهم النفسية .

والكاتب الكبير « الدوس هكسلى » في كتابه « منافذ الحس » أشار الى نبات المسكاليين تعاطاه . ثم وصف حاله بعد ذلك فقال : « كنت في أقصى درجات التأمل » .. وهذه الحالة التي وصفها الكاتب المعاصر ، هي ما أحسن به الناس قديما وعبروا عنها بأشكال مختلفة .

ولم يكتف مدمنو « القات » بوصف حالهم ، وإنما أخذوا ينسجون القصص الخرافية حول « القات » وكيف أن السماء هي التي رمت بذور هذا النبات ، كمصاييح للهداية بين المؤمنين

وقد أشار بعض المؤرخين الى أن اجتماع الناس في أماكن « القات » والقهوة قد أزعج السلطات الحاكمة في بعض الأحيان . فقد رأت السلطات الحاكمة تهاوسك الناس واصرارهم على البقاء ساعات طويلة في مكان واحد مما يؤدي الى رابطة بين الناس . . رابطة مقفلة لا تعرفها الدولة ولا تستريح اليها . . فقد أشار الكاتب التركي « كاتب ثلبي » المتوفى سنة ١٦٥٧ في كتابه « ميزان الحق » الى الأثر الخلقى والاجتماعى والسياسى للمقاهى .

وفي كتاب « الكواكب السائرة » الذى صدر سنة ١٦٥٠ م ، وهو عبارة عن معجم بأسماء الاعلام في ذلك الوقت ، يصف المؤلف كيف كانت الدولة تلقى القبض على مرتادى المقاهى وعلى أصحابها . وكانت تشهر بهم وتصادر أملاكهم وتحكم عليهم بالاعدام .

والمؤرخ الانجليزى « لين » ذكر أن الحكومة التركية كانت تلقى القبض على كل الذين يدخنون في هذه المقاهى . . بل أنها كانت تحكم عليهم بأن يأكلوا أحجار النرجيلة والتبغ المحترق أيضا !

وأشار الدكتور « كلوت » وهو يقارن بين الأتراك والمصريين ، أو بين الأفيون والحشيش . . فهو يقول أن الأفيون يتفق مع طبيعة الرجل التركى ومع شخصيته . . أما الحشيش فهو يتفق مع العقلية الذكية اللامحة والخيال المنطلق والميل الى « الرومانسية » عند المصريين ، وخصوصا نزعة التواكل التى ترسبت في نفوسهم بعد صراعاتهم التاريخية المريرة .

وكل الذين لديهم الاستعداد لتعاطى الحشيش أو الأفيون عندهم في الوقت نفسه الميل الى استبدال الاثنين بالقهوة أو الدخان أو الشاى .

وهناك إشارة هامة في كتاب أصدره أحد علماء الأزهر اسمه الشيخ محمد القناوى سنة ١٨٩٩ . فقد تحدث بالتفصيل عن مضار القهوة والدخان والأفيون وأفاض في انتشار شرب القهوة في مصر . . وعلاقتها بكثير من المسائل الدينية .

وأهم من ذلك أسماء الكتب التى يرجع اليها في هذه الدراسة .

وفي كتاب لمؤلف سورى اسمه نزيه العظم عن « رحلة الى اليمن السعيد » سنة ١٩٣٦ اشارات متصلة عن مجالس « القات » . وكيف أنه حضرها . وكيف أنه وجد « المتقائين » اذا صح هذا التعبير ، قد اقفلوا الأبواب والنوافذ على انفسهم حتى لا يصلهم ضوء أو ضوءاء . وكيف أنهم سحبوه من يديه وقدموا له أوراق « القات » . وراح يمضغ الأوراق . ولاحظ أنهم بعد أن بمضغوا « القات » يبصقونه على الأرض . وسواء بلعوه أو مضغوه فالنتيجة هى السرور . . ويذكر المؤلف أنه هو نفسه يستشعر هذا السرور المزعوم .

وذكر أنه في ظل الحكم العثمانى ، كان قطاع الطرق واللصوص ،

لا يقربون القوافل التي تحمل « القات » .. وهذه غصيلة ، لا يجب أن يففلها
للصوص في ذلك الوقت !

أما الأب « انستاس ماري الكرملی » أحد رهبان وعلماء العراق فقد
أصدر كتاباً بعنوان « بلوغ المرام » سنة ١٩٣٩ . وفي هذا الكتاب احصى عددا
كبيرا من أنواع « القات » .

وفي كتاب لمؤلف مجهول صدر سنة ٩٨١ هجرية بعنوان (لامیات
ابن الوردی) تحدث المؤلف عن مضار « القات » والخمر والحشيش . وقال
انها من أسوأ ما أصيب به الانسان ، أو أصاب به الانسان نفسه . وراح
يعدد أضرار « القات » فبلغت ١٢٠ ضررا مؤكدا .

وابن حاجر الهيتمي (المتوفى سنة ١٥٦٧ ميلادية) أحد علماء الكلام
قد تعرض « للقات » وآثاره . وليس الجديد هو ما وصل اليه من نتائج .
ولكن الجديد هو المنهج الذي لجأ اليه في البحث . فقد اعتمد على استقصاء
الكثير من القصص ومقارنتها ومناقشتها . وكتابه اسمه « تحذير الثقات
من أكل القفط والقات » .

يقول المؤلف أنه بحث في كل المجالات ، فلم يجد كتابا واحدا عن
القات ، ولا إشارة عنه في أي كتاب .. وهو يستنتج من ذلك أن القات
لم ينتشر الا حديثا .. أي في أيامه هو .

ويقول أيضا انه استشار بعض الأطباء عن أثر القات في النفس ،
فأخبروه أن للقات نتيجة مؤكدة هي أنه يمتص لون الوجه ويصيب صاحبه
بالكآبة وانسداد النفس عن الطعام .. ثم بمرض يمكن أن يسمى بالسيلان
البولي !

ومما اكتشفه المؤلف أن القات اذا تناوله الانسان ومعدته خالية فانه
يصيبه باضطراب شديد . ولذلك يحرص مدمنو القات على أن يأكلوا قبل
أن يستحبوا القات .

ولعل أول دراسة علمية للقات وأثره الفسيولوجي هي التي قام بها
اثنان من علماء النبات السويديين وهما : فورسكيل ، وكارسينين ينبو ،
في كتاب لهما صدر بالألمانية سنة ١٧٧٤ بعنوان « وصف الجزيرة العربية »
وقد أطلق المؤلفان على القات اسم « القاد » وهما يؤكدان أنه نبات ظهر
أول الأمر في الحبشة ، ثم انتقل بعدها الى اليمن . وفي الكتاب وصف
لطبيعة النبات وشكل أوراقه وسيقانه .

والمؤرخ الانجليزي السير « ريتشارد برتون » في كتابه « الخطوات
الأولى في شرق أفريقيا » يؤكد لنا أن أثر القات المغلى أقل قوة من أثر القات
المستحلب .. وأن القات المغلى أقل قوة وقدرة على الانعاش من القات
الأخضر .

وربما كان من الطريف أن اذكر هنا أن تلامذة الأزهر في مصر هم الذين
تولوا نقل الدخان والقهوة الى الشرق الأوسط .
فالدخان نقله الى أروقة الأزهر التلامذة المغاربة .

والبن نقله الى أروقة الأزهر الطلبة اليمنيون .

ويقول تقرير آخر للامم المتحدة (بتاريخ ٦ ديسمبر سنة ١٩٦٢) :
بينما يتقدم الشرق الأوسط في خطوات واسعة ليسير في ركب المدنية الحديثة يحتفظ دائما بطابعه الخاص ، كأرض خصبة للعادات والتقاليد ، وأن تغير طابع كثير من تلك العادات والتقاليد ، فحلت أجهزة الترانزستور الدقيقة محل « الراوى » وأن احتفظت بنفس الاهتمام والانصات الذى حظى به الراوى منذ القرن الرابع عشر ، وما زال « الساقى » ينحنى فى أدب جم ، ويقدم أكواب الشراب للزائرين ، وقد استقرت فيها « الكوكاكولا » محل المشروبات .

شئ واحد لم يتغير ، وعادة واحدة احتفظ بها وبطابعها وأثرها على العاكفين عليها . . ألا وهى تعاطى « القات » تلك الشجرة التى تمضغ أوراقها وفروعها وتقدم كمشروب لملايين من الناس فى جميع أنحاء الجزيرة العربية وشرق أفريقيا . . والذى لم يغير من الأثر المخدر الخفيف الذى يتركه القات ، كما لم ينل من أهميته كمحصول زراعى ولم يغير طريقة تناوله ، وإنما الذى تغير هو أهميته .

فالقات اليوم يغطى مساحات شاسعة من الأراضى الزراعية ، تنتج عن نقله وبيعه ، عمليات تجارية ضخمة . وهو الذى يستنفذ انتاجه الأرض والمال والوقت . فقد أثرت زراعة « القات » على انتاج البن فى اليمن وكان من أهم المحاصيل الزراعية . أما اليوم فقد انخفض انتاج البن من ١٢ ألف طن الى أربعة أطنان خلال السنوات الخمس عشرة الماضية . وخبراء الصحة الاجتماعيون ينظرون بعين الشك الى تلك الآثار المبهمة التى تنشأ عن تعاطى « القات » . والراحة النفسية المؤقتة لا تكفى خاصة وأن كان مصدرها مصطنعا .

هل يجب تحريم « القات » مثلما يحرم الحشيش والأفيون ؟ أو بمعنى آخر هل لهذا النبات من الآثار الضارة ما يبرر تدخلا دوليا لمنع زراعته وتداوله واستعماله ؟

سؤال وضع بالفعل وناقشته اللجنة الاقليمية للهيئة الصحية العالمية لشرق البحر الأبيض المتوسط .

لقد طردت أشجار البن فى الحبشة نبات « القات » الى اليمن .

وأشجار « القات » فى اليمن لا تزال تطارد شجرة البن .

وبين الطارد والمطرود وقع الشعب ضحية .

فهل سيجىء ذلك اليوم الذى تطرد فيه أشجار البن فى اليمن ، شجيرات القات ؟

طبعاً سيجىء !

فقد كان فى اليمن نوعان من القات : الامام ، وشجرة القات .

وأقتلع الشعب شجرة الامام . . ولم يعد صعبا على الذين فهموا وشاروا

أن يدوسوا هذا العشب الذى تعاقبه الماعز التى اكتشفتته !

اِنَّا حَمْدُكَ فِي كُلِّ يَوْمٍ

شخص غريب فيه جبراً!

سألونى فى اتليفزيون : ما هو شعورك بعد زيارة الجزائر ؟

وكان جوابى : عندى حب جاهز لهذه البلاد الشقيقة . . .وعندى اعجاب عميق بكفاحها . . . وبعد أن رايتها وجلست الى أبنائها . . . وتحدثت الى زعيمها أحسست أن الذى أعرفه أقل بكثير من الواقع . . . وأن معركة التحرير من الاستعمار قد فتحت الباب أمامهم على معارك أخرى أعنف من أجل أن تسترد الجزائر وجهها العربى وروحها الاسلامية . . . ولكنه شعب عظيم فى كل الأحوال . . .

أول جزائرى قابلته كان فى مدينة جاكارتا سنة ١٩٥٩ . . . وكان يشرف على مكتب جبهة التحرير الوطنية . . . وهو شاب نحيف جدا . . . وفى غاية المرح . . . ولم أستطع فى ذلك الوقت أن أربط بين كل هذه الصفات : المرح والنخافة والتحرير وأندونيسيا والجزائر . . . ثم اننا كنا نلهو فى ذلك الوقت بلعبة تحضير الأرواح عن طريق السلة . . .

ولم يدر بيننا كلام جاد فى أية قضية من قضايا العرب ، أو حتى قضايا العالم . . .

أما هذا الجزائرى الشاب فهو الأخضر الابراهيمى السفير السابق للجزائر فى مصر وسفيرها الحالى فى لندن . . . وهو صديق عزيز . . .

وبعد ذلك بسنوات رأيت أول سفير لبلاده فى القاهرة . . . ورأيت بعد ذلك كثيرين من أبناء الجزائر الشقيقة . . . ولم تكن معلوماتى كثيرة عن الجزائر . . . بل كنت أقرأ فى الصحف أخبارا عن الجزائر أهز لها رأسى . . . ولا يتسع الوقت لكى أناقشها مع نفسى أو مع غيرى . . . فالدنيا همومها كثيرة . . . والذى أقوله الآن على أنه بديهيات . . . وأنه من الطبيعى أن ينشغل الإنسان بهوميه

الخاصة عن كل هموم الدنيا . . لا يراه الجزائريون بهذه السهولة . ولا بهذا الوضوح . فمثلا هم في الجزائر يعييون علينا أننا انشغلنا بأنفسنا عن قضايا الجزائر . أو انشغلنا بقضايا بعض البلاد العربية الأخرى عن الجزائر نفسها . والدليل على ذلك ما تنشره الصحف المصرية . فهي تنشر عن امارات الخليج عشرات الصفحات ولا تنشر عن الجزائر عشرات السطور . قال لى «سى» — أى السيد — عبد الجبار عبد القوى مسئول الحزب فى منطقة حاسى مسعود أن الرئيس بومدين عندما زار مصر للتعزية فى وفاة الرئيس جمال عبد الناصر نشرت عنه مجلة « آخر ساعة » ثلاثة سطور بينما نشرت عن رئيس وزراء فرنسا عشرة سطور !!

وقد سألت العاملين فى هذه المجلة ان كان أحد يذكر ذلك . فلم يذكر أحد ذلك اطلاقا . ولا لاحظ أحد أن المساحة التى خصصت للرئيس بومدين أقل أو أكثر من التى خصصت للرئيس الفرنسى . وسألنى سى عبد الجبار : كيف ننشر كل هذه المساحات الهائلة للأمير الثرى انه اكل وزرة أو بطة أو صاد غزالا . . ولا ننشر أن الجزائر قد أممت البترول .

وهذا كلام معقول . . ولكى سى عبد الجبار لا يعرف أن هناك صفحات اعلانية فى الصحف . . ولكنه يتصور أن كل ما تنشره الصحف مقالات وتحقيقات وليس من بينها اعلان واحد !

وسألنى الشاب الذى رافقنا من الجزائر واسمه سى احمد بن حلى وقد عاش فى مصر وقتا طويلا ويعرف الكثيرين هنا : كيف تنشرون مقالا لمدرس مصرى يسخر من الجزائر ومن شعب الجزائر . وكنت قد نسيت ذلك . ولكن يبدو أن الذى كتبه قد أغضب الجزائريين حكومة وشعبا . وإن بعض المسئولين قد رد عليه وهاجمه .

مع أن الذى كتبته المدرس المصرى لم يكن إلا نوعا من الدعاية أو السخرية فقط . ولكن هذه السخرية لم يأخذها أحد بهذه الخفة أو هذا المرح . وإنما نشروها على أنها نقد لاذع من مدرس عاش أكثر من خمس سنوات هو وزوجته فى مدينة وهران . وتذكرت أن الصديق الأخضر الابراهيمى سفير الجزائر فى مصر قد غضب من هذا المقال وعاتبنى على ذلك . ولم أتصور لحظة واحدة أنه غضب . ولا انه جاد فيها يقول . والآن فقط عرفت أنه كان جادا . وأنه — ككل الجزائريين — شديد الحساسية للنقد !

وأشياء أخرى صغيرة أغضبت الجزائريين . وصدمتهم . فلا أحد يتصور أن يصدر النقد من مصر . . ففى الجزائر نفسها أناس كثيرون ضد العروبة وضد الاتصال بمصر ، وضد الارتباط بالشرق العربى واللغة العربية والاسلام . ومثل هذا النقد يشجعهم ويشعل النار فى العلاقات الجزائرية العربية الانبلامية . . ففى الجزائر الوف لا يزالون يترحمون على أيام الاستعمار الفرنسى . . على أيام الارتباط بأوربا ، ويندبون حظهم لأنهم أصبحوا أجانب فى الجزائر . . لا يتكلمون الا الفرنسية ، والدولة كلها تتجه الى التعريب . .

ويذكر الجزائريون — همسا — أن بعض المصريين الذين كانوا في إحدى الرحلات نزلوا من الباخرة في الجزائر واشتروا أشياء كثيرة بالعملات المصرية . وبعد أيام اكتشف الجزائريون أن العملة المصرية ليست عملة صعبة . وأحسوا أن هؤلاء المصريين قد ضحكوا عليهم . وكانت صدمة . . وأعلنت السفارة المصرية في ذلك الوقت استعادتها لسحب العملة المصرية ودفع عملات جزائرية بدلا منها !

هذا التصرف قد صدم الناس في أعز ما لديهم : فهم ينظرون الى المشرق العربي على أنه الأقرب الى الأمنى السامية : اللغة العربية والاسلام . . والى مصر على انها الوطن الأم ، والثورة الام ، وان أبناءها عندما يفعلون ذلك فهم يصدمون الناس في أعز ما لديهم . .

وقال لى أحد المسؤولين في وزارة التربية والتعليم أن مدرسا وقف في مطار الجزائر يقول : في سبيل الله هذه السنوات التى أمضيتها في هذه البلاد !

وقال أن هذه العبارة جاءت على مسمع من عشرات الناس . وانه شخصيا قد غضب من هذه العبارة . وقال في نفسه : لو لم تكن مصريا اقتلتك !

مع أن هذه العبارة لا تدل على أى تجريح لأحد في الجزائر . ولكن معناها انه تعب وأن تعبته هذا في سبيل الله — ولكنها الحساسية الشديدة لأشياء كثيرة وأناس كثيرين — خصوصا اذا كانوا من مصر !

حتى الرئيس بومدين قد ذكر لنا انه تضايق من عبارات جاءت في مقالات بعض الكتاب المصريين . .

وقال لنا وزير أن عبارات جاءت في مقال للاستاذ الكبير فكرى أباطة ، قد أطارَت النوم من عينه !

وللمصريين هنا قضايا كثيرة — ولكنى أرى انها ليست هامة ولا من الضروري نشرها . وانما أفضل أن تكون شكواهم من مصر ومن الإدارات المصرية . فهذا أهون وأبسط . وقد اعتدنا على ذلك .

اذن . .

نحن دعينا الى زيارة الجزائر لسماع هذا كله ، والبحث عن حل . . لتصفية الجو بين الدولتين الشقيقتين . وليس بين الدولتين الا مثل هذه الأشياء الصغيرة التى كبرت حتى أصبحت سدودا عالية حجبت الرؤية . . فاذا احتجبت الرؤية أصبحت الحقائق أشباحا . والأشباح حقائق . .

اننا جئنا لنمهد لزيارة الرئيس أنور السادات . . وقد قلت أنا للرئيس بومدين أقدم زملائي الصحفيين : جئنا نفهم ونتفاهم ونصحح ونصحح — بفتح الحاء وكسرهما . .

وان كان الرئيس بومدين عندما أشار الى هذه « الخلافات » قال : لا توجد خلافات . . وانما نحن متفقون على السياسة العامة . . او على المبادئ . . ومختلفون في وسائل تحقيقها . وليس هذا معناه اننا مختلفون . . او أعداء . . ويستحيل أن نكون أعداء . .

وهذا المعنى كان على لسان كل المسؤولين الذين قابلناهم . . وعلى كل المستويات . ويبدو أن هذا هو الشعور العام . وقد استطاع الرئيس بومدين أن يؤكد لنا هذا المعنى بخفة ومرح وصدق . . ولم يخف عنا شيئا . وهذه الصراحة جعلت الدور الذى نقوم به صعبا . لأننا يجب أن نصارح شعبنا بذلك .

في أقصى جنوب الجزائر سألنى وكيل نيابة جزائرى قد تعلم فى العراق : إن المواطن الجزائرى لا يستطيع أن يفهم أن الحقوق ينالها الانسان بالسياسة . . أو باللين . . أو بالمدافرة . . ان أمامه عدوا . هذا العدو أما أن يقتله أو يقتله . لا توجد حلول أخرى . . أما أنه قاتل أو قاتل !

وهو يريد أن يقول أن المصريين يجب أن يحاربوا اليهود مباشرة . لا سياسة . ولا انتظار . . وإذا كانت الجزائر قد مات منها مليون وشوهدت الحرب نصف مليون آخر وأدخلت المستشفيات أكثر من مائة ألف . وعدد الجزائر عشرة ملايين . فكيف لا يموت من مصر أربعة ملايين أو خمسة ملايين . . انها الحرب أو الحياة . . أو لا حياة !

وهو كلام معقول . لولا أن هناك وجهات نظر . واجتهادات سياسية وعسكرية تجعل من الضرورى أن نستعد لكى نحارب وأن نضحى ! ولكن المواطن الجزائرى العادى لا يفهم شيئا مما قلت . لأن الجزائريين قد حاربوا ثمانى سنوات فى الجبال والكهوف والغابات والبيوت حتى تحقق لهم النصر . وليست عندنا جبالهم ولا غاباتهم ولا كهوفهم ! انها وجهات نظر مختلفة لاناس وطنيين حريصين على الحرية والكرامة ويعملون من أجل القد !

ولا أذكر اننى اشتركت فى زيارة رسمية وأحسست اننى شخص مرغوب فيه ، كما شعرت فى الجزائر . فكل انسان حريص على أن يؤكد هذا المعنى . وعلى أن يؤكد أن هذه « هى » الفرصة لكى تعود العلاقات بين الاشقاء أحسن مما كانت . فما احوجنا الى صديق فى مواجهة عدو الجميع . .

وكانت الطائرة التى نقلتنا الى الجزائر مارة بطرابلس وتونس الخضراء . هذه الطائرة كارافيل جزائرية . ليست بها مضيفات وانما مضيفون . ولم يكن من السهل أن نتساءل لماذا ؟ وقيل أن الخطوط الجزائرية الدولية — أى بين أوربا وأفريقيا — بها مضيفات . ولكن هذه المسألة لا تهم الآن . . والذى يهمهم فى الطائرات يتحدثون اللغة العربية . . وواضح جدا أن هناك مجهودا كبيرا فى أن تكون اللغة العربية مفهومة وسليمة . أما اللغة الفرنسية غمى فى أحسن حالاتها : نطقا وأداء . .

وفى مطار الجزائر ظهرت العبارات الغريبة . . وفى قاعة كبار الضيوف استقبلنا رسميون . . وجاءت السيارات طراز بيجو (٥٠٤) . . أحسن السيارات الفرنسية . ومعظم السيارات هنا فرنسية . وهذا طبيعى . ولم

أستطع أن أعرف بالضبط ما هي ملامح المواطن الجزائري . ان هناك رجالا في غاية الرشاقة أو التحافة . ورجالا قصار القامة . . والوجوه بين سمراء وصفراء وبيضاء . . والعيون ضيقة شديدة البياض والسواد . . والعيون خضراء (والرئيس بومدين له عيان هادئتان شديدتا البياض والسواد . وفيهما قسوة الا اذا ضحك فهو في غاية الرقة والصفاء . والسيد عبد العزيز بوتفليقة أخضر العينين وله ملامح شاب صغير . الا اذا ضحك فهو طفل بريء !) .

فقط عندما يتحدث الجزائري تعرف الفرق بينه وبين بقية العرب . فهو حاد . والألفاظ تخرج من فمه بشدة وحدة . ويخيل اليك أنه غاضب منك او غاضب عليك . مع أنه ليس كذلك . ولكن لهجته في الكلام هي التي تعطى هذا الانطباع المضلل . وليس عليك الا أن تعتاد هذه الحدة الرقيقة !
واذا أغمضت عينيك وأنت في السيارة ثم فتحتهما فجأة وسألت نفسك : أين نحن الآن ؟

لكان جوابك : في أي بلد أوروبي . . في جنوب فرنسا أو شمال إيطاليا . . فالشوارع واسعة . نظيفة . والمرور منظم . لا صوت . ولا ضوضاء . وإنما الكل ينطلق في هدوء . وإشارات المرور على الأرض وعلى جوانب الشارع . ورجال المرور مثل مراوح الهواء يدورون ويحركون ويتحركون . . ان الجو أوروبي . والشوارع طالعة نازلة . اللافتات في كل مكان باللغة العربية والفرنسية . . ان اللغة العربية قد استعادت بوضوح مكانها فوق اللغة الفرنسية . . وفوق الرعوس . فمن أجل العروبة والاسلام قامت ثورة التحرير . واستردت الجزائر وجهها العربي وروحها العربية . .

وبعد ساعات من وجودنا في الجزائر كان علينا أن نعرف ما هي ومن هي الجزائر ؟

اذا كان المقصود بما هي فهي مسافة من الأرض واسعة تصل الى مليونين ونصف مليون كيلو متر مربع . . وبها أكثر من عشرين مليون فدان صالحة للزراعة ومزروعة . . وبها بقرول تكسب منه ملايين الجنيهات . . وبها غاز طبيعي تكسب منه الملايين وعدد سكان الجزائر حوالي العشرة ملايين . . وبها تناقضات تعرفها جيدا . . شمالها يعيش في نعيم . . وجنوبها يعيش في الجحيم ، في الشمال أقام الفرنسيون ١٣٠ عاما . وجعلوا الشمال مثل فرنسا . البيوت فخمة . . والشوارع حريير . . والحدائق والميادين والنور والماء والهواء والمصانع والمعامل والمزارع . . كل ذلك في الشمال . .

أما الجنوب فهو الوجه الشقي التعيس الفقير من الجزائر . . وفي الشمال كانت الحياة للفرنسيين أو للمتفرنسين . . أو للمتجنسين . . أو الذين لا يعرفون العربية ولا يرون أنها ضرورية لأن السيد فرنسي

والطريق الى النسيارة فرنسى .. أما اللغة العربية — وهى لغة أجنبية —
بنص القانون — فهى لهؤلاء المتخلفين .. أو سكان البلاد الأصليين وأصحاب
المصالح الحقيقية ..

ولذلك فالثورة الجزائرية كان لا بد أن نشعر بالامتنان لأهل الريف
والبادية فهم الساخطون الثائرون .
ولذلك كان من الضرورى أن تلتفت الثورة الى أهل الريف وتقول لهم
شكرا ..

وجاء الشكر بصورة عملية ..
فقد تقرر أن تكون الأرض لأهل الريف .. كل الأراضى الزراعية للفلاحين.
.. أما أهل المدن فلهم وظائفهم فقط ..
وعلى كل مواطن أن يختار بين أن يكون موظفا وبين أن يكون فلاحا .
والذين اختاروا الوظيفة تبرعوا بالأرض للفلاحين .

وكل يوم تنشر الصحف الجزائرية قائمة شرف بإسماء الذين تبرعوا
بأرضهم للفلاحين . أما إدارة الأرض فهى للفلاحين أيضا .. يديرونها بمساعدة
الدولة . وهذا ما يسمونه « التسيير الذاتى » .

وقد استمعت الى الرئيس بومدين يتحدث فى التلفزيون الى عدد من
المرشدين الزراعيين . يطلب اليهم أن يذهبوا الى البادية والريف يعلمون
الناس ويجلسون اليهم . وطُِب اليهم أن يأكلوا خبزهم الأسود وأن يمدوا
أيديهم الى « الطعام » — والطعام معناه الكسكى — فبغير هذا التعليم
والترشيد لن تقدم الجزائر . بعد أمراض الاستعمار مئات السنين ..

وجاء وقت كان كبار موظفى الدولة من الحاصلين على الاعدادية ..
بل انهم يروون حكاية أحد مديرى المرور . وكان لا يعرف القراءة والكتابة
فاذا عاقب أحدا طلب اليه أن يكتب هو المخالفة لنفسه .. ثم يوقع هو
عليها !

وقد لاحظت أن بعض الوزراء الحاليين قد اعتذر عن مقابلتنا ، لأسباب
مختلفة .. وقيل لنا فيما بعد : أن الوزير مكسوف ، فهو لم يتعلم اللغة
العربية !

وبعد ذلك عليك أن تنظر الى الجزائر .. الى الذين قاتلوا حتى التحرير
.. والذين يقاتلون اليوم حتى لا يكون التحرير عقوبة لهم ..

ان الجزائر عندما تحررت وقفت أمام شعورين عنيفين :

الزهو بالنصر .. والخجل من أنها ليست عربية ..

لذلك تريد أن تستدرك ما فاتها من تعلم اللغة العربية والارتباط بالقضايا

العربية ، واحياء الدين الاسلامى بين الناس . . وفتح الطريق الصاعد الى كل
من يتمسك بعروبوته . .

وهى فى « التعريب » قد شقت طريقا صعبا . واثت بمدرسين من كل
البلاد العربية يترجمون كل العلوم النظرية والعملية . . ثم درست التاريخ
الجزائرى والتاريخ العربى والاسلامى للشعب . . وكان التاريخ مادة
تدين الشعب الجزائرى . . وتصور العرب فى شكل الوحوش الهمج
المتخلفين .

ويكفى ان تذهب الى احدى المدارس لترى ماذا يقال للتلاميذ . الصفار .
ومن الذى يقول ، لتعرف ان عبئا هائلا يقع على الشعب . وانه قادر
على تحمله . .

ولذلك فكل رجل مسئول يدعونا الى ان نذهب خارج مدينة الجزائر . .
الى الشمال او الشرق او الغرب او الجنوب لنترى ما الذى اضافته الثورة
وما الذى تعمله . .

وفى الجزائر العاصمة نزلت فى فيلا يسمونها بالعربية الدار . . هذه
الفلا كان يملكها احد المعمرين — اى الاستعماريين — وهى الآن مخصصة
للضيوف . . وفى كل مكان توجد دور او فلل مخصصة للضيوف — وهناك
فيلا اسمها « جنان المفتى » كان ينزل بها المفتى . . وينزل بها كبار
الزوار والوزراء . . وهى جنة بالفعل . . او قطعة من الجنة . . ولو
اراد احد الذين راوا الجنة فى نومهم ، ان يصنع جنة صغيرة لنفسه ، لما
فعل احسن من هذه الجنة فيما عدا الحارس . انه شديد وقاس ولا يعرف
الرحمة . حاولنا ان نمشى على اقدامنا مسافة مائة متر . ولكنه رفض .
لماذا ؟ لانه لا بد ان يستأذن ان كان من الممكن ان ندخل الجنة او نقف
على بابها . . وعلى الرغم من ان الوقوف على باب الجنة قد استغرق بضع
دقائق ، فاننى قد اعتبرت ذلك غالا حسنا . . فسوف أقف على باب الجنة
بضع دقائق ان شاء الله — وان كنت أشك فى هذا كثيرا !

* * *

ولا يوجد مكان فى مدينة الجزائر ، وأعتقد فى المدن الأخرى ايضا ،
ليست له قصة أو حكاية فقد قاوموا الفرنسيين فى كل مكان . . هنا كانت
معركة . . وهنا استشهد فلان . . وهنا هرب فلان واختفى فلان . . فكل
مكان حصن أو مخبأ . وفى كل مكان كمين . . ان تاريخ الجزائر مكتوب
بالحديد والنار والدم على كل ارض . . ولذلك فأرض الجزائر طهرها
الشهداء بأرواحهم وعرقهم ودمهم وصراخاتهم قبل الانتقال الى العالم
الآخر .

وحكايات كثيرة يتكلم بها الناس . . مثلا المسجد الكبير فى قلب العاصمة

اسمه مسجد «كتشاوة» كان مسجداً .. ثم أصبح كنيسة حتى سنة ١٩٦٢ وتحول بعد ذلك الى مسجد .. وما تزال بالمسجد آثار الكنيسة وبقايا المسجد .. ولكنه الآن قبلة السياح الذين يرون كيف كان التزمت الاستعماري، وكيف كانت الفلسفة الاستعمارية تريد مسح ومسح الوجه الجزائري بالذات . أما تونس فقد كانت أحسن حالا منها .. فيها جامعة عربية ، ومراكش فيها جامعة عربية .. ولكن الجزائر هي التي لم يكن هناك أى أمل فى أن تستعيد وجهها الحقيقى !

والى جوار المسجد يوجد بيت على باشا .. ولهذا البيت قصة .. أو فى هذا البيت قصة ..

انها قصة اختين طاهرتين عفيفتين أحبتا شابا واحدا .. ورفض أبوهما أن يزوجه لواحدة منهما . فأضربتا عن الطعام أسبوعين حتى الموت .. أما الشاب نفسه فمات أيضا ..

ودفن الجميع معا .. ودفن الشاب بينهما . لقد جمع بينهم الموت والطهر والعفاف وأروع شعور عرفه الانسان : الحب !

ويقال أن هذه القصة شغلت القرن الخامس عشر فى الجزائر .. أما الأختان فهما : زهرة ونفيسة ..

وفى حى القصبة — خان الخليلي — فى مدينة الجزائر يوجد البيت الذى دفن فيه الجميع !

وبالقرب من هذا البيت يوجد بيت آخر كان يختبئ فيه الثوار . وفى هذا البيت أجرى تصوير فيلم « حرب الجزائر » .. وشوارع هذا الحى صاعدة هابطة . انها تعود بنا الى ما قبل القرن الخامس عشر .. وقد امتلأت هذه الشوارع بالباعة على الجانبين .. وبالأطفال يصعدون ويهبطون وقد حملوا كتبهم .. وحملوا أرغفة الخبز الأبيض الطويلة ..

وقد اعتادوا على رؤية السياح الأجانب .. واعتادوا أيضا على أن يقفوا اذا أشار اليهم أحد .. ودون أن يشير فانه من السهل أن تجد الأطفال قد وقفوا صفا واحدا عليك أن تلتقط الصورة . واذا شاعت الصدف أن تعثر على مرشد سياحى فانه ينظر اليك من فوق الى تحت .. فاذا وجدك تتكلم العربية أدرك أنك من بلد شقيق .. وانك لست فى حاجة الى أن يبهزك أو يلعن لك فى الاستعمار .. فأنت قد لعنت ذلك فى بلدك قبل أن تجيء .. ومعنى هذا أن يتركك تكمل الفرجة وحدك .

وعليك أن ترد بسرعة على هذه الأسئلة أو هذه الأجوبة — اذا فهمتها : — كيفاش .. أراكوا دايرين .. لاباس .. غاية .. حوستم مليح .. غاية .. بصحتك التحويصة .

ومعنى هذه المفردات : كيفاش .. كيف أى شيء .. كيف أراك .. أى كيف أراك .. لا بأس ؟ لا بأس — من غير همزة — ومعناها أنك فى حالة جيدة على عكس ما نقول عندنا فى مصر : لا بأس ومعناها نص نص .. أو : يعنى ! وكلمة حوس : أى سافر .. التحويسة : أى السفر .. وكلمة غاية .. فى غاية السعادة ..

وتجىء هذه الأسئلة متلاحقة بعضها وراء بعض . حتى لا يدع لك فرصة لكى تجيب . أو لعله أجاب بالنيابة عنك ولكنك لا تدري .

وأسهل شيء يمكن أن تقوله سواء فهمت أو لم تفهم هو أن تقول : لا بأس .. أو تقول الحمد لله ..

والحمد لله مريحة جدا ، لأن الله يستحق الحمد على الخير والشر !

ومن النادر أن يجلس اليك أى جزائرى ويحدثك عن كفاحه أو الذى فعله هو أو أبوه أو أخوه .. نادر جدا . فليست هذه ميزة لأحد من الناس ، فقد اشترك الشعب كله فى القتال وفى التحرير !

وما من جزائرى يلقاك الا يقول لك : نريد أن نرى هذه المشاعر فى الصحف المصرية وفى الاذاعة والليفيزيون فنحن عرب .. !

ويكون هز الرأس وعدا بذلك !

تناولت العشاء فى مطعم اسمه « سيركل دى بارون » .. وكنت حريصا اثناء العشاء على أن أسأل : وهذا ما اسمه !

فيقال : انه خضار باللحمة .

فأقول : آه هكذا .. كنت أظنه شيئا آخر باللحمة .

ويقال لى : وأنتم فى مصر ماذا تسمونه ؟

فأقول : نسميه ملوخية بالبامية !

ويقال لى : ولكن الملوخية لونها أصفر ..

فأقول يبدو أن اللون الأصفر للملوخية كان لونها الرسمى أيام الفراعنة .. ولكن بدخول الرومان والأغريق والعرب والأتراك والفرنسيين أصبح لونها أخضر !

وليس من الصعب أن يعرف من يستمع إلينا نحن الاثنين ، أننا نضحك . ولما قيل لى أن تحت هذه المنضدة التى نأكل عليها قد ذبح مئات الجزائريين .. وتحت هذا السقف توجد غرف التعذيب ، سألت : أن كان هذا يشبه لون الملوخية !

ولم يضحك أحد لهذا السؤال إنما هددنى من يجلس الى جوارى أن يهبط ويأتى لى ببعض الجماجم . . وصدقته فوراً !

ففى هذا المطعم كان يسكن السفاح الفرنسى الجنرال ماسو . وكانت متعته أن يشاهد تعذيب الوطنيين من أبناء الجزائر . . أما أساليب التعذيب فإزوا أنه لا داعى لذكرها ونحن نأكل . وجاء « الطعام » — أى الكسكى — وهو فى نظرى وعلى لسانى وفى أنفى سيد الطعام . فهم يصنعونه هنا بفنية ليس لها نظير . . فهو من الدقيق الذى ينضج على البخار . . وهو خفيف جدا . ويمكن لأى إنسان أن يلتهم منه ثلاثة أطباق دون أن يشكو الما فى البطن أو يفكر أحد من المدعوين أن يلتقط له صورة وهو يأكل باعتباره وحشاً بشرياً . بل أن صورة صناعة الكسكى تجدها فى أماكن بارزة من الجزائر . . ففى المطار صورة جميلة جداً لصانع الكسكى . . وفى أجمل شوارع الجزائر توجد فى الفترينات صور لصانع الكسكى أيضاً . . وسألت جارى : أن كان هذا الطبق هو آخر الأطباق . ففهمت أنه يقف بالضبط بين الشورية وبين الخروف المشوى — ثم عاد فقال : طبعاً أنت تعرف الفيلسوف أرسطو . . فقلت : طبعاً فقد كنت مدرسا للفلسفة فى الجامعة . فقال : أعرف . ولكن أريد أن أذكرك بعبارته : أن الفضيلة وسط بين رذيلتين . . فالكرم وسط بين البخل والاسراف . . والشجاعة وسط بين الجبن والتهور . . والكسكى وسط بين النار السائلة — الشورية — وبين اللحم الملتهب . .

وبعد طبقين آخرين من الخضروات أو اللحوم أو أشياء أخرى قالوا لنا : انهضوا . .

وكانت نهضة مباركة من كل الحاضرين وأتجهنا الى خراف واقفة على أرجلها . . الخراف قطع من النار . ويجب أن تمزق لحمها بيديك وتصرخ . . والصراخ ضرورة لا بد منه . لأن الخروف ملتهب . ولأن اللحم لذيذ . . ولأن اخواننا الجزائريين يمدون أيديهم فى النار ولا يصرخون . . ولأن واحداً قد ذكر لك — لا مؤاخذه — بأن كلاب الجنرال ماسو كانت تفعل كذلك فى الوطنيين الجزائريين .

وبعد ذلك — أى بعد سيرة ماسو هذه — يجىء التمر . . والتمر يقدمونه على أغصانه لذيذا . ويصدرونه أيضاً ملفوفاً فى أكياس النايلون . ومن مزايا التمر أيضاً أن ما يتبقى معك من الفلوس فى استطاعتك أن تشتري به تمراً فى المطار . . ولا بد أن يتبقى منك بعض المال . ويجب أن تشتري به شيئاً ما . لأن هذه الدينائر الجزائرية لا تعبر البحر الأبيض . إنها تفقد وزنها وقيمتها بمجرد ركوبك الطائرة — أى طائرة — والدينار يساوى فرنكاً فرنسياً وعشرة قروش مصرية . . هذا الكلام على الورق فقط . ولكن إذا تسافرت هذه العملات فهى شموع مضيئة فى شمس الفرنك الباهرة !

وانتهز هذه الفرصة لاشكر الذين كانوا يقدمون لنا الطعام في الفيلا الجميلة التي كنا نساكن فيها . وكلهم من موظفي القصر الجمهوري . وبعضهم قدم الطعام لرؤساء الدول . وبعضهم يروى لنا كيف كان جمال عبد الناصر يأكل ويشرب وماذا يأكل ويشرب . ولكن في نفس الوقت اعتذر لزملائي من رجال الصحافة والاذاعة والتلفزيون عن أشياء صغيرة . . .

فأنا الذي كنت أطلب الكسكسي كل يوم . وكانوا يندهشون ولكن أحدا لا يعترض . كل يوم . . . أما سبب ذلك فهو لأنني رئيس وفد الاعلام فقد كانوا يسألونني : وتحب سيادتك تأكل ماذا ؟

فأقول باعتباري رئيسا للوفد وعلى معرفة ثامة بكل رغبات الزملاء ، أرى أن نأكل اليوم مثل الأمس والغد مزيدا من الكسكسي . . .

ولا بد أن الجزائريين يرون في ذلك نوعا من التكريم لهم ولا يعترضون . أما الزملاء المصريون فقد كانوا يفضلون أن يأكلوا الكسكسي بالسكر ، وليس بالشورية والخضروات واللحم !

وقد ضاق بعضهم بهذا الكسكسي ولكن أحدا لم يرفع صوته . . . فنحن ضيوف !

واعتذر عن شيء آخر . فنحن نجد الجبنة بكل أنواعها في الصباح . وقد لاحظ الزملاء المصريون أن الجبنة كانت بكميات كبيرة في اليوم الأول ، ثم تناقصت وتلاشت نهائيا . ولم يكن ذلك لأي سبب سوى انها مداعبة مني . فقد أمرت بأن تختفى الجبنة ، لأن معظم الموجودين يشكون من الكبد . وأنهم يأكلون الجبنة لأنه ليس من اللائق أن يقدم لهم طعام ويرفضوه . . .

وقال لي أحد المشرفين على الطعام : نحن نأسف لذلك . لأننا لا نعرف ماذا يريدون . ولكننا نشكرك أعماق الشكر على أنك نبهتنا الى ذلك !

وتعالت شكوى المصريين من عدم وجود جبنة أو بيض أحيانا . واختفاء البيض لنفس السبب أيضا — أسف ايها المصريون !

بقي شيء آخر أنا اعتذر عنه أيضا . فقد حدث في اليوم الثاني لمحيئنا ان كانت مائدة الطعام تعد تماما في السادسة والنصف صباحا على أن تتناول افطارنا في السابعة . وهي ساعة مبكرة لكل خلق الله . ولم تكن هذه رغبة أي أحد في الجزائر . وإنما هي مشكلتي اليومية . فأنا أصحو في الخامسة والنصف صباحا . وأكون قد أخذت الحمام وحلقت لحيتي وعلى استعداد لأن أمارس رياضتي اليومية : القراءة والكتابة . . . ولكن مع الأسف لم أجد ما أقرأه وما أكتبه . . . فطلبت أن يجيء السفرجي والطباخ والخدم في الخامسة والنصف صباحا . . .

وكان على بقية أعضاء الوفد أن يحترموا الذين جاءوا لخدمتهم في هذه الساعات الصغيرة من النهار . ولم تكن اليقظة في هذه الساعة المبكرة رغبة في أحد من الناس . وإنما هي رغبتى وغذابي أيضا . . . وأنا أسف لذلك !

واذا أنت أعطيت أذنك للدكتور محيي الدين الهلالي المستشار الصحفي للرئيس بومدين فسوف تسمع مئات من القصص والنوادر . فالدكتور الهلالي يعرف الكثير جدا . وربما كانت سرعته في الكلام سببها الضغط الشديد للمعلومات التي تخرج من فمه ولا تدخل في أذنك بنفس السرعة . . وهو حريص على أن ينقل الى أذنك كل ما في رأسه . . بل أنه حريص على أن يفعل ذلك مع كل الحاضرين ولذلك فهو يتكلم في كل الاتجاهات في وقت واحد وفجأة قال لي : وسوف تسافر من الجزائر دون أن ترى شيئا سوى العاصمة . .

قلت : بل أريد أن أرى . .

وبعد ذلك بيوم واحد أمر الرئيس بومدين ألا نعود الى مصر قبل أن نتفرق في الجزائر وأن نرى المزيد منها . . من جهود الشعب الجزائري من أجل أن يكون أفضل . .

واخترت الولايات الجنوبية . . القبائل . . الواحات . . لأن مدن شمال الجزائر مثل مدن جنوب فرنسا . . والذي يسافر اليها كأنه قد عبر البحر الأبيض . . وفضلت أن أذهب الى أطراف الصحراء . . الى حيث يعيش الناس أصحاب المصالح الحقيقية في الجزائر . . والذين تتوجه اليهم الثورة الآن بالامتنان على أنهم ضحوا وثاروا فأخرجوا الفرنسيين من هذه البلاد . . والوقت ضيق والبلاد واسعة . . ولا بد من الانتقال بالطائرات الصغيرة . . وهبطت بنا الطائرة في مطار « حاسي مسعود » . . أي بير مسعود . وهي منطقة بها آبار بترول . . وان كانت قد دخلت التاريخ والجغرافيا على أنها بئر ماء لرجل طيب اسمه مسعود . . والماء والبتترول هما مشكلتا الجزائر . البترول موجود . ولكن الماء ليس موجودا . فهم كلما جفروا الأرض أخرجت لهم البترول . . وهم يريدون الماء ولذلك ينفقون الكثير جدا من أجل أن يحصلوا على الماء من الأرض . . فالذهب الذي يخرجونه من الأرض ينفقونه على الأرض لكي تجود عليهم بالماء . . القادرون يشربون المياه المعدنية . والزجاجة الواحدة بعشرة قروش !

وعلى المطار تعلقت لافتة لتحتي والترحيب بي بالنيابة عن الحزب « جبهة التحرير الوطنية » ومددت يدي للمسئول عن الحزب وآخر مسئول عن الأمن ولثالث موفد من قبل الوحدة البترولية الضخمة في المنطقة .

ومن الملاحظ أن عدد الناس قليل . ولكن حرارة الجو وحرارة الناس واضحة . فهم سعداء بهذا اللقاء . . وسعداء بأن عرضوا على ما الذي كسبه الشعب من الاستقلال . . أما أنابيب البترول فأعرفها . ولكن الذي لا أعرفه هو هذه البيوت التي كان يسكنها الفرنسيون ويقيم فيها الآن المواطنون والجزائريون من العمال والمهندسين . أن المناطق السكنية قطعة من الجنة . الأشجار العالية الوارفة الظلال . . والمساكن . كل واحد غرفة واحدة كأنها عربة في قطار صغير . الغرفة مضاعة طبعاً ، وبها سرير وبها جهاز

تكييف وحمام ومزوجة . ودواليب . وفيها كل ما يزيد سكاكن بمفرده طبعاً .
فهنا مجتمع الرجال فقط . ولكن كل ما يحتاجه الرجل موجود هنا في قلب
مخيم الصحراء : مطعم جميل وأطعمة لذيذة كافية . وحمام سباحة وملاعب
للتنس وقاعة للسينما . . وكذلك مطاعم العمال نظيفة ومنظمة . وهناك
محلات لبيع الخضروات والفاكهة والصحف :

وقد وجدت الصحف والمجلات المصرية . . انها تجيء متأخرة طبعاً ، ولكنها
تجيء وتنفد . . ولذلك فالناس يعرفون الكثير من الأخبار الفنية والأدبية عن
مصر . وقد سئلت عن أم كلثوم ، وعن الشيخ زغلت وعن العقاد وطه حسين
.. وعن بناء دار الأوبرا . . وعن المعمورة في الاسكندرية . وقلت أن في شاطئ
ميامى بالاسكندرية منطقة اسمها بير مسعود .

وسئلت : ان كانت بئر بترول ؟

فقلت : يسمع منكم ربنا . . انها بئر للماء !

قالوا : يا بختكم . . !

قلت : انها بئر للماء المالح . . يا بختكم أنتم بمسعود وبير مسعود !

وكان لا بد أن نتجه الى مكان آخر فيه ناس وليس فيه بترول وحسرة
شديدة على عدم وجود ماء . .

والطريق الى منطقة اسمها غرداية بالسيارة . . المسافة طولها ٢٧٠
كيلو متر . الطريق صحراوي حريز . قطعة من الحرير . والسيارة بيجو
٥٠٤ . . والسائق نحيف . جاف . ولكنه اعتاد على هذه المسافات وعلى
هذه السيارات والزيارات . ركب السيارة دون أن يضطر الى أن ينفخ
العجلات أو يكشف على الماء . ولا حتى عندما ركب السيارة قرا الفانحة
على روجه أو ترك وصية لأحد . كما نفعل نحن اذا قررنا السفر الى
الاسكندرية بالطريق الزراعى أو الصحراوي . . ولكنه ركب السيارة وقلت
له وكأننى أنا الذى أقود سيارتى : يا لله . . توكلنا على الله !

ولم يفهم ! فقلت من المناسب أن نتوكل على الله . . فقال : اننا نفعل
ذلك في كل وقت !

ويبدو أنه يفعل ذلك دون أن يقيم هذه الحفلة التى تدل على الخوف . .
كما نفعل نحن عادة !

وعلى جانب الطريق اشارات تنبهنا الى المثنيات والى مناطق الرمال
التي تصل أحيانا الى خمسة كيلو مترات . . هذه الرمال تزحف على الطريق
فاذا جاءت فوقها كل عجلات السيارة دارت وانحرفت ومع السرعة نموت
جميعاً . ولذلك فالسائق حريص جداً على اطاعة هذه العلامات . والاحتراش
الشديد . والسبب لا أعرفه اعتقد أن نظره ضعيف . لأنه لا يقوى على النظر

في الشمس - وهذا طبيعي .. ومن الذي يستطيع . ان الطريق مرآة
طويلة حادة .. والرمال تتحول الى ملايين من ذرات الزجاج اللامع . وعلى
الرغم من اننا جميعا نرتدى نظارات سوداء ، فان الضوء يحول السواد
الى بياض ويحول اعيننا الى ثقب ضيقة جدا في رؤسنا .. هذا الضيق
يجعل أشعة الشمس تدخل كأنها ابرة حادة تصيبنا بالصداع ..
قلت للسائق : تعرف هذا الطريق طبعاً ..

قال : مئات المرات ..

قلت : تستطيع ان تقود السيارة وانت مغمض العين .
فضحك .. وقلت لا بد ان هناك شروطا لمن يقود السيارة في الضوء
الباهر هذا ..

لم يفهم . وكنت أريد ان أعرف ان كان نظره قويا . وعدت أقول له :
هل من الضروري ان يكون نظر السائق ستة على ستة . واجاب بسرعة :
طبعاً .

وقلت : وانت طبعاً .

قال : الحمد لله ..

قلت : اننا نحمد الله على ضعف النظر وعلى قوته ..

قال : الحمد لله .

ولم أفهم ان كان يحمده على أنه ترك له بعض النظر .. او أعطاه كل
النظر .. واستسلمت وتمنيت لو تمت كل الطريق .. بدلا من هذه اليقظة
السيئة التي لا معنى لها .. فلا أنا سائق ، ولا أنا مستريح الى السائق .
ويسرعة مفاجئة أدهشت الرجل وهو لا يعرف ما يدور في داخل مسألته :
انت نظرك ستة على ستة ؟ !

قال : نعم .

قلت : انام أنا !

ونمت والصحراء حولى .. والطريق حريز . ومن بعيد تلوح بعض
الأشجار وبعض الابل .. والسيارات منطلقة بسرعة . والسائق عينه على
الرمال . ولكن ملامحه تؤكد أنه لا يقوى على الرؤية .. ووجدت ان التحقق
من قدرته على الرؤية موضوع سخيف . واستندت رأسي الى الباب ونمت ..
او حاولت ذلك !

هذه المناطق الصحراوية هي التي يسمونها الواحات .. وهي بالفعل
واحات خضراء في قلب الصحراء الحمراء او الصفراء .. والبيوت صغيرة
ولونها أبيض .. وبعض البيوت تكسر اللون الأبيض باللون الأزرق .
ووصلنا الى مدينة اسمها « غرداية » واتجهنا الى فندق اسمه « ترانس
أتلانتيك » وهو اسم غريب . فنحن في قلب الصحراء .. والفندق اسمه :
عبر الأطلنطي أي عبر المحيط . والصحراء هي هذا المحيط الذي يجري
تحت محيط آخر من البترول والغاز الطبيعي . وهنا ازدادت إعجابا بالسائق

فلديه تعليمات ، وهو ينفذ التعليمات . وهو الذى يتفق علينا وهو الذى يوقع الفواتير . . لقد فعل ذلك مئات المرات . وأعجبني أكثر أنه جلس معنا يشرب ويأكل ويتحدث . . وبحيث لنا وله عن غرفة . . وعثرنا على الغرف . . وهى تشبه الغرف التى نجدها فى الفنادق الاستوائية . . انها ذكرتني بفندق كنت قد نزلت به فى مدينة تريفندروم عاصمة ولاية كيرالا بالهند . . الحديقة وسط الفندق . والغرف مفتوحة الأبواب . . والغرف نفسها واسعة ولها نوافذ على وجه الأرض . . وليس من المناسب أن نثير موضوعا لا معنى له وهو : من أين تأتى الروائح الكريهة !

لأن الجواب سوف يكون : لقد كان يسكن هنا قبلك سائح أجنبى وخرج من لحظات !

فهل عندك حلول أخرى لسلوك الأجانب من السويديين والأمريكان والانجليز !

ولكن رئيس مجلس المدينة كان قد أعد بيتا خاصا . . وتمسكنا بالفندق حيث يوجد الناس من كل البلاد . وان كان لم يدر بيننا وبين أحد حديث ، ولكن هنا : ناس . . يروحون ويجيئون وتروح عيوننا وراءهم وأحيانا عيوننا لا تجيء !

وكان من اللائق أن نذهب الى دار الضيافة . . والدار وسط حدائق شاسعة هائلة . . لا بد أن هذا قصر . . وان صاحب هذا القصر كان أحد المستعمرين واستولت عليه الدولة بعد ذلك . .

وفى الليل كانت الطرقات مظلمة والأشجار متراصة متلاصقة . . والصمت دافئ استوائى رهيب . والمصابيح فى كل مكان خافتة وألوانها تشبه عيون رجال الأمن السهرانيين . . حمراء مرتجفة . . ولكنها اعتادت أن تكون هناك ، ألا تضىء لأحد . . فقط تصبح لها فائدة اذا ظهر واحد من اللصوص . !

وكان البيت المعد لنا صغيرا . . البيت مريح . . كل شيء قد أعد لنا قبل ذلك . . وأعد لكبار الزوار . . وعلينا أن ننفرد به . . وقبل أن نأوى الى الفراش يجب أن نلتقى برئيس مجلس المدينة . وهو أيضا يسكن فى بيت واسع شاسع . . الجدران مرتفعة والغرف كبيرة . وهو رجل هادئ رقيق قليل الكلام حتى ظننت أنه هو أيضا ضيف مثلنا . أما الذين جاءوا لاستقبالنا فهم أكثر حماسا ، وأكثرهم فصاحة واحد كان قد تعلم فى العراق . ولذلك فلفته العربية واضحة مبينة . وهو قد جاء وعاش فى مصر . . وتحدثنا فى كل شيء عن مصر . انهم لم يعطونا فرصة لكى نسأل عن أى شيء فى الجزائر . فهم الذين استغلوا الفرصة وليس نحن . . وسألونا : كيف الحرب ، كيف الاستعداد . . كيف الطلبة ! ولما هو المسرح ؟ والموسيقى والغناء ؟

وفي ساعة مبكرة طبعاً صحوت . . وزحت أعد أشجار الحديقة . . إنها بالليل كانت أروع . ولكنها مع ذلك جميلة واسعة . أما الأبواب العالية التي رأيناها في الليل لقد كانت لنا ولغيرنا . . ففي هذه الحديقة توجد بيوت أخرى . . وتوجد ماكينة لرفع المياه . . ومركز لرجال الأمن . . أما البيوت فواضح أنها في الريف فالأسوار عالية . ولا أحد يطل من باب أو من شباك . نحن هنا في الواحات أو على أطراف الصحارى . والناس هنا من البدو والبربر والأفريقيين أيضاً . وهم خليط من هذا كله . . ولذلك نجد الأسود والأصفر والأبيض . والذين يرتدون الجلابيب والبذل . . والبنتلونات . . وبعض الفتيات اللاتي يعملن في الفنادق . أو لا يعملن . . والمينى جيب للأجنبيات فقط . . وهن ممنوعات تماماً أن يمشين بهذه الملابس القصيرة في داخل الحواري . . وبعض الحواري مكتوب عليها لافتات واضحة . . فالحواري تشبه أماكن مغلقة . ومن الممكن أن يقع لاية واحدة أي شيء ولا يستطيع أن ينقذها أحد . ولذلك كان من الواجب تحذير الأجنيبات . وهذا التحذير وجيه جداً . ولماذا ؟

أولاً : الحواري طالعة ونازلة . . ومن الممكن لأي واحد يمشى وراء ذات الفستان القصير جداً أن يتابعها إلى الأبد . .

ثانياً : يهب الهواء عنيفاً عند رؤوس الحواري ويطيح بكل شيء ويعقول الرجال أيضاً . . الخ .

والناس يركبون الحمير لينتقلوا بين السوق والبيت . . والحمير قد اعتادت على تسلق السلالم . فالمسافات طويلة . والحواري مزهقة لأكثر الناس حيوية وربما كانت الحواري هي المسئولة عن الأناقة والرشاقة عند الرجال ولا أقول النساء فلم أر الا قليلاً جداً منهن . وهن لا يمشين وحدهن . وإنما يمشين مسحوبات — الرجال يسحبون النساء . ولسبب غير معروف يمشى الرجل ببطء اذا كان مع زوجته . . وتمشى هي بسرعة اذا كانت وحدها . ولم يحدث أن رأيت رجلاً وامراً يمشيان بسرعة الا في حالة واحدة : كان الرجل تدحرج من فوق السلالم فسقط بعيداً . . فانطلقت المرأة وراءه لا لكي تنقذه ولكن لتسبق الأحداث وترى كيف تكون نهايته . . ؟

وسألت أهل الذكور : ولماذا سميت هذه المدينة غرداية . قيل انه من مئات السفين تخلفت فتاة عن القافلة ووجدت نفسها وحدها . ودخلت غاراً . وأضاءت فيه مصباحاً . وشبعت الناس : من تكون ؟ قيل : انها داية . . أوضيا . . ويقال أن أحد الأبطال قال : أتزوجها ؟

وذهنوا اليها وقال لها : يا داية . . ان أحد الرجال يريد الزواج منك . . ووافقت داية . . وسميت المنطقة باسم البقار الذي نزلت فيه داية بدوى غار داية .

ولا تسأل نفسك أو الذين يروون لك القصة : كيف لم يفكر أحد في ايوائها أو اطعامها ، قبل أن يفكر في الزواج منها ؟

ونذهب لزيارة مكان الغار .. والغار شق في الحائط .. مرتفع جدا عن الأرض . أما كيف اهتدى الناس اليها وعرفوا هذا الغار ، وأين أتت هي بالزيت أو الشحم لتصنع المصباح ، فلا أجابة عن هذه الأسئلة . ولا ضرورة لها . لأنها قصة شعبية ذات معنى أخلاقي ..

أما الرجل الذي تزوجها فاسمه سي بن مقدوم .. وقد دفنت داية وسي ابن مقدوم في مكانين متجاورين في مقابر المدينة .. والمقابر ليست لها علامات مميزة غير بقايا القلل أو البلاليص أو الزهريات .. فقط يعلمونها بشيء لتذهب النساء وحدهن ويبكين ثم يعدن .. لأنه ليس من المألوف أن يذهب الرجال والنساء معا .. وبعد الزيارة ينتهي الحزن على الموتى . منتهى العقل . فليست عندهم الأهرامات التي هي أكبر مقابر عرفها وصنعها الإنسان ؟

ويقال أن الناس عندما ذهبوا الى داية يسألونها ان كانت تقبل الزواج من متى بن مقدوم قالت : موافقة .. أو قالت : سهلة .. أى انها مسألة سهلة ..

وأصبحت هذه الموافقة جملة تاريخية .. ولذلك فهناك قرية اسمها : لا لا سهلة ؟

و (لا لا) معناها السيدة صاحبة الصون والعفاف . أى انها سهلت للعريس كل شيء ؟ ولا أعرف اسم الشاعر الذى قال :

رأيت غصينا على كتيب شبيبته بدر اذا قللا
فقلت ما الاسم ؟ قال : لولو فقلت : لى لى ؟ فقال لا لا . !

ومن الكلمات التى سمعتها وأعجبتنى أنهم يقولون عن الشيء اذا أصبح كالشبح : ان الرجال شبحت — أى أصبحت كالأشباح ؟

ويقولون فى هذه المنطقة أن سيدة فرنسية بعد التحرير سنة ١٩٦٢ طلبت أن تتبنى أحد الأطفال اليتامى وكاد الناس يقتلونهم . كيف أن الفرنسيين يقتلون أباه وأمه .. ثم تجيء فرنسية تعطف على ما تبقى من أسرته وقالوا : لو لم نكونى سيدة .. لو لم تكونى حسنة النية لقتلناك ؟

وهناك رأيت سوقا للصناعات الريفية وهى المصنوعات الجلدية والخشبية والخرز والمنسوجات أيضا . ولم لاحظ أحدًا يشتري شيئًا سوى السياح الأجانب .. ورحت أدور هنا وهناك فقد رأيت ما هو أجمل وأغلى من ذلك فى العاصمة . ولم يخفف عنى مشقة الدوران على الفاضى سوى أغنيات عبد الوهاب وعبد الحليم والأغاني الجزائرية البدوية المرححة والشجية أيضا .

ولكن عيون السياح وكاميرات العالم تتجه الى مدينة أخرى مجاورة .
المدينة اسمها « بنى يزجن » - ويقال ان معناها : ابن واسكن . . أى ابن-
لك بيتا واسكن فيه . فهذا حق لكل الناس .

المدينة بيوتها متراصة متلاصقة . وحولها سور عال . ولها مدخل واحد .
والبيوت لونها أبيض وأزرق . أو بنفسجى ولها برج عال . ولا أحد يعرف
شيئا عنه . والمدينة مغلقة تماما على أهلها . . وممنوع التقاط الصور ،
والإعلانات على الحائط تقول ذلك . وممنوع التدخين لأنه حرام . . وممنوع
ارتداء الملابس القصيرة منعاً باتاً ، لأنه عيب أو حرام .

وكل رجال هذه المدينة يعملون بعيداً عنها . حتى النساء والشيوخ
والأطفال . أما النساء فلا أحد يرى منهن واحدة . وإذا خرجن فلا أحد
يرى منهن شيئاً . وان كان شكل الأطفال البيض يدل على أن الأب والأم من
نفس اللون . . فبعض وجوه الأطفال حلوة .

هذه المدينة مغلقة تماماً على أهلها . . تشبه الجمهوريات الصغيرة في
أوروبا مثل : جمهورية سان مارينو فهي أيضاً ذات سور عال وباب واحد .
والباب يغلقة الحراس ليلاً . وأذكر أنني نسيت حقيبتى وحاولت أن أبوس
أيدي الحراس بعد أن أقفلوا . وأخيراً أعادوا الى حقيبتى دون تقبيل الأيدي ؟
وهناك إمارة ليختنشتين على حدود سويسرا وألمانيا . . وأيضاً لها أسوار
وأبواب ويملكها أحد الأمراء واسم هذه الإمارة يلجأ اليه النصابون المتهربون
من الضرائب ؟ .

وعلى حدود إسبانيا وفرنسا توجد إمارة « اندورا » التى جعل منها الأديب
السويسرى ماكس فريش مسرحية هاجم فيها النازية ، واستحق عليها
النياشين من إسرائيل منذ سنوات .

وفى مدينة « بنى يزجن » توجد محلات تجارية ، ومحلات الخضروات
والفاكهة ويوجد كل ما تحتاج اليه المدينة . وفى قلب المدينة يوجد سوق وعلى
جانبه يجلس شيوخ المدينة . وكل بيت به عداد نور . وهذا البيت له رقم
والعداد أيضاً . .

والمدينة تذكر بقرى النوبة التى يسكنها النساء والأطفال والعواجيز
والشيوخ . أما رجالها فيعملون فى الشمال . . ويقال أن تجار هذه المدينة
هم الذين يتحكمون فى البيع والشراء فى الجزائر كلها .

ويبدو أن أهل المدينة يعرفون أنهم طراز غريب من البشر ، وان العالم
كله يجرى اليهم للتفرج عليهم . ولذلك فهم « استعراضيون » يقفون وعيونهم
على عينيك أو على الكاميرا . . وعندما استوقفنا بعض الرجال لنلتقط لهم
صورة . . لم يضيعوا وقتنا فى أن ندلهم على كيف يجلسون أو يقفون ،
فقد جلسوا من تلقاء أنفسهم وبعد لحظات بعثوا بواحد منهم يسأل : أن كنت
سوف ندعوهم الى شىء من القهوة أو الشاي ؟

شيء من ذلك يحدث في مصر أيضا !!

وقد ظهرت مدينة « بنى يزجن » غلafa لكثير من الصحف العالمية . . انها تستحق ذلك . فليس لها مثل في لونها أو شكلها أو نظامها أو القدرة على الحياة فيها . . وحوارى المدينة نازلة طالعة أيضا .

وكان يرافقنا رجل في التسعين من عمره . أشفقنا عليه . . ولكنه كان قادرا على الاستمرار . . ! ولا ادعى أن الفكرة الخبيثة التى طرات على رأسى قد استنكرتها أو طردتها . . فقد تعجلت وفاة هذا الرجل لنعرف كيف تستقبل هذه المدينة اجنبيا مات . .

وفى استراحة حاسى مسعود عدنا الى المطاعم المريحة . . وتناولنا العشاء وذهبت الى السينما . وكانت تعرض فيلم « راسبوتين » . . أقل من نصف الفيلم ، لأنه من الضرورى أن يأوى الناس جميعا الى فراشهم فى الساعة الحادية عشرة مساء . انهم يفطرون فى السابعة ويتغذون فى الثانية عشرة . . ويتعشون فى الثامنة ؟

وفى الرابعة صباحا حملتنا الطائرة الكبيرة الى مطار « الجزائر البيضاء » .

ووجدت الأمطار قد غسلت الشوارع . .

. . مع أطيب تحياتى الى الأصدقاء فى الجزائر .

في هذا الكتاب

الى اى مكان ٥

بلاد الله ... خلق الله

- الكونغو بلا لومومبا ١٣
- وقفزت الى السرير ١٤
- اى خدمة يا ولدى ٣١
- اهلا امين باشا ٤٠
- صنع في المانيا ٥٣
- اكبر غلطة لغوية ٥٤
- صنعت في أمريكا : الجليطة ٦٠
- ايطاليا للمرة العشرين ٦٧
- صوفيا واخواتها ٦٨
- طليانى بين الصعايدة ٧٨
- النمسا : الموسيقى ناعمة والناس ايضا ٨٧
- في الغابة حتى الصباح ٨٨
- كل الحروف الهجائية : م و ت س ا ر ت ٩٥
- جميلة واى شىء آخر ١٠١
- من الكافيار الى الاناناس وبالعكس ١٠٧
- كش الملك دائما ١٠٨
- رقص وبن وثورة ١١٦
- اكثر من سويسرا ١٢٩
- يعنى ايه خوف ١٣٠
- هذه القطة الجاهلة ١٣٧

أطيب تحياتي من موسكو

٦٤٧	عادة سيئة أن نرمى البحار بالأحجار
١٥٢	الذى أكثر برودة من الجليد
١٥٩	أشياء كثيرة حمراء .. إلا الشاي
١٦٧	الصديق الروسى .. ذلك المجهول
١٧٥	اختارتهم الحياة .. ولكنهم اختاروا الموت
١٨٣	عندما وجهت الدعوة .. لم يحضر سوى الموت
١٨٩	حديث البخارى والبخار .. المآذن والمداخل
١٩٧	نصيحة .. سافر بلا حقائب
٢٠٥	حقوقها كثيرة .. وأنوثتها قليلة
٢١٤	فى السماء كواكب يسكنها الانسان الأخضر

اليمن .. ذلك المجهول

٢٢٥	فى البحر اغرقت مخاوفى
٢٣٢	والله نذبحه .. !
٢٣٧	سيف الاسلام فلان فى حديقة الحيوان
٢٤٤	الرجل الذى جعل الامام أراجوز
٢٥٠	مأساة بلاد واق الواق
٢٥٥	كارثة : واحد خواجه دخل البلد
٢٦١	تعشيت فى قصر الامام
٢٧٤	هنا عرش الملكة بلقيس
٢٨٠	الوجه مصبوغ والبنطلون ضيق
٢٨٦	القات .. أو السم الأخضر

أيام فى الجزائر البيضاء ..

٢٩٥	شخص مرغوب فيه جدا
-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-------------------

كتب أخرى للمؤلف

- (أ) دراسات :
- ١ — وحدي مع الآخرين .
- ٢ — يا من كنت حبيبي !
- ٣ — عذاب كل يوم (طبعة ثانية) .
- ٤ — طريق العذاب .
- ٥ — الوجودية .
- ٦ — دراسات في الأدب الأمريكي .
- ٧ — ألوان من الحب (طبعة
ثالثة) .
- ٨ — من أول نظرة .
- ٩ — كرسى على الشمال (طبعة
ثانية) .
- ١٠ — مع الآخرين .
- ١١ — يوم بيوم .
- ١٢ — من نفسي .
- ١٣ — ساعات بلا عقارب (طبعة
ثانية) .
- ١٤ — قالوا (طبعة خامسة) .
- ١٥ — الحائط والدموع (طبعة
ثانية) .
- ١٦ — المثقفون .
- ١٧ — دراسات في الأدب الإيطالي .
- ١٨ — يسقط الحائط الرابع (طبعة
ثالثة) .
- ١٩ — وداعا .. أيها المثل . (طبعة
ثالثة) .
- ٢٠ — الذين هبطوا من السماء
(طبعة خامسة) .
- ٢١ — أرواح وأشباح (طبعة
ثانية) .
- ٢٢ — الخبز والقبلات .
- ٢٣ — وكانت الصحة هي الثمن .
- (ب) قصص :
- ٢٤ — بقايا كل شيء (طبعة ثانية)
- ٢٥ — عزيزي فلان (طبعة ثانية) .
- ٢٦ — هي .. وغيرها .
- ٢٧ — هذه الصغيرة وقصص
أخرى .
- ٢٨ — شارع التنهدات .
- ٢٩ — فوق الركبة .
- ٣٠ — قصص ايطالية .
- ٣١ — روائع الأدب الإيطالي .
- (ج) رحلات :
- ٣٢ — حول العالم في ٢٠٠ يوم
(الطبعة السابعة) .
- ٣٣ — اليمن .. ذلك المجهول !
- ٣٤ — بلاد الله خلق الله (طبعة
ثالثة) .
- ٣٥ — أطيب تحياتي من موسكو .
- ٣٦ — أعجب الرحلات في التاريخ .
- (د) مسرحيات :
- ٣٧ — الأحياء المجاورة !
- ٣٨ — حلمك .. يا شيخ عالم !
- ٣٩ — مين قتل مين !
- ٤٠ — جمعية كل واشكر !
- ٤١ — مدرسة الحب ..
- ٤٢ — كلام لك يا جارة !


- ٤٣ — الامبراطور جونز .
 ٤٤ — رومولوس العظيم
 (ديرنمات) .
 ٤٥ — هبـط المـلاك في بـابل
 (ديرنمات) .
 ٤٦ — أمير الاراضي البور .
 ٤٧ — فوق الكهف (تنسي وليامز) .
 ٤٨ — بعد السقوط (ارثر ميللر) .
 ٤٩ — هي . . وعشاقها — أربع
 مسرحيات .
 ٥٠ — الشهاب (ديرنمات)
 ٥١ — سواد عينيها (جيردو) .

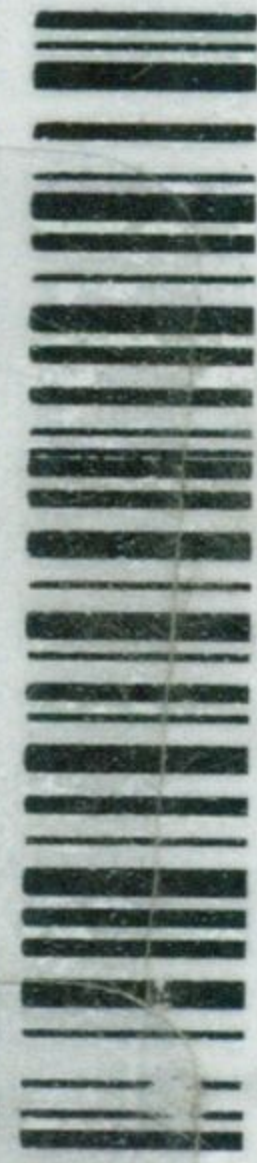
دار الشروق

مطبعة دار العالم العربي

رقم الايداع بدار الكتب

١٩٧٣/٢٨٦١

 Bibliotheca Alexandrina



1523185